

خطاب

في التاريخ العام

للفاضل النبيل والسيّد الجليل المطران بوسويت الشهير

ترجمه الى العربية شاكر افندي عون
وعبدالله افندي البستاني
من اعضاء الدائرة العلمية



طبع في المطبعة العمومية الكاثوليكية في بيروت
سنة ١٨٨٣

المقدمة

الحمد لله الذي الهم الخلف . بكتابة اعمال السلف . وجعل التاريخ تذكرةً للمتقدمين وتبصرةً للمتاخرين وبعدُ فلا يذهبُ عن ذوي الاستبصار ان فن التاريخ ذو جداه عميم يتذرَّع بهِ المرء الى ادراك الطوارىء الغابرة ويتنكَّب بهِ عن المزلات التي القت بكثيرين الى مهاوي الضِلَّة غير انهُ غدا عزيزًا في امصارنا يكاد لا يكون امرًا مذكورًا . مع ان علماء الغرب بسطوا لهُ من العناية مهادًا رحيبًا وأثاروا في شانهِ كل فكرةٍ وقادة فجاءت مولفاتهم فيه صادقة الرواية يطيش سهم النقّاد لديها ويرتاح اليها كلُّ بصيرٍ متشوّفٍ الى الانباء الخالية . فأدى بنا الامر ان نتحدّى كتبهم ونستظهر بها لدن بثّ الاخبار الخطيرة ولاسيما سوابق العصور وما وقع فيها من تأصُّل الشعوب وتقلبات الدول . على ان ترجمة الكتب الكبيرة تستغرق من الزمان مدىً فسيحًا وتبذل في سبيل طبعها نفقاتٌ وافرة . فبعد ان صرف الروية في امر ذلك ذو الهمة الباذخة والعزمة الراسخة من لا يعلق بهِ فتورٌ عن إذاعة العرفان في اصقاعنا العربيَّة العالم العامل والحبر الفاضل السيّد يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت ورئيس الدائرة العلمية ورأى ان من انفع الكتب في هذا الباب الكتاب النفيس الذي وضعهُ لولي عهد ملك الفرنسيس الحبر النبيل والسيد الجليل بوسويت الشهير اسقف مدينة (مو) اوعز الينا بترجمتهِ من الافرنسية الى العربية فتلقينا ايعازهُ بالاطاعة والرضوخ وتطفلنا على ذلك الشان رازحين تحت عبء باهظٍ لا يقوم بهِ من كان نظيرنا لشعورنا بأنّا قاصرون عن توخي هذه المأثرة . ولا ريب ان هذا الكتاب كشّاف اسرار البلاغة وصائغ عسجد المعاني ابهج صياغة فلقد سلك بهِ مولفه المسلك الغريب وسبكهُ في قالب عجيب . فانه اوعب فيهِ بوجيز العبارة وخفية الاشارة الحوادث الدينية والمدنية من لدن ادم ابي البشر الى عهد كرلوس الاكبر . ففي الجزء الاول منه ابان ان لم يطرأ حادث في الكائنات الاّ باذن فاطر الارض والسموات . وان احتدام الحروب الرائعة وتغير عادات الشعوب في الشوءون السياسية والادبية مما يودّي الى الغاية

التي وضعها عزَّ وجل . وفي الجزء الثاني انبأنا بمواترة الحوادث الدينية ان العناية الصمدية قادت النوع الانساني من حالٍ الى اخرى فاوصلتهم الى المسيح الذي هبط الى الارض فسنَّ شريعةً ازلية بدلاً من الشريعة الموسوية . وفي الجزء الثالث اشعرنا بارتفاع الممالك وهبوطها ان العناية الالهية كانت تدبر الامور لتكون توطئةً لاذاعة الانجيل والدين المسيحي وان الممالك الكبيرة اصبحت في غنىً عن توحيد الشرائع والعادات واللسان بعد ان توطدت اركان الدين على البسيطة . وقصارى القول ان هذا الكتاب بمثابة تبصرةٍ للمتاخرين وتذكرةٍ للمتقدمين فنسأل الله ان ينفع بهِ مطالعيه وانّا لنرجوهم ان يعاملونا بالرفق ويسدلوا على ما يعثرون من الاغلاط سجاف الستر والمعذرة فان لله العصمة وليس لغيرهِ الكمال

خطاب

* في التاريخ العام *

* بُسِطَ لدى ولي عهد فرنسا *

مقدمة

في غاية تاليف هذا التاريخ وتجزئتهِ الى ثلاثة اجزاء

ان التاريخ ولو قدر انهُ غير مأجورٍ على نفعهِ لعامة الناس فلا مندوحة للملوك ان يضربوا بينهم وبين مطالعته ستارًا . فانهم لا يعثرون على وسيلةٍ بينةٍ سواه تنشر لديهم ما طوتهُ الاهواء والاغراض وحجب الايام وحادثاتها والآراء سديدة اوخاملة . وليست مؤلفات التاريخ من سوى مألوفات اعاظم الخالية . ولا تحرز الا ما يعود عليهم بالنفع العظيم . وان قضي لهم ان الاخبار يفتح لهم ابواب الحصافة والحكمة ليلجوا صروح الاحكام عادلين فمن اهم الشؤون ان لا ينبذوهُ ظهريًّا بل يقتضي ان ينسبوا الى ما عانوا منهُ في سالف الدهر ما يتهمكون فيهِ وهم منغمسون في نعيم احكامهم طول ايامهم المتواترة . ولا يندُّ عنهم ان عكوفهم على علم التاريخ محجةٌ تؤديهم الى تعزيز ولائهم دون ان يغالوا في ترّهات الخطر المبين لدى وقوفهم على الحوادث الغابرة فذلك يصدُّهم عن ولاه احوال يشرفون بها على المخاطر بنفقة مرئوسيهم والتاء مجدهم الخاص الى مهاوي الانثلال . حتى اذا ما حامت طيور بصائرهم على ما كان مطويًّا من مساويء الملوك الطاغين ورأوا ان اطروفات الثناء عليهم كانت منظومة في اسلاك الدّهان عنّت لهم بذلك عبرةٌ وخامرهم الاستحياء بمسرة زاهقة سببها المصانعة والتدليس وعلموا ان السودد موكولٌ اليهِ ما يترتب من الاهلية والاستحقاق ..

ومن الامور التي تبعث على الاستحياء وهي التي لا تعي في دائرتها الملوك فقط بل تستغرق افراد الانسان الذين يزايلون مفاوز الخشونة ويتطرّقون الى مسالك المدنية

ان تذهب عن المرء معرفة شوون الذين هم من طينتهِ والعلم باحوالٍ ذات بالٍ طرأت على تواتر الايام في العالم . وان لم يقف المرء في التاريخ على مباينة الازمنة عن بعضها ركبَ متن الشطط والعثور ووهم ان البشر كانوا في عهد النواميس الطبيعية او في عهد النواميس الموسوية كما يراهم الان في عهد الشريعة الانجيلية . ولا يبعد عنهُ ان يذكر الفرس ايام كانت تغتالهم ايادي الذلة مدحورين في عهد الاسكندر العظيم مثل ان يذكرهم رافعين لواء الغنيمة والظفر في زمان قورش الملك . ويزعم ان بلاد اليونان كانت تترعرع فيها اغصان الحريَّة في ايام الملك فيلبوس المكدوني مثل ان كانت في ايام تيميستوكل وملسياد وان الرومانيين كانت الشهامة تهبُّ في هامهم ايام الامبراطورين مثل ان كانت تهبُّ في عهد القناصل وان البيعة كانت رائعة في بحبوحة الأمن والسكينة في عهد ديوكليسيانوس مثل ان كانت في عهد الملك قسطنطين . وان فرنسا التي احتدم فيها وطيس الهيجاء الاهلية يوم كان على صهوة عرشها الملكان كارلوس التاسع وهنريكس الثالث قد تبوَّأت من الصولة مكانةً باذخة مثلما كانت في عهد الملك لويس الرابع عشر فلا ريب انها خلت في عهد هذا الملك المصور من ادران الشقاق ونهضت بهِ من حضيض الخسف الى ذرى المجد والعزَّة فاصبحت على اوربا قاطبةً مستظهرة . فيامولاي ان ما طالما استقرأته من التواريخ قديمةً وحديثة كان ذريعةً تنيك من تلك الغوائل . اما نحن فلن يبرح عنا ان نحيط علمك بتاريخ شعب الله الذي هو ركن الدين وعماده . وقد رسخت قدماً في معرفة تاريخ اليونان والرومان ولم نغادرك ذاهلاً عن فرنسا العظمى التي انت مندوبٌ ان توسع خطا سعادتها

وقد دار في خلدنا ان نرفع اليك خلاصة سلسلة الاعصار خيفة ان يتلبس لديك ما علمته من التاريخ بما ستعلمه منه اذ لايغيب عنك ان نسبة التاريخ الكلي بالنظر الى كل بلد وشعب كنسبة رسوم الخطط الكلية بالنظر الى الجزئية . فانك لاترى في الرسوم الجزئية سوى ما تحيط بهِ دائرة الرسم من مملكة واحدة او اقليم واحد لكنك تقف في الرسوم الكلية على معرفة اجزاء الارض بالنسبة الى مجموعها فيعود عليك ذلك بفائدة كبرى تريك مثلاً ما تكون باريس او اقليم (ايل دي فرنس) بالنسبة الى المملكة الافرنسية وما تكون هذه المملكة بالنسبة الى اوربا وما تكون اوربا بالنسبة الى البسيطة فمن ذلك دليلٌ على ان التواريخ الجزئية تدني المطالع من معرفة تسلسل الاشياء منفصلةً

منوطة بشعب واحد . فالذي يسميك معرفة في الامور الكلية ما يكون رباطاً بين تاريخ واخرولا يبرز ذلك الى حيّز الوجود سوى تاريخ مختصر يحوي تسلسل الاجيال كلها فيرفُّ عليها طائر الذهن لمحةً واحدة فيكون فيه مطمح عظيم لنظرك ولاسيما اذ ترى فيهِ الاجيال الغابرة تعود اليك في برهة دانية وتعلم كيف تتعاقب الممالك ولم تعبث بالدين برائن الدثار منذ بدء العالم الى هذه الايام بعد ان تعاقبت عليهِ ممالك متفاوتة

ويلزمك ان لاتطوي كشحاً عن ان تستظهر هذين الامرين اعني الدين والحكم السياسي اللذين هما كمحورٍ تدور عليهِ الاحوال البشرية . فكلٌّ من سرَّح طرفَ طرفهِ في هذا التاريخ الموجز وتفرَّس في ما اودع من الحوادث اتضحت له سلسلة الاعصار ونظام الكون ورأى ان عقله يعي الامور العظمى فحسب انهُ قابضٌ على ازمَّة الدنيا باسرها وتخيَّل لديهِ انهُ يجالح خطَّة جليهِ الضيقة منبعثاً الى الوقوف على كنه الاعصار الدابرة كمن يرى في الرسوم الكلية انهُ يزايل المكانة التي هي مسقط راسهِ والموضع الذي يكون فيه خالساً فيجوب جواد فكرهِ الامصار كافة ويستقصي بحارها الزاخرة واراضيها الشاسعة ولكي تتقوى حافظتهُ على معرفة المحالّ يقتضي له ان يستظهر حاضرات المدائن ويعزو اليها ما يكتنفها كلاًّ حسب مسافتهِ ويعكف في تسلسل الاجيال على الاعصار الخالية ويتبرى لما اشتهر من ازمنتها الاصلية بالحادثات الكبرى فيجعلها موضوعاً ينسب اليه سائرها وذلك ما يدعى محطاً يكون للمرء موقفاً يتشوَّف منهُ الى الطوارئ السابقة واللاحقة ويامن بذلك ان يجنف عن الجادة القويمة الى العثور في تاريخ الازمنة

اما الان فلا نقصر الهمة عن استقصاء بعض اعصار اودعها التاريخ القديم وهي

اولاً آدم او التكوين
ثانياً نوح او الطوفان
ثالثاً دعوة ابراهيم او بداءة معاهدة الله للبشر
رابعاً موسى او السنَّة المكتتبة
خامساً افتتاح تروادة
سادساً سليمان اوبناء الهيكل
سابعاً روميلوس او تاسيس رومة
ثامناً قورش او انقاذ شعب الله من سبي بابل

تاسعًا سبيون او انخذال قرطاجنة

عاشرًا مولد يسوع المسيح

حادي عشر قسطنطين او سلام البيعة

ثاني عشر كارلوس العظيم او تشييد الامبراطورية الجديدة

ولقد جعلت لك تشييد الامبراطوربة الجديدة في عهد الملك كارلوس العظيم كنهاية للتاريخ القديم اذ يتجلى منهُ انقراض دولة الرومان القديمة وبناء عليهِ لم يكن من المهّ الاّ ان اوقفك في هذا الزمن الذي يتلقى التاريخ العام اهميتهُ بالمبّرة والكرامة ونبئك عمّا يليه بجزء اخر يجعلك تتدرج الى هذا العصر الشهير الذي تكلل راسهُ باعمال ابيك المأثورة . وان اقتداءك بهِ انموذجًا يوطد آمالنا على ان ننال مجدًا جديدًا . ولقد سوّل لي الخاطر بعد ان ابثُ لك من هذا التاريخ مقصدًا جليلاً ان لا اجنح عن ثلاثة اشياء يتوفر لنا منها كبير عائدة وهي . عليّ ان اقري معك الاعصار التي احاط بها علمك واكشف لك بوجيز الكلام الغشاء عن حوادث خطيرة تدعوك ان تنيطها بكل من هذه الازمنة وان اعوّد ذهنك على ان يلقي الحوادث الى محالها عاكفًا على نظام الازمنة

وبما ان قصارى الامر أن افيزك بالجادّة التي تنيلك بتواتر الحقب تسلسل الامور الدينية والممالك العظيمة بعد ان طابقت الحوادث التي تختص بالدين والممالك على تسيار الاعوام انتدبتُ الى ان اعود مدققًا بنوع خاص الى كل ما ينبئنا عن حيوة الدين المستمرة وما يوصلنا الى معرفة الاسباب التي دارت بها رحى التقلبات في الدول العظمى ولا نتمكن من ذلك الاّ بعد ان نتحرّى الاحوال التي تتعلق بهذين الامرين حسب مسير الاعوام الغابرة حتى اذا ما انبريت لمطالعة ما تروم من التاريخ قديمًا او حديثًا دانت لديك الفائدة وعرفت لكل امرٍ مقدورٍ عاقبةً كبيرة وخامرك العجب العجاب من توالي الاحكام الالهية في الامور الدينية فتقف اذ ذاك على تسلسل الاحوال البشرية وما يقتضي لتدبيرها من التبصّر والحكمة الشاهقة

الجزء الاول

في الاعصار او تسلسل الاجيال

العصر الاول

في ادم او التكوين

الاجل الاول للعالم

مشهدٌ عظيمٌ في ذا العصر تحار لدنه الفكر فان الله فطرَ فيهِ السموات والارضين بكلمتهِ السامية وبرأ الانسان على مثالهِ (٤٠٠٤ (١) ٤٩٦٣ (٢)) ومنهُ بدا تاريخ موسى مبرزًا ايات الحكمة فيصلاً للحق وأقدمَ المورخين واقام لما سطّر وما علّم وما نصَّ من الناموس عمادًا قويًا ذلك عصرٌ يعلن ان لفيف الأناس كانوا في طيّ انسان واحدٍ ستُنصلت منهُ المرأة وان عقد الزفاف ورباط الالفة البشرية موقوفين على ذلك وان الانسان متسلقٌ الى ذروة الكمال ما دام لصورة الله حافظًا وان الله سخّر لهُ الحيوانات طرًّا وان عصر الشعراء الذهبي يستودع ذكرى المبرّة والسعادة اللتين اقصاهما عن ابوينا الالين في الفردوس نقضُ الوصية العالية وان روح الخناس الخاتلة ولجت داخل الثعبان فهبط ابوانا هبوطًا لحقَ بنسلهما اجمعين واقام ذو العدل العقاب عدلاً في ذرية نسل الانسان الاول واضرم نيران رجزهِ على الجنس البشري ثم وعدهم بالفداء وعدًا اولاً فلم يكونوا الاّ لينقموا من الطاغي الذميم ويمسوا عليه مستظهرين

وقد امتد بساط الارض واخذت الناس تمرح عليهِ كثيرًا وزادت جرائر العابرين فأرى قايين البكرُ الناس المحدثين دماءً مهراقةً امامهم فكان اول القاتلين (٣) (٣٨٧٥ - ٤٨٣٣) فشرعت الرذائل تترصد للفضائل من ذلك الوقت اضطهادًا شديدًا فانجلت من ثمَّ لدى الابصار مباينة السجايا في الاخوين فكان هابيل برًّا صدوقًا

(١) حسب راي بوسويت (٢) حسب كتاب يقال لهُ فن تحقيق الاعوام

(٣) تكوين فصل ٤ ع ١ و٢ و٤ و٨

يعيش راعيًا للمواشي قدّم قربانه لله فحاز من لدنه قبولاً وكان قايين غائصًا في عباب الخسّة والدناءة اقام القربان لله فانسخ عليه عناكب الاهمال مرذولاً فبعثه الحسد على الايقاع باخيه قتلاً فعاقبهُ الله اليًا وزارت الشعلة في ضميره وبلاً وثبورًا مستمرًا فاخذ يهيم على وجهه تائهًا ليتوارى من غضب الجنس البشري له وانتقامه منه فشاد ذلك العتلّ اللئيم مدينة هي اول المدائن ليلوذ بها متواريًا من حنق الجنس البشري منهُ واخترع بنوه بعض ما تدور به رحى صناعتهم وحكمت فيهم الاهواء النفسيّة عسفًا وتهافت الجنس البشري على الشر وامتلأت القلوب مكرًا غريبًا لكنما برز ثمَّة قسرًا عن ذلك الفساد اعقابٌ لشيث طابوا سريرةً واخلصوا النية لله وتملّص اخنوخ من بين الملاء الذين لايستحقون ان يكون في حوزتهم صاعدًا من بينهم بامرٍ لايتنزه عن الخوارق (٣٠١٧-٢٩٧٨) وانفرز اولاد الله عن اولاد الانسان اي الذين يرضخون لاحكام الجسد عمن يرضخون لاحكام النفس بيدَ انهم امتزجوا فيما بعد واخذوا يعثون مسفدين فهاج عليهم الغضب من لدنهُ تعالى فاعتمد هلاكهم بحكمهِ العادل واوعز الى عبده نوح ان انذرهم هلاكًا رائعًا ان لبثوا معتسفين عن السابلة القويمة (٣٤٦٨-٣٤٢٨) فلم يرعووا عن غيهم بل تصلدت قلوبهم فانزل عليهم السيل مدرارًا واغرقهم في غمرة الطوفان هالكين (٣٣٤٨-٣٣٠٨) وانقذ من ذلك نوحًا وآل بيتهِ ليكونوا ذخرًا يتولد منه جنس البشر. فذلك ما حدث مدة ١٦٥٦ سنة وتلك بداءة التواريخ طرًّا ولاحت قدرة المهيمن المتعال وانضحت حكمته الرفيعة وجودته الفائقة واصبح عفُّ الإزار مجودًا تحت اكنافهِ وحليف الارجاس مرضوضًا تحت اثقال نقمتهِ غير انهُ لم ييأس من اياب الاثيم الى التوبة . وبدا للانسان اسمى مثابة من العظمة والرفعة لدن فطرتهِ وامتاز بخلتهِ منذ دخل ولجة المفاسد وظهر جنوحهُ الى البغضاء والحسد فامتار سيف الظلم وانتشر ما كان مطويًا من الاسباب الداعية الى اصلاء نيران المظالم والفتن وبايجاز القول تبينت مبادئ الدين والآداب

وانقذ نوح مع النوع الانساني اثار الصنائع التي كان بنو الانسان يمارسونها منذ فطرتهم وهي قوام للمعاش والملاذ او التي قد اخترعوها فيما بعد فاما الصنائع التي كانوا يعرفونها بداءة بدءٍ وهي فن الزراعة والرعاءة ولبس الكساء وربما فن البناء ايضًا فقد يلوح انهم تعلموها من الباري ولهذا لانرى بداءة هذه الفنون في ارجاء المشرق حيث

امتدت الاجناس البشرية (١)

اما خبر الطوفان العام فقد تدوله الالسن في اقطار البسيطة كلها واصبحت السفينة التي كانت ملجأ لنوح وآله تلهج بذكرها الالسنة في الشرق ولاسيما في الانحاء التي استوت عليها بعد نضوب الماء فهذه الحوادث كلها مسطرة في باطن تاريخ السنين ومروية في تقليدات الشعوب القارطة فان الاعصار ليست عريّة من المطابقة لبعضها فما حدث من الشؤون في الاعصار الآتية ينسب الى ما طرأ في الاجيال الماضية

العصر الثاني

في الكلام عن نوح او الطوفان

(الاجل الثاني للعالم)

اخذت آجال الناس تقصر بعد الطوفان ٣٣٤٨-٣٣٠٨ وطفقوا يستبدلون امر المعيشة (٣٣٠٧-٣٢٤٧) فتخيروا لهم قوتًا جديدًا بعد ان كانوا يلتهمون ثمار الحقول . ومنح الله نوحًا بعض وصايا شفاهًا وذهبت من البرية خلال الضعة فشرعوا يتشامخون خيلاء وكبرًا فعلقوا يبنون لهم برجًا في بابل شاهقًا ينطحُ روق السماء فتلجلجت السنتهم متبلبلة (٢٩٠٧-٣٢٤٧) فدل ذلك البناء على استغراقهم في سبات الكبرياء وخمول آرائهم معًا . ولعبت باولاد نوح الثلاثة اكفُّ التفريق فتغاصوا في بطون الارض فاجتزأت بهم اجتزاءً اوّلاً . وكانوا اصولاً تفرعت منها الامم والشعوب وترطبت السنة الانام بذكرهم خالدًا

اما يافث فقد امتلأت اقاصي الغرب من نسله واستمر معروفًا ما بينهم بلقب يابت الشهير . واشتهر حام وابنهُ كنعان ما بين المصريين والفينيقيين . ونشر العبرانيون ذكر سام اصل نشأتهم مدى الدوران

وبعد ان افترق بنو الطينة في بطاح الارض نشأ رجلٌ يقال لهُ نمرود كان ذا خلة شرسة فاخذ يكدح في ان يفتح المدائن فكان اول الفاتحين وهكذا كان ابتداء

(١) تكوين ص ٢ ع ١٥ ص ٤ ع ١٧-١٨-١٩

الفتوحات ورفع لواء حكمه فوق بابل (١) حيث كان المتمردون عازمين عزماً لا يشوبه الوهن ان يبنوا ذلك البرج الذي اخطأ السهم به دون مرامهم

وقامت في ذلك الحين اعمدة نينوا العظمى وتأسست بعض ممالك قديمة كانت حقيرة في تلك الازمنة فقد كان في مصر وحدها اربع ممالك وهي تاب وتان وممفيس وتانيس التي كانت قاعدة لمصر السفلى ويمكن لنا ان نعزو الى ذلك العصر ابتداء نواميس المصريين ورفعة اهرامهم التي لم يطوها الى الان كرور الايام وابتداء نشأة المراصد الفلكية المنوطة بهم وبالكلدانيين (٢٨٩٣ – ٢٢٣٤) ولذلك نرى ان رقبان النجوم لا يتخطى ذاك الحين وان الكلدانيين الذين ملكوا ناصية ذاك الفن وفاقوا سواهم به قد خوّلوا كليستين اياهُ ليبنيه لارسطو ذخرًا

لابدَّ من ان يكون كل شيء قد ابتدأ ودليلُ ذلك انه لا يتلقفُ احدٌ تاريخًا قديمًا الّا يعثر فيه سواء كان في ما عبر من الاعصار او فيما سيأتي منها على آثارٍ بينة تدلُّ على ان العالم حادث وانهُ يرى فيه كيف تسنُّ الشرائع وتتقدم الاخلاق وتتكون الممالك وانهُ يخرج من دياجي الجهالة رويدًا رويدًا ويمهد له الاختبار سبيلاً يجعلهُ بصيرًا بالامور واحمل لعبء التدبير ويؤهله من الاستطاعة على اختراع الصنائع او تحسينها

وكلما كثر البشر فوق بساط الارض اصبحت تمتلئ رويدًا رويدًا فانهم كانوا من قبلُ يدوّخون قنن الجبال الراسخة ويتبطنون الوهاد ويعبرون الانهار والبحار ويشيدون مواطن جديدة تقيهم من لوافح الحر ونوافح البرد فان الارض لم تكن اذ ذاك الّا مفاوز نخلعت ثوبها السبخ ورفلت ببرد هيأ لها رونقًا وجمالاً . فقد جذمت عن عاتقها الاشجار وامست مزدرعًا ومسرحًا ترتعي فيه المواشي وتربة تقام عليها الدساكر والقرى والمدائن واخذ بنو الانسان يتعلمون ان يقتنصوا نوع الحيوان فدجنوا بعض ما اقتنصوا واستخدموه قنية لهم وطفقوا يصارعون الضواري ويناوون اقوياءها فنال بذلك صناديدهم اعلام الظفر وبعثهم ذلك على اختراع الاسلحة ندبتهم فيما بعد الى ان يتقاتلوا بها فذاع حينئذٍ ذكر نمرود وسبق الابطال بافتتاح المغلقات فدعاه الكتاب المقدس جبارًا صيادًا .

وكما ان الانسان كانت له الجرأة على اقتحام الحيوانات وتدجينها افضى به ذكاؤه

(١) تكوين ص ١٠ – ٨ – ٩ – ١٠ – ١١

الى تحلية الثمار وتأهيل النبات واخضاع المعادن لمنفعته واستخدم رويدًا رويدًا من ثم الطبيعة باسرها . ولما كان من الطبع ان الوقت بدرجه الى اختراع اشياء جمة قد ابرح تقادم الايام كثيرًا منها من بالهِ وان ما ابقاه نوح من الصنائع الاولى لنسلهِ كان مرعيًا بكاملهِ حيث ثوى النوع الانساني اولاً لكنما اصبحت الايام تغتالهُ كلما كانوا يتقاصون عن تلك الانحاء فصار من متبادر الامر اما ان يتشوّا اليها عاكفين على تعلمها او ان الذين رسخت في ادمغتهم يطرحون بها اليهم وبناء عليهِ نرى ان كل شيء قد تأتى من تلك الامصار التي ما برحت مقطونة . ولما كانت مبادئ الصناعة حية ما بينهم كان الناس يقتبسون كل يوم امورًا ذات بال لم يروا لهم مندوحة عنها . وفضلاً عن ذلك فان معرفة الله وذكر التكوين لم يكونوا يسدلون عليها حجاب النسيان في بادئ الامر لكنما هوّروها في ما بعد الى وهاد الاهمال وغادروها نسيًا منسيًا واخذت التقليدات تتناسى ويغشيها حجاب الظلام وقفتها خزعبلات لم ترع منها سوى تصورات سمجة فنشئت الالهة وذلك ما بعث الاله الحق على دعوة ابراهيم

العصر الثالث

في دعوة ابراهيم او معاهدة الله للبشر

(الاجل الثالث للعالم)

لما رأى الله ان الشعوب كانت تجمح بهم اهواؤهم الى فيافي الجحد والانكار وانهم ركبوا مطايا الكفر والطغيان جانفين عن جادة الحق اصطفى له شعبًا من بينهم متورعًا يذلل فيهم تلك الخلال السيئة وذلك بعد ان توالت على الطوفان اربعماية وست وعشرون سنة فاختار من بينهم ابراهيم خليلاً صفيًا له ليكون جرثومة يخرج منها المؤمنون (٢٢٩٦ – ١٩٢١) فاوعز اليه ان يوافي ارض كنعان حيث يكرس فيها عبادته ووعده بان نسله ينمو كثيرًا فيفوق نجوم السماء ورمال البحار عددًا وانه يمنحه الارض التي ولد فيها لتكون مثوى له ولسائر اخلافه من بعده واعظم من ذلك ان يسوع المسيح ياتي من ذريته فيكون بركة علوية تحل على الشعب الذي يمرح فوق بساط الارض فلا ريب في ان يسوع المسيح هو الذي ابرز له ابراهيم مآثر الاكرام بشخص الحبر ملكيصادق الذي مثله مواسدى اليه

عشر الغنيمة التي انتزعها من الملوك الذين ارهبتهم مخالب الظفر ومن لدنهُ وحده قد حظي بالبركة

ولا يخفى ان ابراهيم كان عظيم الشوكة غائصًا في لجة الترف ورغد العيش ومالكًا من حطام الدنيا وحذافيرها مالا يتجاوزه ذوو العروش السنيعة ومع ذلك فلم يدع لعوائد الندية بواعث تحملهُ على اسرارها في زوايا الاهمال فلم يكن متأنقًا بالملبوس والمطعوم وكان ذا عيشة رعائية سذجًا بيد انهُ لم يكن يغادر الكرم جانبًا يوم كان يقري المتضيفين

وبعث اليه العلي ضيوفًا (٢٢٦٧ـ ١٨٥٦) وانذره الملائكة بمآرب الرب فاذعن للانذار مومنًا ولاحت عليهِ سمات التقى والبرّ والامانة ونهض في عصره ايناخوس اقدم ملوك اليونان قاطبةً وشاد مملكة ارغوس .

وقد خلف ابراهيم ابنهُ اسحق وحفيده يعقوب اللذان لم يكونا الاّ ليقتديا بامانة ذلك الاب الصدوق فانهما كانا عائشين عيشتهُ الرعائية واعاد الله عليهما المواعيد ذاتها التي وعده بها وقادهما في كل شيء كما كان يفتقدهُ برحمتهِ العلوية فبارك اسحق يعقوب الاصغر بدلاً من اخيهِ عيسو البكر (٢١٣٩ـ١٧٥٩) وان حسب الناس ذلك زهقًا منهُ وشططًا فانهُ قد اتم مآرب العليّ وقرر ميراث الشعبين ولم يكن ذلك الاّ امرًا مقدورًا .

واما عيسو فقد لقب بادوم فخرج منهُ قومٌ يقال لهم الادوميون . واما يعقوب فكان برعاه الله وياخذ بيده ففاق اخاه عيسو بكل ما يجنح اليهِ فكره. وازحف عليهِ الملك ففاتهُ قتالاً ممتلئًا اسرارًا ودعاه من بعد ذلك اسرائيل فقيل لاخلافهِ اسرائيليون ونشأ منهُ اثنى عشر ابًا كانوا روساء لاثنتي عشرة قبيلةً عبرانيةً ومنهم لاوي فجاء لهُ اخلافٌ يقال لهم لاويون فانهم كانوا يتهمكون في خدمة الاسرار الالهية .

ومنهم يهوذا الذي نشأ منهُ النسل الملوكي ويسوع المسيح ملك الملوك وسيد السادات ويوسف الذي ارّفت عليهِ عواطف ابيهِ فانهُ ارقاه الى اعلى مكانة من الاعزاز والاكرام فوق سائر اخوتهِ .

وعلينا ان نستلفت الانظار الى هذه المدرجة العظمى لترى ان الحكمة الالهية ابرزت اسرارًا جديدةً . فيتضح برّ يوسف وطيب سريرته وفرط حكمتهِ واذلالهُ الرذايل بجسام

ذكائهِ الثاقب واهتمامه بفاوابها في خوتهِ واحلامهُ السرية والنبوية وصبورتهُ عرضةً لحسد اخوتهِ كما كان قايين (١٧٢٨ ـ ٢٠٩٧) وبيع هذا الابي الصالح واصراره على الامانة نحو سيده . وعفافة الغريب الذي سبب لهُ اضطهادًا عظيمًا (١٧١٧ ـ ٢٠٩٣) وسجنهُ مغلولاً وثباتهُ ونبواتهُ وخلاصهُ العجيب من دركات السجن وتعبيره لاحلام فرعون (٢٧١٥ ـ ٢٢٠٩) واستيهالهُ والمعينهُ السامية واستقامتهُ ورعاية الله لهُ التي اتاحت لهُ السلطة مسخرة ايان حلَّ وتبصُّره في ما سياتي من عواقب الامور وارآؤهُ السديدة وقبضهُ في مصر السفلى على زمام السلطة المطلقة التي مكنتهُ من انقاذ ابيهِ واسرتهِ

اما بنو اسرائيل فقد نالوا الرضى والاعزاز من لدنهُ تعالى واتخذوا مصر موطنًا لهم وقد كانت قاعدتها وقتئذٍ مدينة تنايس وكان ملوكها يلقبون بالفراعنة ٢٠٧٦ـ١٧٠٦ وبادهمت المنية يعقوب ٢٠٥٩ـ١٦٨٩ وتنبأ عند احتضاره نبوة ذائعة الصيت ابان لاولاده فيها الحالة التي يتطرق اليها اخلافهم وابان ليهوذا زمن المخلص الذي ينشأ من نسلهِ فلم يمرّ على سراة يعقوب زمنٌ قصير الاّ اصبحوا شعبًا تميد بهِ الارض فاحتدمت قلوب المصريين عليهم حسدًا وبغيًا وطفقوا يعاملونهم بالاساءة والجور ويطرحون الرحمة عنهم جانبًا فاقام الله لهم موسى نصيرًا ١٧٢٥ـ١٥٧١ واستلفت اليهِ انظار ابنة فرعون الهامًا فانقذتهُ من مياه النيل واتخذتهُ ابنًا وقامت باعباء تثقيفهِ حسب حكمة المصريين وقد كان المصريون اذ ذاك يعبرون مهاجرين من ارضهم الى ارجاء مختلفة من اليونان . فقاد سيكروبس نحلةً من مصر الى هنالك بنت اثنتي عشرة مدينة او بالاحرى اثنتي عشرة قرية ١٦٤٣ـ١٥٥٦ تالفت منها مملكة اثينا فقرر فيها نواميس وطنهِ والالهة التي يؤدون لها العبادة في مصر وحدث في تسالية بعد ذلك بوجيزٍ من الزمن طوفان ديكاليون فتوسم اليونانيون انهُ الطوفان العرمرمي واتسع نطاق الحكم لهيلان بن دكاليون في جهة فيثية من بلاد تسالية فانتمى اليهِ اليونان في تلك الامصار فتلقبوا بالهيلانيين بعد ان كانوا يتلقبون بالكريك واما اللاتينيون فلم يحفلوا بذلك بل لبثوا يلقبونهم بالاسم القديم وبقربةٍ من ذلك العصر ارتحل كادموس بن اجينور بنحلةٍ فينيقية الى بلاد اليونان آخذًا معهُ آلهةً سورية وفينيقية فوطد اركان ثاب في بلاد بهوسيا واما موسى فقد كان وقتئذٍ يبلغ اشدّه مترعرعًا فما وصل الى سن الاربعين من اجلهِ نبذ ورآءه الترف والنعيم في البلاط الملوكي واستنهضتهُ مآثر الرحمة والرأفة لبزحزح الاثقال التي

كانت تعني اخوتهُ الاسرائيليين (١٥٣١ـ١٦٨٥) فتصدى للاخطار الويلة رجاء ان يخلصهم من تلك الحبائل المكيدة لكنهم لم يكونوا ليغنموا فرصة غيرته ويتخذوا جراءته مجنًّا لهم بل احجموا عليهِ غضب فرعون فولى مدبرًا من تلك الاقطار الى جهة مدين من بلاد العرب فعاذ ثمة بملاذٍ اتاحتهُ له النخوة لانقاذ المضطهدين فهذا الرجل العظيم سواء كان يعزُّ رجاؤهُ من خلاص شعبهِ او ينتظر زمنًا يندبهُ الى ذلك قد تهمك في رعاية الضان عند حميهِ يثرو اربعين سنة الى ان رأى العليقة ملتهبة ١٤٥١ـ١٦٤٦ في البادية فناجاه الله اله ابائهِ منها وبعثهُ الى مصر ليرفع نير الجور عن اعناق اخوتهِ فظهرت حينئذٍ مبرتهُ ودماثة اخلاقهِ وجراءته وعجائبهِ وصلادة قلب فرعون والرزايا الهائلة التي اسخطها الله عليهِ والفصح وعبور البحر الاحمر وفرعون والمصريون تلعب بهم ايدي اللجة غارقين وانقاذ شعب الله من وهاد المسكنة فائزين

العصر الرابع

في الكلام عن موسى او السنة المكتتبة

(الاجل الرابع للعالم)

برزت السنة الى حيز الوجود فبدت على ايدي موسى ساطعة وذلك بعد دعوة ابراهيم السنة الاربعماية والثلاثين وفاقًا للسنة الثمانماية والست والخمسين بعد الطوفان وللسنة التي نزح فيها الشعب العبراني من اراضي مصر ١٦٤٥ـ١٤٩١ فان هذا التاريخ لهامٌّ جدًّا لانهُ الوساطة الكبرى التي تدل على كل الازمنة الغابرة منذ موسى حتى يسوع المسيح وانه ليدعى زمان السنة المكتتبة تمييزًا لهُ من زمان السنة الطبيعية الذي لم يكن فيهِ للبشر وقتئذٍ من شكيمة سوى العقل الطبيعي واحاديث آبائهم

ولما اراح الله شعبه من اعنات المصريين وجورهم واقتادهم الى الارض التي اصطفاها منتدىً يعبدونه بهِ انزل عليهم قبل ان يطئوها السنَّة التي قضيَ عليهم برعايتها وكتب مبادئها بيدهِ على لوحين سلمها لموسى فوق ذروة جبل سينا وهي الوصايا العشر التي تترتب عليها عبادة ذي العزّة والرحموت وتتوقف عليها دائرة الهيئة الاجتماعية

والقى عليه نواميس اخرى شاد حسب منطوقها قبة العهد رمزًا الى الزمان

الذي سيأتي والتابوت ومما يدل على ان العلي كان يقطنه عجائبهُ الخارقة التي كانت تبدو بهِ وانباؤهُ ايضًا بمكانة هارون اخيهِ الباذخة وكهنوته العظيم وحبريتهِ الوحيدة التي انيطت بعهدتهِ وعهدة اخلافهِ وطقوس تكريسهم وهيئة كسائهم الرمزية ووظائف الكهنة اولاد هرون ووظائف اللاويين والفرائض الدينية التي يجب عليهم حفظها ولاسيما القواعد التي تتكفل بتحسين عوائد شعبه المصطفى وحسن اداراتهم الداخلية والخارجية وقد تواطأ هو نفسه لان يكون شارعهم اما الشعب فقد استمروا يطوون البوادي والقفار وزاغوا عن محجة العدل متمردين فاتخذوا لهم اصنامًا يعبدونها فانذرهم الله عذابًا اليمًا معاقبًا ثم عاملهم بالحسنى رحومًا معزّيًا وقد كان يتفقدهم بعنايتهِ يثقفهم رويدًا رويدًا بكل واسطةٍ تعود عليهم بالنفع العميم وبعد ان فتكت بهرون مخالب الردى تبوأ ولده ايليعازار مكانة الحبرية رصينًا ١٦٠٥ـ١٤٥٢ وبدا دينب الغيرة في فؤاد فينيس بن اليعازار فوعده الله بان يكون الكهنوت في حوزة اخلافهِ وفي ذاك الحين استمرّ المصريون ينشرون نحلاتهم في جهاتٍ متغايرة ولاسيما في بلاد اليونان حيث دانوس المصري سلب الملك من الملوك الذين من ذرية اينوخوس واستوى ملكًا على عرش ارغوس واما العبرانيون ففي نهاية تسيارهم في البطاح والفيافي اصلوا نيران الهيجاء واغتنموا النصرة بدعاء موسى مصليًا معتزلاً وبعد ذلك مات ذلك الفاضل النزيه ١٦٠٥ـ١٤٥١ وترك للاسرائيليين كامل تاريخهم فانهُ اثابهُ الله نقرٌ في تاليفهِ مدققًا واوعاه كل ما حدث منذ بدء العالم الى يوم موتهِ وقد اتمهُ من بعدهِ يشوع وخلفاؤهُ واجتزئوه الى جملة اسفار منها سفر يشوع وسفر القضاة واسفار الملوك الاربعة

اما ذلك التاريخ فقد اوعب الناموس كاملاً وقُسم الى خمسة اسفار تحوي مبادىء الدين وبعد ان اغتالته طائلة الموت زأرت مواقد الحرب في عهد يشوع ١٥٩٩ـ١٤٤٥ وفتح الارض المقدسة مظفرًا وقسمها الى اقسام فعثا الشعب وتمرد وعوقب وتوطد مرارًا متباينة ولدن ذلك جدَّ عتنيئيل في منازلة اعدائهِ فانتصر فائزًا ورفع عن شعبهِ نير العبودية الذي القاه على عواتقهم كوشان ملك ارام ١٥٥٤ـ١٤٠٥ وبعد ان تقادم على ذلك من الحوول ثمانون ظهرَ اهود على عجلون ملك مواب ١٤٩٦ـ١٣٢٥ وفي وشك ذلك الزمن حكم في بيلوبونيزيا بيلوبس الفريجياني ابن طنطال فتسمت تلك البلاد الشهيرة من ذاك الوقت باسمهِ ١٣٣٠ـ١٣٢٢

وقدم الكلدانيون لملكهم باعال عبادة الهية وهبط الاسرائيليون الذين لم يرعوا جميلاً الى حضيض العبودية فان يابين ملك كنعان ضيّق عليهم سعة الارتياح وقهرهم اذلاء منكسين ١٤١٦ـ١٣٠٥ اما النبيئة دبُورَة التي كانت قاضية للشعب وباراق بن ابينوعم فقد استظهرا على سيسارا قائد شعب ذلك الملك العتي واحبطا سعيهُ مدبراً ١٣٩٦ـ١٢٨٥ وبعد ان مرّ من ذلك الآن اربعون عاماً فاز جدعون دون قتال واقتفى آثار المديانيين واعمل بهم السيف الباتر ١٣٤٩ـ١٢٤٥ وقتل ابنهُ ابيالك اخوته واختلس السلطة فدانت له صاغرة ١٣٠٩ـ١٢٣٦ وكان ملكًا جائرًا لا يرعى للعدل جانبًا فنزعت السلطة من يمينهِ وهلك غير ماجور عليهِ واما يفتاح ١١٨٧ـ١٣٤٣ فقد خضّب انتصارهُ بهرق دمٍ لا يمنحهُ الله التوبة عنهُ الاّ بسرٍّ الهيٍّ لا يطرق اسماعنا النبأُ عنهُ ولانحنُ الى كنههِ بمتوصلين وقد طرأً في ذلك الحين اشياء كثيرة بين الوثنيين يصبو اليها السمع لانهُ على حسب تاريخ هيرودوت الذي ترجحت صحته على غيرهِ يجب ان نحصر تاريخ نينوس بن باعال وانشاْة الاولى لدولة اثور بخمسماية واربع عشرة سنة قبل تشييد مدينة رومية وفي عهد دبورة ١٩٦٨ـ١٢٦٧ فان هذه الدولة العظيمة الشوكة والسامية العزة قد كان مركز صولتها في نينوى المدينة التي كانت شهيرة وقديمة (١) ومد اليها الملك نينوس يدهُ فارحبها ابنيةً وزين ظاهرها . فان المورخين الذين يزعمون ان دولة الاثوريين قد استمرت الفًا وثلثماية سنة ياخذون على ذلك دليلاً قدمية المدينة واما هيرودوت فانهُ يقول ان اجلها لم يعمر اكثر من خمسماية وعشرين سنة واعتبر ذلك وقت بذوخ مكانتها وسيادة سلطتها في عهد نينوس بن باعال الذي جعل شوكتها ممتدة في اسيا العليا وقد تشيدت او تجددت مدينة صور في عهد هذا الملك الظافر واصبحت في غاية قصوى من الشهرة بسبب مهارة قاطنيها في سلك البحار وبسبب الرحّل الذين جالحوها وامتدوا في اقطار العالم . وبعد عهد ابيالك بقليل من الزمن ١٣٣٠ـ١٢٥٢ لاحت اعمال هرقل البطل الصنديد ابن انفيتريون وبدت الحروب التي الهب شرارها تازي ملك اثينا الذي احرزَ في مدينة واحدة كل الدساكر والقرى التي بناها سيكروبس وسنّ لاثينا قوانين سادت لدى الناس شهرةً ففي عهد يفتاح بينما

(١) سفر التكوين ص ١٠ ع ١١

كانت سميراميس ارملة نينوس وولية ابنها نينياس توسع مملكة الاثوريين بكثرة فتوحاتها هبت النار المحرقة في ابنية تروادة الشهيرة التي فتحها في سالف الزمن اليونان في عهد لهومودون ملكها الثالث وهوت دائرة باليونان انفسهم واصبحت كأن لم تكن شيئًا مذكورًا وذلك في عهد بريام بن لهومودون بعد ان حاصرها اولائك اليونانيون عشر سنوات ١٢٧٠ـ١١٨٤

العصر الخامس

في الكلام عن افتتاح مدينة تروادة

(الاجل الخامس للعالم)

في نحو السنة الثلاثماية والثماني بعد ان جلا اخصّاءه الله عن مصر وسنة الالف والمائة والاربع والستين ٢٠٢٨ـ١١٦٤ بعد الطوفان عبثت بتروادة ايدي الدثار فاصبح طود عزّها مدكوكا هابطة هبوطًا رائعًا فكان عصر سقوطها مهمًا وسبب اهميته اما ان يكون بالحادث الرائع الذي انشده الشاعران الخنتزيزان اكبر شعراء اغريقيا وايطاليا اولامكانية ما نراه الى ذاك الحين انهُ اهمُّ ما يطرأ في تلك الاحتاب التي تدعى خرافية او بطليّة فسبب تسميتها خرافية موقوف على ان الحوادث التاريخية كانت وقتئذٍ مكتنفة بالخرافات وسبب تسميتها بطلية موقوف على اولئك الذين دعاهم الشعراء اولاد الالهة وابطالاً ولم تكن ايام حياتهم قاصية عن فتوح تروادة العظمى فقد بدا في عصر لهومادون ابو بريام ابطال التوازون الذهبية وهم جازون وهرقل وأُورفا وكاستور وبولكس ومن كان مشهورًا من نظرائهم في ايامهم السالفة ونشأ في عصر بريام يوم ان حوصرت تروادة حصارًا نهائيًا اشيل واكاممنون ومينيلاوس وعولوس وهكتور وسربيدون بن جوبيتار وانه بن الزهراء الذي يتخذه الرومانيون اصل نشأتهم وابطالٌ اخرون قد كانت شعوب عظيمة واقوامٌ جمة يفتخرون بانهم اليهم يعتزون فبناء عليهِ اصبح ذلك العصر يستأهل ان يعزى اليه احراز الحوادث ذات التحقيق والعظمة التي جرت في ايام الخزعبلات الباطلة

اما الكتاب الاقدس فقد انبأنا عمن هم اشدُّ باسًا وعظمة منهم فلانهُ ذكرلنا قوة

شمشون ووهنة الغربيين ١١٥٢ـ١١٧٧ وعالي الحبر الاعظم الذي نال الدرجة القصوى من المبرة والنزاهة ولقد بادهته الذلة والخمول بجرائر اولاده الخاملين ١١٥٣ـ١١٧٦ وصموئيل من تدثر بدثار العدل نبيًا عف الازار مصطفًى من العليّ لمسح الملوك ١٠٨٠ـ١٠٩٥ وشاول الملك من كان اول من دانت له الامرة على اصفياء الله ففاز مظفرًا وقدّم القرابين متعظًا لايطلب من الكهنة اذنًا يعاصي اوامر الله معتذرًا بالدين فلم يكن عذره مقبولاً فاذله الله مرذولاً . وجعله هاويًا هابطًا الى اسفل الحضيض وكودروس ملك اثينا في عصره من استمات ضحيةً عن شعبهِ فكان لهم بذلك فوزٌ وغنية وتنازع من بعد الملك ولداهُ ميدون ونيله فاغتنم حينئذٍ الاثينيون الفرصة والغوا السلطة الملوكية واعلنوا ان لايكون عليهم سوى جوبينار ملكًا واقاموا لهم ولاة وازعين دعوهم اركونت وقسروهم على ان يستمروا مبرزين لهم حسابًا على كل ما يجشمون من مهام الامر وكان اول من قبض على شكيمة الملك ميدون بن كدريس ودان الحكم لعصبته من بعده زمانًا مديدًا وتناثرت النحلات من اثينا الى انحاء اسيا الصغرى فدعيت تلك الانحاء ايونية وفي ذلك العصر نفسه كانت تمتد الرحل الاهوليون فغدت من ثم اسيا الصغرى مفعمةً من المدائن اليونانية وبعد ان شرب شاول كاس الحتوف ١٠٤٠ـ١٠٥٥ نهض داود فاتكًا على اريكة الملك وقد كان في بادىء الامر راعيًا للضئان عجيبًا وجندل جليات الجبار صريعًا واستظهر على كل اعداء الرب فرحبت له ساحات الصولة فاتحًا فتحًا مبينًا وتنبأ صالحًا ورعًا وكان اهلاً لابراز مكنونات النشيد للعزة الصمدية وقصارى الامر انه كان راضخًا لمشيئة الله كما دعاه هو نفسه وشط بعد ئذٍ مجرمًا تائبًا فاحال زيغانه لمجد الرب ١٠٣٢ـ١٠٣٤ وخلف هذا الملك الصالح الجانح الى الحرب سليمان ولده الحكيم عادلاً وراغبًا في الهدء والسكينة ١٠٠١ـ١٠١٤ فلم تخضب يداه بالدماء المهراقة ولذلك كان قمينًا بان يشيد هيكلاً لله عظيمًا ٩٩٨ـ١٠١٢ .

* * *

العصر السادس

في الكلام عن سليمان او اتمام بناء الهيكل

(الاجل الخامس للعالم)

ان سليمان اتم بناء الهيكل لله ١٠٠٤ـ٩٩٢ في تشرين الثاني سنة ثلاثة الاف بعد الخليقة وفاقًا لسنة اربعماية وثماني وثمانين بعد نزوح شعب الله من مصر وان قوبل زمن التاريخ دينيًا معه دنيويًا نقل ان سليمان انجز بناء الهيكل سنة مائتين وخمسين قبل تشييد رومية وسنة المائة والثمانين بعد افتتاح تروادة وسنة الالف قبل المسيح فاقام باعباء تكريسه بعظمة وورع عظيمين وكانت معجزات احكامهِ في اسمى مكانة من الشهرة وتناهت احكامه بالتثريب والمعاتب لانه تصبي النساء عاشقًا فخمدت انوار عقلهِ وضعف قلبه وفسدت تقواهُ وتصدّى لعبادة الاوثان جاحدًا فالتظى الله عليه غيظًا عادلاً ثم عامله بالرفق والرحمة كرامةً لذكر داود الصدوق عبدهِ لكنه لم يترك عقابه لنكرانه الجميل نسيًا منسيًا بل جزأ بعد موته مملكته على عهد ولده رحبعام فان ذلك الملك العاتي تكبر وطغى فاخسره الله عشرة اسباط اقصاهم يارباعم عن الهم وملكهم ٩٦٢ـ٩٧٥ وصدهم عن الذهاب الى هيكل اورشليم ليقدموا فيه القرابين خيفة ان يؤدوا الطاعة والرضوخ للملك يهوذا ولهذا اقام لهم آلهة عجولاً من ذهب دعاها آلهة اسرائيل طمعًا في ان لا يرى الشعب ذلك امرًا غريبًا لكنّ هذا الصدد حمله على ان يرعى الشريعة الموسوية التي كان يقوم بتاويلها حسب اميالهِ وكان يحضُّ شعبه على رعاية الجانب الاوفر من الناموس نظامًا مدنيًا ودينيًا فكانت خمسة الاسفار لموسى مرفعة المقام مرعيَّة من اولئك الاسباط الضالين المنفصلين فانتصب لذلك مملكة اسرائيل التي اصبح الكفر فيها سائدًا فعثا اهلها مفسدين ونصبت لمملكة يهوذا حبائل البغضاء والشحناء واما مملكة يهوذا فقد كانت لاتنبذ الدين جانبًا وان كانت تلم به كوارث الجحد والكفر الذميم ولقد كان وقتئذٍ ملوك مصر يصعدون الى اطواد العزة والشوكة فان اربعة الممالك كانت متحازة الى مملكة تاب وقتٌ ذهب الناس الى ان سيزوستريس الفاتح الذي ذاع صيته لدى المصريين هو اسزاك نفسه الذي قواهُ الله على ان ينيل رحبعام العقاب الرهيب لسبب كفره المفرط ٩٥٨ـ٩٧١

وان ايام البرّ ابن رحبعام قد انتصر على الاسباط المنفصلين في ايام ملكه انتصارًا عظيمًا . واما ولده آسا ٩٣٧ــ ٩٤٤ فقد كان متدينًا ورعًا ونال في الكتب المقدسة اطروفة من الثناء على ذلك غير انه كان يثق بالاطباء يوم كان ممنواً بالامراض الملمّة اكثر مما كان يثق بنعمة الله وقد بنى عمري ملك اسرائيل في عصره مدينة السامرة ٩١٤ــ٩٣٤ وجعلها مقرًا لسدته الملوكية واحتكم بعد ذلك يوشافاط ٩٠٤ــ ٩١٤ فازدهرت في عصره ادواح الدعة والبر واستوى قسطاس العدل ونهد السبيل لسالك البحار وسادت صناعة الحرب فتوسم آل اليهودية فيه احكامًا داودية وقد كان في عرض حكمه احاب وامرأته ايزابل مسدلين لواء السلطة فوق اسرائيل وكادحين في انتهاك حرمة الهيئة بزوران عن طريق الهداية الى الترهات الباطلة وبتهافتان على الكفر والجحود فضلاً عما كانا يتسننان بعبادة ياربعام الوثنية ٨٩٠ــ ٨٩٩ فتنكت بهما براثن البوس صاغرين وهويا الى دركات الشقاء هالكين اما الله فقد ابقى لهما في فكره عقابًا رائعًا فاراد ان يثأر نابوت الصديق الذي قتلاه لتمنعه عن ان يبيعها سرمدًا ارث آبائه حسبما تامره السنة الموسوية فانذرهما بفم عبده ايليا النبي عذابًا فاخذ الملك احاب يترصد سبيلاً يقيه من غائلة الرّدى فلم يجده ذلك نفعًا فانه هلك مقتولاً ٨٩٧ــ ٨٨٨ وقد تشيدت في ذلك الوقت مدينة قرطاجنة ٨٦٠ــ ٨٩٢ فشادتها ديدون الصورية على ضفة البحر الرومي حيث تكون محطًا لرحال التجارة وتكون لها السيادة البحرية . ولقد عسر علينا ان نعرف الوقت الذي به خفقت اعلام الحكم الجمهوري في تلك المدينة لكننا نعهد ان امتزاج الصوريين والافريقيين جعلاها مثابةً سامية للاتجار والصدام واما المورخون الاقدمون الذين وقفوا على إبّان بنائها وعلموا ان ذلك كان قبل اندراس تروادة العظمى فقد يوخذ من كلامهم ان ديدون جعلتها في غاية السعة وقوّتها وان بناءها لم يكن موقوفًا عليها . واما مملكة يهوذا فقد بادهمها الشوون المتغايرة لان عثاليا بنت احاب وايزابل اتت الى بيت يوشافاط باوحال الكفر والفساد ٨٨٠ــ ٨٨٥ واما ياربعام فقد نبذ وراء ظهره اعمال ابيه وتهمك في ما يقوم بعبثه حمره فحلت عليه يدُ الرب وكانت ايام محكه قصارًا ومات شرّ ميتةٍ ٨٧٦ــ٨٨٥ وقد كانت معجزات الرب في خلال تلك العقابات جليلة الوقع بل كان اجلها مصروفًا في سبيل انقاذ الاسرائيليين الذين كان يدعوهم الله الى التوبة فالهم عبديه ايليا واليشع ان ياتياهم بالمعجزات فتنبآ ا وانبا

بالعجائب البينة فلم تندمث بذلك خلالهم فقد رأتها ابصارهم وعمهت عنها بصائرهم فلم يتوبوا . فان ذينك النبيين تنبأآ في عهد الملك احاب وخمسة من خلفائه واشتهر اذ ذاك هوميروس وذاع صيت ازيود الشاعر من قبله بثلاثين سنةً فاوعز الينا عن تلك العوائد القديمة والسذاجة الفائقة التي هي حرية بان تكون ذات بال وتشعر بقدمية الآثار ومن ذلك فائدةٌ كبرى تبعثنا على اليقين بعظمة آثار الكتاب المقدس وقدميته وان اموراً رهيبة قد حدثت في مملكة يهوذا واسرائيل فان الملك ياهو قد حنق من ايزابل حنقًا بعثه على الايقاع بها فامر بطرحها من قنّة برج حالق الى اسفل ٨٧٦ــ٨٨٤ ولم تجدها الحلل التي كانت تتبهرج بها نفعًا فانه قد امر بها ان تداس تحت سنابك خيوله وقتل ايضًا ملك اسرائيل المدعوّ يورام بن احاب فانقرضت كل سراة احاب وكانت السلالة الملوكية في يهوذا قد اوشكت ان تفتك بها ايدي الإبادة والانقراض لان احزيًا الملك الذي ابوه يورام ملك يهوذا وامّه عثاليا قد تضرج بدمائه قتيلاً في سامرة هو وسائر اخوته بحجة انه كان يمتن وثاق الاخاء بينه وبين اولاد احاب ولما تناقلت الالسن ذلك الخبر واصبح شائعًا في اورشليم ازمعت عثاليا على ان تبيد كل من تراه باقيًا من بيت الملك حتى انها فتكت باولادها فتكًا ذريعًا وقد بعثها على ذلك الكلف بركوب تخت اورشليم بعد موت بنيها اما يواش ابن احزيا فقد نجا من مكائد جدته بوساطة يوشاباع اخته امرأة يوياداع رئيس الكهنة التي وارته في مخدع الرب وبتلك الوسيلة المأثورة انقذت هذا السور الثمين من نسل داود . وكانت عثاليا في دعة واطمئنان لانها كانت تتكر ان ايدي المنية قد اغتالته مثل اخوته . وفي تلك الايام كان ليكورك يسنُّ شرائع باهظة على مدينة لسّيديمون وقد اصابته سهام اللوم والتفنيد لانه جعل موضوع كل تلك الشرائع الحروب الهائلة اقتداء بمينوس الملك غير آتٍ بنظامات يترتب عليها آداب النساء بل كان يجعل الشبان في شظفٍ شديد من العيش رجاء ان ذلك يكسبهم فيما بعد قوة على الانحدار الى كل معمعةٍ رائعة وقد دنت عثاليا وفتئت يخلو لها الجو في اليهودية لا يتحرّش احدٌ لمناضلتها فخالت ان عرش ملكها لا يثلّ لانها لبثت حاكمة ست سنوات ولم يثر عليها احد لكنما الرب اعدّ لها في هيكله من يوم بالانتقام منها جزاء لنفسها بما فعلت فانّ يواش لما بلغ من العمر سبعة اعوام ٨٧٠ــ٧٧٨ رفع امرهُ يوياداع الكاهن الى بعض ظهراء الجيش الذين تجنح نفوسهم اليه واستنصر اللاويين على تنصيبه فوق سرير الملك فسمحة اذ ذاك

ملكًا في الهيكل فدانت له الرعية ووثقوا به خليفة لداود ويوشافاط ولما ذاع النبأ عنه اسرعت عثاليا على تشعيث المتحالفين له لكنها بدرت اليها الاكف فشدّ وثاقها وقيدت الى حيث غودرت تستقي صاب الردى الزؤام عقابًا على جرائرها المستكرهة اما يواش فاستوى بعدها على صهوة السلطة واعتصم بعرى السنة الموسوية برعى زمامها طالما كان يوياداع الكاهن حيًا فبعد ان فتكت به اظفار المنية افسده المصانعون فعبد الاوثان فشق ذلك على ذكريا الحبر ابن يوياداع واراد ان يونبه فاوعز الى يواش ان ارشقه بالحجارة رجمًا ففعل ذلك نابذًا كل مبرات ابيه ٨٢٣ـ٨٤٠ ولا ريب في ان تلك الجريرة تاتي بعدها العقاب صارمًا فان السريان اوسعوه في السنة الثانية تبريحًا واعناتًا وامتهنه الشعب وقتله آل بيته فخلفه ابنه امصيا فطأطأ له راس العرش سالكًا احسن منه ٨٢١ـ٨٢٩ واما مملكة ايسرائيل فقد وهن حولها وطولها لكثرة ما ارهقها عياء ملوك سوريا وما توالى عليها من الحروب الاهلية لكنها بعد ان اوشكت ان تكون طامسة نهضت في عهد الملك ياروبوعام الثاني الذي جرّ رداء السلو على سلفائه بتقواه ٨١٧ـ٨٢٥ واما عزريا اوامازياس بن امصيا فلم تكن احكامه في يهوذا باقل شوكة ومصالًا منه ٨٠٢ـ٨١٠ لكنما عراه بعد ذلك داء البرص منضيًا واقيم عليه التثريب كما انبأنا الكتاب المقدس نظرًا لركوبه في اواخر حياته متن الجرأة على ان يختلس وظائف الكهنة بتقدمته كباء البخور على المذبح العطري عالمًا ان ذلك من الامور التي لا يسوغ لغير الكهنة ان يقوم باعبائها فافرز عن الناس محقرًا طبقًا لما نصته شريعة موسى وان يكن ملكًا فخلفه ابنه يوتام واستوى على طود العز عادلاً يسوس البلاد بكل دراية ودراية وقد شرع الانبياء في عصر الملك عزريا ان يكتبوا نبواتهم اكتتابًا في اسفار خاصة ويتركونها في الهيكل رغبة في ان تكون آثارًا قديمة للاجيال الآتية واعظمهم هوشاع واشعيا واما النبوات الصغيرة التي كانت تتلى شفاهًا على المسامع فقد اثبتت حسب المعتاد مع حوادث العصر في دفاتر الهيكل وتجددت في سنة ٧٧٦ العاب الالمبياك التي انشأها هرقل بعد ان كانت مطوية في غابر الايام ملغية زمنًا مديدًا فتأتى لنا حسابه الاولمبياد باعادة الالعاب الالمبياك ومن ذلك الحين كان حسبان اعوام اليونانيين واليه كان انتهاء الآجال التي يصفها فرون العالم انها خرافية فان التواريخ الدنيوية كانت الى ذاك الحد مشوهات بالخرافات ولم يكن لها نظام سديد ومن ثم

حصل شروع في قصص الحوادث التاريخية بكل تحرٍ وتدقيق واشتهرت الالعاب الاولى بانتصار كوريب وكانت اذ ذاك تتجدد كل خمسة اعوام او بعد مضي اربع سنوات كاملة ولقد كان يصير الاحتفال ثمة امام اليونانيين في بادىء الامر في يزام في ايد وكل من دانت له النصرة ظافرًا قابلة المشاهدون بتصفيق الاكف وضجيج الاستحسان يضعون على راسه اكليلا وبناء عليه كانت تلك الالعاب مرعية بعين الاعتبار لانهم كانوا يزدادون بها قوة وتهذيبًا وفي ذاك الوقت كانت ايطاليا ترفل باثواب الخشونة والتغول وكانت للملوك اللاتينيين الذين هم من اخلاف اينه حيازة على مدينة الب واما فول فقد كانت له صولة الملك على الاثوريين وزعم الناس انه كان ابًا للملك سردانابل الذي يلقبه الشرقيون حسب عادتهم بساردان بول اي ساردان بن بول وظن ايضًا ان الملك بول اوفول الذي اعتريه سرير الملك في نينوا تاب هو وشعبه عن سيئاتهم تنفيذًا للانذار الذي اوعز به اليهم يوناس النبي وقد حملت هذا الملك الثورة التي تعناها الملوك الاسرائيليون على ان يشنّ عليهم الغارة ٧٥٨ـ٧٧١ بيد ان مخيم احمد جذوة غضبه فاقامه سردانابال على اريكة الملك فجازاه مخيم على ذلك بالف وزنة ابريزية وفي عهد ابنه سردانابال واخر ولاة لكمنون على الاثينيين اخذ هؤلاء الذين قد اغرتهم العادة بان يجنحوا حينًا بعد حين الى الحالة الجمهورية يوجزون الادارة الاركونية وافضى بهم الامر بعد ذلك الى ان يحصروها في عشر سنوات وكان اول من حكم على ذلك النمط شاروبس

واما روميلوس وريموس اللذان هما من ذرية ملوك الب لامها ايليا فقد اقاما ثانية نيميتور جدهما حاكمًا على مملكة البوهو الذي كان اخوه اميلوس قد نزع الملك من يده ومن ثم شادا اعمدة رومية في عهد يوتام الذي كان وقتئذ متبوءًا تخت يهوذا.

العصر السابع

روميلوس او تشييد مدينة رومية

ان مدينة رومية التي كانت تروم ان تجعل العالم تحت حيازتها وتكون مقرًا للدين ترعاه حقبة انتهاكه قد تأسست في ثالث سنة من الاولمبياد السادس وفي نحوسنة

اربعماية وثلثين بعد فتوح مدينة ترواده العظمى التي يعتقد الرومانيون انها جرثومة لاجدادهم وفي سنة سبعماية وثلاث وخمسين قبل المسيح ٧٥٤ـ٧٥٣ وان روميلوس الذي ترعرع بين الرعاة القساة القلوب مارنا على الحروب قد كرس هذه المدينة لاله الحرب الذي كان الناس يزعمون بانه ابوه وقد حدث في حين بناء رومية طموس مملكة الاثوريين الاولى وذلك بسبب خمول رأي سردنابال ووهن قواه ٧٥٩ـ٧٤٨ لان المادبين الذين كانت تطيب نفوسهم بزئير سعير الحرب طغوا وتمردوا على ذلك الملك المخنث واصبحوا انموزجًا بامتهانه لدى الرعية وكان السبب في إثارتهم عليه ارباس والبهم فلما شعر شعبه بثورة الثائرين وتردهم اقتدوا بهم هائجين وجاهروا بعدم الرضوخ فلما راى ذلك منهم صغرت لديه نفسه وكبر الامر عليه فذهب الى عاصمته نينوا والقى بنفسه الى النار وبخصيانه ونسائه فماتوا جمة حريقًا فتكونت من خراب هذه الدوكة ثلاث ممالك عظيمة واما مملكة المادبين التي كانت عرضة للتنكيل فقد القى عنها ارباس او ورباس المدعو لدى البعض بفول نير الاسترقاق وبعد ان شوهتها النظامات الفاسدة قبض زمامها ملوك اشداء وفضلاً عن ذلك ففي الحال بعد حكم سردانابال ٧٤٧ـ٧٥٩ نشأت للاثوريين مملكة اخرى استمرت نينوا حاضرةً لها ومملكة اخرى لبابل فانهما لملكتان تناقلت ذكراها موءلفات المورخين الدنيويين واشتهرتا في صفحات التاريخ المقدس فمملكة نينوا الثانية شادها تجلث بن فلاسر وبناء على ذلك دعي حسب عادة الشرقيين تجلث فلاسر ولقب بنبنوس الحديث واما مملكة بابل فقد شادها بالادان الذي بلغة اليونان بلزيس لكنه مشهور بلقب نابونصر ولقد كان ذائع الصيت واشتهر لدى بتوليموس والفلكيين الذين يجعلون حسبان سنيهم من عهده .

ومن الامور التي ترفعت اهميتها ان ننوه ان الحسبان او تعداد الحوول اصطلاح يتخذه بنو الانسان يبتدىء في وقت موجل قد اشتهر بحوادث ذات بال حملت الناس على ان تنتبه اليه ولقد كان آحاز ملك يهوذا غائصًا في لجة الكفر والشقاء فانقلب الى وهدة الضيق والازمة الشديدة فقد ضايقه راسين ملك سوريا وفاقح بن رمليا ملك اسرائيل بالزحف عليه فناضلاه شديدًا ولم يحملها على ارغام انفه الا دعوة من العزة الصمدية فبدلاً من ان يستنصر الله الذي اثار عليهم هذين العدوين ليعاقبهما على شره التجأ الى تجلث فلاسر ملك الاثوريين الاول ٧٣٥ـ٧٤٠ فاوهن هذا الملك مملكة اسرائيل

وطبق معاقل مملكة سوريا فاضمحلت به اضمحلالاً وفي الوقت نفسه نهب مملكة يهوذا التي كانت قد استنجدته ولذلك هب ملوك اثور مستيقظين واهتدوا الى بلاد اسرائيل فاتحين ففتحها شلمناسر بن تجلث فلاسر وجعلها عافية دارسة ٧١٨ـ٧٢١ اما هوشع ملك ابسرائيل فقد كان يامل ان سيكون اوسو ملك ايتوبيا الذي فتح مصر ان ياخذ بيده بيد انه ولو كان عظيم الباس والصولة فقد ضاق ذرعًا عن ان ينقذه من ايدي شلمناصر واما الاسباط العشرة فلما اضحت عبادة الرب في درجات التلاشي والاهمال سيقوا الى نينوا وتبددوا ايدي سبا بين الوثنيين وتواروا عن الوجوه فلم يبق للعيون سبيلاً لان ترى لهم اثرًا او عينًا وبقي منهم عدد نزر ظل ممتزجًا باولاد يهوذا فاضحوا جميعهم قسمًا صغيرًا من مملكة اليهودية وفي خلال ذلك مات روميلوس ٧١٥ وقد كان ذلك الباسل الصنديد يقضي ايامه في مقاواة الصعاب لا ينفح نائبة الا اذلها ونال بها لواء النصر ولقد كان في عرض بهافته على تاجيج نيران الحروب يشيد قواعد للدين ويسن نواميس لمرئوسيه يتسننون بها ولما سادت السكينة وخففت الوية السلام في عهد نيا خليفته تخذ له ذريعة يتذرع بها الى نفة اعمال روميلوس فوطد اركان الدين ودمث اخلاق الرومانيين بعد ان كانت في حالة الخشونة والتغول وقد انشأ في ايامه المهاجرون الذين اتوا من قورنتيه ومن بعض مدائن اخرى في بلاد اليونان سيراكيز في جزيرة سيسيليا وكروتون وتارنت ولربما يكونون قد شادوا مدنًا اخرى في انحاء ايطاليا التي لنبها رحل اقدم منهم قاطنون في تلك الانحاء ببلاد يونان العظمى وفي ذاك العصر كان حزقيا افضل الملوك طرًا واعدلهم بعد داود حاكمًا في يهوذا فحاصره في اورشليم سنحاريب بن شلمناصار وخليفته وضيق عليه بجيشه العظيم لكنما ملك الرب اباد الجيش في ليلة واحدة ٧٠٧ـ٧١٠ ولما راى حزقيا تلك النعمة التي بعث بها اليه العلي رضخ وعرف مقدار المنة فتعبد لله هو وشعبه بامانة صادقة وسريرة خالصة وبعد ان افتقدت يد الرب نفسه ٦٩٤ـ٦٩٨ نسي شعب اليهودية في عهد ابنه منسى الناكر الجميل خالقهم واخذوا يفسدون في الارض ويتدنسون باوحال المنكرات وزادت قبائحهم واخذ في ذلك العصر الحكم الجمهوري ينمو بين الاثينيين الذين طفقوا ينتخبون الاركونت كل سنة وكان اول من تسلم زمام ذلك المصال كرهون ٦٨٤ـ٦٨٧ وبينما كانت القبائح والكفر تمتد في اليهودية كانت شوكة ملوك الاثوريين المزمعين ان

ينقموا منهم تعزز في عهد الملك آصرحدون بن سنحاريب وضم هذا الملك مملكة بابل الى مدينة نينوا ومدّ شوكتهُ في اثيا الكبرى كما كانت انفًا شوكة الاثوريين ٦٨٠–٦٨١ اما الماديون فقد شرعوا ان يعززوا شوكتهم و يرهبوا بها المتشوّفين اليها فانشأ ملكهم الاول ديجوسّس الذي بزعم بعض المورخين انهُ ارفكساد المذكور في سفر يهوديت مدينة اكبتان المشهورة واقام لهُ ركنًا لمملكةٍ عظمى فاصطفاه الماديون عليهم ملكًا جزاء على ما اناهم بهِ من الامتنان ورجاء ان يدرأ كل شغب انبث بينهم من عدم النظام وقد اصبحوا وهم تحت قيادته لهم القوة على اذلال ما يجاورهم من الاعداء لكنما ملكهم كان غير رحب وشوكتهم غير ممتدة وامّا مدينة رومية فقد كانت في ذلك الوقت مائلة الى النمو على مهل في عهد تولبوس اوستيليوس ملكها الثالث ٦٧١ وتنكست اعلام مدينة البا بانتصار الاورياس على الكورياس وانحاز سكانها الى رومية الفائزة وتوسعت بذلك دائرتها وتقوّت شوكتها وكان اول من ألمع الى توسيع المدينة على ذاك النمط رومبلوس فانه احاز اليها السابيتيين وكل الشعوب الذين ذللتهم ايادي الغلبة فبعد ان انضموا الى قلب المدينة لاحت على اجبنتهم سمات السرور والجذل وجعلوا ما تجشموهُ من المكائد والاعنات نسيًا منسيًّا واصبحوا رعاة امناء لرومية . وكانت هذه المدينة تنظم جنودها وتحسن داخليتها كلما كانت تزداد بفتوحاتها وقد شرعت تعتصم بوثاق ذلك النظام في عهد الملك اوشليوس فان ذلك قد جرها الى ان تملك العالم قاطبةً

واما مملكة مصر فبعد ان لعبت بها ايدي الشقاق واحدقت بها النوائب من كل جانب نهضت من حضيض الخسف والخمول وتجددت قوتها في عهد الملك بسامتيك ٦٧١–٦٧٠ وهذا الملك الذي قام بناصرهِ اليونانيون والكاريون وطئهم في مصر وقد كانت لا تطأها ارجل الاجنبي الى ذاك الحين لكنما ذلك زال منها بعد ان تسلم حكمها هذا الملك الرصين وبسبب ذلك جعل الصلات التجارية بين المصريين واليونانيين ومن ثمَّ اصبح تاريخ مصر صادق الرواية حقًّا بعد ان كان مشحونًا بالخزعبلات التي كان يفترحها الكهنة كما قال هيرودوت

وقد كان ملوك الاثوريين ينمون شوكة واقتدارًا الى ان اصبحوا رعبةً وارهابًا للشرق كافة وقد ظهر على اركسفاد ملك الماديين في موقعة عظيمة ساوسر يشان بن اصرحدّون الذي روي عنه انهُ بختنصر المنوه عنه في سفر يهوديت ٦٥٧–٦٥٥ وان هذا الملك

المستولي عليه وان لم يكن ديوجيس نفسه اول من اقام اعمدة اكبتانا فمن المحتمل ان يكون ابنه فراهورت او افراهورت الذي اقام اسوارها ولما راى ذلك الملك الاثوري الجبار ان المنعة دانت له والفوز اصبح رقًّا يلبي مقاله سولت لهُ نفسه على ان يفتح الارض برمتها ٦٥٤–٦٥٦ فجدّ يطوي الارضين الى ان وصل نهر الفرات فعبره ويخرق في البلاد عاثيًا من الموضع الذي خرج منهُ الى ان وصل الى اليهودية واما اليهود ولو كانوا في ايامهم السالفة اهاجوا ضدهم غيظ الله بكثرة جرائمهم وعبدوا الاصنام امتثالاً لفساد منسى الملك لكنهم تابوا فيما بعد واباهُ وبناء عليه قد ترأف عليهم الرب واظلهم تحت ستر حمايتهِ ولذلك قد توقف بختنصر وقائد جيشه اليفانا عن الفتح بواسطة امرأةٍ صدتهما عن اتمام ذلك ولو كان ديجوسيس قد تنكل تحت صدمات الاثوريين فان الماديين اصبحوا بعد موتهِ يعرجون في سلم النجاح والتقدم في عهد خلفائهِ وبينا ان فراهورت ابنه وحفيده يقمعان الفرس ويمتدان على بساط الارض فاتحين من اسيا الصغرى الى شواطي نهر الهاليس كانت مملكة يهوذا قد شاهدت نهاية ولاة آمون الشقي ابن منسى ٦٤٠*٦٤٢ وكان يوشيا بن آمون برًّا فاضلاً صدوقًا من صغرسنهِ وقد اخذ وقتئذٍ يصلح الشوائب التي اتى بها جهد الملوك اسلافه ٦٣٩*٦٤١ وقد انتصب انكوس مارسيوس على عرش رومية التي ثابرت على ان تقمع بعض شعوبٍ لاتينية : وتضمُّ اليها اعداءها لتجعلهم من قاطنيها وتكتنفهم تحت اسوارها واما سكان مدينة فيه فقد تكبدوا خسائر جمة في عهد خلفاء الملك رومبلوس الذي اذاقهم في ما مضى شدة الهول والنصب وقد اخذ انكوس مارسيوس يمدّ فتوحاته في البلاد الى ان وصل الى ساحل البحر الذي بداني رومية واقام اذ ذاك على ضفته مدينة وستي لدى مصب التيبر وفي ذاك الحين اغارنبو لاصار على مملكة بابل ٦٢٦ بيدَ ان هذا الخائن الذي اقامه شينالادان اوساراك وسلمهُ قيادة جيشهِ امل ان يرهق سياكسار ملك الماديين قد اتحد مع استياج بن سياكسار وقبض عليه في نينوا وادمرها بعد ان كانت متسلطة على المشرق وذائعة الصولة في اقطار البسيطة وجلس اذ ذاك على عرش مولاهُ . وكانت بابل ترفل برداء التيه والكبر في عهد هذا الفاتح المطاع . ولما تكاثر العثيان والفساد في اليهودية اصبحت عرضة لما بداهها من الغوائل ولهذا خيف عليها من كل نائبة ملمة وسنة ٦٢٢–٦٢٤ توقف غضب الرب عن ان يباده يهوذا نظرًا لما كان عليه يوشيا الملك من خفض الجناح وطول الاناة بيدَ ان

المفاسد فشت في عهد اولاده ٦٠٩-٦١٠ وبعد ان مات نبو بولصر خلفه ابنه نبوكودنصر الثاني وانه كان هيابًا يفوق اباه ترويعًا ٦٠٥-٦٠٧ ولقد تمادى باعتزاز النفس والخيلاء وحنكته الايام المرهبة التي التظى بها سعير النوائب ففتح فتوحات عظيمة شرقًا وغربًا ولقد سوّلت له الحوباء على ان كل من يطأ الارض لابدّ ان يكون تحت نير عبودية بابل وتمّ ذلك الوعيد والانذار فان اورشليم فتحت ابوابها له لما رآنه مقبلاً عليها وولجها ثلاث مرات اولاً في ابتداء ملكواي في السنة الرابعة من حكم يوياقيم الملك ومن ذاك الان يجري تعداد السبعين عامًا لسبي بابل الموعز اليها في سفر ارمياء النبي وثانيًا في عهد الملك جكونياس اويوياكين بن يوياقيم ٥٩٨-٥٩٩ واخيرًا في عهد صدقيا الملك ففي هذه المرة طبق اسوار المدينة وطمس معالمها واحرق الهيكل واستاسر الملك الى بابل وسرايا الكاهن واكثر الشعب ٥٨٧-٥٨٨-٥٩٨ وقد كان اشهر هولاء الاسرى حزقيال ودانيال والفتية الثلاثة الذين لم يكن من وسع نبوكودنصر ان يجعلهم يعبدون تمثاله ولا ان يحرقهم بلهيب الاتون وكانت في ذاك الان بلاد اليونان زاهية زاهرة وحكماؤها السبعة يتأرّج ذكرهم في ارجاء الكون وكان سولون احد الحكماء السبعة يسن نواميس للاثينيين قبل اندراس اورشليم بزمان قليل ٥٩٤ وقد كان يجعل للحرية ركنا هو العدل وفي ذلك الان هاجرت اول نحلة من الرحل الفوسيين القاطنين بلاد ايونيا الى مرسيليا ولما تظفر تركان القديم ملك رومية وبرّح بقسم عظيم من بلادتوسكان واخذ يزين حاضرة ملكه ويدّخر لها عمارات كثيرة انقطع وريد ملكه ٥٧٨ وجاء في عصره الغوليون وكان مقدمة طليعتهم يلوفيس فحلوا في نواحي نهر البو في ايطاليا ولقد كان في اثناء ذلك اخوه سيجوفيس قاصدًا جرمانيا وتحت قيادته نحلة كبيرة من تلك الأمة ٥٦٦ واما سرفيوس تليوس خليفة تركان القديم فقد نظم الاهلين ورتب لنفوسهم حسبانًا وعليه اصبحت رومية ذات نظام بينٍ كبيت خاصٍ واما نبوكدنصر فقد حسن مدينة بابل وزينها ولا ريب في ان بابل كانت في ذاك الان تجذب اليها غناء الشرق وغنائم اورشليم بيد انها لم تلبث متمتعة بتلك الغضارة اياما مديدة فانها انحطت عن مقلعها السامي وتهورت الى دركات الذل وقد شاهد ملكها الجبار المهاب قبل انقضاء اجله خرابها الذي كان على واشك الحدوث ٥٦٢ فان ابنه افيلمرودا ك الذي مقته رعاياه لكثرة رذائله لم تدم له ايام السلطة فان نريكليسور صهره قتله واختلس بذلك

ملكه ٥٦٠ وقد كان في الحين ذاته بيزيسنراط يتصدى لاختلاس السلطة السامية في اثينا ولبثت تحت يده ثلاثين عامًا رغمًا عن نوائب الدهر ورزاياه وخلفها بعد ذلك لاولاده فلم يكن للملك نريجليصور ان يحمل شوكة المادبين التي كانت لا تبرح تمتدّ في الشرق ولهذا شهر عليهم الحرب وبينما كان استياج بن سياكسار الاول يحتفز للمدافعة اغتالته براثن الردى فخلفه ابنه سياكسار الثاني الذي يدعوه دانيال داريوس ملك المادبين فاخذ حينئذٍ يتخطى طرق المدافعة فاقام قورش ابن اخته منذان قائدًا على جيشه ابن كمبيس ملك الفرس الذي كان وقتئذٍ خاضعًا لسلطة المادبين ٥٥٩ ولم يندّ عن المعرفة ان شهرة قورش التي بانت في حروب متباينة سارت بها الركبان ودوخت الاقطار والامصار في زمان جده استياج فجعلت اكثر ملوك الشرق يرزحون تحت راية الملك سياكسار وسنة ٥٤٨ قبض قورش على كرزوس ملك ليديا في عاصمته وسلبه خزينته العظيمة وبدد الذين يحالفون ملك بابل على العهود وجعل شوكته سائدة في سوريا واسيا الصغرى ٥٤٢ ثم تقدم الى بابل وفتحها ٥٣٨ واطلق لخاله سياكسار السلطة عليها ولما اصبح هذا الملك في امتنان لافعاله وامانته كافأه بان زف اليه ابنته وريثته الوحيدة وفي عهد الملك سياكسار ٥٣٦*٥٣٧ كان دانيال النبي الذي تخيره الله ليكون نبيًا يحل غوامض الخفيات ذائع الصيت كما كان في عهد اسلافه فرأى ان كثيرين من الملوك والممالك كعابرين السابلات امامه ورأى اخيرًا سبعين اسبوعًا كانت دليلاً على وقت مجيء المسيح وحالة اليهود فان تلك الاسابيع تدل على الاعوام ومحصل مجموعها اربعماية وتسعون عامًا وكان ذلك الحسبان يستعمله اليهود الذين كانوا يغادرون السنة السابعة دون شغل مثل ما كانوا لا ينهمكون في الاشغال النهار السابع وبعد ان مضت تلك الرؤيا بايامٍ وجيزة عبثت اظافر الحمام بالملك سياكسار ٥٣٦ والملك كمبيز ابي قورش واما الملك قورش المصور فقد ضمّ مملكة الفرس التي كانت الى ذاك الحين منكورة العرفان الى مملكة المادبين التي جعلتها فتوحاتها من السعة غاية كبرى وبناء عليه اصبح قورش مستوليا على كل الشرق واقام له مملكة تستصغر عندها الممالك

ومن الامور التي تستلفت اليها الاحداق لتسلسل الازمنة ان نعلم ان هذا الفاتح اصدر الاوامر من اول ملكه الى من هم تحت امرته ليجددوا في اورشليم الهيكل ويثنوا اليهود الى اليهودية اما الان فليس علينا الّا ان نسرّح طائر الطرف في هذا الان فنراه

زمنًا اصبح حسبانه من المعوصات فيعسر جدًا انطباق التاريخ الدنيوي فيه على التاريخ المقدس واذا حققت ودققت ياسيدي رايت ان ما اخبرتكه عن قورش يباين كثيرًا ما طالعته عن جوستان المورخ الذي لا يذكر البتة مملكة الاثوريين الثانية ولا الملوك الذين تسامت شهرتهم عندهم وذاعت ذكراهم في بابل والكتاب الاقدس وقصارى الامر ان ما انباتك عنه لا يطابق ما يوعز الينا هذا المورخ بشان الممالك الثلاث وهنّ مملكة الاثوريين الاولى التي انقرضت في عهد الملك سردانابال ومملكة المادين التي انقرضت لدى موت استياج جد قورش ومملكة الفرس التي اقامها قورش وطمسها اسكندر المكدوني ويمكن لك ان تستقرىء ما نصه ديودور واكثر مولفي اليونان واللاتين الذين تداولت ايدينا تآليفهم فانك ترى ما يروونه لا يطابق ما نص الكتاب الاقدس فيتضح لديك جليًا ان ما اجروه يقاس على ما اجراه جوستان ومن تصفح التاريخ الدنيوية ورأى ما بينها وبين الكتاب الاقدس مباينة واضحة ليس له حق للدهشة من ذلك فانه اذا تحرى الامر بعين البصيرة راى ان تلك التواريخ نفسها ليس يخلو بعضها من ان يباين البعض الاخر ودليل ذلك ان اليونان رووا عن قورش روايات مختلفة وان هيرودوت ينوه عن ثلاث منها عدا تلك التي اعتمدها هو نفسه ولم يثبت في موّلفه انه تلقفها من رواة اكثر ثقة منهُ اقدمين وقد نبه ان قد اختلفت الروايات على موت قورش فاعتمد هيرودوت رواية زعم انها تقارن الصدق دون ان يبث لنا عنها حجة بينة واما اكزنوفون الذي دوخ بلاد الفرس مرافقًا قورش الشاب اخا ارتحششتا الملك الملقب بممنون قد تشوف الى كل اعماله قورش القديم وتلقن ترجمة حياته من تواريخ الفرس وكل ما رووا عنهُ ومن كان ذا خبرةٍ في الآثار القديمة لا يتمالك ان يجاري القديس ابرونيموس بايثار كزينوفون الفيلسوف الحكيم العريق في مهارة القيادة على كتيزياس الذي لا ثقة برواياته التاريخية وعنه روى اكثر اليونان الذين اخذ عنهم جوستان واكثر موءرخي اللاتين ويوءثر ايضًا على هيرودوت ولو كان موءرخًا يتحرى الامور بكل ضبط واتقان وان ما حملني على ان اعتمد ان هذا التاريخ المسلسل الذي لا يخلو عن مدار صدق الرواية يحوي صفة اخرى تزيده فائدة وهي انطباقه على الكتاب المقدس الذي قد ساد على كل التواريخ اليونانية لسبب قدميته وايعازه عن ارتباط الشعوب اليهودية بالشرقيين فذلك يزيده كمالاً فضلاً عما نقرراته منبعثٌ من

اما ثلاث الممالك الاولى فان كل ما رواه عنها اليونانيون ظهر مشتبهًا لدى اعقلها فان افلاطون لدي كلامه عن كهنة مصر يلوح ان اليونانيين يجهلون بوجهٍ عامّ الآثار القديمة وان ما كتبوه بخصوص الاثوريين لا يحسبه اروسطو الاَّ خزعبلات وما ذلك الاَّ لانهم قد الّفوا موخرًا ولما ارادوا ان يانوا اهليهم الذين يميلون الى ارتياح النفوس بتاليف يتفكهون بها اعتمدوا على تواريخ ليست ثابتة النقل وعكفوا على ان ينمقوا عبارات كتاباتهم دون ان يهتموا بالمصادر الحقة التي لا يشوبها ريبٌ وبهتان .

وما لاريبة فيه ان كيفية ترتيب الممالك الثلاث الاولى يباين واقعيَّ الامر فان اليونانيين بعد ان انقضى ساردانابال والاثوريون يذكرون دولة المادين ثم يعقبونها بدولة الفرس كأن المادين خلفوا صولة اثور وكأن دولة فارس سمت الى ذروة السيادة عقيب ان حطمت شوكة المادين . لكنها دخيلة الامر بعكس ذلك فقد يلوح مقررًا ان ارباس لما اثار المادين متمردين على ساردينابال لم يتقدم من الامر الاَّ ان يطلق لهم زمام العتق دون ان يخضع لهم دولة اثور . وقد يميز هيرودوت نفسه بين حين استقلالهم وحين ملكهم الاول ديجوستاس وكانت فسحة الزمن بين ذينك الحينين نحوًا من اربعين عامًا حسبما قومه ارباب فن حسبان الاعوام . ومن الامور الحقة حسب رأْي هذا المورخ العظيم وراي كزنوفون ضاربين صفحًا عن التنويه عن غيرهما ان قد كان الزمن الذي يعزى لدولة المادين يرى في بلاد اثور ملوكٌ اشداء عظام الصولة يتهيبهم الشرق طرًا وقورش الملك هو الذي قوّض بابل فاتحًا ولو قُدّر ان اكثر مولفي اليونان واللاتين الذين تبعوهم لا يذكرون ملوك بابل ولا ينسقون هذه المملكة القوية في مرتبة الممالك القوية الذين يدنون منا النبأ عنهم وان لم نعثر في تآليفهم على امرٍ هامٍّ يتعلق بهولاء الملوك المشهورين كتيجلت فلصرٌ وسلمنصر وسنحريب ونبو خذنصر والملوك الذي ينوه عنهم الكتاب الاقدس والتواريخ الشرقية فليس علينا ان نعزو ذلك الاَّ الى جهل اليونان الذين يجهدون في ان يعتمدوا على الفصاحة اكثر من اعتمادهم على تحري الحقيقة في رواياتهم او ان نعزوه الى فقدان كتبهم التي ربما كانت محرّاة ومدققة .

وذلك ان هيرودوت كان قد اعلن انهُ يبرز الى عالم الوجود تاريخًا يتعلق بمملكة الاثوريين ومع ذلك فلم نرهُ عيانًا فليس لنا يوعلم هل قصر عن الوصول الينا او ان

بد الفقدان قد اغتاله او الظروف لم تسمح له بتاليفه ولو قدّرنا وجود ذلك التاريخ لقدرنا انه يتضمن الكلام عن ملوك دولة الاثوريين الثانية لان احدهم سنحريب قد ذكر عنه انه كملك للاثوريين والعرب في مولفات هذا المولف المتصلة الينا وقد نقل سترابون الذي كان في عهد اوغسطوس ما يرويه مكاستين المورخ القديم والداني من عصر الاسكندر بشان فتوحات نبوخذ نصر ملك الكلدانيين المشهورة مبينًا انه عبر اوروبا ووصل اسبانيا بالاسلحة الى عواميد هرقل واما ملك اثور الذي يدعوه المولف دميان تبلغاموس فهو دون ربة الذي يدعوه الكتاب المقدس تجلث وبرى في بتوليماوس تعداد الملوك الذين حكموا في الممالك العظام ومنهم جمٌّ غفير من الملوك الاثوريين الذين يجهل معرفتهم اليونانيون ويسهل مطابقتهم للكتاب المقدس ولو استقرانا كل ما رواه مورخوا سوريا كبروز وايبدانوس ونيقولا الدمشقي لضاق دوننا المقام باسهاب العبارة. فاذخر لنا ازيبوس القيصري ويوسيفوس المورخ نبذاتٍ ذات فائدة عميمة سمحت بها افكارها وافكار غيرها الذين كانت تاليفهم لم تبرح في ذاك العصر وان ما يذكرونه ينطبق على كلام الكتاب المقدس بالنظر الى الامور الشرقية القديمة ولاسيما على تواريخ الاثوريين

واذا احدقنا النظر في دولة الماديين التي يحسبها اكثر المورخين الدنيويين في المرتبة الثانية اذ يعدون الممالك العظام ويجعلونها كانها منفصلة عن دولة الفرس فاننا نرى اذ ذاك ان الكتاب المقدس يجعلها دولةً واحدة ولذلك ترى ياسيدي ان تسلسل الحوادث ذاتها يحملك على ان تستقصي هذا النمط فضلاً عن استنادك على الكتاب المقدس وان الماديين وان كانوا وصلوا الى درجات الشوكة والعظمة قبل قورش الملك فان بابل كانت لها شوكة عظيمة تسود قوةً واقتدارًا واما قورش فانه كرَّ على بل كرَّة ضافرةً عليها الماديون والفرس ففتحها فتحًا مبينًا وقضت له الاقدار بان يمسي ملكًا على الشعبين بخلافة شرعية تطبيقًا لما اوعزنا اليه فيما مضى حسب ما رواه كزنوفون ولقد اتضح ان تلك المملكة العظمى التي اقام عمادها ذلك الاصيد البسول قد تلقبت باسم الاثنين وبناءً على ذلك فقد اصبحت دولة الماديين ودولة الفرس امرًا واحدًا فسرًا عن مجد احشوروش الذي جعل اسم الفرس متغلبًا

وقد يسوغ لنا التفدبران ملوك الماديين قبل ان برّحوا ببابل وفتحوا مغلقاتها اتسع

نطاق حكمهم من جهة عمارات اليونان في اسيا الصغرى فذاع كما ذكرهم لدى اليونانيين وعزوا اليهم الاحكام في اسيا الكبرى وايقنوا انهم الملوك كل الملوك ولم يبقوا في خزينة البال لغيرهم من ملوك الشرق زاوية

ومع ذلك فان ملوك نينوا وبابل الذين تسامت عظمتهم واصبحوا ذوي شوكة تفوق شوكة الماديين لم نر لهم في ما وصلنا اليه من تواريخ اليونان ذكرًا بينًا وما ذلك الّا لانهم كانوا منكورين لديهم وما يوّبد مصداق المقال ان العصر الذي خلى منذ سردنبال الى قورش نوهُ الى الماديين وحدهم. ولهذا لا تجدُ الفكرة ياسيدي حتى تقابل ما بين التاريخ الدنيوي والتاريخ المقدس لان التاريخ المقدس ليس فيه شيءٌ من متعلقات الاثوريين الّا كلمةٌ مفردةٌ ليست مقصودة ولا يعرض بذكر نينوس موصل دولتهم ولا باحدٍ من خلفائهِ الّا فول وما ذلك الّا لان تاريخهم لاعلاقة له بتاريخ شعب الله واما دولة الاثوريين الثانية فليس عندنا من النباء عنها ما يزيد الامر جلاءً فلا نفقه هل اليونان جهلوا امرها او البسوها رداءَ الدولة الاولى لسبب ما شطوا عنها معرفةً وعلمًا ولربَّ منتقدٍ ما قيل يستند على مولفي اليونان الذين سوّلت لهم النفوس على ان ينظموا الممالك الاولى الثلث حسب اهوائهم واميالهم وطفقوا يذكرون ان الماديين يخلفون الاثوريين الاقدمين دون ان يذكروا البتة الدولة الثانية التي انبأَ عنها التاريخ المقدس انها موثلة المجد ورفيعة المثابة. واذا كان الامر على هذا النمط فيكون منا الرد على ذاك الانتقاد قائلين ان اليونانيين لم يعرفوا من ذلك التاريخ فصلاً ينيطونه بهذا المعنى وانهم يناقضون بما يرونهُ ما اودعهُ الكتاب المقدس وما نصهُ المورخون المشترعون المدققون الذين هم من اترابهم واليهم ينتمون

وبايجاز القول نحلُّ هذا المشكل قائلين ان المورخين الدنيين كانت اعصارهم ومعاهدهم اقرب من سواهم من الممالك الشرقية وفضلاً عن ذلك احرزوا تاريخًا لشعب الله الذين لم يكونوا منفرزين في شوونهم عن الممالك العظيمة وان لم يكن التاريخ المقدس مجملاً الّا بهذه السمة فكفاهُ بان يقضى به على اليونان ومن قفاهم من اللاتين بالصمت مخلدا.

ومع ذلك فلو اصروا على ان يرعوا لتلك الممالك الثلث نظامًا ويحتسبوا الماديين في المرتبة الثانية ويجعلوا ملوك بابل رازحين تحت نير شوكتهم رضوخًا مقرين ان اولئك

يزحزحون عن عواتقهم بعد ماية سنة اثقال العبودية متمردين لرعوا بنوع تسلسل التاريخ المقدس ولكن هذا ليس يطابق لما نصهُ المورخون الدنيويون العظام الذين يدنو من اجلهم التاريخ الديني الذي تكون فيه دولة الفرس والماديين في سلك واحد ومن الامور التي تويد المقال بان التواريخ القديمة عرية عن الجلاء والوضوح هوان ملوك الشرق جرتهم العادة الى ان يتلبسوا باسماء كثيرة والقاب جمة تنسي المتشوفين اليهم اسماءهم الخاصة ولقد كان الناس يلهجون بها ويلفظونها بانواع مختلفة حسب اختلاف اللهجات وبناء على ذلك لم يبق لتلك التواريخ الا ادلة نادرة تدل عليها فاصبحت في حيز الابهام ولا ريب في ان اختلاف التلفظ بتلك الالقاب ارخى سجاف الريبة وهوش اسماء باسماء والقابًا بالقاب ولهذا شق علينا جدًا ان نثبت في تاريخ اليونان الملوك الذين تلقبوا باسم احشوروش وهواسم يجهله اليونانيون ويعرفهُ الشرقيون . ومن ذا الذي يخالج فكرهُ ان كياكسار هواسم احشوروش نفسهِ فانهُ مركب من كلمة كي اي سيد ومن اكسار كلمة تدل على لقبه فاذا امتزجا معًا تحول بحسب اختلاف الترجمة الى كسيوروس او احشيوروش

وقد تلقب ثلاثة ملوك او اربعة بلفظة احشوروش وهم ملقبون بخلافها وبدل على ذلك ان داريوس المادي قد كان يلقب باسباروس او احشوروش ودلائل كثيرة كانت تدل على انهُ كان ملقبًا باحدهذين الاسمين

ولو لم يصر الإلماع بان نبو قودونصر ونبو قودونصر ونبوقولصر اسماء لمسمى واحد لشق على الذهن الوقوف على الحقيقة بيد ان ذلك لم يخامرهُ بهتان ولا تمويه فان لفظة نابو هي اسم مطلق لكل من الالهة التي يتعبدها الناس في بابل وقد جرت العادة بان يضيفوها الى اسماء الملوك حسب روح اللغات ويعتريها التحريف لكثرة ما يطرأ عليها من اختلاف اللهجات فان ساراكون هو سنحريب نفسه واوزباس هو ازاد ياس وسيدسياس هو ماتانياس ويواكيم هو سيلم وقد ظن ان سوءاوسيا هو سياكون ملك الحبش واسرحدون الذي يلفظ بانواع مختلفة هكذا : إزرحدون اوازور حدون يدعوه الكوتيون اسنفر ويظن ان سردانبال هو الملك نفسه الذي دعاه بعض المورخين ساراك ويعرف هذا الاسم عند اليونان باسم تونوس كونكوليروس وانهُ لاسم خفيت عن المحققين حقيقته . وقد نوهنا سابقًا ان سردانبال هو ساردان بن فول اوبول

ومن يعلم ان فولا المذكور في الكتاب المقدس ليس هو الملك فلصر نفسه فان اسماء الملوك بعد ان تناقلتها اقلام المترجمين اخذ التحريف يعتريها فمنهم من كان يختصر الالفاظ ومنهم من كان يطيلها ويردفها بما يقتضيه اسلوب اللغة وعلى ذلك لا يبعد ان يكون تجلت فلصر اي تجلت بن فلصر احد اولاد فول الذي هو اشد من اخيه سردانبال ولذلك رعى جزءًا من المملكة التي اختلست من بيت ابيه وليس يصعب علينا ان نأتي بجدول عظيم يتضمن كثيرًا من الشرقيين الذين بذكرهم التاريخ اسماء مختلفة فتلك مزية قد الفها اللاتين فانهم قد ازالوا اسماء ملوك جمة عن دائرة وضعها بان الصقوا بها الالقاب والكنى الصاقًا غير مفترق وبناء عليه فقد اصبح لقب اوغسطس والافريقي علمين لقيصر او كتفيان وسيبون واصبح النيرونيون قياصرة فكل ذلك لا يعروجانبهُ شيء من الريب ولا ينال المدقق في شأنه نفعًا كبيرًا ويا لعمري من ذا الذي يغالي في لجة الاستغراب عندما يسمع بعدد الحوول الذي يعزوه المصريون اليهم فليس له اذ ذاك الا ان يتصفح تاريخ هيرودت الذي يوكد لنا بتدقيق وتحرٍ كما انف المقال ان تواريخ المصريين ليست بذات وثوق الا منذ زمن بساميتيك اي نحوًا من ستماية اوسبعماية سنة قبل المسيح

ولا ريب ان من اشكلت عليه معرفة الزمن المعزو الى دولة الاثوريين الاولى ليس عليهِ الا ان يعلم ان هيرودت ذهب الى انهُ محصور في مدة خمسماية وعشرين سنة ووافقه على ذلك ابيون ودانيوس اليكارناس الذي تسامت معارفه في فن التاريخ وطال باعهُ في تاليفه وان استمر احد بعد ذلك جانفًا عن دائرة الحساب السائر قصد ان يستقرئ الحوادث حادثة بعد حادثة والتواريخ التي يخالها حقة تاريخًا بعد تاريخ فيمكن لهُ ان يغالي في الحساب السبعيني الذي غادرته البيعة حسب الاوطار والاميال لتنبه الخواطر الى الملوك الذين دارت رحى احكامهم في نينوا والى السنين التي كانت تتألق بها بروق حولهم وطولهم والى سلالات ملوك مصر باي نوع يود تنظيمها وتاريخ بلاد الصين دون ان يتأتى له جلاء

وليس من دأبي ياسيدي ان اموه فيما بعد على افكارك بصعوبات حساب التاريخ الذي لا تجديك منه منفعة بيد ان الصعوبة التي طرأت لدينا هنا تعيننى على ايضاحها لانها ذات بال واما الان فبعد ان غالينا في سرد ما تقتضيهِ غايتنا المأثورة جدت بنا

الفكرة الى ان نشني الى تسلسل الاعصار مدققين .

العصر الثامن

في قورش او عود اليهود من سبي بابل

(الاجل السادس للعالم)

ان الملك قورش لما انبرى الى رفع عماد دولة الفرس دبت الغيرة في فواده جاهدًا واصدر الامر الى ظهرآئه وحواشيه حسب اصطفاه العلي له لينقذ شعبه من مخالب الرق ويشيد هيكله الاقدس وقد كان ذلك في سنة ٢١٨ بعد بناء مدينة رومية وسنة ٥٣٦ قبل المسيح وسنة ٧٠ بعد سبي بابل . ولما ذاعت اوامره في الاقطار والامصار وقرعت عواقبها ابواب الاذان عاد زربابل ويشوع بن صادق عظيم الكهنة بالاسرى فشادوا الهيكل الثاني واقاموا رميم المذبح واما السمرة الذين طالما احتدمت في افئدتهم نيران الحسد عليهم فقد رغبوا في ان يضافروهم على ذلك العمل المبرور متفقين معهم بوحدة الكلمة والرأي ولذلك هرولوا الى زروبابل طالبين اليه ان يوذن لهم باسعاده على بناء الهيكل بحجة انهم يعبدون اله اسرائيل وان خلطوا بعبادته عبادة الهتهم الكذبة لكنما اولاد يهوذا سئمت منهم نفوسهم ضجرًا وعيًا وأنفوا من تلك العبادة المجتزئة فرفضوا طلبهم واقاموا عليه نكيرًا ٥٢٠ فلما تحقق ذلك لديهم ورأوا خيبة مسعاهم جدوا في احياء الخنيلة والخداع ونصب حبائل المكر وتظاهروا بالعسف والجور. واما في رومة فبمقربة من ذلك الان عزم سرفيوس توليوس بعد ان اوسع اسوارها وابذخها ان يجعل الحكم فيها جمهوريًا لكنّ مسعاه اصبح حابطًا فانهُ قتل وهو خائض في غرب ذلك الفكر براي ابنته واوامر صهره تركوين المتجبر ٥٣٢ فحكم حينئذٍ هذا الجائر عاتيًا واستمر طويلاً يعثو في الارض مفسدًا واما دولة الفرس فاستمرت تتقوى يومًا بعد يوم وامتدت شوكتها في الاحياء والانحاء وتعزز مصالها في قلوب الاولياء ففتحت المدائن وفضلاً عن انها رفعت لواء سطوتها فوق اقاليمها الجمة في اسيا الكبرى رضخت لشوكتها اسيا السفلى الشاسعة البرور وطأطأت لها روؤس الاعراب والسريان ومع حرص المصريين على شرائعهم رضخوا الى سنتها وحافظوا على نظامها ومبادئها وكان الفتح ٥٢٥ بواسطة كمبيش

بن قورش بيد ان ذلك الملك الذميم لم يحيَ طويلاً بعد موت اخيه اسمرديس الذي قتلهُ خفيةً تتميمًا لما بدا له في حلم ذي غموض ٥٢٢

واما اسمرديس المجوسي فقد تولى الملك حقبة بلقب اسمرديس اخي كمبيس ولما نضيَ عنه غشاء النفاق توامر على قتله سبعة من الامراء فاهرقوا دمه غير ماسوفٍ عليه واستوى واحدٌ منهم مكانه على الفرس ملكًا ٥٢١ يدعى داريوس بن هيستاسب ونص كثيرًا في تواريخه انه متفرد في الشمائل ونزاهة النفس وانهُ اوحد بني الطينة ودلائل كثيرة تدل على انه احشوروش الملك المذكور في سفر استير وقد تم في عهد ملكهِ الهيكل بعد ان كان السمرة ذريعةً للتقاعد عن اتمامه مرارًا كثيرة ومن ذلك الزمن تسعرت لهب البغضاء والقلي بين تينك الامتين فاخذت اورشليم والسامرة تتناظران وتترصد كل الشحناء للاخرى وفي عهد الملك داريوس نشأت الحرية في رومية واثينا ولاح مجد اليونان العظيم لدى القاصي والداني وانقذ ارموديوس واريستوجيتون الاثينيان منبت شعبهما من عتو هيبارك بن بيزيسترات وجوره لكنما تصدّى لهما ظهراؤه المقربون لديه واما توهما بغرار الحسام ٥١٤ واما هيبياس اخو هيبارك فقد شمر عن ساعد العزيمة ليبقى مكانة اخيه فخبط مسعاه وطرده الشعب ممتهنًا ٥٠٩ــ٥١٠ ولم تعد اذنٌ تسمع بجور آل بيزيسترات واعتسافهم . ولما تملص شعب اثينا من وثاق العبودية اقاموا تماثيل تذكارًا لمنقذيهم اللذين زحزحا عن عوائقهم اثقال المكروه وبعد ذلك ازهرت حالة الجمهورية واما هيبياس فاذ راى ان لا امل لهُ بالعود الى وطنهِ الاَّ باعانة الملك داريوس ترامى عليه ملتجئًا فراه على اهبة التسيار الى بلاد اليونان فاتحًا وفي الوقت الذي طرد فيه هيبياس كانت رومية تتحرّر وتمزق عنها رداء الظلم واذ راى الناس استبداد تركوين الجبّار وما سوّلت له نفسه من البوس والسوء كرهوا الحكم الملوكي كل الكراهية وانقاد ابنه سكستوس الى هتك الحرمة وارتكاب الفحشاء فكان ذلك علة تنفيذ دثار بيتهِ فان لكريس التي اغتصبها عراها الخجل والاستحياء وشق عليها الامر فانتحرت فاثار نجيعها وخطاب برتيوس الشعب على كل سلالتهِ وقاموا على قدمٍ وساق وتواثبوا على الملوك فطردوهم مروعين وشيدوا حكم القناصل حسب قصد سرفيوس توليوس ٥٠٩ لكنما الشعب تفجرت في صدورهم ينابيع الحسد فوهنت قوى السلطة وتقلصت الشوكة ومنذ تاسست القنصلية الاولى اساء المرئوسون الظن بفلاريوس الذي

ذاع صيته بنصره المبين وقوة باسه في مساورة العدو ولكظم حنق الاهلين سن نواميس يصير بموجبها احالة الدعاوى من مجلس الندوة والقناصل الى الشعب اذا مست الجريمة احد الاهالي ليكون عليهم اقامة العقاب في حق جريرته واما الملوك المجاورون فلما سمعوا بطرد التركوينيين وجسوا من ذلك خيفة وقالوا ان هذه الفعلة امتهان لنا وخرق لحرمة نواميسنا ولذلك انبروا الى ان يكونوا لهم محامين. واما بورسينا ملك الكلبزيين القاطنين اتروريا فقد استشاط من ذلك حنقًا وتقلد بالسلاح المبرّح وكرّ على رومية متنقمًا ٥٠٧ ولما اصبحت المدينة على وشك الدثار واوشكت ابوابها ان تفتح للعدى نضا هو راسيوس كوكليس الضامي وهجم على الاعداء بقلب اقسى من الصخرة الصماء وقفاه الرومانيون رافعين الوية النصر واظهروا بسالة احيت لهم حربتهم بعد ان كادت تضمحل ومن الامور العجيبة ان شابًا من المدينة يدعى سفولا احرق يده بسعير النار عقابًا لها لانها لم تصب بورسنًا ونالت كليله الفتاة الشهرة العظمى على ما ابدت من الجراءة الفائقة في مضمار القتال وادهشت بورسينا نفسه بفرط بسالتها فافضى به الامر حينئذ الى ان يدع المدينة مضروبًا عليها سرادق الامان فتركها وشانها وبقي تركوين واهل بيته لا نصير لهم ولا معين واما ايباس الذي تحرش للاخذ بناصر الملك داريوس فقد كان امله في النجاح وطيدًا ٥٠٠ لان بلاد الفرس تحفزت لاسعاده على نوال الغنيمة فصارت من ذلك رهبة في القلوب واستنظر الناس شبوب نار محرقة في اثينا وبينما كان داريوس يتأهب لتلك الحرب الهائلة اوشكت رومية ان تهوي الى دركات الخمول هالكة بعد ان كانت دافعت عن نفسها ضد الاجانب فان الحسد الذي تاصل فيها عزز العداوة والبغضاء بين الاعيان والشعب فان سلطة القناصل الباهظة ولو دمها فلاديوس بشر بعنه فقد بقيت ثقيلة على عواتق الاهلين الذين كانوا كثيري الحرص على استقلال الحرية ولذلك نزحوا من المدينة وتوطنوا جبل افنتين ٤٩٣ فقد حاولوا ان ينصحوا لهم بالوعيد فكان ذلك عبثًا لكنما كلام منينيوس اكريبًا الموثر الرائق حملهم على الانثناء لاخوف عليهم ولاهم يحزنون. فالتزم حينئذ الاعيان ان يروا لذلك الداء دواء ويقيموا للشعب محامين ضد القناصل يدافعون عن حقوقهم ودعوا اذ ذاك الشريعة التي صار بموجبها هذا القضاء مقدسة ومن ذاك الان صار المحامون للشعب واعلن داريوس الحرب على اليونان واما صهره ماردونيوس فقد جاز اسيا متوهمًا انه يقمع اليونانيين بكثرة جيوشه

فوافاه ملسياد الى سهول مرتون ومعه عشرة الف محارب من الاثينيين فزارت الحرب بين الفريقين فدارت الدائرة على داريوس وأُذيق مر النكال ٤٩٠ وكانت وقتئذ رومية تظفر باعدائها المجاورين ولم يكن يخشى عليها الا من شقاق اهلها

وكان في ذاك الوقت رجل له الغيرة الصرفة لحزبه الاعيان يقال له كوريولان وهو من اعظم قادة الجيش فبدلاً من ان تؤدى له الكرامة ويثاب على خدمته المخلصة لوطنه حكم عليه بالطرد من حزب الشعب فشق عليه ذلك جدًا وعول على خراب بلاده فجند له عسكرًا من الفولسك ٤٨٩ وزحف على رومية واتاها بالنكبات الوبيلة واغلق عليها طرق الامان مضيقًا لكنما امه طلبت اليه ان يكظم عنها غيظه فكف عن التبريح بها ٤٨٨

واما بلاد اليونان فقد نالت السكينة عقيب موقعة مرتون لكن تلك السيادة لم تبق فيها مديدًا فان كركساس بن داريوس وخليفته وحفيد قورش لامه اطوس عزم على ان ياخذ بثار الفرس وابيه من اليونانيين فجهز من العساكر الهائلة احد عشر كرة اوسبعة عشر كرة على مذهب البعض من المورخين والف من البلائيين

وزحف على اليونان وتاججت مواقد الهيجاء بعد ان سير بحرًا الفًا ومايتين سفينة فيها عسكر كلهم قساور فصلّت الاسلحة وابرقت الاسنة وتطايرت الهامات عن المناكب وانساع الدم على الغبراء غمرًا ومسيلا اما هونيداس ملك سبرتا الذي لم يكن معه سوى ثلاثمائة مقاتل فقد قتل من جيش الفرس عشرين الفًا في مضيق جبال الترموبيل ثم قتل ورفقاؤه طرًا ٤٨٠ واما كسركساس فقد فنيت قواته البحرية باراء تيميستوكل الاثيني في تلك السنة عند جزيرة سلاميني ثم رجع عابرًا بحر الهلسبون والرعبة والخشية تقفوان اثره ولم يحل من ذلك الحين حول الا تصدى لجيشه الارضي ٤٧٩ عند بلاته بوزانياس ملك لاسيدمونيا واريستيد الاثيني المدعو الصديق واعلا به وبقائد ماردونيوس حد الحسام وانتصرا عليه وكان ذلك وقت انبثاق الصباح ولما امسى ذلك النهار الرائع وثب يونانيوا اسيا الصغرى الذين كانوا قد القوا عن عواتقهم نير عبودية الفرس واهلكوا من فارس ثلاثين الف راجل في موقعة ميكال تحت قيادة ليوتشيد

فاشاع ذلك القائد الاصيد خبرًا معناه ان ماردونيوس وجيشه تنكلوا في بلاد اليونان وما ذلك الا ليلقي الجراءة في قلوب جنوده لكنما الاقدار جعلت ذلك الخبر

صادقًا ولم يعلم ان كان علمهُ بوقوعهِ موكولاً الى تواتر الانباء او الى الصدفة الغريبة . ولدن ذلك قطع كل يونان اسيا الصغرى رباط العبودية ورفعوا فوق روؤسهم راية الحرية ودوّخوا الاقطار والامصار وتسلقوا على جبال الغنيمة والانتصار . وقبل ذاك الحين جرعوا القرطجنيين الاشداء وقتئذٍ صاب الذلة في صقليا صاغرين اذ بعثتهم المطامع الذاتية على ان يوسعوا نطاق سلطتهم اجابة لما حضهم عليه الفرس فكان ذلك وسيلة لارهاقهم والايقاع بهم بيدَ انهم قسرًا عمّا احيط بهم من النكبات كانوا لا يبرحون يجدون مقاصدهم في نوال تلك الجزيرة التي تقوي شوكتهم البحرية التي تتهافت على طلبها جمهوريتهم ولم تكن تلك الجزيرة تناط وقتئذٍ الاَّ بعهدة اليونان ولم تكن محدقة الاَّ لجهة الشرق والفرس ولما كان الفرس مستولين على جزيرة قبرص استفزّت الغيرة بوزانياس وملصها من حبالة العبودية ٤٧٧-٤٧٦ ومن ثم قصد ان يجعل وطنه راذحًا تحت نير عبوديته فحبط بذلك مسعاه قسرًا عما وعده الملك كسركساس من النجاح وقد وقعت الخيانة في حقهِ ممن فاق الجميع بوادّتهِ فكانت صبابتهُ المفرطة علةً لموتهِ ٤٧٧-٤٧٤ وقتل ارتبان رئيس شرطة الملك كسركساس في تلك السنة عينها وامر قتله اما لان هذا الخائن ودّ الاستواء على عرش سيدهِ او انهُ خاف قسوته الرائعة لانهُ لم ينفذ بسرعة اوامره الجائرة اما ارتحشتنا الملقب باليد الطويلة ابن كسركساس فقد دانت لهُ هامة الحكم ولم يلبث ان يتبوأ سرير الخلافة الاَّ بعث اليه تيميستوكل بكتاب مآله ان يوازرهُ على اليونان لانهُ كان منفيًا من منبت شعبتهِ ٤٧١-٤٧٣ فتلاين الملك وتساهل في امر هذا القائد الماهر وقرّبه اليهِ ورتّب لهُ راتبًا يقوم باودهِ ونظر اليهِ بعين الرعاية قسرًا عن اوليائهِ الحاسدين وضم الى اكناف حمايتهِ الشعب اليهودي ٤٦٧ وفي السنة العشرين من ملكهِ المشتهرة بما يعزى اليها من الحوادث المهمة اصدر امرًا الى نحميا ان يقيم اورشليم من حضيض دثارها ويرفع اسوارها ٤٥٤ وامر ارتحشتنا بشان ذلك يختلف عن امر قورش لان امر قورش موعز بهِ الى اقامة الهيكل وامر ارتحشتنا الى المدينة وان الاربع ماية والتسعين سنة من حساب الاسابيع تبدأ منذ صدور ذلك الامر المذكور الذي تنبأ عنه دانيال وهو مذكور في نبوته

ولان هذا التاريخ المهم مركنٌ على اساسٍ غير مزعزع وقد نص في تاريخ ازيبوس ان تيميستوكل صار نفيهُ في اخر سنة من الاولمبياد السادسة والسبعين وذلك يطابق سنة ٢٨٠ من تاسيس رومية وفي غيرهِ انهُ أُبعد قبل ذلك الزمن بقليل من الحوول

ولما كانت المباينة جزئية بعثتنا الظروف الزمنية على ان نعتمد تاريخ ايزيبيوس . وهذه الظروف التي اعتمدها ايزيبيوس ماخوذة من تاريخ اتوسيديد المورخ الصادق الذي قد تنزه مولفهُ من شائبة البهتان واشتهر في ثبات النقل وصدق الرواية وقد كان معاصرًا لتيميستوكل فضلاً عن كونه تقريبًا من ابناء اترابهِ فقد وصل الينا النبأُ منهُ ان تيميستوكل بعث بكتابهِ الى ملك الفرس ارتحشتنا في غرة ملكه وليس من مآرب كورنوليوس نبوس المولف القديم العظيم ان تمس الريبة احدًا في ان هذا التاريخ معوّلٌ عليه بالاستناد على قول تيسيديد ومصداق مقالهِ ثبتهُ البراهين السديدة فان مولفًا اقدم من تيسيديد هوشارون من لمبساد الذي يذكرهُ المورخ بلوتارك تصفح المتقرون مقالهُ فراَوه منطبقًا على ما اثبتهُ في باطن تاريخهِ وبليتارك نفسه يقول ان تواريخ الفرس اجمع تنطبق على ما ينصهُ هذان المورخان ومع هذا كلهِ فانهُ لم يستند على شيء من مقالها ولم يبرز لنا ادلةً على عدم اعتماده عليها واما المورخون الذين حصروا حكم ارتحشتنا ثماني او تسع سنوات بعد الحين المذكور فليسوا من ارباب ذلك العصر وليس عندهم من الحجج البينة ما يوءيد اراءهم فقصارى الامر ان ابتدا حكم هذا الملك لابدّ من ان يكون في اواخر الاولمبياد السادسة والسبعين وفي مقربة من وقت تشييد رومية ٢٨٠ وبناء على ذلك ينتج ان السنة العشرين من حكمهِ تنطبق على اخر سنة من الاولمبيادا الحادية والثمانين ونحو ٣٠٠ سنة من تشييد رومية وفضلاً عن ذلك فان المورخين الذين حصروا قبل هذا الحين المعتمد عليه حكم ارتحشتنا ليطابقوا بين المولفين قد توهموا ان اباه قد شاركه في ملكهِ لما بعث اليه تيميستوكل بتلك الرسالة وفي كل حال نرى ان تاريخنا لم يشوه بشيء من البهتان والمين بل دبدنه التحري والتدقيق وصدق الرواية وهذا الركن مأسوس وما بقي من الحساب سهلٌ صنعهُ وان تسلسل الاحوال يجعلهُ لديك محسوسًا وبعدان صدر امر الملك ارتحشتنا على اليهود يبنون مدينتهم ويرفعون اسوارها تاييدًا لما تنبأ دانيال (١) وكان نحميا يدبر مهام ذلك العمل بحكمته وحصافة عقلهِ وقوة جنانهِ قسرًا عن السمرة والعرب والعمونيين والشعب يجهد كادحًا في احياء هذا العمل المأثور وكان الياشيب الكاهن العظيم يقويهم بمثلهِ وكان الاولياء الحديثون الذي اصطفوا لان يكونوا حاكمين الشعب

(١) دانيال ٩ : ٢٥

قد زادوا البلبلة والاضطراب

ورومية التي تشيدت في عهد الملوك كانت في احتياج عظيم الى شرائع هامة تسير بموجبها جمهورية حسنة ولما اشتهر اليونان بسداد الاحكام اكثر من الانتصار اتخذهم الرومانيون انموذجًا لهم وطفقوا يقتدون بهم ويتعلمون حكمتهم فسيروا مبعوثين الى المدن اليونانية ولاسيما اثينا ليأتوهم بشرائعها المناسبة لاحكامهم الجمهورية ٤٥٣-٤٥٢ وفي السنة الثانية ٤٥١ اقاموا عشرة ولاة اولي ابهة وصولة واطلقوا لهم السلطة ولقبوهم باسم دسمفير فسنوا لهم شرائع كتبوها على اثني عشر لوحًا على نسق الشرائع اليونانية وقد جعلوها ركنًا للشريعة الرومانية فلما نظر اليهم الشعب ورأوا فيهم حسن الطوية وعدم الجور في نص الشرائع تركوهم يتقلدون السلطة المطلقة لكنهم لم يبقوا في دائرة العدالة بل جنفوا عن تلك السابلة وامسوا يعثون ويظلمون ٤٥٠ فكثرت حينئذٍ في رومية القلاقل والشغب وتأصلت الإحن والفساد واوّل ما سبب ذلك فساد ابيوس كلوريوس احد هؤلاء (الدسمفير) اي الولاة العشرة. واما فيرجيني فقد تصباها ابيوس وانضاه شوقها وهيامها فاخذت الغيرة عليها اباها ورغب في اهلاكها فقتلها خشية ان تقتنصها حبائل الهوى ولما اهرق دم ليكراس الثانية هاج الرومانيون وازبدوا وطردوا الدسمفير بكل حقارة وامتهان وفي اثناء ما كانت تسن شرائع رومية ويهذبها ذوو الامرة في عهد الدسمفير كان عزرا العالم بشريعة الله ونحميا القابض على زمام الشعوب الابية الى اليهودية يصلحان الشعب ويبعثانهم على رعاية شريعة موسى تسننًا بها لانهما كانا اول من يعكف على رعايتها واول بند من اصلاحها هوان الرجال ولاسيما الكهنة مندوبون ان يغادروا النساء الغريبات اللاتي اتخذوهنّ قسرًا عما حرّمته الشريعة واما عزرا فقد عكف على الكتب القدسية وجعل لها اتساقًا ونقحها كل التنقيح واحرز روايات شعب الله القديمة والف منها سفري اخبار الايام واضاف اليها تاريخ عصره الذي انه نحميا وبكتبهما ينتهي هذا التاريخ القديم الذي باشره موسى وما زال المولفون الذين اتوا فيما بعد حتى الآن الذي نهضت فيه اورشليم من دثارها يتممونهُ بكل جدّ وكدح وبينما كان عزرا ونحميا يتمان السفر الاخير من هذا التاليف العظيم كان هيرودوت الذي يدعوه المؤرخون الدنيويون ابا التاريخ قد شرع يكتب تاريخهُ وعلى هذا يلتفي مؤرخو الكتاب المقدس الآخرون باول مولف لتاريخ اليونان ولما برز هذا التاريخ الى عالم الوجود تبين ان

تاريخ شعب الله تقادم عليه خمسة عشر جيلاً من عهد ابرهيم ولقد تصفحنا تاريخ هيرودوت الذي اتصل لدينا ونقرنا في هوامشه لنرى لنا فيه نبأ عن تاريخ اليهود فحبط مسعانا وسقط سهمنا دون الغرض المرام وما ذلك الالان اليونان لم يكونوا يتهمكون الا في الفحص عن الشعوب الذين كانوا يعرفونهم بسبب الصلات الحربية او التجارية او بسبب شهرتهم. واما اليهودية فبعد ان عبثت بها ايدي اليباب كادت تكون حليفة الخبوة بعد طوسها ومع هذا فلم نستأهل ان يرنوا اليها باحداق بصائرهم وفي ذلك الزمان المشوه بشوائب الاكدار والحوادث المدلهمة اخذت اللغة العبرانية تمتزج باللغة الكلدانية التي كانت لغة بابل لما كان الشعب العبراني فيها في اغلال الاسر. ولقد كان القسم الاكبر من الشعب ينفهمها كما يظهر من تلاوة عزرا كتب الشريعة امام الجماعة امام الرجال والنساء وكل ذي فهم.. فقرأوا في سفر توراة الله مبلغين المعنى حتى فهموا القراءة (١) ومنذ ذاك الآن اخذت تعلّ حينًا بعد حين فلم تتقادم عليها اعوام كثيرة الا ولم تعد لغة سائغة لان اليهود قد تعلموا مذ سبي بابل اللغة الكلدانية وبعد ذلك بسبب اتصالاتهم مع الكلدانيين لانها كانت تضاهي لغتهم مادةً ولهجةً وبناء على ذلك بعثتهم الضرورة على ان يغيروا احرف لغتهم العبرانية وطفقوا يكتبون الالفاظ العبرانية باحرف كلدانية لسهولة تراكيب الفاظها وشيوع استعمالها فيما بينهم وقد جرى هذا التغيير دون عناء وصعوبة لتقارب مخارج احرف اللغتين ومنذ ذاك الوقت لم تتناقل اليهود الكتب المقدسة الا بالاحرف الكلدانية.

بيد انهُ وجد في ايامنا هذه خمسة اسفار موسى في ايدي السمرة مكتوبة باحرف عبرانية قديمة كالاحرف التي على النصبات (اي الايقونات) والآثار التي تنبيء عن الاجيال الدابرة وهذه الاسفار لا تختلف عما هو في ايادي اليهود الا في محل واحد يلاحظ محل العبادة لله ومع هذا فقد حكم على ذلك بالتزوير فان السمرة زعموا ان الله اوعز اليهم باتمامها على جبل غاريزايم بالقرب من السامرة وقال اليهود لابدّ من ان يكون ذلك في اورشليم

وقد يرى ايضًا بعض مباينات جزئية ويتضح ان الاباء الاقدمين الذين منهم اوسابيوس

(١) سفر نحميا ص ٨ : ٢ : ٦ : ٨

وابرونيموس طالعوا هذه الاسفار السامرية وتجد في النسخة التي تداولها الابدي في هذا الحين كل السمات التي وسم الاباء بها النسخة التي تكلموا فيها فياسيدي انني مندوب ان افصح لك باوجز العبارة عن تاريخ السامريين واسفارهم الخمسة رجاء ان تشعر بآثار شعب الله القديمة ولذلك يقتضي ان تذكر ان باربعام ابان عشرة اسباط عن مملكة يهوذا ليؤلف منها مملكة اسرائيل التي حاضرتها السامرة ٩٢٤-٩١٤ وذلك في عهد رحبعام بن سليمان بعد ان اغتالت سليمان المنية ٩٧٥-٩٦٢ وكان ذلك عقاباً على آثامه . ولما قضي على هؤلاء الاسباط بالانفصال شق عليهم الامر ونبذوا جانباً الكتب المقدسة التي كانت من عهد سليمان وداود وتقاعدوا عن تقدمة القرابين في هيكل اورشليم ولم يعبثوا باوامر ذينك الملكين اللذين احدهما هيأ الهيكل واعده والاخر شاده وكرسه

اما مدينة رومية فقد أسست ٣٣٥٠ بعد التكوين ٤٢٠٩-٣٢٥٠ وبعد ان مضى عليها ثلاث وثلاثون سنة من بنيانها اي ٣٣٧٣ بعد التكوين سيق عشرة الاسباط المنفصلون عن يهوذا اسرى الى نينوى وتشعثوا ايدي سبا بين الوثنيين

وبعث حصردون ملك اثور في عهده بالكوتيين (١) الى السامرة ليقطنوها ٦٧٣-٦٧٧ وقد كانوا قبلاً اثوريين فدعوا فيما بعد سامريين وقد اجتزئوا عبادتهم بين الله العلي والاصنام ومنحهم الملك حصردون كاهناً اسرائيلياً دمث سجاياهم وعلمهم عبادة الله الحق اي معرفة النواميس الموسوية لكنه لم يبهم الأسفار موسى التي جمعت اليها عشرة الاسباط بكل رضوخ ووقار ونكصوا عن الاسفار المقدسة الاخرى لاسباب ذكرناها آنفاً. فعلى ذلك ارتضع هؤلاء الشعوب من افاويق ذلك التعليم ولبثوا يثابرون على البغضاء التي كانت كامنة في صدور عشرة الاسباط ضد اليهود . ولما لاين قورش اليهود واباح لهم ان يقيموا هيكل اورشليم ٥٣٥ تصدى لهم السمرة سراً معارضين مشروعهم وتظاهروا علناً انهم يرغبون في الاشتراك معهم بذلك الصنع الحميد بحجة انهم يعبدون اله اسرائيل وهم لاينفكون يؤدون العبادة والسجود لاصنامهم ولبثوا يعارضونهم ويصادمونهم لما اخذوا يرفعون اسوار مدينتهم تحت قيادة نحميا فكثرت

(١) سفر الملوك ٤ ص ١٧ : ٢٤ وعزرا ص ٤ : ٢

الشحناء بين الامتين واصبحت كل امة تساور الاخرى وتنظر اليها شزراً

وغدا اولائك الاقوام لايسلكون السابلة التي يطرقها اليهود واجتهدوا في ان لايقتدوا بهم في امر من الامور. ولذلك لم يغيروا الاحرف العبرانية باحرف كلدانية وبناء عليه بقيت خمسة اسفار موسى مكتوبة بينهم بالاحرف العبرانية القديمة كما اسلفنا في ما مضى وهرعوا الى الملك اسكندر يستاذنونه ببناء الهيكل على جبل غرزيم ٣٣٢ فاستأذن عليه عميدهم منسى اخو يدوس الكاهن الاعظم وقرشة الدخلة عن لسان القوم فحاز الطلب لدن الملك قبولاً . وقد لاح ان السمرة طفقوا يرعوون في ايامه عن عبادة الالهة الافاكة واصبحوا لا يباينون اليهود ونتنئذ الا بامر واحد وهو انهم لا يؤدون عبادة الله في اورشليم نفاذاً لامره بل على جبل غرزيم ومن ذلك تجلو العلة التي لاجلها حرّفوا في اسفار موسى الكلام الذي يوعز الى الجبل قصد ان يوهموا لدى الابصار ان التقديس والتكريس ليسا منوطين باورشليم بل به . ولبثت العداوة والقلى بين الامتين فزعم السامريون ان هيكل جبل غرزيم يستأثر بذاته ولا تكون العلاقة بينه وبين هيكل اورشليم فكثرت المناظرة والمنازعة وبقيت تحتدم نار المشاحنة الى ان ركب متن خلافة مصر الملك بتولماوى فيلومتور فطرحوا حينئذ الدعوى لدى ارباب الحل والعقد واخذت الادلة والبراهين تدور على رحاها فكسبها اليهود استناداً على تواتر الاحوال والتقاليد البينة وصدر لهم الحكم من لدن الملك نفسه واما السمرة ففي عرض اضطهاد انتيوخوس وملوك سوريا لليهود آل بهم الامر ان يخازوا اليهم فانبرى لهم يوحنا هيركان ابن سمعان وفتح بلادهم وطمس هيكلهم على جبل غرزيم ١٢٩-١٣٠ بيد انه لم يمكن له ان يصدهم عن ان يستمروا عابدين الله على ذاك الجبل حيث كان هيكلهم ولا ان يعبّدهم ربهم في هيكل اورشليم. فلبثوا معتصمين بعروة تلك العبادة في عهد المسيح الذي قضى بالحكم عليهم فتنوا من ذاك الحين في محلين او ثلاثة في الشرق . فدوخ الامصار احد سواحنا فعثر بهم واتانا بنسخة من خمسة اسفار موسى تدعى سامرية فاتضحت لدينا قدميتها ومن ذلك نقف على البواعث التي حملتهم على ان يستمروا على تلك الحال وتجرّع اليهود في عهد الملك ارتحششتا كؤوس الطانينة والامان واما سيمون بن ملسياد قايد جيوش الاثينيين فاغتصب الملك ارتحششتا على ان يبرم صلحاً يخرق ناموسه . وقد قنط من ذاك الحين ان يظهر على اليونانيين بالارهاب والاذلال فتهافت على ان ينتهز نهزة شقاقهم ودخيلة الامر

أن قد حدث نفور عظيم بين الاثينيين والاسيدمونيين وغرت صدور الامتين بالحسد واخذتا تتسمان كل بلاد اليونان واوقد باريكليس الاثيني نيران الحرب في شبه جزيرة البلوبنيز ٤٣١ فاشتهر اذ ذاك تيرامني وترازيبول والسيباد والاثينيون وبعثت الغيرة برازيداس وميندار اللاسيدمونيين على ان يذودا عن الوطن فهلكا قتيلين . فاستمرت تلك الحرب تستعر مواقدها سبع وعشرين سنة وكانت نتيجتها حسنة للاسيدمونيين فانهم رفلوا برداء النصر والاستظهار لان داريوس النغل اي البندوق ابن ارتحشستا كان يقوم بناصرهم وساور اثينا قائد جنود لاسيدمونيا البحرية ليزندر فاذاقها عذاب الهون وفتحها وغير هيئة حكومتها فشعر الفرس انهم عززوا اللاسيدمونيين وأُتيح لهم شوكة عظيمة ولاسيما اذ متن وثاق اخائهم لقورش اليافع ٤٠٤ يوم تمرّد على ارتحشستا الملقب بممنون لفرط المعيته فترصدوا لهم بذلك رهبة واحترسوا من وقوع الغائلة لان قورش اليافع لما كان في وهاد السجن احتالت امه باديزاتيس على اخراجه منه فتملص من الاداهم والاغلال واخذ يتوقع الزمن لاخذ ثاره فامال اليه الولاة لفرط حنانه وتلطفه وطوى اسيا الصغرى وكرّ مقاتلاً اخاه فوبخ مملكته هجوماً وجرحه بيده واخذت به الخيلاء كل ماخذ فاصبح شديد الخنزوانة ظاناً ان النصر طوع يمينه فمات قتيل الجسارة والجراءة اما عشرة الالاف من اليونانيين الذين كانوا يناضلون معه فابوا الى اوطانهم اياباً عجيباً اذ كان يتولى قيادتهم في غاية مسيرهم كزنوفون الفيلسوف والجهبذ المفضال والقائد الجريء الذي ألّف تاريخ رجوعهم . وواصل اللاسيدمونيون الحملة على مملكة الفرس التي اذاقها اجزيلاوس صاب التاويق والارهاب في اسيا الصغرى غير انه الجئ الى الاياب الى وطنه لما شعر بالشقاق السائد بين اليونانيين ٣٩٦ وفي ذلك الوقت زحف الرومانيون تحت قيادة كميل على مدينة فيي فناصبوها عشر سنوات وفتحوها بعد نجاحات متباينة وكانت تلك المدينة تضاهي رومية بالسودد والمجد . وبعد ان فاز كميل بالنصر المبين صوّب اسنّة قوته على مدينة اخرى يقال لها فليسيك فعلق يضيق عليها محاصراً فأمّه احد معلمي الصبية مسلماً اليه اولاد اعيان المدينة امل ان يحظى من لدنه باسمى المكانة فدبت الشهامة في رائع القائد واعاده الى المدينة منكلاً مهاناً فاظهر اولو المدينة امتنانهم منه وسلموه نفوسهم والمدينة راضخين ٣٩٤ فلم يشأ الرومانيون ان يغزوا غدراً ولا يجنوا الوقت للنصرة بواسطة ذلك الخائن اللئيم الذي خدع اولائك الاحداث السذّج ثم دخل

الغوليون السنونيون ايطاليا واحاطوا بمدينة كلوزيوم ٣٩١ وحاصروها فاستظهروا على الرومانيين في معركة إليا الشهيرة ٣٩٠ واستولوا على رومية واحرقوها وبينا كان الرومانيون يدافعون عن نفوسهم في الكبيتول كان كميل المنفي منهم يصلح شوونهم في الخارج واستمر الغوليون متبوئين رومية سبعة اشهر ولما الجئوا الى ان يجالوا عن اترابها ويهاجروا الى انحاء اخرى نزحوا من البلاد واصحبوا معهم المهام والغنائم . وفي اثناء الثورة التي احتدمت بين اليونان اشتهر إپامينونداس التيباني بعدله واستقامته وانتصاراته ٣٧١ ومن مبادئه المالوفة ان لايمين ولو هزلاً . واشتهرت اعالة المأثورة في اواخر حكم الملك ممنون وتحت ادارة هذا القائد المفضال نال التيبانيون الفوز على اللسدمونيين ونكسوا شوكتهم واما ملوك مكدونيا فقد اخذت سلطتهم تبدو في عهد الملك فيلبوس ابي اسكندر الكبير ٣٥٩

اما فيلبوس فقسراً عن تصدي ملكي الفرس له اخوس وابنه ارسيد وما بادهة من الموانع التي سببها له في اثينا ديموستينوس بفرط فصاحته وذوده الشديد عن الحرية ظهر على اليونانيين مدة عشرين سنة واثقلهم بوسا ودانت له السلطة المطلقة بعد ان قبض على عنان النصر في موقعة كيروني حيث تنكس الاثينيين والمتحدين معهم ٣٣٨ واذ كان يصول على الاعداء ويجول و يتلقى صدماتهم بمجن تجلده جانت منه التفاتة فراى ابنه الاسكندر وهو في سن الثاني عشرة سنة يخرق صفوف التيبانيين فافترّ لذلك سروراً وهولاء الجنود كانت بينهم الفرقة المقدسة التي تدعى جنودها الاصحاب وكان يخالج فكرها مراراً ان تنكبها من الامور المستحيلة . وعلى ذلك استولى فيلبوس على بلاد اليونان كافة وكان يضافره ابنه الذي كان منتهى آماله واوطاره واخذ من ثم يصلح الشوءون ويقدم على المقاصد الحسنة ولم يجس في بادىء الامر الا بتقويض اركان دولة الفرس فاغرى اليونان بان يولجوه قيادة جيشهم العام ٣٣٧ ومع ذلك فبقي دثار مملكة الفرس الى ان يقوم بعبئه الاسكندر . وفي ذاك الحين وثب على فيلبوس الملك احد خطيري المدينة وقتله في غضون حفلة زفافه ٣٣٦ وما ذلك الا لانه كان قد قضى عليه جوراً واعتسافاً وفي تلك السنة عينها ابتدر باغواس الخصي لقتل ارساس ملك الفرس ونصّب مكانته داريوس بن ارزام الملقب بقودومانوس الذي يحملنا فرط باسه على اعتقاد الراي الاحق وهو المتقول به انه من السلالة الملوكية . وعلى ذلك عكف على

نبوءُ المملكة ملكان ذوا بسالة وهما داريوس بن ارزام واسكندر بن فيلبوس فقد كان هذان الملكان يتناظران وتغرُ صدورهما حسدًا وانجلى لدى الناس انهما لم يلدا الاَّ ليتنازعا في امتلاك العالم . اما اسكندر فقد ازمع على ان يثبط قدمهُ على مملكتهِ قبل ان يكر على خصمهِ حاملاً فثار باديء بدء اباه وقهر الشعوب الذين طغوا عليهِ وتمردوا واستهانوا حداثتهُ وحطَّم اليونانيين الذين سوَّلت لهم نفوسهم عبثًا على ان يطرحوا عن مناكبهم نير عبوديته وجعل مدينة ثاب طامسة دارسة ٣٣٥ ولم يعرض الا عن مواخذة عترة بندان الذي رنَّت اشعاره في البلدان اليونانية ولما قوي واصبح مظفرًا بتلك المعامع الهائلة زحف على داريوس متوليًا قيادة اليونان وواقعهُ مراتٍ ثلاثًا فاذاقهُ عرق القربة وقمعهُ مذللاً ودخل بابل وسوز فائزًا ٣٣٠ وجعل برسو بوليس حاضرة الفرس عافيةً دارسة وبسط فتوحاتهِ الى بلاد الهند ٣٢٧

وبعد ان فرى الفيافي ودوَّخ الحواضر مدثرًا بشعار الفوز عاد الى بابل ومات فيها وهو في سن الثلاث والثلاثين سنة ٣٢٤ وزفَّت في ذاك الان ابنة سنابلا السامري الذي تولى بلاد اليهود بامرٍ من داريوس الى منسى اخي الكاهن العظيم فاوقد شرارة الشغب بين اليهود فرغب اليه اخوهُ يادوس ومجلس اورشليم ان يطلق هذه الامرأة الغريبة فابي ذلك وانحاز الى السمرة فقفاه كثيرٌ من اليهود ليكونوا قاصين عن تلك الاحكام وعزم منسى منذ ذاك الحين على ان يبني هيكلاً بالقرب من سامرة على جبل غرزايم الذي يراه السامريون مقدسًا وغدا كاهنًا فيه . ولما كان حموه مقربًا الى داريوس وحائزًا من لدنه النعمة وترف العيش وعده بان يجعله مستظلاً تحت ستر حمايته غير ان الاقدار الطارئة كانت أشد عضد له لانهُ اذ بدا الاسكندر غادر سنابلا ملك الفرس واتاه بجريدةٍ من الجنود ليقوم بناصره وهو محاصرٌ صور ٣٣٢ وبناء على ذلك احسن مثواه واناله كل ما شاء وتمنى واقيم بذلك هيكل غرزايم وقبضت مطامع منسى على غاياتها

اما اليهود الذين استمرُّوا مصرّين على مواخاة الفرس فقد انفوا من اسكندر واجمعوا على ان لا يودوا له الجزية التي طلبها فزحف عليهم قاصدًا الانتقام منهم في اورشليم فشعرَ بذلك الحبر الاعظم والكهنة فبادروا الى لقائهِ وامامهم الشعب رافلين باثواب يققة فكظم اذ ذاك غيظه وعاملهم بالرفق والعناية ولما استقر بهِ وبهم المقام اسدوا لديه نبوات النبي دانيال التي تنبيء عن انتصاره فرنا اليهم بعين الرعاية ومنحهم كلما رغبوا اليهِ

فيه فانقلبوا له اوداء أصفياء كما كانوا لملوك الفرس

وفي عرض الفتوحات التي كان يقوم الاسكندر باعبائها كانت رومية شاهرةً الحرب على السمنيتيين الذين يناوحونها وكانت تضيق ذرعًا عن ان تقمعهم باعظم قادتها بابيروس كبرسور ٣٢٤-٣٢٦-٣٢٥-٣٢٤

وبعد ان اغتالت اسكندر براثن الردى تجزَّأت مملكته اجزاءً وذلك لان برديكاس وبتولماوس بن لاغوس وانتيكون وسلاكوس ولبزماك وأنتيباطر وابنه كساندر وكل القادة الذين تمرنوا تحت يدهِ على اقتحام المعارك حملوا بعد موته على مملكته وقاووها بالاسلحة وجعلوا كل سرائهِ اي انسبائهِ واخيه ٣١٨ وامه ٣١٦ واولاده ٣١١ وشقائقهِ ٣٠٩ ضحية لمطامعهم فانساع في ذاك الحين الدم مدرارًا ولم يكن يرى الا معامع مشوهة بالدم الناصع ومواقع لم يرَ مثلها من مواقع وشعوب كثيرون من اسيا الصغرى وما يجاورها عضدتهم تلك الكوارث والبلابل على الاستقلال فبنوا المعاقل المحصنة والممالك المحسَّنة مثل مملكة البون وبركام وبيتيني . ولما كانت ارضوهم خصبة ودانية القطوف اثروا واصبحوا في ما بعد ممالك قويَّة غنيَّة والقت في ذاك الزمن نفسه ارمينيا عن عاتقها نير عبودية المكدونيين واصبحت مملكة عظيمة مثرية رحبة البرور والبلدان وشيد متريدات وابنه الملقب باسمه مملكة كبَّادوك وكانت مصر اعظم الممالك التي شيدت في تلك الاحقاب وقد اقامها بتولماوس ٣٢٣ بن لاغوس وملوكها يدعون لاغيديين وسوريا التي وطد اركانها سيلكوس ٣١٢ وملوكها يدعون السلوسيديين وكانت تخر لصولتها اقاليم في اسيا العليا اراضيها رحبة وغنية كانت من ذي قبل مخازة الى عهدة الفرس وعلى هذا نرى ان كل قاطني الشرق رضخوا لليونانيين وتعلموا لغتهم واما قادة جيوش الاسكندر فقد كانوا يعثون ويجورون على بلاد اليونان نفسها واصبحت مقدونية التي تشأت منها سلاطين الشرق فريسة لمن يتبوأُ عرشها ونطارد اولاد كساندر منها فطرد ديمتريوس بوليورسيت بن انتيكونوس بيروس ملك البيروت ٢٩٤ الذي كان قد حل في قسمٍ من هذه المملكة ٢٩٦ ثم طرده بيروس المذكور ٢٨٩-٢٨٧ فطرد بيروس لبزماك ٢٨٦ فطرد لبزماك (٢٨٢ - ٢٨١) سلاكوس الذي قتلهُ بتولماوس سيرانوس المطرود من مصر وذلك عدداً غير مكترثٍ بما افضل به عليه ٢٨٠ - ٢٨١ ولم يلبث ذاك الخاين ان تبوأَ مقدونية الاَّ باغته الغوليون حاملين وجندلوه قتيلاً في معركة تعنَّاها

الفريقان ٢٨٠ـ ٢٧٩ وفي اثناء الثوارت الشرقية اتى الغولبون الى اسيا الصغرى يتقدمهم القايد برنوس وتوطنوا غلاسيا التي دعيت باسمهم وهجموا من ثم على مقدونية فسلبوها واوقعوا الرعبة والقشعريرة في كل بلاد اليونان ولما حملوا على هيكل دیلف ٢٧٨ يغزونه رجع جيشهم القهقرى هالكين وكانت هذه الامة تتحرك من كلّ الجهات ولم تفز بشيء.

وقبل الحرب التي زأرت في ديلف بقليل من الحومول ٢٨٢ اثار السمنيتيون والبروسيون والاتربريون الغوليين القاطنين ايطاليا بان يزحفوا على الرومانيين وبروّعوهم فانقضوا عليهم واكثروا قتلاهم وجرحاهم لكنهم لم يكتفوا بما قتلوا ومخرقوا بل تطالوا الى قتل السفرا فاستشاط من ذلك الرومانيون واعادوا كيدهم الى نحورهم لانهم تجالدوا في مضمار الوغى وواثبوهم مواثبة الضواري ونكلوهم ايّ تنكيل ودخلوا اراضيهم وهاجر البعض منهم اليها وحملوا عليهم مرتين اخريين فقهروهم واغصبوا الباقين على ابرام الصلح ٢٨٢ ولما طُرد غولبوا الشرق من بلاد اليونان ٢٧٨ـ ٢٧٧ اغار على مقدونية دون مانع انتيكونوس غوناتاس ابن ديمتريوس بوليورسيت الذي كان حاكماً بلاد اليونان منذ ١٢ سنة دون هدء وسكينة اذ كان بيروس مشغولاً في جهة اخرى. ولما طرد بيروس من هذه المملكة حملته المطامع على ان يفتح ايطاليا وذلك بعد ان استدعاه الترنتيون لاغاثتهم ٢٨٠ لان الرومانيين ظهروا عليهم وعلى السمنيتيين فلم يكن بهم وقتئذٍ سندٌ الا على بيروس فراع بيروس الرومانيين بافياله التي كانت ذريعة لان يولوا مدحورين وتغلب عليهم في مواقع سببت له خرابًا ٢٧٩ واما القنصل فابريسيوس فاعلن الى الرومانيين ان الظهور على بيروس ليس من الامور المستحيلة وكان ذلك الملك والقنصل يتنازعان في كرم النفس منازعة اكثر منها في الاسلحة فاعاد بيروس الى القنصل الاسرى كافة دون فدية قائلاً له ان الحرب تكون بالحديد لا بالفضة وبعث فابريسيوس الى بيروس بطبيبه الخائن الذي وكل على نفسه قتل سيده الملك بالسم ٢٧٨. ومن ذلك الوقت ذاع دين اليهود وظهر والدى جميع اليونانيين وكانوا عائشين بالرفاهية والطمأنينة حسب شرائعهم وملوك سوريا يستلفتون انظارهم اليهم ووطن كثيرًا منهم في اسيا الصغرى انتيوخوس المسمى الاله حفيد سلاكوس فامتدوا من هنالك الى بلاد اليونان وتمتعوا في كل الجهات بحقوق الاهالي وحريتهم وكان قد وطنهم قبلاً في مصر بتولماوس بن

لاغوس. وفي عهد ابنه بتولماوس فيلادلفوس ٢٧٧ ترجمت كتبهم الى اللغة اليونانية وعرفت اذ ذاك هذه الترجمة بالترجمة السبعينية ومترجموها كانوا الشيوخ العلماء الذين بعثهم اليعازر الكاهن العظيم الى الملك اجابة لامرٍ صدر منه اليه. وقد زعم البعض انهم لم يترجموا الا خمسة اسفار الشريعة وان ما تبقى من الكتب القدسية ترجم الى اللغة اليونانية في عهد اليهود الذين كانوا في مصر واليونان. إذ من الممكن ان يكونوا قد نسوا لغتهم العبرانية القديمة واللغة الكلدانية التي تعلموها وقت سبي بابل. وقد اختلقوا لهم لغة جديدة ممزوجة من العبرانية واليونانية كتبت بها الترجمة السبعينية والعهد الجديد يقال لها اللغة الهلانية. ولما امتد اليهود على وجه البسيطة وتداولت انباءهم السنة البرايا شاع صيت هيكلهم في العالم كله فأمّه ملوك الشرق وقدموا فيه المحرقات والقرابين. واما الغربيون فقد كانوا يرتقبون العواقب التي تنجم من الحرب بين بيروس والرومانيين واما القنصل كبريوس فقد قمع الملك ٢٧٥ والجأه الى عبور البحر والانثناء الى بلاد الابير ولم يستكن الا زمانًا قصيرًا لانه عول على الاغارة على مقدونية رجاء ان يعوض عن خسائره في ايطاليا. وحصر انيكونوس كوناتاس في تسالونيك وضيّق عليه ووضع يده على مملكته ٢٧٤ ثم نقوى انيكونوس لما كانت المطامع النفسيةً تبعث بيروس على الحمل على اللاسيدمونيين والارجيين فالتقى الملكان معًا في مدينة ارغوس حيث احزاب مختلفة استصرخوهما فدخلا المدينة من بابين مختلفين ونشأت فيها موقعة تقشعرُّ منها الابدان فدنا من الملك بيروس شابٌّ وجرحه في يده جرحًا بليغًا فقفاه مطاردًا قصد الانتقام فرأته امُّ الشاب وهي على سطح صرحها فاهوت عليه حجرًا من فوق اخمدت به انفاسه ٢٧٢ ولما ملصت الظروف انيكونوس من احبولة عدوه الالد انثنى راجعًا الى مقدونية التي بقيت منوطة بعهدة سلالته عقيب تقلبات عظيمة. ومعاهدة الاشيين صدّت هذه المملكة عن سعة ارضيها وقد كانت هذه المعاهدة كمجنّ الحرية الاخير في بلاد اليونان ومنها نشأ البطلان اللذان رفعا راية السوءدد والفخر فوق اليونانيين وهما ارتوس وفيلوميين

واما الترانتونيون الذين كان بيروس يعدهم باسعاده ايام مواعيد عرقوبية استنصروا بعد موته اهل قرطاجنة. ومع هذا فقد خابت امالهم لان الرومانيين قد نكسوهم والبروسيين والسمنيتيين الذين كانوا يواخونهم وبعد حرب استمرّت اثنتي وسبعين سنة رضخ السمنيتيون للرومانيين واقتفاهم قرب ذلك الترانتونيون وكل الشعوب المجاورين

الذين لم يكن لهم المصادمة والدفاع وعلى هذا اصبح كل الشعوب القاطنين ايطاليا يخضعون لشريعة رومية وخشيَ الغوليون الذين داهمتهم مرارًا الجيوش الرومانية ان يبدوا ثورة مرة اخرى . وبعد ان تقادم على تلك الحروب المستمرة اربع مائة وثمانون من الحؤول استولى الرومانيون على ايطاليا وطفقوا يترقبون الشوون الخارجية ويعادون القرطجنيين الذين يجاورونهم لما نالوا من القوة بفتوحهم صقلية حيث كانوا ياتون ليشنوا الاغارة عليهم وعلى ايطاليا بحجة ان يقوموا بناصر الترانتيين

وكانت وقتئذٍ جمهورية قرطاجنة مستولية على ضفتي بحر الروم وشاطيء افريقيا وممتدةً في افريقية من جهة بوغاز المحيط ومتصلة بواسطة البوغاز الى شاطيء البحر من جهة اسبانيا ومالكة البحر والتجارة . وقد اغارت على جزيرتي كورسيكا وسردينيا ودافع الصقليون كل الدفاع لكنهم قاسوا بذلك عياء وقد طالما انذرت ايطاليا عذابًا وويلاً .

وهاك علة حروبٍ مع قرطجنا نشأت قسرًا عن المعاهدة التي نكثها الفريقان ٢٦٤٠

فحرب قرطجنة الاولى علمت الرومانيين القتال في البحر ٢٦٠ وقد اقتبسوا فنًّا مجهولاً ضافرهم فورًا على نوال الفوز فان القنصل دويليوس الذي جاهد اولاً في البحر متجشمًا المشاق ظفر بالاعداء فرعى ذلك المجد رغولوس وزحف على شواطيء افريقية حيث استخدم كل جيشه في سبيل مساورة الافعى الهائلة . واصبحت قرطاجنة في ازمة شديدة ولم ينقذها من غائلة تلك الحرب الهائلة الاكزانتيب اللسدموني فانه انقضَّ على القائد الروماني فقمعه واقتاده اسيرًا ٢٥٥ واما رغولوس فان سجنه اناله شرفًا اكثر منه في انتصاره وفوزه لانهُ بُعث بهِ الى رومية لكي يسعى في تبديل الاسرى وليس لهُ كفيلٌ سوى كلامهِ فلما ولج مجلس الندوة بثَّ رايًا من شانه الاياس لكل من يقع اسيرًا ثم انثنى ليموت بقضاء محتوم واما الاسطول الروماني فقد غرق مرتين غرقًا مرعبًا فالتجأ الرومانيون ان يغادروا سلطة البحر للقرطجنيين وبقيَ الانتصار زمانًا طويلاً في ريبٍ بين الامتين واوشك الرومانيون ان يتقهقروا ويذلوا لولا ان ينظروا الى امر مستعمراتهم ويصلحوها وقد حصلوا على غنيمة النصر في معركة واحدة اتمَّ حربها القنصل لوتاسيوس ٢٤١ وأُرغم القرطجنيون على ان يوءدوا الجزية وأُخرجوا من صقليا وكل الجزائر التي بين صقليا وايطاليا وتسلط الرومانيون على صقليا برمتها الا ما كان يناط بعهدة ملك كان عاقدًا معهم الاخاء وهو نيرون ملك سيراكوز . وبعد ان انتهت تلك الحرب الرائعة اخذ

ذوو المناصب السنية يماطلون الجنود بدفع رواتبهم فجاشوا من ذلك وثاروا طالبين حقوقهم فاوشكت قرطاجنة اذ ذاك ان تهوي الى مهاوي التاخر واسعدهم على ذلك اغلب مدن دولتهم فاصبحت المدينة على جرف هارٍ من الدمار والويل لولا ان اميلكار وحدُ الملقب بباركاس لم ينقذها من ذلك لانهُ وحده حمل على عاتقه مشقاة الحرب الاخيرة مع الرومانيين ومكن آل وطنهِ من ان يفوزوا بالمتمرّدين المرة الثانية ٢٣٩

وبسبب هذه الحرب فقد القرطجنون جزيرة سردينيا فان محافظيها المتمردين فتحوا ابوابها للرومانيين . وخشيةً من ان يطرأ طارىءٌ وتسعر حربٌ جديدة مع الرومانيين سلم القرطجنون الجزيرة اليهم قسرًا عنهم وأُثقلت عليهم الجزية وسولت لهم نفوسهم على ان يحافظوا في اسبانيا على سلطتهم التي اوهنها تمرد الاهالي . ولهذا جاز آميكار تلك البلاد مصحوبًا بابنه انيبال الذي كان لهُ من الاجل تسع سنوات فمات هناك في موقعة قتيلاً ٢٢٩-٢٢٠ وفي اثناء ما اضرم نار الهيجاء تسعة اعوام بشدة البطش والبسالة كان ابنه انيبال الحديث السن يتعلم فن الحرب تحت درايتهِ ونتاجج بوساطتهِ البغضاء الدموية في فوادهِ ضد الرومانيين . وبعد موتهِ خلفه صهره ازدروبال وقبض على عنان السلطة بدراية ودراية وشاد مدينة قرطجنة الجديدة التي كانت بسبب مركزها حاملة اسبانيا على الخضوع للقرطجنيين

وكان حينئذٍ الرومانيون يضرمون نار الوغى على تونا ملكة الليريا التي كانت تعتدي على السفن في كل جهات البحر دون مانع . ولما كانت الخيلاء اخذة بها كل ماخذ لكثرة الغنائم التي سلبتها من اليونان والابيروت اهانت الرومانيين وقتلت سفيرهم فتناهضوا عليها حالاً وقهروها ٢٢٩ ولم يبقوا تحت سلطتها الاَّ جزءًا صغيرًا من الليريا ٢٢٨ ونزعوا من يدها جزيرة كورفو التي كانت قد اختلستها والقوا حرمتهم في بلاد اليونان بسفارةٍ بعثوها اليها رسميًا فذاعت شوكتهم مرةً اولى في تلك الامصار

وكان نجاح ازدروبال يحيي في قلوبهم الحسد واما الغوليون القاطنون ايطاليا فكانوا يصدونهم عن الاهتمام في احوال اسبانيا ولقد كان القرطجنون راتعين في بحبوحة السكينة والسلام منذ خمس واربعين سنة وكان الشبان الذين بلغوا اشدَّهم في ذاك الحين لا يفكرون في ما خسروا انفًا من الانعام والمهام ولذلك اخذوا ينظرون الى رومية بعين القلى ويتهددونها عذابًا مبرحًا . اما الرومانيون فلكي يقهروا اولائك الغوليين

المجاورين المتشاغبين فكروا في ان ينالوا طامنينة من جهة القرطجيين ولذلك ابرموا عهدًا مع ازدروبال واعدًا اياهم انهُ لا يعبر البتة وراء نهر الايبر. واحتدمت في ذاك الحين نار الهيجاء بين الرومانيين والغوليين بحذاء من النيتيين ٢٢٤ وانضم الترنزليانيون (١) الى السيزبليانيين (٢) وقامت الحرب هائجة زائرة فتكلل الرومانيون بالنصر المبين ٢٢٤ واسروا من وسط المعمعة كونكوليتانوس احد ملوك الغوليين. وملك اخر منهم يقال له آنيروهستوس اخذ بهِ الكمد كل ماخذ فانتحر. فحينئذٍ عبر الرومانيون الظافرون نهر البومرة اولى وعولوا على ان يستولوا على كل نواحي النهر التي كان الغوليون يسلطون عليها منذ اجيال عديدة وكان النصر يرافقهم اياب رحلوا او حلّوا وفتحوا مدينة ميلان وقصارى الكلام ان اكثرية البلاد رضخت لشوكتهم

وفي ذاك الحين توفي ازدروبال ٢٢١-٢٢٠ وخلفه انيبال وهو في سن الخمس والعشرين فاجمع الكل حينئذٍ على الحرب وعزم انيبال على ان يجمع اسبانيا لا يكترث بما تنص المعاهدات السابقة فنهض الساكونتيون وشكوا امرهم للرومانيين الذين كان وثاق الاخاء شديدًا بينهم ٢١٩ فسمع الرومانيون الشكوى بكل اصغاء وبعثوا بسفرا الى قرطجنة ٢١٩ واما القرطجنيون الذين كانت قد اصطلحت احوالهم فلم يعبئوا بالتسليم ولما كان الحقد على الرومانيين متأصلاً فيهم لكونهم اخذوا منهم صقليا وسردينيا وثقلوا عليهم الخراج تحينوا الوقت لاخذ الثار ولذلك لم يغز الحزب الذي كان يرغب في تسليم انيبال وكان هذا القائد الجري يرنو الى كل امر بعين البصيرة فارسل سفراءه سرًّا الى ايطاليا ليقرروا له ميعاد الغوليين القاطنين فيها واذ كانت هذه الامة غير قادرة ان تبرم امرًا بذاتها تحينت الوقت عند مرور ذاك القائد لتنهض من مهاوي حالتها التعيسة. فعبر انيبال حينئذٍ نهر الايبر وجاز جبال البيراني وكل بلاد الغوليين القاطنين وراء جبال الالب وعبر جبال الالب نفسها وحمل على ايطاليا بغتةً فاخذ الغوليون يدافعون اشد الدفاع عن حريتهم غير متقاعدين عن اكثار الجنود فتنكس الرومانيون اربع مرات وظنّ الجميع ان دثار رومية قريب ٢١٦-٢١٧-٢١٨ وانحازت صقليا الى المظفر القائد لان ايرونيموس ملك سيراكوز اعلن انهُ عدوٌّ للرومانيين ٢١٥ واكثرية

(١) الغوليون القاطنون وراء جبال الالب (٢) القاطنون جهة الالب من ايطاليا

شعوب ايطاليا اعرضوا عنهم ولاح ان لم يبق لهذه الدولة ثمالٌ ولا عضد في اسبانيا بعد ان قتل سيبيون واخوه ٢١٢ ولدى تلك الأزمة نالت رومية راية الفرج بعد الياس ونجت من مكائد المعتدين فان ثلاثة من اعيانها وهم فابيوس مكسيموس ومرسيليوس وسيبيون الشاب قد انقذوها من مخالب العدو ونضوا عنها لفاع العار. فان فابيوس مكسيموس كان صبورًا على ملاقاة النائبات ثابت القدم عند الصدام ولم يكن يحفل بالانباء الذائعة بين البرايا فقبض على زمام القيادة وطفق يحارب انيبال بكل بسالة ونظام. ومرسيليوس حمل انيبال على ان يرفع الحصار عن مدينة نول ٢١٤ وفتح مدينة سيراكوز ٢١٢ وتنوت الجنود باعماله. واما رومية فاخذها العجب والدهشة من ذينك الباسلين فشعرت ان في سيبيون الشاب امرًا اعظم من ذلك فان آراءهُ السديدة التي عنيها نجاحة اثبتت ما سمع عنه انهُ من نسل الالهة وان لهُ معهم حق المفاوضة. ولما كان في اجل الاربع والعشرين سنة عول على ان يذهب الى اسبانيا ٢١١ حيث قتلُ ابيه وعمهِ فناجتهُ نفسه ان يحمل على قرطجنة الجديدة كأنَّ ذلك الهامٌ سماويٌّ ٢١٠ واطبقت جنوده على المدينة ففتحوها عنوةً وكان كلٌّ من يراه يواخي الشعب الروماني واخلى له القرطجيون اسبانيا مغادرينها له ٢٦٠ ولدى نزوله الى شواطئ افريقية طأطأ له الملوك صاغرين. ولما رأت قرطجنة ان الوبنها منكسة من كل الانحاء استشعرت رهبة وفاجأها الكرب ٢٠٣ فاستصرخت انيبال لياخذ بيدها ويكون لها نصيرًا فذهب استصراخها أدراج الرياح فلم يمكن له ان يذود عن آل وطنو. فسيبيون ظهر عليهم وابرم عليهم شروطًا ٢٠٢ فتلقب بالافريقي جزاء لما صنع وبعد ان تغلب الرومانيون على الغوليين والافريقيين لم يبقَ شيءٌ يرهبهم ويهيلهم ومن ذاك الحين شرعوا يحاربون دون خشية ورهبة

وفي اثناء الحرب الاولى في قرطجنة سطا تيودوت والي بكتريان على انتيوخوس الملقب بالاله ابن انتيوخوس سوتر ملك سوريا واختلس منه الف مدينة ٢٥٠-٢٥٦ واتخذ اغلب الشرقيين ذلك الصنع انموذجًا لهم. فنهض البرثيون عاتين متمردين تحت قيادة ارزاس الذي شاد مملكة امتدت على مهلٍ في كل اسيا العليا وكان ملوك سوريا ومصر لا ينهمكون الا في ان يبيد بعضهم بعضًا بالقوة او الخداع وكانت موضوع نزاعهم دمشق واراضيها المدعوة سيلي سوريا او سوريا السفلى التي على ثغور المملكتين. وكانت

حينئذٍ ادارة الامور في اسيا منفصلة عن اوربا وفي ذاك الان كانت رياض الفلسفة زاهيةً زاهرةً لدى اليونانيين وكان المذهبان الايطاليك والايونيك ينشأُ بهما جهابذةٌ ساموں وأُناس لا يعول عليهم دعاهم اليونان بمحيي العلم وشرع فوثاغورس يشيّد في عهد الملك قورش وابنه كمبيز المذهب الايطاليك في بلاد اليونان العظمى قرب مدينة نابولي وكان تاليس الميلازياني يبثُّ نحو ذلك العصر عينه المذهب الايونيك ونشأ من هذه المذاهب الفلاسفة الكرام وهم هرقليطس وديموقريطس وامبيدوكس وبرمينيدس واناكزاكورس الذي ابان لدى وشك حرب البلوبونيز أن العالم فطرهُ روحٌ ازليٌ . وبعد ذلك الان نشأ سوقراط وحصر الفلسفة في فحص السجايا الحسنة واضحى اذ ذاك ابًا للفلسفة الادبية وايد تلميذه افلاطون مذهب الاقادميا واصبح اريسطو تلميذ افلاطون ومعلم الاسكندر رئيسًا لمذهب المشاة . وفي عهد خليفة الاسكندر اصبح زنون الملقب بستيان من مدينة في جزيرة قبرس هي محفط راسه اساس الستوسيين وان كان يسوغ ان ندعو الذين يجحدون العناية الصمديةَ والواجبات الانسانية فلاسفةً فابيكور الاثينياني اصبح رئيس الفلاسفة الذين ينتمون اليهِ ويعرفون الفضيلة باللذة ويعدُّ ابيوقراط ابو الطب من الفلاسفة الكرام وانهُ زاهر بين اقرانه في تلك الاحيان السعيدة لدى اليونان وكان في العصر نفسه عند الرومانيين نوع اخر من الفلسفة لا يتوقف على الجدل والخطابة بل على القناعة والفاقة واشغال الحقول والحرب وبهِ كانوا يحوزون الفخر لهم ولوطنهم والاسم الروماني ويتغلبون على ايطاليا وقرطجنة

العصر التاسع

في سيبيون او دثار قرطجنة

رضخت قرطجنة للرومانيين سنة الخمساية والاثنين والخمسين بعد تشييد رومية ونحو ٢٥٠ بعد تشييد مملكة الفرس ونحو ٢٠٢ قبل المسيح فقد كان انيبال يثير خفيةً الاعداء طالما امكنه ولم يحجم من تهمكاتهِ الا انهُ بعث اخدانه الاقدمين والحديثين على تجشم النائبات السود والتهافت على الهلاك كما انهُ سبَّب الهلاك لوطنهِ وشخصه . فان فيلبوس ملك مقدونية الذي كان الإخاء بينهُ وبين القرطجنيين تنكل وداهمته

قوّة القنصل فلمينيوس واصبح ملوك مقدونية تدار عليهم دوائر الضيق واتملص اليونانيون من تحت أثقال رقهم ١٩٦ وازمع الرومانيون على ابادة انيبال الذي كانوا يرهبونه حتى بعد انكساره . بيد ان هذا القائد الباسل بعد ان التجأ الى ان يولي من وطنهِ مدبرًا أثار عليهم الشرقيين واتى باسلحتهم الى اسيا ١٩٥

واذ اخذ انيبال يبثُّ براهين سديدة على انتيوخوس الملقب بالعظيم يحتذر من شوكتهم كل الاحتذار ولم يلبث ان شهر عليهم الحرب ١٩٢ غير انهُ لم يعبأ بما نصح لهُ انيبال فتقهقر برًا وبحرًا واُغصب على ان يرضخ لما اوعز اليه بهِ ليسيوس سيبيون اخو سيبيون الافريقي وجُعلت جبال الطوروس حدًّا . واما انيبال فبعد ان ولى مدبرًا من بلاد الرومانيين تخذَ بوزانياس ملك بتوني ثمالاً لهُ فبعث اليهِ الرومانيون بمن سقاه سمًّا فاماته ١٨٢ واصبحوا رهبة في كل الارض لا يتحملون على دولتهم دولة فتقاطرت اليهم الملوك واسدوا اليهم اولادهم تامينًا ومكث انتيوخوس ملك سوريا الملقب بايبفان ابن انتيوخوس الاعظم زمانًا مديدًا في رومية مرهونًا لكن في نحو اواخر حكم اخيه البكر سيلاكوس فيلوباتور بدلهُ الرومانيون ١٧٦ بديمتريوس ابن الملك وكان لهُ من العمر عشر سنوات . وفي عرض ذلك اغتالت المنية سيلوكوس واختلس انتيوخوس مملكة حينئذٍ ١٧٥ وكان وقتئذٍ الرومانيون يفكرون في شؤون مقدونية ١٧٣ حيث الملك بيرسي كان يقلق مجاوريه ولم يكن يراعي حرمة الشروط التي اقيمت على ابيه فيلبوس . ولدن ذلك اصبح شعب الله تحدق به الابصار وبلم بهِ الامتهان والاضطهاد فان انتيوخوس ايبفان كان بحكم كانه معتوهٌ مجنون ولا ينظر الى اليهود الا شزرًا وعوّل على هدم هيكلهم واتلاف شريعة موسى وكل الامة اليهودية ١٧٠–١٧١ لكنما سلطة الرومانيين صدته عن ان يتبوّأ مصر فانهم كانوا يباشرون تاجج الحرب على بيرسي الذي اشتهر بكونه سريع القصد بطيء العمل فنفر منه مواخوه لخسته وجنودهُ لجبانته فقبض على سلطته القنصل بولوس اميليوس واغصبه على ان ياتي امامه صاغرًا ١٦٨ واما جنسيوس ملك الليريا فقد عقد حبل المواخاة مع بيروس وعاهدهُ على الدفاع والهجوم فلم يجدهِ ذلك نفعًا فان قائد جنود الرومانيين نكّلهُ وتخذهُ من بعد ذلك اسيرًا فاصبحت مملكة مقدونية ولايةً من السلطنة الرومانية بعد ان استمرت مملكة مستقلةً مدة سبعماية سنة ونشأ منها مدة مايتين سنة ملوك لليونان وسائر المشرق

وكان انتيوخوس الملك يزداد حنقًا وغيظًا على شعب الله ١٦٧ فظهرت اذ ذاك مقاومة كاهنٍ من نسل فينة اقتفاه بالغيرة يقال له متثيا وبدت اوامره التي غادرها بعد موته لخلاص شعبه ١٦٦ . وظهر ابنه يهوذا الملقب بالمكابي على اعدائه الكثيري العدد ١٦٥ وسما المكابيون وتكرس الهيكل ثانية بعد ان دنسّه الوثنيون ١٦٤ وحكم يهوذا وبدا مجد الكهنوت المقرر ثانية ومات انتيوخوس ميتة ذريعة بعد ان تاب توبة لايقابلها المهيمن بالرضوان والرحمة . فان الله كان عليه غضوبًا لكثرة ما كان عتلًا زنيمًا . وخلفه ابنه انتيوخوس اوباتور القاصر وكان هذّبه استاذه ليزياس . وفي اثناء صغره دخل الهاجس في عقل ديمتريوس سوتر المرهون في رومية ان يتبوأ العرش الملوكي لكنما مجلس الندوة لم ينولّه العود الى مملكته لان السياسة الرومانية كانت توثر على ذلك ملكًا قاصرًا . وبقي اضطهاد شعب الله مستمرًا في عهد انتيوخوس اوباتور والنصر المبين بيد يهوذا المكابي بوجهه كيف شاء ١٦٣ واخذ الشقاق يجيء في مملكة سوريا ١٦٢ فان ديمتريوس فرّ مدبرًا من رومية ورضخت له الرعية صاغرة وانتيوخوس القاصر قُتل هو ووصيّه ليزياس واما اليهود فلم يقابلوا بالاساءة في عهد ديمتريوس اقلّ مما كانوا يقابلون في عهد سلفائه . وقد الم به ما الم بهم لان قواد جنوده ارهقهم يهوذا المكابي وتعلقت يد القايد نيكانور الجبار بالهيكل الذي كان ينذره بها خرابًا يبابًا . وبعد ذلك بقليل من الزمن ضاق يهوذا ذرعًا من كثرة الاعداء فقتل وهو يدافع دفاعًا غريبًا ١٦١ فخلفه بالمنصب والشهرة اخوه يوناثان ولما ضاينة العدو وسدّ عليه ابواب النجاة لم يكل عياء وانتهز الرومانيون الزمن لينكسوا الوية ملوك سوريا فاظلوا اليهود تحت جناف باسهم وكان يهوذا قد واخاهم فاستمروا على الاخاء محافظين . ولما كان الرومانيون رهبة للقاصي والداني كان شعب الله لايمسهم ضير ما داموا متسكعين في بطاح حمايتهم ولقد كانت سوريا تميد من كثرة الرزايا زمانًا طويلًا واقام سكان انطاكية على العرش ملكًا اسكندر بالاس الذي كان يدّعي بانه ابن انتيوخوس ايفان ١٥٤ وقد كان ملوك مصر اعداء الداء للدولة السورية ولهذا تهافتوا على ان يكون لهم ضلع في الانقسام رغبة في نوال الفائدة من ذلك فانحاز بتولماوس فيلومتور الى الملك بالاس واستعرت نيران الحرب شديدة . فقضت الاقدار على ديمتريوس سوتر فجندل قتيلًا ١٥٠ ولم يخلفه للاخذ بدمه الا ولدان حديثا السن يقال لاحدهما ديمتريوس نيكانور وللاخر انتيوخوس سيداتاس

وعلى هذا بقي المختلس غير مذعور ولا مرتاب وزفّت اليه كلهوباترا ابنة ملك مصر واما بالاس فقد ناجته نفسه انه فاز بكل شيء فخاض في بحر الفساد فاصبح ممتهنًا لدى كل الرعية . وفي الوقت نفسه فض فيلومتور الدعوى المشهورة بين السامريين واليهود ١٥٠ وكان لايبرح المنشقون المناقضون شعب الله يناوون الى اعدائه . ولكي يجعلوا انتيوخوس ايفان يتوسم فيهم بعين الرضى كرسوا هيكلهم على جبل غرزايم لجوبيتير المضياف ١٦٧ وزيادة على ما كفروا ودنسوا طوّحوا في المسئلة تطوحًا وعلنوا يبرهون بعد ذلك الحين امام الملك بتولماوس فيلومتور في الاسكندرية ان هيكلهم له حق الاولوية على هيكل اورشليم فتبادر الفريقان الى حلبة المحاكمة وآلى كلّ فريق بقطع راسه ان لم يأتِ بالبينة الصادقة من ايات شريعة موسى على صحة الدعوى . فحصحص الحق لليهود وعوقب السامريون بقطع الروءوس حسب العهود وسمح ذلك الملك لاونياس من نسل الكهنة بان يبني في مصر هيكل هيليو بوليس على رسم هيكل اورشليم فصدر الحكم من مجلس اورشليم ان هذا المشروع مناقض لمنطوق الشريعة .

وفي ذلك الوقت كانت قرطجنة تتحرك وتجشم بكل عناء ومشقة ما اثقلها به سيبيون الافريقي الظافر ولهذا عزم الرومانيون على تطيسها . ومن ذلك انتشبت الحرب في قرطجنة مرة ثالثة ١٤٩ — ١٤٨ ولما اصبح ديمتريوس نكانور يافعًا هجس في ان يتبوأ ثانية عرش اجداده . وملاينة المختلس جعلته يتأمل بذلك فوزًا ١٤٦

ولما علم بالاس بشبوبية ديمتريوس وما آل الامر الى انقضاء اضطرب من ذلك جدًّا فانتصب حموه فيلومتور مناقضًا له لان بالاس لم يدعه يتولّى على مملكته السورية وطلقته عرسه كلهوباترا التي طالما اغراها الطمع بان تزف الى عدوّه . ثم قتل هذا الملك جنوده بعد ان نهقر في المعمعة ومات فيلومتور بعد بقليل من الحين لكثرة ما اثخن من الجروح . وبناء على ذلك تملصت سوريا من مخالب عدوين الدّين وقضي النذر على مدينتين عظيمتين اصبحت عرضتين للدثار في آن واحد . فان سيبيون اميليان بعد ان فتح قرطجنة الهب فيها النار فاحرقها وقرر بهذا الفوز لقب الافريقي في عائلته وابدى انه اهل لان يكون وريث جده سيبيون العظيم وجرى على مدينة قورنتية ما جرى على قرطجنة وتلاشت جمهورية الاشيين في الوقت نفسه . فان القنصل موميوس طبق اسوار هذه المدينة لانها

كانت مقر الخلاعات والزخارف اليونانية وقد كان فيها تماثيل ثمينة لا يعرف لها قيمة عند الرومانيين نقلها الى رومية . فان الرومانيين كانوا لا يفقهون فنون اليونان وصنايعهم ولقد كانوا يقنعون بمعرفة فن الحرب والسياسة والزراعة . وفي اثناء الرزايا التي كانت تلم بسوريا كان اليهود ينمون بالقوة والباس وكان كلٌّ من الحزبين يزدحم لاستمالة يوناثان اليه وكان نيكاتور الظافر يعاملهم معاملة اخ ١٤٤ ولم يلبث طويلاً الاَّ جوزي على ذلك جزاء مشكوراً . فان اليهود لما رأوا ان الشعوب ثاروا عليه اهرعوا اليه منقذينهُ من ايدي العصاة المتمردين فاتقل هذا الملك يوناثان بالانعام ولكنه لما علم انهُ ثبت في ملكهِ رجع الى مشرب اباَئهِ وعلق يلقي الاذى على اليهود كالسابق . فبدت حينئذٍ البلايا والنائبات في سوريا ثانيةً فان ديودوط الملقب بتريفون اتوى على العرش الملوكي ولداً من اولاد بالاس وسماه انتيوخوس الاله واستمرَّ لهُ وصيّاً مدة بضاعتهِ واخذ ديمتريوس يعتو ويجور في الرعية فهاج الشعب ضدَّه ثائرين وجاهروا بالعصيان . واصبحت بلاد سوريا مضغةً في افواه الحروب الرائعة وانتهز الفرصة يوناثاس وجدد المعاهدة مع الرومانيين ١٤٤ – ١٤٣ وقبل ان قتلهُ تريفون مع اولادهِ مخالفةً لكلامهِ كان النجاح بانيهِ كيف شاءَ . وخلفه اخوه سمعان ارصن المكابيين واسعدهم طالعاً فضافره الرومانيون كما كانوا يضافرون اسلافه

واما تريفون فلم تكن خيانته للملك القاصر اقلَّ مما كانت ليوناثان فانهُ امات هذا الولد بواسطة احد الاطباءِ بحجة ان الملك الحديث مريض بالحصاة . فعلق يعالجهُ معالجتها فاماتهُ ولم يكن مريضاً بذلك ابداً . وبناءً على ذلك وضع تريفون يدهُ على قسمٍ من المملكة ورغب سمعان في ان يخنع الى ديمتريوس نيكاتور الملك الشرعي ونال منه حرية وطنه التي تصدَّى لخرقها تريفون المتمرد . فدافع عنها اشدَّ الدفاع ١٤٣ ثم طرد السوريين من المعقل الذي حلوا فيه في اورشليم واخرجهم من كل محال اليهودية .

ولما القي عن عواتق اليهود نير عبودية الوثنيين ببسالة سمعان قلدوه الحقوق الملوكية وحافظوا عليها لنسلهِ . وقبل ديمتريوس نيكاتور ذلك النظام الحديث ولدى ذلك بدت مملكة شعب الله الجديدة وولاية الاسمونيين المقترنة بالسلطة الكهنوتية وفي ذلك الحين كانت دولة البرتيين تمتد في بلاد بكتريان والهند بانتصارات الملك

ميتريدات اشهر الارزاسيديين وابسلهم . وبينما كان ميتريدات زاحفاً على شواطئ الفرات اصبح ديمتريوس نيكاتور الذي استنجد الشعوب الذين دهاهم متريدات يبني آماله على ان يخضع البرتيين الذين طالما اعتدَّهم السريان عاتين متمردين . ففاز بذلك احياناً جمة ولما همَّ بالرجوع الى سوريا امل ان يعني تريفون نصب لهُ احد قادة جيوش متريدات فخاً فوقع فيه فلبث اسيراً عند البرتيين ١٤١ وصدَّ عن تريفون اصحابهُ بغتةً لان كبرياءَهُ اثقلتهم يوماً وجعلتهم لاياَسون على ارتفاع انفهِ . وفي مدة اسر ملكهم الشرعي خضع السوريون لحكم امرأَتهِ كلهوبترا واولادهِ ولكنهم الجئوا الى ان يقيموا لهولاءِ الملوك القُصَّر محامياً . وذلك الالتزام كان منوطاً طبعاً بانتيوخوس سيدريس اخي ديمتريوس فجهدت كلهوبترا بان تجعل جميع الرعية يعترفون بهِ وقد صنعت اكثر من ذلك لانها لما شعرت ان فرهوت اخا متريدات وخليفتهُ كان يعامل نيكاتور معاملة ملك وانهُ زوجهُ بنتهُ رودوغونة اقترنت هي نفسها بانتيوخوس سيدانيس واخذت من ثمَّ تحكم بكل اصناف الاثام والجرائر فحمل انتيوخوس الملك الجديد على تريفون وانضم اليه سمعان لكنما الجائر بعد ان طرد من كل مستحكماتهِ تمم حياته حسبما يستحق ١٣٩ واما انتيوخوس فلما تسلط على المملكة نسيَ حالاً خدامة سمعان وقت اصطلاءِ نار الحرب وقتلهُ ١٣٥ وبينما كان يحرز اليه كل قوات سوريا ليناضل اليهود خلف يوحنا هيركان ابن سمعان اباه في الحبرية وخضع كل الشعب لهُ خضوعاً كاملاً ودافع في حصار اورشليم بكل جراءةٍ وبسالة واما الحرب التي يهمك فيها انتيوخوس ضد البرتيين رجاءَ ان يملص اخاه من وثاق الاسر جعلتهُ يلقي على اليهود شروطاً ليست باهظة

ولدن وشك ابرام الصلح رأَى الرومانيون لهم اعداءً الدَّاءَ اشدَّاءَ يقاوون الملمات ويصادمون النائبات عبدَّاهم تحتار بكثرتها الابصار ولما كان اهونوس من العبيد محنداً اهاج العبدَى في صقلية وافضى الامر بالدولة الرومانية ان تستعمل كل قوتها لتقهرهم . وبعد ذلك الحين شبت نار الفتنة في رومية بسبب ارث اتاكوس ملك برگام الذي اقامهُ لهُ الشعب الروماني حسبما اوصى قبل موته ١٣٣ فاخذت البلابل تشب في المدينة . ومن ثم احدثت ثورة الكركيك واصبح الشعب الذي نشأ في عرض ذود طيباريوس كركوس احداعيان رومية ذريعة الى هلاكهِ وذلك بامر صدر من مجلس الندوة وكان من توجع لهذه الفعلة سيبيون نريكا واما سيبيون اميليانوس فقد كان يئن

نظام الجنود وهذا الرجل الذي كان قد هدم قرطاجنة هدم ايضًا في اسبانيا ١٤٣ مدينة نوماس التي كانت موضوع رهبة الرومانيين

واما البرتيون فلم يمكن لهم ان يصدوا انتيوخوس سيداتيس الذي دان النصر لجنوده قسرًا عن فسادهم الناشيء عن تبرّج غرسيبا وبدت من يوحنا هيركان الذي كان قناةُ في تلك الحرب الرائعة مع اليهود بسالةٌ لاتضاهيها بسالة وطفق الملك يحترم دين اليهود وعبادتهم وتأييدًا لذلك فانه اوقف جيشه ليكون لهم فرصة يحتفلون بها باحد اعيادهم .

وقد رضخ كل شيء امام سيداتيس خضوعًا والتجأ الملك فراهورت الى ان يرجع ثغور مملكته الى اصلها القدم لكنه لم ييأس من النجاح في اموره واخذ يجس ان اسيره ديمتريوس يكون الواسطة الكبرى لتحسين احواله وامكان شن الاغارة على مملكة سوريا . وحدث في هذه الظروف لديمتريوس احوال متباينة فآونة كانوا يطلقون سبيله وآونة كانوا يحجرون عليه حسبما كان يتقوى الامل او الخوف في قلب حميه ولما مكر فراهورت انه لم يبقَ له نجاة الا بتهيك يجربه في سوريا بواسطة ديمتريوس اطلق له عنان الحرية تمامًا

فتغايرت حينئذٍ الشوؤون ١٢٠ فان سيداتيس الذي لم يكن عنده شيء من الجلد على احتمال المصاريف الباهظة الا بالسلب رأى الشعب ثائرين عليه طرًا قائمين على قدم وساق فهلك هو وجيشه الذي تظفر مرارًا عديدة وبعث فراهورت الى ديمتريوس يطلب اليه الحضور فكان ذلك عبثًا فان هذا الملك كان قد عاد الى المملكة ورجعت اليه امرأته كلهوباترا التي لم تكن تود الان تكون بيدها الامرة . واما رودوغونة فقد وقعت في مهاوي النسيان واغتنم هذه الفرصة هيركان ونزع مدينة سيشيم من السامريين وطمس هيكل عريزام . وذلك بعد ما شاده سانابلا بمائتي سنة . ولم يكن ذلك الدثار مانعًا للسمرة عن ان يستمروا عابدين على ذاك الطود ولبثت الامتان قاطعتين رباط الالفة والاتحاد . وبعد ان مضى على ذلك الحين عام ضم هيركان كل بلاد ادوم الى مملكة اليهود بانتصاراته وجعلهم يتبعون شريعة موسى ويقتبلون الختان ١٢٩ واستمرّ الرومانيون يحامون عن هيركان واغصبوا السوريين على ان يعيدوا له كل المدن التي نزعوها منه ١٢٨ واما ديمتريوس نيكانور فلم يرعَ طويلاً الطمأنينة والسلام

لكثرة ما كان عنده من الكبر والعسف فثار عليه الشعب قصد العصيان . ولكي يوجهوا نيران الفتنة اقام المصريون الذين هم اعداء للسوريين ملكًا اخر وهو اسكندر زبيبنا ابن بالاس ١٢٥ فتنكل حينئذٍ ديمتريوس وتوهمت كلهوبترا انها تنال سلطة الحكم باسم اولادها اكثر منها في عهد زوجها فقتلته ولم تحسن معاملة ابنها البكر سلاكوس الذي شاء ان يتولى السلطة بالرغم عن انها ١٢٤ واما ابنها الثاني انتيوخوس فكان قد حمل على العصاة وقهرهم ورجع مظفرًا فدنت منه والدته وقدّمت اليه كاسًا مفعمةً سمًا فتفطن لما استبطنت وارغمها على شربها فشربتها فماتت قتيلة الجناية ١٢٠ - ١٢١ ولدى موتها تأصل النفور والشقاق بين اولادها الذين اولدتهم بزوجيها الاخوين ديمتريوس نيكانور وانتيوخوس سيداتيس وبقيت مملكة سوريا مضطربة واهنة القوى لاتستطيع وعيد اليهود . وفتح لدى ذلك يوحنا هيركان السامرة ١٠٩ لكنه لم يمكن له ان يهدي السامريين الى الايمان الحق ثم عبثت به ايدي المنون بعد ذلك الحادث بخمس سنوات ١٠٧ - ١٠٤ وبقيت اليهودية ساكنة راضخة لعهد ولديه اريستوبول واسكندر جاني الذين تعاقبا بنوال السلطة بدون ان يقلقها ملوك سوريا ١٠٦ - ١٠٣ وكان الرومانيون لايتصدون لهذه المملكة الغنية بل غادروها تتلاشى بذاتها لما كانت تمتد عساكرهم في جهة الغرب . وفي عرض الحرب التي شبت بين ديمتريوس نيكانور وزبينا ١٢٥ كانوا قد اخذوا ينبسطون وراء جبال الالب . وسير سكستوس الذي ظهر على الغوليين الملقبين بسليانين الى مدينة اكس مهاجرين لم يزالوا يلقبون باسمه ١٢٤ وقد كان الغوليون يدافعون عن نفوسهم بوهن فان فابيوس قهر اللبروج ١٢٢ - ١٢٣ وساير الشعوب المجاورين وفي نفس تلك السنة التي فيها ارغم جربيوس امه على ان تشرب كاسًا فيها سمّ احيلت الغول التربونية الى مقاطعة رومانية ولقبت هكذا ١٢١ - ١٢٠ ولقد كانت الدولة الرومانية تمتد وتحل في كل الارضين رويدًا رويدًا وتخوض كل الجور المتعارفة . لكن بمقدار ما كانت هيئة الجمهورية تبدو في الخارج عظيمة لعظم فتوحاتها كانت داخليتها سيئة وذلك متأتٍ من مطامع اهليها الخارقة ومنازعاتهم المدنية لان اشرف الرومانيين واشهرهم اصبح اعظم مضرة للدولة الرومانية وان الكراك الاخوان بانقسامات لم تنتهِ الا بانها الحكم الجمهوري واما كايوس اخو طيباريوس فقد شق عليه ان يتاسى على موت اخيه العظيم بتلك الهيئة الدموية فتأهب هائجًا للانتقام بحماسة بعثت الناس على ان يخالوا ان روح اخيه تحركت فيه . فاخذ يهيج الاهلين بالسلاح

ببيوس الكبير

وقد كان لبكيلوس يرفل برداء النصر في الشرق ٦٨ واجتاز الرومانيون نهر الفرات وشق على قائدهم غير المنكل من العدد اغصاب جنوده على نادية فريضتهم وكان متريدات الذي تنكس مرارًا جمة وهو غير ايس من الفرج يعزز ويتقوّى

وبدا ان حضور ببيوس كان لابدّ منهُ لاهاد سعير الحرب ولما أرسل ليعني متريدات طرد من البحار القرصان الذين يدوخونها من ضفات سوريا الى عواميد هرقل ٦٧ وتبين حينئذٍ ان مجده اصبح كاملاً . وقهر هذا الملك الشديد الباس واعسف ارمينيا التي اصطفاها متريدات ملجأ وايباريا والبانيا اللتين قامتا بناصره وسوريا التي مزقت احشاءها الاحزاب الداخلية ٦٥ واليهودية ٦٣ حيث الانقسام المتسع نطاقه بين الاسمونيين لم تذر طيركان الثاني ابن اسكندر جاني من السلطة الا خيالاً وقصارى الكلام انهُ اخضع كل الشرق . بيد انهُ لم يرَ محلاً يتم فيه احتفال الظفر بكل اعدائهِ الالداء لولا ان القنصل شيشرون لم يخلص المدينة من شبوب النار التي اعدها لها كاتيلا وعصابة من خطيري رومية . وقد اصبح هذا الحزب الهائل كالهبا المنفور بفصاحة شيشرون الخطيب اكثر من انكساره باسلحة انطونيوس رصيفهِ في القونصلاتو . ومع ذلك فقد بقيت الحرية في رومية مزعزعة الاركان فان ببيوس كان متوجًا ادارة مجلس الندوة وكانت المداولات في المكالمة يدير رحاها دولاب لسانهِ

ولما فتح جوليوس قيصر غاليا وارضخ لشوكة وطنهِ هذه البلاد التي هي اكثر افادة من كل فتوحاتها ٥٩ـ٥٨ هان عليه بهذه الخدامة ان يشيد سلطته في وطنه ولهذا عزم اولاً ان يساوي في المجد ببيوس ثم يفوقه . وكان كراسوس يهجس في ان يضاهي ذينك الخطيرين في الكرامة والمجد مثلما يضاهيها في الصولة فتكران غناءه الجسيم يضافره على ذلك ولهذا شهر الحرب على البرتيين دون تبصر في العاقبة ٥٤ فكان ذلك الدأب كيدًا في حلقومهِ وشرارة تهب في وطنهِ ٥٣ وامنهن الارزاسيد المظفرون الرومانيين يهزئون بما يطمعون ويندّدون في خسّة قائدهم . واما الغوائل العظمى التي سببها انكسار كرسس فلم تكن العار الذي مس الاسم الروماني بل ذلك متأتٍ من البغضاء بين ببيوس وقيصر ولقد كانت سلطة كراسوس حاجزًا بين الشوكتين لكنّ ذلك لم يلبث طويلاً بعد موتهِ فان الخصمين المستولين على كل القوات الرومانية اصبحا مطالبي العنان

ضد بعضهم ولما همَّ على ان يوهي كل شيء مات ميتة اخيه التي كان يود لو يستمر لها منتقمًا وقد كانت الرشوة سائدةً في رومية فان جوكورتا ملك نوميديا ١٠٩ الذي التطخ بدماء اخوته الذين كانوا تحت حماية الشعب الروماني دافع عن نفسهِ بالرشوة اكثر منها بالسلاح ١١٢ـ١١٦ـ١١١ـ١١٣ ـ ١١٤ وماريوس الذي فاز بهِ اخيرًا لم يكن له وسيلة للقبض على عنان الصولة والسلطة الأ باثارة الشعب على الاعيان ١٠٦

وقامت العبدّى مرة اخرى على قدم وساق وجاهروا بالعصيان في صقليا ١٠٣ فلم تكلف ثورتهم الثانية الرومانيين اقلّ دم من ثورتهم الاولى . وتغلب ماريوس على التوتونيين والسمبريين والامم الاخرى الشمالية التي كانت قد ولجت غاليا واسبانيا وايطاليا ١٠٢ وعنت له فرصت بانتصاره ليبرز رأيًا بتجزئة الارضين ١٠٠ واما ميتلوس الذي مانع عن ذلك فقد التجأ الى ان يتقاعد عن ذاك الشأن بسبب الظروف ولم يخمد نار الشقاق الابدم ساتورنينوس محامي الشعب وبينما كان الرومانيون يدافعون عن كبادوسيا ضد متريدات ملك البونتيين ويقمعون هذا العدوّ الالد لدولتهم وبلاد اليونان التي تحرشت له ٩٤ـ٨٨ كانت ايطاليا التي اعتادت خوض ٨٦ المعامع بسبب ما تجشمت من الحروب مع رومية او عليها تتمرد عليها واوشكت الدولة الرومانية ان تتلاشى ٩١ وفي الوقت نفسه كانت السلطة الرومانية تتمزق بسبب غضب ماريوس وسيلا ٨٧ـ٨٨ اللذين احدهما اماد الغرب والشمال رهبة والاخر ظفر باليونان واسيا واصبح سيلا ينكل وطنه الذي اثقله اوقار الرق والعبودية ٨٣ وقد امكن له ان يغادر السلطة المطلقة اختياريًا ٧٩ لكن لم يمكن له ان يدرأ غوائل مثالهِ السيء لان كلاً كان يودّ التسلط

وسرتوريوس المتحزب لماريوس بكل جرأة جند عساكر في اسبانيا ٧٧ـ٧٤ واتحد مع متريدات ٧٦ـ٧٣ فلم يمكن للقوة القسرية ان تظهر على هذا القائد البسول ولان تضيق عليهِ مذهبًا ولم يستطع ببيوس قهر ذلك الحزب الأ ببث الشقاق بين اعضائهِ واما سبارتكوس القارع بالحسام في المراح ناجه نفسه ان يتقلد السلطة المطلقة بين الجيوش ولقد كان هذا العبد يرهق البرتوريين والقناصل مقدار ما كان متريدات يعيي ليكولوس ٧١ وتسعرت نار الوغى بسبارتكوس واحزابه حتى اصبحت خطرًا على الشوكة الرومانية . وتعسر على كراسوس اخمادها والجأ الامر ان يسير ضد العبدّى

وانقطع حبل نزاعهما في معركة دموية فرفل قيصر ببرد النصر وبدت قواته في وقت واحد في مصر ٤٥ واسيا ٤٧ ومورتيانيا ٤٦ واسبانيا ٤٥ ولما فاز في كل المحال اصبح متسلطاً في رومية وكل السلطنة الرومانية ٤٤ واما بروتوس وكاسيوس فسوّلت لهما انفسهما على ان يقتلاهُ ليزحزحا عن عاتق وطنهما اثقال عبوديته فقتلاه كانه ظالم قسرًا عن حله وحينئذٍ صوبت على رومية سهام الجور والعتو فسقطت ثانية بين ايدي مركوس انطونيوس وليبيدوس واكتوفيان القيصر الشاب حفيد جوليوس قيصر وابنه بالذخيرة واصبح هولاء العتاة الثلاثة المعتسفون عن طريق السكينة يلقون الرهبة في القلوب وهذه الحال كانت كريح زعزع تزعزع اركان السلام واجترئوا المملكة الرومانية فتخذ قيصر ايطاليا وظهرت عليه علائم الدعة والحلم بعد ان كان انفًا عاتيًا ذميًا وعلق ببدي انهُ سيق للاعمال المبيئة بشركائه في السلطنة وكل من بقي من الجمهوريين تلاشى هو وبروتوس وكسيوس ٤٢ ولما أباد انطونيوس وقيصر بيدوس ٣٦ تباريا في حلبة النزال واخذا يتناضلان ٣١ فانمطت حينئذٍ كل القوات الرومانية البحرية فحاز قيصر النصر في معركة اكسياك ٣١ وتبددت كل قوات مصر والشرق التي كان قد استاقها انطونيوس وراءهُ فصدَّ عنه اخدانه جنوحًا ونفرت عنه كلهوباترا التي لاجلها اتلف ماله وقوته وسلم لقيصر هرودوس الاديماني المديون له بكل شيء ٣٠ ولذلك لبث متبوءًا عرش مملكة اليهود وخضع الكل له صاغرين ففتحت له مدينة الاسكندرية ابوابها واصبحت مصر اقليمًا من الدولة الرومانية ولما ايست كلهوباترا من رعاية هذه المملكة انتحرت بعد انطونيوس ومدت رومية ذراعيها نحو قيصر الذي استمرَّ وحدهُ يامر وينهي في الدولة الرومانية باسم اغوسطس ولقب امبراطور ٢٧ وسنة ٣٥-٢٤ ذلَّل بالترب من جبال البيراني شعوب الكنتبريين والاستوريين العتاة الجائرين وطلبت مملكة الحبش اليه ابرام الصلح ٢٢ وذعر البرتيون منه رهبةً فاعادوا اليه الوية الرومانيين التي نزعوها من كراسوس وكل الاسرى . وطلب الهنديون ان يربطوا وثاق الاخاء بينهم وبينهُ واذ عرضليل اسلحة الرومانيين كل من وطأ الارض حتى بلاد الرائيين او الغريزيين الذين ضاقت عليهم جبالهم ولم يمكن لهما ان تكون لهم مترسًا يقيهم من الغوائل وخضعت له بلاد بنونيا ١٢ وارعد فرائص جرمانيا ٧ ورضخت الامم القاطنة ضفات الفزبر لنواميسه ولما رفل ببرد الظفر برًا وبحرًا قفل ابواب هيكل جانوس وكان حينئذٍ كل العالم راتعين

في بحبوحة الامن والطمانينة مدة ملكه وولد اذ ذاك يسوع المسيح سنة ٧٥٣-٧٥٤ بعد تشييد رومية

العصر العاشر

في مولد يسوع المسيح

* الاجل السابع والاخير للعالم *

ها قد تطرقنا الى الازمنة المطلوبة من آبائنا وهو مأتى المسيح وهذه اللفظة مشتقة من المسح واستأهل يسوع ان يتلقب بها لانهُ كان كاهنًا وملكًا ونبيًا وقد تباينت آراء المورخين على وقت ميلاده بيدَ انها قد اتفقت على صحيح ببضع سنين قبل حسابنا السائر واما نحن فعكفنا عليه لسهولة ماخذه اذ لا نتوقف بالفحص عن ذلك ومهما يكن من الامر فحسبنا العرفان انه ولد سنة ٤٠٠٠ او ٤٩٦٣ بعد التكوين. وذهب بعض المورخين الى ان ميلاده كان قبل ذلك بقليل من الزمن وذهب غيرهم الى انهُ كان بعد وذهب اخرون الى ان ميلاده كان في تلك السنة عينها . وهذا الاختلاف يتاتى من عدم التحري في تاريخ التكوين او في ميلاد المسيح وعلى كلٍّ فان نحو ذاك الحين اي السنة الالف بعد تكريس الهيكل وسنة ٧٥٤ بعد تشييد رومية تجسد يسوع المسيح ابن الله في الازلية وابن ابرهيم وداود في الزمان من كاعبٍ عذراء . وذلك العصر دعاه المورخون اعظم الاعصار لسبب هذا الحادث العظيم ولان المسيحيين كافةً يتخذونه من اجيالٍ عديدة مصدرًا لحسبان سنيهم ولاريب في ان هذا العصر في غاية الغرابة فانه موافقٌ لعود الدولة الرومانية الى السياسة الملوكية في عهد اوغسطوس

وازهرت في ذلك العصر الفنون قاطبةً وتسامى الشعر اللاتيني الى اعلى درجة من الجودة والكمال بواسطة فرجيليوس وهوراسيوس وكان الملك اوغسطس يقويهما ويجزل اكرامهما ويوذن لهما بالدخول امامه

ومات بعد المسيح هيرودس واجتزأ اولاده مملكته من بعدهِ واستولى الرومانيون على القسم الاوفر من تلك السلطنة السنة الثامنة

وتكامل حكم اوغسطس بالسوددِ والمجد السنة ١٤ وخلفه طباريوس الذي تخذ

بالذخيرة ابنًا له . واصبحت السلطة تتوارثها السلالة القيصرية وتجشَّمت رومية مشقات عظمى لكثرة ما اعتسف طباريوس بسياسته وجار لكنما الطمانينة كانت في غبر الحال في اعلى السيادة . واما جرمانيكوس ابن اخي طباريوس فقد كدح وجهد في اخماد نار الفتنة التي سعرها الجيوش المتمردون ونبذ السلطة الملوكية ظهريًا وقهر ارمينوس الجبار ووصل بفتوحاته الى ضفَّات نهر الالب ١٦ وبذلك رضي عنه الشعوب بواسطة اعماله واخلصوا له السريرة وحسد عمه البربري المتوعر الذي اماته غمًّا او سمًّا ١٩ وبعد ان مضى على حكم طباريوس اربعة حوول ظهر يوحنا المعمدان ٢٨ واعتمد يسوع المسيح بيد هذا السابق الالهي ٣٠ واعترف الاب الازلي بابنهِ الحبيب بصوت سماوي . وحلَّ على يسوع الروح القدس بهيئة حمامة وديعة وظهر اذ ذاك كل الثالوث الاقدس . ولما كمل السبعون اسبوعًا لدانيال النبي على المسيح ينذر ولقد كان الاسبوع الاخير اهم الاسابيع كلها واعظمها ومازهُ دانيال عن غيرهِ حيث كان فيه التعاهد على وشك التقرير ولان الذبائح القديمة كانت في وسطه قريبة الزوال ٨ ويمكن لنا ان ندعوه اسبوع الاسرار لان تثبيت ارسالية المسيح قد كان بهِ . وظهرت بهِ تعاليمه بعجائب شتى وموته ٣٢ الذي حدث في السنة الرابعة من انذاره وتوافق تلك السنة للسنة الاخيرة من اسبوع دانيال الاخير واجتزئت بموت يسوع المسيح الى جزئين

وبناء عليه لا يكون حساب الاسبوع من القضايا المشكله او بالاحرى هو مصنوعٌ طبعًا فليس علينا الاَّ ان نضيف الى اربعماية وثلاث وخمسين سنة خلت منذ ثلثماية سنة من تشييد رومية وعشرين سنة من حكم الملك ارتحششتا الثلاثين السنة الاولى من بداءة الحساب السائر وهي التي تصل الى السنة الخامسة عشرة من ملك طباريوس ومعمودية المخلص فيكون الحاصل من مجموع هذه السنين اربعماية وثلاث وثمانين سنة ومن سبع السنوات الباقية الى تتمة الاربعماية والتسعين سنةً تكون السنة الرابعة الوسطى هي التي مات فيها المسيح فعلى ذلك يكون كل ما تنبأ عنه دانيال ظاهرًا في الحد المعين بكل صراحة (١) . وليس لنا من الامر ما يبعثنا على كل ذاك التنقير ولاشيء يلجئنا ان نعتمد في كل تلك الصعوبة ما اوعز اليهِ دانيال لان المورخين المدققين يكفيهم ان

(١) دانيال اسفر ٩ ص ٢٧

بروا في بضع نقاط نشأت بين الطرفين ما تنوهت بهِ حتى ان الذين يهجسون انهم اولو حجج بينة بان يحصروا بداءة حكم ارتحششتا او موت المخلص قبيل ذلك او بعيدهُ لا يتلبَّسون في حسبانهم وان الذين يرغبون في تهويش هذا الامر الصريح بنزاع حسبانات تاريخية يتملَّصون من تنقيرهم الذي لا يجديهم نفعًا

وهاك ما يقتضي معرفته لاجتناب الاشكال في المورخين الدنيويين وادراك الآثار اليهودية على قدر الحاجة . ولا عبرة بالبحث عمَّا يناط بباقي حساب التاريخ . وعدم التحري في تاريخ سنة العالم وسني المسيح يبعث على عدم ادراك سنة ميلاد المسيح قبلُ او بعد . ومهما كان الامر فمن تصفح مقالنا وكانت الالمعية متوفرة فيه يفقه ان ذلك لا يعبث بتوالي المآرب الرئية . ومع ذلك كن قويم السلوك يا سيدي بحساب التاريخ لئلاَّ تشكل عليك الحادثات ودع العلماء يتنازعون فانهم في كل واد يهيمون . ولا نعبأ بمن يذهب الى ان في التواريخ الدنيوية كل عجائب المسيح ورسله . وسوف ترى ان في التواريخ حقائق شتى اكثر ما يخالون كالكسوف الذي حدث لدى موت المخلص فان الظلمة المدلهمة التي غشت رداء الارض وقت صلبهِ في رابعة النهار قد احتسبها المورخون الوثنيون الذين نقلوا ذلك الحادث الواجب التذكار كسوفًا اعتياديًا واما المسيحيون الغابرون الذين اذ ذكروا ذلك الحادث العظيم امام الرومانيين فقد اعتبروه اعجوبةً كبرى نقلها مورخوهم المدققون واثبتوها في السجلات العامة وابانوا ان الشمس لا يعتريها الكسوف في السنة التي مات فيها المسيح حيث الهلال في غاية كماله . وان طرأ شيء من ذلك فلا يكون الا من خوارق العادة وقد تصفحنا نفس القول في تاريخ فليمون معتوق الملك ادريانوس وقوله مبثوثٌ في العصر الذي كانت ايدي العامة تتداول تاريخه وقفاهُ بذلك تالوس المورخ السرياني واُشير في تاريخ فليمون الى السنة الرابعة من مايتين واثنين من الاولمبياد بانها معتبرة كالسنة التي مات فيها المخلص

وقد نهض المسيح من القبر اليوم الثالث تتميمًا للاسرار وبدا امام تلاميذه وصعد الى السما بمشهدٍ منهم . وبعث اليهم بالروح القدس وتوطَّدت حينئذٍ اركان البيعة واخذ الاضطهاد يسود ورُجم القديس اسطفانوس والقديس بولس آب الى حجر الايمان .

وبعد ان مضى على ذاك الحين قليلٌ من الزمن مات طباريوس ٣٧ وادهش الناس ابنه بالذخيرة كاليغولا بخشونته وعتوه البربري وارغم الرعية على ان يعبدوه

ويضعوا تمثاله في هيكل اورشليم ٤٠ فقتله شيرياس وانقذ العالم من هذه الآفة ٤١

ثم تولى زمام الامر كلوديوس قسرًا عن خموله وبلهه وخرقت عرضة امرأته ميساليتا التي كان يطلبها بعد اماتتها ٤٨ وتأهل باكريين بنت جيرمانيكوس ٤٩ وفتحت الرسل مجمع اورشليم ٥٠ فتكلم فيه بطرس على حسب عادته اولاً. وان الوثنيين الذين آمنوا وسعوا على المحجة القويمة تملصوا من رعاية الشريعة الموسوية بموجب نص المجمع وأبرز الحكم باسم الروح القدس والبيعة القدسية واذاع بولس وبرنابا حكمه في الامصار والاحياء وبعثوا المومنين على ان يكونوا له راضخين وهكذا كانت هيئة المجمع الاول

وكان كلوديوس في ذاك الحين قد حرم ابنه بريتانيكوس ميراثه وتخذ نيرون بن اكريين ابنًا له بالذخيرة فحنقت من ذلك امرأته وعاطته كاسًا من السم فمات ٤٥ فخلفه ابنه نيرون فبرّح بها واثقل على المملكة جورًا واما كورنيلون فقد جعل وحدة ولاء نيرون مرتفعًا الى طبقات المجد والسودد بظهوره على البرتيين والادوميين. واخذ في ذاك الحين نيرون يوقد نيران الحرب على اليهود ٦٦ ويضطهد المسيحيين وبذلك كان امبراطورًا الاّ جرّته الوقاحة وصفاقة الوجه الى اضطهاد البيعة وامات في رومية الرسولين بطرس وبولس ٦٦-٦٧ ولما كان في ذاك الحين يجور على كل بني الانسان تألبت ضده القلوب من كل صقع وناد واذ علم ان مجلس الندوة قضى عليه بان يموت ذريعًا تخير الانتحار ٦٨ واصبح كل جيش يتخيّر له امبراطورًا وانفصم حبل الشحناء قرب رومية وزأرت فيها معامع هائلة دموية قتل بها غلبا وأتون وفيتليوس ٦٩ واكتست الدولة المبرّحة في عهد فزبازيان جلباب الارتياح ٧٠ بعد ان كانت تصفعها اكف الاضطراب لكنما اليهود وصلوا لدى ذلك الى جرف هار من التلف وفتحت اورشليم ابوابها فاندثرت اي اندثار وابتلعتها افواه النار واصبح طيتوس بن فزبازيان وخليفته سرورًا تفترّ به ثغور العالم وتطيب به النفوس. ومضت ايامه كانها لم تكن مذكورة لانها لم تكن تمرّ في خلال الخير ثم حيي نيرون متقمصًا بجسم دوميتيان وتعزز حينئذٍ الاضطهاد ٩٢ وبعد ان أخرج القديس يوحنا من الزيت السخنان أقصي الى جزيرة بطموس فكتب ثمة رؤياه ٩٥ وبعد ان مضت على ذلك مدة كتب انجيله وهو معمرٌ تسعين عامًا واتصف بعد ذلك بكونه انجيليًا ورسولاً ونبيًا واستمرّ اضطهاد المسيحيين منذ ذاك الوقت يذيع ويسود سوآءً كان يتولى السدّة ملوكٌ اصفياء ام ملوكٌ اشقياء. فتارةً كان الملوك والاولياء المبغضون المقربون يثيرون

الشعوب ويسيّرون اليهم اوامر تحثهم على ذاك الاضطهاد وتارةً كان الشعب يثور عليهم وينقم منهم ويرهقهم وهم صابرون. وآونةً كان مجلس الندوة يبرز القضاء مبرمًا باعنات المسيحيين واذلالهم بموجب اوامر من الملوك او بحضورهم ففشا الاضطهاد واصبح عامًا حينئذٍ وانساع الدم على الارض غديرًا. وصمم الجاحدون على ان يهدموا البيعة فهاجوا وازبدوا ودبت الحدة فيهم دبيبًا مستمرًا وعلقت الاضطهادات تتوالى حينًا بعد حين. ولذلك قد حسب المورخون الكنايسيون الاضطهادات فكانت عشرًا تمت في عهد عشرةٍ من الملوك ولم ييأس المسيحيون من نوال الارتياح طول ذاك العناء ولم تسول لهم النفوس على إثارة الثورة في غضون اتباعهم وتعنيتهم. وقد كان الكرب يمسّ الاساقفة وذوي القربى اكثر من سواهم وكانت كنيسة رومية معرّضةً للاضطهاد اكثر من غيرها تخرق فيها ايدي الجاحدين الظالمين. فقتل من الباباوات كثيرٌ فانبتت دماؤهم الانجيل الطاهر الذي كانوا ينذرون به ومات دوميسيانوس قتيلاً وعلقت الدولة تستكنُّ في عهد نيرفا ٩٦ ولما كان هذا الملك قد اشرف على الزوال نظرًا لما اعتراه من الهرم لم يمكن له اصلاح شوؤون المملكة فرغب في ان تسود فيها الطأنينة والسكينة. ولذلك اصطفى طراجانوس وريث ملكه وخليفةً له ٩٧ واذ كانت الدولة الرومانية مستكنة داخليتها وهي مضفيةٌ ذيول النصر خارجًا استمرّت ترنو الى ذاك الملك العظيم بعين الاعتبار ٩٨ وان من اقواله التي تداولتها السنة القوم ان الرعية لابدّ لها من ان تودّ ان يتصف من مناقب الملك بما يودُ ان يرى في الملك لو لم يكن ملكًا. وقمع الداسيين وذلل ملكهم ديسيبال ١٠٧-١٠٦-١٠٣ واوسع فتوحاته في الشرق ١١٦-١١٥ واقام على البرتيين ملكًا وجعل الرعدة تستولي على قلوبهم اجمعين وهيّبهم الى السلطنة الرومانية. ولله دره من ملك سعيد لولا ان اغتباق الخمرة وصبابته حملاهُ على ان يمتطي متن امور تطرح بالعدل جانبًا. وخلف هذا الحكم الجدير بالنفع للدولة الرومانية حكم الملك ادريانوس الذي تجاذبه طرفان من الحسنى والبوسى فرعى النظام في الفيالق ١٢٠ وبقي هو نفسهُ جنديًا عائشًا عيشة قرويةً ١٢٢ وخفّف عن عواتق الاهلين اثقال الخراج ١٢٥ فاينعت اغصان الفنون في بلاد اليونان التي هي منهل ذلك ١٢٦ وراع البربر بالسلاح والسلطة ١٣٠ وانهض مدينة اورشليم من وهدة اليباب ودعاها باسمه ١٢٥ فلقبت حينئذٍ باليا. لكنهُ طرد منها اليهود الذين لبثوا يتمرّدون على الدولة ويثورون فكان عليهم شديد الانتقام لا يعاملهم

بالتؤدة ولا يرفق بهم . وهتك حكمة الزاهي بجوره وتهافته على جهد الصبابة والغرام واصبح انطينووس المرذول المتاله علة لعاره طول حياته ١٢١ واصلح مجد لما اذّخر ابنًا له انطونينوس الصالح الذي تبنى مركوس اوريليوس الحكيم الفيلسوف ١٣٨ ولقد كان ذانك الملكان يرسخ فيهما خلتان حميدتان ١٦١ - ١٣٩ فان الاب لم تكن نفسه تجنح الا الى ابرام الاخاء والصلح ولم تاخذه عن الاغارة سنة الكرى اذا افضى به الامر الى ايقاد نار الوغى . وكان الابن يساور العدوّ في ساحة النزال وينهمك في ان يمتن ربط الصلح بين الدولة الرومانية ومنازليها فان اباه قد اوعز اليه ان يفضل انقاذ واحد من رعيته على اهراق دماء الف من اعدائه الكاشحين . ولطالما ضرّى البرتيين ١٦٢ والمركومانيين ١٦٩ واغرام ببسالته . اما المركومانيون فهم قلل جرمانية فمعهم مركوس اوريليوس لدى موته وفضائل هذين الملكين بعثت الرومانيين على ان يتفاءلوا باسم انطونينوس . ولا جرم ان مجد هذا الاسم لم يكن خاملاً بتفنق لوسيوس فرسيوس اخي مركوس اوريليوس ورضيفه في الملك او بفسوة لومود ابنه وخليفته ١٨٠ اما لومود فلم يستأهل ان يكون ولداً لابيه الاروعي فانه نبذ تعيمة غير متسنن باعماله ولذلك اقام عليه مجلس الندوة والشعب نكيرًا وقد كاشحوه بالضغينة وقتلته وليته وندماؤه الاصفياء ١٨٠ وخلفه برتيناكس وكان باسلاً ذائدًا عن النظام الجندي عزيزًا ولذلك لم يقعد عن ان يكون هدفًا للثائرين الذين اقاموه على العرش الملوكي قسرًا عن ميله وطرح الجنود المملكة الرومانية وقتئذ في سوق الشراء فانبرى المشترع ديديوس جوليانوس ليشريها فقتله سفاريوس الافريقي انتقامًا وكيدًا واخذ بدم برتيناكس وجدّ في السرى طاويًا بساط الارض شرقًا وغربًا ونال راية الظفر في سوريا وغاليا ١٩٧ - ١٩٤ - ١٩٥ وبريطانيا العظمى ٢٠٧ - ٢٠٩ ولقد بارى قيصر في الفوز والفتوحات لكنه لم يكن نظيره حليمًا حازمًا ٢٠٧ وهبّت بين اولاده قبسة الشقاق فلم يمكن له اخمادها ولما توفاه الله وثب حالاً ابنه البكر باسيان على اخيه جيتا وقتله في حجر امها جوليا ٢١٢ ولقد كان تسنّنه باسكندر تسننًا كاذبًا . واستمرّ طول ايام حياته يقامي الصروف الرزئية ينتهك حرمة السكينة قاتلاً عاثيًا فمات موتًا ذريعًا . ولم يكن يعبأ بما زرع له ابوه فانه كان قد امال له قلوب الجنود والشعوب بتسمية انطونينوس فنبذ ذلك الاسم غير حافل به ولا مكترث بمجده ٢١٨

واما هيليو غابال السرياني (او الغابال ابنه او المزعوم كابنه) فقد سئمت منه النفوس

وانف منه القوم مزيلين المودة التي بعثهم عليها لقبه انطونينوس الذي سبب له الظهور على ماكرينوس . ثم جرته رذائله الى ان يتجرع كاس الحمام وخلفه ذو قرابته اسكندر سفاريوس بن ماما فلم يبقَ لسوء بخت العالم على الارض طويلاً بل قضي عليه بعد ان حكم قليلاً . فكان موته للناس خبرًا وقد طالما انبأ انه كان يشق عليه قمع جنوده الثائرين اكثر من قمع اعدائه الكاشحين . وكما ان امه التي كانت تقوده باعماله كانت ذريعة لجده وبذوخ مكانته كذلك كانت علةً لهلاكه ٢٣٥ وقتل في عهده ارتحشستا الفارسي الباسل سيف ارتبان الذي كان اخر ملوك البرتيين وقام بناصر دولة فارس فرفع منارها مرة اخرى في الشرق ٢٢٣-٢٢٤

وفي ذاك الحين تعززت اركان البيعة الحديثة في كل الارض ولم تمتد في الشرق حيث بدت اي في فلسطين وسورية ومصر واسيا الصغرى واليونان بل انها انتشرت في ايطاليا وبين الشعوب الغالية المختلفة الاجناس وكل مقاطعات اسبانيا وافريقيا وجرمانيا وكل انحاء بريطانيا العظمى حيث لم تتطرّق ايضًا اسلحة الجنود الرومانية . وامتدت الى خارج الدولة الرومانية في ارمينية وفارس والهند والبلدان البربرية كبلاد السرماتيين والداسيين والتتر والمغاربة والجيتوليين وكل الجزائر المجهولة . ولقد نمت بدماء الشهداء والقي الى ضواري الوحش اسقف انطاكية القديس اغناطيوس في عهد ترايانوس ١١٧-١١٦ واما مركوس اوريليوس فقد كان لا يفتر عن ان يجدل على المسيحيين لكثرة ما كان يرفع النميمة اليه عنهم المفسدون فعمد على محامي الدين المسيحي القديس يوستينوس الحكيم واماته قتلاً ١٦٢ وقضي بالحريق في عهد هذا الملك نفسه على القديس بوليكربوس اسقف ازمير وتلميذ القديس يوحنا وهو في سن ثمانين سنة ١٦٧ وتجشم الشهداء مصائب شتى وعذابات كثيرة في ليون وفينا ١٧٧ اقتداء باسقفهم القديس فوتان الذي كان يبلغ من العمر تسعين سنة وانتشر مجد بيعة غاليا في العالم كله . واما خليفة القديس فوتان القديس ايريناوس تلميذ بوليكربوس فقد اقتدى بسالفه ومات شهيدًا في عهد سفاريوس هو وجم عظيم من المومنين ٢٠٢ فكثيرًا ما كان المسيحيون يتنفسون الصعداء التياعًا الى ان تولوا من الاضطهاد ارتياحًا وبناء على ذلك يذكر ان مرقوس اوريليوس بعد ان دوخ بلاد جرمانيا وصل بعساكره الى مفازة هيماء فاخذ الظما به وبجنوده كل ماخذ

فاوعز الى فرقة من المسيحيين ان استغيثوا من ربكم عسى ان ياتينا بالغيث من عنده مدرارًا فتنالوا من لدني الحسنى وتكونوا من المقربين فخرّوا على الارض جثيًا وطفقوا يجارون الى الله فاستجاب الدعاء وغاث البادية بمطر غزير شفعه بانقضاض الصاعقات المرهبات لاعدائه فارتوى الملك والجنود وبعثتهم هذه الاعجوبة على ان يلقبوا الفرقة باسم صاعقية فراف الملك بهم واوصل اليهم المسار فكانوا بوواثقين واوعز الى مجلس الندوة ان يرفق بالمسيحيين. واسبابٌ شتى كانت ذريعة الى توقيف الاضطهاد الى وقت ما او تلطفة لكنما السحرة الافاكون توافدوا اليه واخذوا ينمون تلك العجائب الى المته وانه اهبطها باستصراخه ربه وان لم يكن ذلك يخاطر على بال الوثنيين. فاصاخ الملك لكلامهم وتوهم ان مينهم مفرغٌ في اناء اليقين ولذلك لم يتمالك ان باده المسيحيين بالاضطهاد والقلى ولبث يعنتهم طالما كان ينم الحديث اليه عنهم المفسدون وبورشون ماينهم وبينه واستمر حقد الوثنيين عليهم محتدمًا والملك يجدل عليهم وهم يائسون ودماهم تنصبب في كل انحاء المملكة بيدَ انهم لم يتقاعدوا عن ادمانهم الارشاد والانذار في عرض تاو يقهم واذلالهم ففي عهد سفاريوس و بعد بقليل من الحين تلالأت في البيعة انوار ترتوليانوس الكاهن القرطجني ورعاها واثر الدفاع عنها بقلب تجيش فيه حماسة لكنه بعدان كانت نواخيه القلوب ونفرية المثل اصبح مرشوقًا بسهام المقت والتفنيد فان الكبرياء اضلت بصيرته عن روية الهدى فخرج من حجر الكنيسة وتخذ مونتانوس المتنبيء الدجّال مثالاً له وديدنًا لاعماله ٢٠٥-٢١٥ وكان في ذاك الحين قد بحث الكاهن المفضال القديس اكليمندوس الاسكندري عن آثار الوثنيين القديمة قصد ادحاضها اما اوريجانوس بن لاندوس الشهيد فقد كان وقتئذٍ عالمًا تعتزُّ به الكنيسة منذ نعومة اظفاره وعلم حقائق عظيمة بخامرها من الضلال شيءٌ كثير ولقد كان الفيلسوف امونيوس يستهمُّ بامر الدين المسيحي فابرزله من فلسفة افلاطون ادلة وحججًا يترتب عليها نتيجةٌ واستحق رفعه الشان والكرامة من كل من يعرفه حتى من الوثنيين ايضًا . وفي ذاك الان قامت شيعٌ كثيرة منها الغنوستيكيون وتباع والتتيانوس وغيرهم من الجاحدين وتصدوا لخرق شأن البيعة والانجيل بالترهات والتقليدات الباطلة فانبرى اليهم القديس ايريناوس وعلق يقاويهم بتقليدات البيع الرسولية وسلطتها ولاسيا بالاستناد على كنيسة رومية اعظم الكنائس التي شادها القديسان الرسولان بطرس وبولس . وهاك ماقال

عنها ترتليانوس ان البيعة راسخة الاركان لايزعزعها المبتدعون ولاتنكس اعلامها اذا ناوشتها المشقة اوسقط اشهر علمائها الاحوذيين . وان لها من العادات المقدسة ما بعثت اليها الاطراء من القاصين عنها

ولقد كانت الدولة الرومانية تخبط خبط عشواء فان اسكندر بعد ان اغتالته مخالب المنون ٢٣٥ تولى قائلة الجائر مكسيمينوس في مثابتو مع انهُ كان من اخلاف القوتيين اولي الهمجية والخشونة . واقام مجلس الندوة من الملوك اربعةً بمقابلتو ماتوا طرًا مدة سنتين غير كاملتين منهم غورديانوس وابنه المقربان لدى الرومانيين ٢٣٧-٢٣٦ واما ابنهما غورديانوس اليافع فقد كانت بضاضتهُ لاتصده ٢٣٨ عن ابراز الحكمة الخارقة التي يقصّر عنها الكهول المحنكون. فاصبح مجنًا للدولة الرومانية التي اوهنتها الانقسامات وفتكت بها ايدي الجائرين . فوثب على الفرس اعدائها ٢٤٣ ونزع من ايديهم كثيرًا ما غنموه من الهامّ منها وما سلبوه لكنه لم يجيء طويلاً فان فيلبوس العربي نازل هذا الملك الصالح وسلبهُ روحهُ ٢٥٤ ولما شعر بتولية ملكين اقامها مجلس الندوة انحاز الى صابور ملك الفرس خشية ان يعنتاه وابرم معهُ صلحًا خرق عرضهُ وحمله الفحش والشين ٢٤٤-٢٤٥ وقد تقرّران هذا الملك هو اول الرومانيين الذين غادروا بعض اراضٍ من المملكة بموجب معاقدة ومحالفة

وقد رُوي انهُ لما سعى على السبيل القويم جدّ في سبيل الله وتخذ الكنيسة له ثمالاً مستمسكًا بعروبها الوثقى والحقُّ يقال انهُ طرح بالعسف جانبًا واستحال ملاذًا للمسيحيين يستنصرونه فكاشحه لداسيوس الذي اهرق دمهُ وجدّد الاضطهاد بكل قسوةٍ. وبناء عليهِ اخذ العاتون يلمون بابناء الله ويفطرونهم

اما البيعة فقد كانت تمتدُّ في الامصار كافة ولاسيا في غاليا بدرأ عنها الملك داس النوائب الدامسة فقدّر عليهِ بزهوق الروح ٢٥١ فكان ذلك عليها وبلاً وثبورًا . واما غاليوس وفوليزيانوس اللذان خلفاهُ فلم يلهها عن الايقاع بالبيعة سوى موالاتهم للملك ولم يكن لاميليانوس امرٌ سوى بروزهِ فانيطت السلطة المطلقة بعهدة فاليريانوس ٢٥٣-٢٥٤ فجدّ بهِ من الهمة جادٌ واخذ يصلح شوون المملكة بكل اقدام وجراءة وهو في حيز الهرم . لكنه لم يكن جائرًا الاّ على ابناء بيعة الله ٢٥٧ ونال في عهد البابا القديس اسطفانوس والقديس قبريانوس اسقف قرطجنا اكليلي الشهادة قسرًا عن خصامها

الذي لم يقطع من بينها وثاق الاخاء ٢٥٨ ولم يكن ضلال القديس فيريانس الذي كان يشدُّ على معمودية الهراطقة نكيرًا بلمٌ بنفسه ولا بالكنيسة ٢٥٦ واستمرَّ تقليد الكرسي الرسولي مرعيًا بقوته الخاصة قسرًا عن تحجبه الفاسق وتحج بعض انام لهم اهمية اخذوا يؤيدون مقاله . ولما لبث الجدل قائمًا مستمرًا نشأ منه كبير مضرة فان سباليوس قد مزج ثلاثة الاقانيم معًا . فقد ذهب الى ان العليّ له اقنومٌ واحد مثلث الاسماء ٢٥٧ فذلك تعليم تعترف البيعة بغرابتهِ الفائقة . وابان القديس دنيسيوس اسقف اسكندرية لدى البابا سكستوس الثاني كل غيّ ذلك المبتدع وضلالهِ اما البابا فقد اقتفى الذي تكبَّدهُ سالفه القديس اسطفانوس فبقي مجاهدًا الى ان بترَ المضطهدون راسه واخذوا يرهقون شمَّاسهُ القديس لورنسيوس ويحملونه ما لا يستطيع عليه صبرًا . وحينئذٍ اخذ البربر يشنون الإغارة على الدولة الرومانية ٢٦٠-٢٥٨- فان البرغونيين وشعوبًا أُخرى جرمانية والقوتيين الذين كانوا يلقبون في ما غبر بجيتيين وشعوبًا أُخرى من الشعوب الذين يقطنون شواطىء البون توكسان وراء نهر الدانوب تزاحفوا برمتهم الى اوربا واندفعوا يخترقون واغار الفرس والشيثيون الاسيويون على الناحية الشرقية منها وطفقوا يذللون الصعاب ويفسدون. وقبض وقتئذٍ الفرس على الملك فاليريانوس غدرًا واستاسروه مهانًا ذليلاً يكابد طول حياته الثبور والمشاق وسبئوا من بعد ذلك جلدهُ بعد ان مزّقوه كل ممزّقٍ واستخدموه العوبةً لايديهم علامةً للنصر وركوب متن الفلاح . اما مضافرهُ في الملك ابنهُ غليانوس فقد كان خامل الراي هيوبًا للامور يقعدُ الجبنُ عن الهيجاء فكان ذلك سببًا لانحطاطهِ الى حضيض الذلة مدحورًا ٢٦٠-٢٦١ وزاحم المملكة الرومانية ثلاثون رجلاً من الظَلَمَة العتاة واقتسموها قسمة ضيزى . واما مدينة تدمُر القديمة التي شادها الملك سليمان فكان قطّانُ عرشها ملكًا عسوفًا يدعى اودينات يفوق كل الظلاّم الآنفين عسفًا وتأويبًا فانهُ ضيق على البربر وعسف من ايديهم الامصار الشرقية واستوى على العرش ملكًا بحولهِ وطولهِ . ومن الامور التي تبعث على الدهشة ان امرأته زنوبا كانت عاكفة على التسيار معهُ امام الجيوش وبعد ان زهقت روحهُ ترتبت عليها قيادة الجنود فاشتهرت بقوة الفؤاد ونزاهة النفس وفي اليقين انها كانت محرزة الجمال والعفاف والمعارف والبسالة وزنا كلوديوس الثاني ٢٦٨ الى المملكة الرومانية وقفاه اورليانوس ٢٧٠ واوسعا خطا فلاحها ونجاحها فرفلت ببرد العز بعد

ان كانت صاغرة ذليلة . وفي غضون تعنيهما القوتيين والجرمانيين بانتصارات علنية كانت زنوبا الملكة الاروعية ترعى لبنيها ما فتح ابوهم من المدائن وكانت راضية عن الديانة اليهودية . فاهتمَّ بولس السموزاتي بان يجعلها تستمسك عن تلك الديانة قصد ان تعتنق الدين المسيحي فاختلق لها مذهبًا على حسب الدين اليهودي قريبًا يتعلق بالبحث عن اقنوم المسيح وخيَّلهُ اليها انهُ انسان محض وبعد ان اسرَّ تعليمهُ زمنًا نفي الفشاء عنه في مجمع انطاكية وحكم عليهِ . وقد كان اسقفًا زهوقًا في مدينة انطاكية يتهافت على القاء الشغب واماتة السكينة واما الملكة زنوبا فقد دافعت في الحرب التي اججها اورليان ٢٧٣ متوهمة انها تنال بذلك النصر والغنيمة فحبط مسعاها لان اورليان نازلها غير مستخف بها وفاز لدى قتالها بلواء الظهور عليها ٢٧٤ وفي عرض تلك الحروب المستمرة لم يطوِ كشحًا عن ان يرعى الجنود الحربية الرسوم الرومانية وابان ان ادارة فيالق كثيرة داخلاً وخارجًا دون ان تفسك الدولة موقوفة على ان الجنود لابدَّ من تيارهم على اقتفاء النظام وخشونة العيش القديمين

اما الفرنسيس فقد جدوا في ان يذيع باسمهم ويخيم الرُواعُ منهم على بلاد الروم . وقد ثبت انهم ليسوا من محتدٍ واحدٍ بل انهم فُلُّ جرمانيون كانوا يقيمون في شواطىء الرين . ومن اسمهم دليلٌ على انهم كانوا يسكنون في بحبوحة الحرية فناصبهم اورليانوس مستظهرًا قبل ان يتبوأ سرير الملك . ولما تملك امر قومه نصبهم الهمّ وتجرعوا البؤسى طول ايام حكمهِ ولقد تقرر انهُ كان عيلاً عاتيًا لا يمسك عن اهرياق الدماء فتجهمت لهُ الوجوه وصار الناس يكنحون لهُ بالبغضاء والشحناء وقصارى الكلام ان شدة جوره وتهمكه في اهراق دماء العباد بعثاهُ على ان يتجرع كاس الحمام ٢٧٥

وكل رؤساء الجيش الذين كانوا يحسون منهُ خيفةً ويتوهمون انهُ سيبادهم بالخطر الوبيل تألبت عليهِ قلوبهم للفتك بهِ وأُقيم عليهم كاتم اسرارهِ رئيسًا وأوقعوا بهِ فجندلوهُ قتيلاً . ولما اصبح من الغابرين تقاعد الجنود عن ان يتخيروا لهم ملكًا خشية ان يكون من يتنقونهُ احد قاتليه . واذ آبت لمجلس الندوة حقوق الخيرة القديم انتخب تيستوس ملكًا مكانهُ وفي اليقين ان هذا الملك كان شيخًا وقورًا مهوبًا لا تاخذه عن الفضيلة سنة . بيد انهُ اقام على الجيش من انسبائهِ رئيسًا مستكبرًا جائرًا فنفرت منه القلوب وثارت عليهِ الجيوش فازهقوا روحهُ وروح ذلك الرئيس العاتي وكان ذلك في الشهر السادس من

ملكهِ ٢٧٦ وعلى ذلك لم يجنِ من الاستواء على العرش سوى سبوع دمهِ على بساط الارض. واما اخوهُ فلوريانوس فقد همّ بان يرث اخاه حكمًا لانهُ كان اخص ورثتهِ فانكر ذلك عليهِ الرومانيون فاماتوهُ بحد الحسام ونصبوا على السدة بروبوس الذي قسر الجيوش على ان يعيشوا طرًا كالجنود الذين هم منخرطون بسلك النظام فعززت احكامهُ واصبحت السيادة صاغرة لولائهِ والسلطة لامرهِ وسلطانه فان الجرمانيين والفرنسيس تزاحفوا في قتالهِ قصد ان يدخلوا بلاد غاليا فالتقاهم الى مضمار النزال وخرق صفوفهم فحاصوا من امامهِ مدبرين فخشي البربر غربًا وشرقًا بأس الرومانيين ورعوا لهم الحرمة رهبةً من الغائلة ٢٨٠-٢٧٨ ومن ثمّ رغب في ابرام الصلح واخذ يوائق الرعية بان الدولة ليس لها اربةٌ الى جنودٍ مجندة فبدرت من الجيوش بوادر وتخذوا كلامهُ باعثًا على الاستثارة ولما بدهم منهُ الارهاق والتذليل ثاروا عليهِ متنقمين. وبعد ان مضت على ذلك حقبةٌ من الزمن أسفوا عليه ورأوا انهم اجحفوا بهِ عمدًا وعدوانًا فاثروا من بعدهِ كاروس خليفةً لهُ وكان بطلاً صنديدًا مستميتًا لدى العراك يود الانهماك في تنظيم الجنود ٢٨٢-٢٨٣

وبعد ان استقر بهِ منصب الملك ثأّر مخلوفهُ وقمع البربر الذين كانوا قد اقتنوا بعد موت بروبوس ومضى من ثم الى الشرق ليضرب الفرس مصحوبًا بابنه الثاني نومريانوس. ووكل الى ابنه البكر كارينوس مناصبة الاعداء في ناحية الشمال وكان قد لقبهُ بقيصر (هو لقب اقرب مدرجةً للوصول الى رتبة الملك) اما الشرقيون فقد هالتهم حرب كاروس جدًا لان الشعوب القاطنين بين النهرين تطأطأوا له تطأطوء الذلاة ولم يكن للفرس الذين كان الشقاق بينهم سائدًا ان ترسخ امامهُ اقدامهم بل مزّق شملهم فتفرقوا ايادي سبا. وبينا كان يخفض نفوس المستكبرين ويسفل لديه كل طامحٍ رفيع استأثر بهِ الله بصاعقةٍ بغتةً قبل انتهاء مسيره فاصبح ابنه نمريانوس من بعدهِ رثاه يواصل بيكائهِ الليل بالنهار فاوشكت مقلتاه ان تشح لكثرة هميان الدموع. لكنّ من سبرَ الامور بمقياس البصيرة يشعر ان الغراء بالترشح الى مدارج الملك يبعث على القسوة والنفرة فان حماه أبيرَ بدلاً من ان يكتئب لاكتئابهِ ويرنو اليه بعين الرعاية والرفق اغراهُ بقتلهِ الطماعُ في الملك ٢٨٤ فتطيّر ديوكليسيانوس من ذلك الجلل العظيم وثأر القتيل بقتلهِ قاتلهِ ومن ثم رتع في دست الخلافة التي كان يتمناها من صميم فوادهِ. واما

كارينوس فقد كان هيابًا وكلاً تخبو نيران الحدة في فوادهِ ولكنه لما فقه ما وصل اليه ديوكليسيانوس تقوّى وبرزَ الى مضمار القتال فاستحال بطلاً دعيسًا واحرب الحرب حينئذٍ عليه فقمعهُ وشعث عساكرهُ. واذ راى جنود عدوهِ تفللوا منهزمين فقام مطاردًا فتصدى له اذ ذاك احد انصارهِ وقتلهُ كيدًا وانتقامًا بحجة انهُ اغتصب امرأته ٢٨٥ فتملصت حينئذٍ الدولة الرومانية من وثاق اعظم الظلمة المتمردين والبغاة المفسدين

واما ديوقليسيانوس فقد تولى الامرة اما بحولهِ وطولهِ واما بتكبر فائق ولما اعتزّ على سرير الولاء شمخ بانفهِ صلفًا فزحف عليهِ المكاشحون داخلاً وخارجًا وقفلوا عليهِ ابواب المحيص من كل جانب فضاقت عليه عند ذاك المذاهب. واذ لم يجد للنجاح سبيلاً سوّلت له النفس على اقامة مكسيميانوس امبراطورًا يسعه على نخبة الاعداء عن ملكهِ ٢٨٦ غير انهُ استبقى لنفسهِ السلطان والامر فتعززّ حينئذٍ الملكان فوق الاسرة وانتقيا لكليهما وازعين لقبا كلاً منهما بقيصر فكان من رشح لتلك المرتبة السامية قونسطنسيوس قلوروس وغاليريوس ٢٩٢-٢٩١ وانتصبوا حينئذٍ طرًا للدفاع عن الاوطان فلقوا من الاعداء عرق القربة. وثارت رومية على ديوقلسيانوس طالبةً الحرية فهاجر منها الى نيقوموديا حيث اقام سدة لعرشهِ الباذخ واغرى الرعية بان يعبدوه حسب عادة الشرقيين. وفي غضون ذلك ظهر غاليريوس على الفرس فجالوا عن مثاويهم وغادروا للرومانيين اقاليم جمةً وممالك كثيرة ٢٩٧-٣٠٢ وبعد ان رأى ان النصرة حازتها جرأته اعتزّ على قومهِ ورام ان يحاز عن الرعية فامتهن لقب قيصر وعلق بوعد مكسيميانوس بالامر الوبيل واما ديوقلسيانوس فقد عراهُ داءٌ عياءٌ اوهن عقلهُ فاضطرهُ صهرهُ غاليريوس الى ان يتنحى عن العرش الملوكي فتحذا مكسيميانوس إسوةً تسنن بها. وبعد ذلك أُنيط الملك بعهدة قونسطنسيوس قلوروس وغاليريوس ٣٠٥-٣٠٤ وتخير الملكان المعتزلان قيصرين حديثين يقال لهما سفاريوس ومكسيميانوس

ونالت بلاد غاليا واسبانيا وبريطانية العظمى ترف العيش وغضارة النعيم زمانًا وجيزًا في عهد قونسطنسيوس قلوروس وكان هذا الملك لايجنف عن المحجة القويمة بل كان يراعي حرمة العدل ويعامل الرعية بجسيم العناية. وقد اتهمهُ الظهراء والحواشي بانهُ ثابت العزم على اسقاط بيت المال فابان لهم ان عنده خزائن شتى تقدمها الرعية اختياريًا لدى الاقتضاء. وكانت سائر الامصار يتجشم اهلوها مشاق الجور والعسف لكثرة

ما كان يعنيهم الملوك والقياصرة وكان اولوا المناصب السنيعة يكثرون طالما يكثر الملوك فزادت المظالم زيادةً جاوزت الحدّ.

وفي ابّان ذلك ذهب بين الناس صيت قسطنطين الشاب ابن قونسطنسيوس قلوروس فاخذت الالسنة تلهج بالاطراء عليه وتشوف به القوم الى سوءدد عظيم . بيدَ انه كان وقتئذٍ تحت سلطة غالبريوس فاخذ هذا الملك الذميم يطوح به الى مناوز الخطر والهلاك فاغراهُ يومًا بمواثبة ضواري الوحش في ملعبٍ كثر فيه المتطلعون . فلم يكن لديهِ الاسترهاب من الوحوش اكثر منه من غالبريوس . فاسرع الفرّ من امامهِ مدبرًا واتى اباهُ فرآهُ مشرفًا على النزع . وفي الحين عينهِ ٣٠٦ اصبح صهر غالبريوس مكسانس بن مكسيميانوس ملكًا في رومية رغمًا عن حميهِ . فاحتدمت نيران الشقاق وتسعرت جذوة البغضاء والشحناء فعاد ذلك على الدولة بالامور الوبيلة . وقد بعث الى رومية تبعًا للعادة بصورة قسطنطين الذي خلف اباهُ فجاهر مكسانس بعدم قبولها (فقبول الصور كان دليلاً على الاقرار بسلطة الملوك الحديثين) فاخذت التأهبات الحربية تقوم عند الملكين . ومن جهةٍ اخرى سير غالبريوس القيصر سفاريوس الى رومية للاجحاف بمكسانس فضيق عليه مذاهب النجاة واسقط عليهِ الرعدة والقشعريرة ٣٠٧ فتمنى اذ ذاك ان يكون له عضدٌ يقوم بناصره فاستصرخ اباهُ مكسيميانوس لياخذ بيده فبرز ذلك الشيخ الهرم المطاع من كنّه حيث هو قسرًا عنه وكدح في ان يطرد حرينةَ ديوقلسيانوس من الحديقة التي كان يحترث ارضها في سالونية فذهب جهده في ذلك درجَ الرياح

ولما شعر الجنود بان مكسيميانوس امتطى صهوة الملك مرة اخرى شقوا عصا الطاعة لسفاريوس واتوا امامهُ صاغرين وفتك ذلك الهرم بسفاريوس . وفي الحين ذاته لما ايقن ان غالبريوس ثابت القدم في مضمار العراك زفّ ابنته فوستا الى قسطنطين رجاءَ ان يجتازه له نصيرًا . فدرى بذلك غالبريوس فاقام ليسينيوس امبراطورًا يضافره على مقاومة العدوّ فوغر من ذلك مكسيميانوس حسدًا لانه كان متقلدًا الرتبة القيصرية التي لها حق الاولوية في الحصول على مدرجة الملك اكثر من غيرها من المناصب الرفيعة ولذلك تعسر عليه الخضوع لليسينوس. فجاهر بالعصيان واستمرّ مستقلاً في الشرق ولم يبق لغالبريوس من حكمه سوى الليريا التي تخذها ثمالاً وملجأ بعد ان طرد من ايطاليا . اما

الشعوب الذين تلبثوا متمكثين في الغرب فقد دانوا لمكسيميانوس وابنه مكسانس وصهره قسطنطين بيدَ ان مكسيميانوس لم يرغب في ان يشاركه في الملك احد اولاده اوسواهم ولذلك عنّ له ان يوقع بابنه مكسانس فقصده الى رومية لينتزعها من يده ويطرده منها . فحبط بذلك مسعاه لانه اصبح مظهورًا به لاظاهرًا ولما اضافه قسطنطين في غاليا استبر غور خلته فرآه منطويًا على الكشاحة وجانحًا الى الغدر والخديعة وبعد ان كثر العدوان وفشا التجني عوّل مكسيميانوس على ان يجتاز ابنته فوستا امل ان يستفزّها على بعلها . فعلقت تداهيه وتواربه وهو غير عالم بما استبطنت فلما بطن قسطنطين ما ازمع عليه مكسيميانوس من قتله اضجع احد خصيته في سريره تحقيقًا لذلك فوثب على الخصي مكسيميانوس وقتله فايقن اذ ذاك قسطنطين منه الغدر والوقيعة فاجهد النفس في قتله فعلم مكسيميانوس بذلك فتخير الانتحار ٣١٠ فدرى بذلك مكسانس مولوده فجد في ان يثأر اباه فعالن بالعداوة قسطنطين واحربت عليه الحرب شديدةً فجند قسطنطين جيوشه وزحف على رومية ٣١٢ واكبّ على الثرى تماثيل مكسيميانوس وديوقليسيانوس فذهب قلب ديوقليسيانوس من ذلك شعاعًا واشرف من كثرة النكد والغمّ على الهلاك فمات واهن الجسم كئيبًا . واما رومية فقد جدّت في ذاك الآن ان تلاشي الدين المسيحي ولذلك اخذت تجهد في سبيل اضمحلاله فكان جهدها وسيلةً لتقويته وتشييده وقد روى المورخون ان غالبريوس كان محتدًا للابتداع واصلاً للفساد والاضطهاد اللذين طرآ على الدين المسيحي اخيرًا . فانهُ قبل ان الجأ ديوقليسيانوس الى الاعتزال عن منصب الملك بسنين بعثهُ على ابراز القسوة ضد المسيحيين وبذل الهمة في سبيل اعناتهم وارهاقهم وانتهاك حرمة مذهبهم ٣٠٢-٣٠٣ واما مكسيميانوس فقد كان يانف منهم كل الأنفة ولذلك لم يكن لينذفع عن اذلالهم والايقاع بهم . ولقد طالما اثار عليهم اولي الامر والسائثين ومع ذلك كلهِ فلم يصل الى ما وصل اليهِ مكسيميانوس وغالبريوس من الخشونة والعتو فانهما كانا يتهمكان كل يوم في اختلاق ذريعةٍ يتذرعان بها الى الاجحاف بالمسيحيين وتأويبهم وحملتهما الخلة الكرنيئة على خرق عرض العذارى الابكار اللاتي لم يباده الضهد عفافهنّ اقلّ من ايمانهنّ . وجدّ كثيرًا في البحث عن الكتب التدسية قصد ازالتها واذهاب اثرها وبناء عليهِ لم يكن المسيحيون يجترئون على ان يدخلوها الى مساكنهم او تتداولها ايديهم ولم يتوالَ على ذلك الاضطهاد الرائع حولاً الّا تعزز البغي والفساد ولبث المسيحيون يعتصمون بالصبر

مستمسكين بالعروق الوثني . ولما راى الشعوب ان لم في الحيوة رمقًا تدلمت قلوبهم دهشة وتحيرًا وعلموا انهم على الحق المبين فهرعوا اليهم سرابات يتدينون بدينهم وبعد ذلك لم يبقَ لغاليريوس سبيل بمكنة من الظهور عليهم فعبث بهِ داء عياء التي بهِ الى التهلكة فمات تائبًا كانطيوخوس الى الله معابًا كاذبًا ٢١١ واما مكسيمينوس فقد استمر عاتي القلب يعنت المسيحيين ويبرّح بهم البا وارعوى قسطنطين الكبير الظافر عن غرّهِ وتاب الى باريهِ صالحًا فتدين بدين المسيح جهارًا ٣١٢

العصر الحادي عشر

في الكلام عن قسطنطين او سلام البيعة

ان قسطنطين الملك قد جنح الى الدين المسيحي مستمسكًا بهِ سنة ثلاث مائة واثنتي عشرة من ميلاد الرب فانه لما اخذ يناصب ماكسانس في رومية قافلًا عليه ابواب المناص والمفرّ بدا له في الجو امام اعين الجميع صليبٌ نورانيٌّ مكتوبٌ عليهِ ان النصر بيدهِ مأتاه وشيكٌ فايقن ان ذلك عدةٌ من الله له وراه في الحلم ايضًا فلم يكن من بعده مستريبًا ولما غدا بعد ليلهِ على الحرب قضى له العليُّ حسب وعدهِ فافازه بالنصر على العدو الالدّ فخلّص رومية من عبودية مكسانس والبيعة من اضطهاده ولدن ذلك رفع الصليب فوق هام الشعوب كانه مترسةٌ تقي الدولة الرومانية وبنيها من غوائل الدهر وحدثانهِ ٣١٢ فلم يمضِ على ذلك حين قصير الا قهر ليسينوس المنحاز الى قسطنطين مكسيمينوس وافضى بهِ الى مقاساة الويل والثبور فكانت نهاية اجلهِ كنهاية اجل غاليريوس فجعل للبيعة بعد ذلك امانًا وطانينة واستوثق بنوها منهُ لنفوسهم فخطرت بقسطنطين الذي لم يفقهْ ان ارتفاع الاخطار باقتحام الاخطار، ودان له الاستظهار والنصر ابان رحل وابان حل وقمع البربر بباسه وبأس اولاده . اما ليسينوس فقد امسك الشحناء في قلبهِ وتربّص لفرصتها فاستعين واخذ بياده البيعة بالضهد الذميم فنهض اليهِ قسطنطين واذكى عليه نيران الحرب برًا وبحرًا فاذله والجاه الى ان يهوي عن سرير المملكة الرومانية ومن ثمةَ لم يلبث ان عبثت به براثن المنية ٣٢٤ .

وفي ذلك الحين التأم المجمع الاول العام في مدينة نيقية ٣٢٥ من بلاد بيثينية بامر

من الملك قسطنطين فضوى اليه ثلاثمائة وثمانية عشر اسقفًا انيط بعهدتهم امر البيعة . فحرموا اريوس الكاهن بمجحده الوهية ابن الله وانشأوا قاعدة الايمان بان اجمعوا على ان الاب والابن سيَّان في الجوهر . فكان كهنة البيعة الرومانية الذين بعث بهم البابا القديس سيلفستروس لهم صدر المقام في ذلك الالتئام وكان من زمرة وكلاء الكرسي الرسولي احد مورخي اليونان القدماء وكان الجمع منعقدًا تحت رئاسة اريوس اسقف غوردو الشهير فتصاغر امامه قسطنطين راضخًا لاحكامه معتقدًا انها منزلة من لدن الله . اما الاريوسيون فقد اصرّوا على غريهم وضلالهم كتمانًا وتظاهروا بالرضوخ امام الملك يصانعون ويداهنون

ومن الامور المقررة ان المملكة كانت في عهد قسطنطين رانعة في بحبوحة الامن والارتياح . وبينما كان هذا الملك يظبُّ على إدامة الطانينة سائدةً في احياء المملكة باسرها اذ دبت الفتنة والمشاحنة بين سراة قصرهِ فان فوستا زوجته اتهمت ٣٢٦ كريسبوس ابن ضرَّتها بانه جدَّ في ان يعاهرها فحنق جدًا من ذلك ابوهُ وطرح بالرحمة الوالدية جانبًا وعامله بالقسوة اشدَّ معاملة واما هي فقد بدا لدى الجميع إفكها وعلموا انها اختلقت لزوجها ذلك النبأ الفاحش اختلاقًا فلم تتقادم عليها الايام الانالت جزاءَ ما فعلت فانها ولجت يومًا الحمام لتستحم فقدر الله عليها ان تموت فيه خنيقة فعار ذلك الامرُ قسطنطين فاستحيا امام القوم لذهاب مكرها وخداعها بين الخاصة والعامة بيدَ ان ذلك لم يخفض مقامهُ فان والدته غنَّمته من الفضائل ونوَّلته من الشرف ما ينسيه ما قرفته بهِ فوستا طول ايامه فانها اكتشفت في خراب اورشليم القديمة عود الصليب الذي تكاثرت عجائبه والقبر المقدس وقد ازان قسطنطين وهيلانة مدينة اورشليم الحديثة التي كان قد اقامها اوربانوس والمغارة التي ولد فيها مخلص العالم وكل الحال المقدسة بهيا كل حسنة . وبعد ان توالت على ذلك الحين اربعة من الحوول رمم قسطنطين مدينة بيزانس ودعاها القسطنطينية وجعلها مركزًا ثانيًا للدولة ٣٣٠ واما البيعة فقد كانت في عهده مضروبًا عليها سرادق السلام والطانينة لكنها لم تدم لها تلك الحال لانها كانت في بلاد فارس عرضةً لمناصبة المبتدعين . وكثيرون من بنيها استعزَّ بهم الله مشهدين ٣٢٦ ـ ٣٤٦ ولما كان حريصًا على الشوون العظيمة مترفعًا عن الخسائس بعثة الشهامة على ان يكظم غيظ صابور ملك الفرس عن البيعة وبنيها وبدينه بدين المسيح فاصبح كانه ارتكب امرًا غيرَ معلوم العاقبة لان جدّهُ في ذلك الشان ذهب عبثًا

بيدَ انه استمر بخلص السعي في ان يهد للمسيحيين سبيل الامان فلم يتمكن الأ من ان يجعل لهم ملجأ في دائرة حكمه . واستاثرته رحمة المولى ٣٣٧م راضيًا عنه لما جدَّ في سابلة البرّ والتقى عفَّ الإزار لايشوبه وزرٌ ولاشين ولكنه قبل ان اغتالته المنون شطر المملكة ثلاثة اجزآء بين اولاده قسطنطين وقنسطانس وقنسطانت فلم تطل مدة احكامهم حتى ذكت بينهم نيران المكاشحة والفتن فان قبسة الحرب أُضرمت بين قسطنطين واخيه قنسطانت لانهما اختلفا على بعض تخوم في مملكتيهما ٣٤٠م فدارت حينئذٍ على قسطنطين الدائرة وقتل في تلك الحرب الهائلة . وكما ان قنسطانت كان يكاشح اخاهُ قسطنطين ويتمنى له ما اوصله اليه كذلك كان يكاشف اخاهُ قنسطانس بالبغضاء فانه لما رآهُ يلمُّ بايمان نيقية ويبادي المتهافتين عليهِ بالاضطهاد والارهاب برز محاميًا وعلق يعالنه وعيدًا واغتيالاً ومع ذلك فان القديس اثناسيوس بطريرك الاسكندرية والمحامي عن ايمان نيقية كان قد ضاق ذرعًا لكثرة تجشمهِ المشاق الوبيلة فعجبت البيعة من ذلك عجبًا عجابًا . وطرده قنسطانت من كرسي البطريركية مهانًا ممتهنًا . لكنما البابا جوليوس الاول أمر بهِ ان يعود الى مقرهِ تطبيقًا للقانون فصدَّق على الامر قنسطانت فانثنى البطريرك الى ابرشيتهِ راجعًا واما ذلك الملك الصالح فلم يجيءٌ على الارض زمانًا طويلاً بل استعزَّ بهِ الله بان قتله ماغنانس الجائر غدرًا ٣٥٠م فلما علم قنسطانس بذلك أثرَ على ان يقتله بان يثأرَ اخاه فنازله وضيق عليهِ كثيرًا فآثرَ حينئذٍ ماغنانس ان ينتحر ٣٥٣م ولما علم الاسقف ڤالانسيوس الاريوسي ان عسكر ماغنانس الخاتل سيتشعثون مبددين استنادًا على ما علم من بعض اخدانهِ المخلصين اقبل على الملك واخبره ذلك مدعيًا انه استوحى الهه مستصرخًا فاوحى اليهِ انه ياتي قنسطانس بالفتح المبين وفرجٍ من عندهِ قريب . فذعن له الملك غير عالمٍ انه افيكٌ مصانع وواطاهُ على تلك النبوة المائنة وتدينَ اذ ذاك بدين الاريوسيين واهبط الاساقفة الكاثوليكيين عن مناصبهم وصوَّب سهام غيظهِ وحنقهِ على البيعة . واما البابا ليباريوس فقد اوهن تبرُّمه وقناطته ثباته ٣٥٧م وقد كان اوزيوس الشيخ عضدًا للبيعة فبرَّحت بهِ العذابات الموبقة فأُرغم على ان يكون جاحدًا واما مجمع ريمينية فبعد ان كان قوي العزم اذعن بالخديعة والجور ٣٥٩م ولم يكن في ذلك الحين شيءٌ يدور على محور القانون بل كان القانون ما يرتئيهِ الملك وما يرغب فيه . واما الاريوسيون الذين كانوا تائهين في تلعات الضلالة ويجعلون كل شيءٍ طوع

اهوائهم واغراضهم فلم يكونوا في ما ابتدعوا بمتوافقين بل كانوا كل يوم يغيرون قاعدة ايمانهم بقاعدةٍ اخرى تصبو اليها نفوسهم لكنما ايمان نيقية لبث مستمرًا قسرًا عن المفسدين وجاهد في سبيلهِ القديسان اثناسيوس وايلاريوس اسقف بواتيه ففازا ودوخ صيتهما كل الامصار والاقطار

واستمر قنسطنس عاكفًا على تعزيز شؤون الاريوسيين ونابذًا وراء ظهره شؤون المملكة . ولذلك كانت تنتكس اعلام قادتهِ بمنازلة الفرس في انحاءٍ متباينة . وزحف الالمانيون والفرنسيس على غاليا واندفقوا عليها من كل جانبٍ فدفعهم يوليانوس احد انسباء الملك وذادهم عن المملكة ومن ثمَّ ظهر عليهم منتصرًا ٣٥٧م-٣٥٨م-٣٥٩م وهبَّ الملك من سبات غفلتهِ واخذ يقمع السرماتيين ويختطي نحو الفرس ٣٦٠م وهناك عنا يوليانوس واستكبر عليهِ ثائرًا ومات قنسطنس ٣٦١م وحكم يوليانوس غير حادلٍ على الرعية لكنهُ علق فيما بعد يعني المسيحيين ويلقي عليهم عبء الاضطهاد وثابر على تعزيز الشقاق ومنع ابناء المسيح ركوب متن المناصب ومطالعة العلوم ولقد طالما تسنن باعمال البيعة رجاء ان يطعنها بسلاحها وكان لا يغالي في العذابات ولا يعنت المؤمنين الأ بحجج خارجة عن دائرة الدين واطال المسيحيون مدة الرضوخ له . واما السودد الذي كان يتهافت على الحصول عليه فقد اصبح وسيلةً لهلاكهِ ٣٦٣م . ولما ولج بلاد الفرس واخذ يتجول فيها دون تبصر في ما يحدث بهِ من الملمات والكوارث قضي عليهِ بان يصبح قتيلاً فخلفه يوفيانوس وكان رجلاً عزيز الجانب مسيحيًا فسرَّح طائر بصره في احوال المملكة المتغايرة فرآها في حالة اليأس والاضطراب فابرم صلحًا مع الفرس الجأته الضرورة اليهِ

وبعدان انشبت بهِ اظفار المنية نهض والنتيانوس وتقلد قيادة الجيش وسعر حينئذٍ نار الحرب على العدو ٣٦٦م-٣٦٧م-٣٦٨م-٣٧٠م-٣٧١م الخ واستصحب معهُ طول مدتها ابنه غراسيانوس وهو يافع السن رجاء ان تحكمهُ التجارب وتحنكهُ ورعى النظام الجندي وقوي على البربر فذللهم وبنى على ثغور المملكة معاقل منيعة محصنة . وناضل في الغرب عن ايمان نيقية بيدَ ان اخاه والنس الحريف له في الولاء قد انتهك حرمة الدين في الشرق ولما عسر عليه ان يحتاز القديسين باسيليوس وغريغوريوس النزينزي اوان يلجئهما اليهِ قنط من ان يظفر بلاشاة دين نيقية وقد اضاف بعض الاريوسيين الى قاعدة

دينهم بدعًا خرافية تبعث على الضلالة والغرور فان كاهنًا منهم يقال له اهريوس نما اليه الآباء القديسون ابتداعًا وتشيعًا فانه لم يفرق الاسقفية عن الكهنوتية وفي بتينو ان الصلوات والقرابين التي تضحى عن انفس الموتى ليست الا اكاذيب المنثور لا تعود عليهم بادنى جداء ومنفعة وان الامساك عن المطعوم ان هو الا عبودية للشريعة واس على المرء من جناح او حرج ان لم يصم بل ذلك منوط باختياره . واستمر حيًا الى ان ابرز الى الوجود القديس ايفانوس كتابه في الابتداع والهرطقات الذي رفض به تعاليم اهريوس كل الرفض . واما القديس مرتينوس فقد اصطفي اسقفًا على مدينة تور وضاع شذاء قداسته وعجائبه في العالم باسره طول حياته وبعد موته . واما الملك والنتينيانوس فتوفاه الله برحمته (سنة ٣٧٥) باثر تلاوته خطبة عنيفة تلم باعداء الدولة لحقة الذي كان يجهل سواه من المتشوفين اليه عاد عليه بالبأس والتعاسة وخلفه غراسيانوس الذي لم يلبث ان راى اخاه الاصغر والنتينيانوس الثاني متدرجًا الى صهوة الملك فقرت بذلك عينه ولم يوغر عليه صدره حسدًا وبغيًا مع ان ذلك المترشح الى تلك السدة الباذخة لم يكن له من العمر سوى اربع سنوات وقد كانت والدته يوستينا الدائنة عن الاريوسيين تقوم بسياسة الدولة اثناء صغره . وفي ذلك الان قد كانت تطرأ حوادث تبعث على الدهشة والعجب فان الغطط (كذا يسمى القوتيون) ثاروا على الملك والس او فالانس ٣٧٧ وبعد ان كان الملك برهق النرس ويعنتهم عدل عن ذلك وعكف على تصغير نفوس الغطط المستكبرين وتذليلهم وانبرى غراسيانوس الى مضار القتال قائمًا بناصره بعد ان اوقع بالالمانيين واسعهم تبريحًا وارهابًا . بيد ان والس طمع ان يحتال للنصر مفردًا ٣٧٨ فاسرع الكرة على العدو فقتل قرب ادرنة وحرقه الغطط الظافرون في القرية التي تخذها موئلًا وملاذًا . ولما عاركت الحادثات غراسيانوس وناوشته النوائب كل ونصبه الم كثيرًا فاشرك في مملكته ثيودوسيوس الكبير فاناط بعهدته الشرق ٣٧٩ فكسر حينئذ الغطط وقمع البربر واوسعهم كربًا واتباعًا . واما الامر الذي رآه ثيودوسيوس ان لابد له منه ارهاقه الهراطقة المكدونيين الذين جحدوا الوهية الروح القدس فثبط اقدامهم عن السعي في طريق الغرة والضلال وحكم اذ ذاك مجمع القسطنطينية انهم مفسدون ٣٨١ ولم يكن ذاك المجمع ملتئمًا الا من ابناء الكنيسة الشرقية واما رضوان الغربيين عنه وقبول البابا دماسيوس به جعلاه مجمعًا ثانيًا عامًا

وبينما كان ثيودوسيوس قابضًا على عنان الدولة وبنود النصر تخفق فوق هامته كان الملك غراسيانوس الذي كان يضاهيه بالتقى والبسالة يغادره جنوده الذين كانوا موالين من الاجانب . فاندفع اليه مكسيموس العاتي وقتله وكان باسلًا ابي النفس صدوقًا ٣٨٣ فاكتأبت عليه البيعة والدولة كل الاكتئاب لكونه مخفض الجناح وباذخ الهمة في مبارزة الابطال واما مكسيموس فقد حكم في بلاد غاليا يعثو ويطغى ولاحت عليه سمات الرضوان عما دخل في حوزته ٣٨٧ ـ ٣٨٠ واصدرت الامبراطورة جوستينيا باسم ولدها لاتينانوس المغبون في حياته اوامر ما كان المسارعة لاسعاد الاريوسيين والقيام بناصرهم ولم يكن اسقف ميلان القديس امبروسيوس يقاويها الا بالتعاليم الحقة والصلوات وطول الاناة وبهذه الذريعة تذرع لان يقي للبيعة البيع التي كان في عزم المبتدعين ان يستولوا عليها واحتاز الملك الشاب اليها . وفي ذلك الحين كان مكسيموس الجائر على اهبة تاجيج الحرب ولم تعثر الملكة جوستينيا على احد تستوثق لنسها منه سوى القديس الاسقف الذي كانت تعامله معاملة العصاة المتمردين . فبعثت به الى الظالم فقابله بما يؤول لعدم النجاح ولذلك اركن فالنتينيانوس الى الفرار مع امه وفتح مكسيموس رومية واوسع فيها طرائق الغواية وعبادة الاصنام قصد ان يرضي مجلس الندوة الذي كان اكثر اعضائه من الوثنيين ٣٨٨ وبعد ان تبوأ سرير الغرب وفكر ان ذلك غنيمة باردة ساوره ثيودوسيوس يضافره الفرنسيس وظهر عليه في بنونية وضيق عليه في اكيلية محاصرًا وانحدر اليه انصاره المتجيشون وقتلوه .

ولما اصبح متسلطًا على الدولتين اناط دولة الغرب بعهدة فالنتينيانوس فلم يرعها زمانًا مديدًا لانه غالى اولًا في رفع مقام القائد الافرنسي اربوغاست ثم اسفله الى وهاد الخيبة فانه كان بطلًا دعيسًا شهمًا مقدامًا وانه كان لا يتقاعد عن الجد في تسنية شؤون الجيش فاهبطه عن منصبه . وبناء عليه وثب على فالنتينيانوس وهراق دمه واقام في متابته اوجانيوس الذي لم يكن له من المآثر سوى الخطابة ٣٩٢ وقد طرأت هذه النعلة الذميمة في غاليا بالقرب من مدينة فينا فبكى عليه القديس امبروسيوس كثيرًا لانه طلب اليه قبل اغتياله ان يعتمد بيد غير انه لم يبأس من ارتياح نفسه عند ربه فان ثيودوسيوس فاز بالنصر على اوجانيوس باعجوبة بينة لدى الابصار وطمس الالهة الكذبة التي جدد عبادتها فعند ذلك ألقي القبض على اوجانيوس . ولكثرة حنق الشعب منه قد موه قربانًا

عن نفوسهم وكادوا بذلك انصارهُ المتمردين ٣٩٤ واما اربوغاست الجبار فلما رأى الثائرين يطأطئون للملك الظافر ويرضخون شق عليهِ الامر وآثر الانتحار على ان يرضخ لاحكامهِ فمرح ثيودوسيوس في الارض واستأثر بالولاء واصبح اعجوبةً في العالم كلهِ فانهُ عزز دعائم الدين الحديث وثبط اقدام المخرفين وصدَّ الوثنيين عن ان يقدموا محرقاتٍ وقربانًا وشدد العزائم والهمم والجأ الدولة على ان تعيش بالاقتصاد واعترف بجرائمهِ الكبرى وتاب الى الله نادمًا ٣٩٠ واصاخ للقديس امبروسيوس معلم البيعة الشهير الذي ونبهُ على وصمة وجدت فيه هي العيب واستمر مظفرًا طول حكمهِ ولم يكن يضرم قبسة الحرب الأَ متى الجئ الى ذلك فاستظل شعبهُ تحت لوائهِ في رغد العيش وغضارة النعيم ومات سعيدًا تذهب ذكرى امانته في اقاصي الارضين وتتداول الالسنة مآثرهُ وانتصاراتهِ الفائقة ٣٩٥ .

وفي عصرهِ اي سنة ٣٨٧-٣٨٦ جدَّ كاهن كان مزويًّا في مغارة بيت لحم يقال له ايرونيموس في ان يفسر الكتب المقدسة ولذلك عكف على مطالعة التواريخ الدينية والدنيوية التي من وسعها توضيح الكتاب المقدس وتخذ النسخة العبرانية سندًا له فالف ترجمة الكتاب المقدس المعروفة لدى البيعة باسم الفولغات

وبعد ان كانت الدولة الرومانية في عهد ثيودوسيوس قوية العزم عزيزة المثال اهوت في عهد ولديه الى دركات الضعة والخمول فان اركاديون وهنوريوس زاحفاها واذلاها فاستولى الاول منها على الشرق والثاني على الغرب وكان كلاهما يحمل اعباءهما وزيراها ويسعدانها بالراي والتدبير ومع ذلك فلم يحركا سكون السلطة الأَ لمارب نفسية . واما روفينوس واوستروبوس فقد كانا نديي اركادوس بالتواتر فاتخذا الشرَّة ديدنًا لهما فهلكا معًا ولم تستقم الاحوال بعد موتهما في عهد هذا الملك الواهن العزم فان امرأته اودوكسيا اغرته بان يضطهد القديس يوحنا فم الذهب بطريرك القسطنطينية وسناء الشرق ٤٠٤-٤٠٣ فانحاز البابا اينوسنتوس والغربيون الى ذلك الحبر العظيم وعلقوا ياخذون بيدهِ ويعززونه على مقاواة الصعاب ويضافرونه على ثيوفيلوس بطريرك الاسكندرية الذي كان وسيلةً لانتشار جور الملكة واعتسافها . وماد الغرب اضطرابًا لكثرة ازدحام البرابرة ٤٠٦ الخ فان رجلاً وثنيًّا من نسل القوتيين يقال له رداغيز حمل على ايطاليا . والاندلسيون الذين هم فلل غوتية واربوسية تبوئوا جزءًا كبيرًا

من غاليا وامتدوا في اسبانيا وارغم الاريك ملك (القيزيقوسيين الاريوسيين هونوريوس على ان يغادر له تلك الاقاليم الرحبة التي كان الاندلسيون قد تولوا عليها . واما ستيليكون الذي كان قد سئم من عظم البربر فقد كان آونةً يناكرهم فيظهر عليهم ويصانعهم وآونة يوائقهم ثم يكاشحهم بالقلا والبغضاء وقد كان يجعل كل شيء ضحية لمآربه الخاصة ومع ذلك فلم يكن ينفك يرعى المملكة قصد ان تكون خلسة لحوله وسلطانه وفي ذاك الحين استأثرَ الله بالملك اركادوس ٤٠٨ وقبل موتهِ اقام ابنه ثيودوسيوس عند ايزديجردوس ملك الفرس ووكل اليه امر تثقيفه وهو في سن ثماني سنوات ولم يرتاءي ذلك الأَ لظنهِ ان الشرق ينِدُّ عن ان يكون فيه اناس لهم الاهلية لتثقيفهِ مع ان يلكاريا شقيقة هذا الوليد البضّ كانت فيها الاهلية لان تقوم باعباء تثقيفهِ فعكفت عليه اذ ذاك واسبلت عليه سجاف الصيانة والرعاية واسجمت عليه سيول البر والتقى . واما حكومة هونوريوس فقد ناوشها الدثار لان هذا الملك اجحف بوزيرهِ ستيليكون فاهرق دمهُ . واضاق ذرعًا عن ان يرى له وزيرًا يليق لمثابته ولذلك اشرف ملكهُ على الاضمحلال فان هلاك ذلك الوزير الموازر الجأ قسطيطين الى ان يثور متمردًا على المليك فنزع من يدهِ غاليا واسبانيا ٤٠٩ وحمل الاريك ملك القوزيقوت على رومية بجنوده ففتحها واستاق منها الاسلاب ٤١٠ واما انولف فقد كان عتلاً جائرًا يفوق الاريك حنقًا وغيظًا ولذلك اعاد على رومية النهب والسلب واستاق منها الغنائم ولم يكن يفكر الآن بمحو من البسيطة الاسم الروماني لكنما ذلك لم يكن قدرًا مقدورًا فان بلاسيديا شقيقة الملك هونوريوس زفت اليه فهذه الملكة التي اصبحت لديه اسيرة علقت حينئذٍ تكدح في ان تدمث اخلاقه السمجة وتسترضيه على الرومانيين ٤١٤ فابرم القوتيون الصلح مع الرومانيين وامتنوا وثاق الإخاء ٤١٣ وقطنوا بلاد اسبانيا ٤١٥ يرعون لهم في بلاد غاليا الاقاليم الدانية لجبال البيرانه من المكائد والمكاره . وقد تم كل ذلك بحكمة ملكهم قاليا ودرايته وابدت حينئذٍ اسبانيا ثابتة القدم ولم تطرأ على ايمانها شائبة الزيغان والخلل في عهد هؤلاء الولاة الاريوسيين

وفي ذاك الحين زحف شعبٌ من جرمانية يقال لهم البرغونيون على الانحاء التي تداني نهر الرين وتبطنوا فيها تبوءًا بالحول والمصال واخذوا من ثمة يمتدون رويدًا رويدًا في البلدان التي لم تزل تلقب باسمهم واما الافرنسيس فلم تاخذهم سنة الغفلة عن مصالحهم واغراضهم الذاتية ولذلك حملوا على نفوسهم ان يفتحوا بلاد غاليا فافاءوا مزمون

بن مركومير عليهم ملكا ٤٢٠ ونهضت حينئذٍ في عهدٍ فرنسا التي هي اقدم الممالك واخطرها

وتوفى الله في ذاك الحين هونوريوس التعيس ٤٢٣ دون عقب غير متبصرٍ في حالة المملكة واقام ثيودوسيوس ذا قرابته فالتينيانوس الثالث ابن بلاسيديا ملكا ٤٢٤ ووكل امرهُ الى والدته ريثما كان صغيرًا ولقبها بملكة .

وفي ذاك الحين جحد سايستيوس وبلاجوس ٤١٢ الخطيئة الاصلية والنعمة التي بها يصير المرء مسيحيًا فشعر مجامع افريقية بما مكرا فاصدر عليهما القضاء مبرمًا ٤١٦ فصدق على ذلك الحكم البابوات القديسون اينوسنسيوس ٤١٧ وزوزيموس وسلستينوس واذاعوهُ في اقطار البسيطة وامصارها اما القديس اغوسطينوس فقد ضرب على ذينك الكافرين سرادق الدحوض والبطلان وانار البيعة بتعاليمه الفائقة واسعده تلميذه القديس بروسبر على اصمات نصف البلاجيين الذين نموا ابتداء التبرئة والايمان لقوة الارادة الاختيارية وحدها .

ولا يخفى ان ذاك العصر قد كان يشوه وجه الدولة ويعود عليها بالوبال والتنكيل بيد انه ولو ساد فيه الابتداع وكثر الضلال والعثور فقد كان فيه الدين المسيحي مترفعًا الى درجات المجد مترهًا عن شوائب العثو والفساد فان الرزايا والخطوب المدلهمة لم تقوَ عليهِ ولم تصبه منها ملمة وقد كانت البيعة تعتزُّ بملافنتها العظام وتزيد بهم كمالاً وبناء عليه ضحدت كل ما نشأ من الابتداع والتشيع وبعد ان كثر الاضطهاد اظهر العلي فخر شهدائه فان التواريخ طرًا والمولفات قد وعت العجائب الفائقة التي كان الله عزَّ وجلَّ يهبطها على الارض باستصراخهم وقبورهم المكرمة

واما فيجيلانس ٤٠٦ الذي طالما تصدّى لتلك العقائد السائرة فاحبط القديس ايرونيموس سعيهُ ولبس عليه المسالك فاعتسف عن ثمة اعمالهِ ولبث اذ ذاك الدين المسيحي يثبت كيانهُ ويمتدُّ في كل صقعٍ ونادٍ .

واما الدولة الغربية فقد كانت موشكةً ان تزول لان الاعداء كانوا يندفعون اليها ويصادمونها كل الصدام وقادتها كانت تلعب بهم نشوة الحسد فان بونيفاسيوس والي افريقية مكر به اهاسيوس وخدعهُ لدى بلاسيديا فاشتبهت في امره ٤٢٧ فعند ذلك استدعى اليه ذلك الوالي جنسريك الاندلسيين من اسبانيا بعد ان كان القوتيون

قد طاردوهم منها وندم من ثم على ذلك الاستنجاد ولات ساعة مندم . فان الاندلسيين حملوا لدى ذلك على افريقية ونزعوها من الدولة الرومانية فتجشمت حينئذٍ البيعة المشاق وعبثت بها ايدي الاريوسيين العتاة واشهد نفرٌ عظيمٌ من ابنائها ٤٢٩ ونشأ من ذلك بدعتان سيئتان فان نسطوريوس بطريرك القسطنطينية ذهب الى تجزئة اقنوم المسيح . وبعد ان مرَّ على ذلك عشرون عامًا ذهب افتشيوس (ويسمى اوطيخا واوطاخى) رئيس احد الاديرة الى مزاج الطبيعتين فانبرى القديس كيرلوس بطريرك الاسكندرية الى نسطوريوس وفندَ رأيهُ واصدر عليه الحكم البابا شلستينوس ٤٣٠ فنفذ اذ ذاك مجمع افسس وهو الثالث العام قضاء البابا المنوه عنه واهبط نسطوريوس عن كرسيه مهانًا وثبت امر البابا شلستينوس الذي دعاه اساقفة المجمع في تحديدهم اباهم وتقرر عند ذاك ان مريم العذراء هي والدة الله . وذاعت تعاليم القديس كيرلوس في اقاصي الارض وبعد ان ابدى الملك ثيودسيوس في بادىء الامر قليلاً من التردد في ما ارتاه المجمع دان له صاغرًا وابعد نسطوريوس . واما اوطيخا الذي لم يتمكن من مدافعة هذا الابتداع الا بسقوطه في طرف اخر ٤٤٨ فلم ترفضه البيعة باقل عزمٍ من الاول وقضى البابا لاون عليه واذاع ضده رسالةً تلقاها العالم كله بالتكرمة وحسن القبول . وقد حرم المجمع الخلكيدوني وهو الرابع العام ٤٥١ اوطيخا وديوسقوروس بطريرك الاسكندرية الذائد عنه وكان للبابا في هذا المجمع الرياسة اعتبارًا لسمو تعليمه وسلطة كرسيه وبعث المجمع اليه برسالة يوخذ منها انه كان بواسطة وكلائه مترأسًا على المجمع كالرأس على اعضائه وحضر الملك مرشيانوس نفسهُ الى المجمع اقتداءً بما فعل قسطنطين الملك وقابل قضاء المجمع بالرضوان وكمال الوقار

وقبل ذاك الحين بقليلٍ من الزمن كانت بولشاريا جعلت مرشيانوس ملكا بتزوجها به لانها بعد ان اغتالت المنون اخاها انصرفت اليها مرتبة الملك لانهُ مات دون عقب فبناءً على ذلك انبطت السلطة بيد مرشيانوس ونفذت بهِ دائرة الولاء .

وقد تقرر ان فضائله بعثته على تلك المأثرة السامية وفي غضون ذينك المجمعين ذهب بين الناس صيت توادوريطوس اسقف قورش ولو لم يكتب ما كتبهُ ضد القديس كيرلوس لكانت تعاليمهُ منزّهة عن المعائب الا ان ذلك لم يكن صادرًا منهُ عن سوء مأرب بل كان عن طيب سريرة واستمر اسقفًا كاثوليكيًا

واما بلاد غاليا فاخذت تؤدي للافرنسيس رضوخًا وكان اهاسيوس قد بارى فرمون وكلوريون الملقب المنسدل الشعر بقصد ان يدافع عن غاليا لكن مهروفي كان اكبر حظًا بنواله راية الفوز في وشك ذلك الحين حيث كان الانكليز (شعوبٌ سكسونية) يتبوئون بريطانيا العظمى ودعوها باسمهم وشيدوا ممالك جمة

وفي الوقت نفسهٔ كان الهونيون (شعوب من جهات بالوس مهوتيد اي بحرازوف) يعثون في الارض ويخرقون بكثرة جيوشهم الزاحفة . وقد كان في مقدمتهم ملكهم اتيلا الرائع . واهاسيوس الذي استظهر عليهِ في بلاد غاليا عسر عليهِ صده عن دثار بلاد ايطاليا ٤٥٢ فارعب القلوب بشدة حنقهِ وغيظهِ فولى كثيرون من امامهِ وتخير واجزُر الادريانيك ملجا وثمالاً وتشيدت حينئذٍ مدينة البندقية في وسط المياه وفاق القديس البابا لاون قوة على اهاسيوس والجنود الرومانية والجأ هذا الملك العاتي الوثني على ان يؤدي له الحرمة والمكرمة وبذلك بعدت عن رومية غائلة الدمار ولكن لم تطل عليها فسحة الارتياح فان ڤالنتينيانوس ملكها طوّح بنفسهِ الى الفساد واصبحت امارة بالسوء فانهٔ راود امرأة مكسيموس عن نفسها وهتك عرضها فشعر بذلك مكسيموس فحنق اشدّ الحنق وطبن ذلك في صدرهِ واخذ من ثم بداهيهِ ويواربه الى ان حمل هذا الملك الاحمق على ان يميت اهاسيوس وغادر الدولة الرومية تندب مجنها . ٤٥٤ واما مكسيموي الذي كان علة هذا القتل فاثار اصحابه ان ياخذوا بدمه فقتلوا الملك ومن ثم صعد مكسيموس على صهوة الملك وارغم الملكة اودوكسيا ابنة ثيودوسيوس الشاب على ان تكون له زوجةً فعند ذلك ترامت على جنسريك مستنصرةً رجاء ان تتملص من يديه فاصبحت حينئذٍ رومية فريسةً لاجلاف البربر ذوي الخشونة . فتصدّى له القديس لاون وصده عن ان يزيل كل شيءٍ بالسيف والنار واقتحم الشعب على مكسيموس ومزقوه كل ممزق فكانت هذه الفعلة وحدها سلوانًا لهم على ما طرأ من الملمات والكوارث ؛

وقد كان الغرب يميد اضطرابًا ولطالما كان كثيرون من الملوك يعتزون فوق كراسيهم ثم يسقطون ونال ما بينهم مجوريان الشهرة السامية ٤٥٧ واما افيتوس فلم يمكن له ان يحفظ صيتهٔ ويخلص من الملك الاباه يتوشح بطيلسان الاسقفية ٤٥٦ ولبثت بلاد غاليا ثمنًا من باهظ الاحمال التي عنّاها بها ميروفي وشيلدريك ابنه . وقامت الرعية على شلدريك بتألب القلوب واتحاد الكلمة والراي وطردته ممتهنًا

٤٥٨ وجد احد ظهرائهِ المزدلفين اليه في السعي بانثنائهِ الى الملك فعاد واوشك الهلاك ان يباغته لكثرة فساده ٤٦٤ ـ ٤٦٥ واستمرّ رغبةً ورهبة في قلوب اعدائهِ وامتدت فتوحاته حتى اواسط غاليا

وكانت الدولة الشرقية في عهد لاون التراسياني خليفة مارسيانوس في كل طمانينة وسلام ٤٧٥ ـ ٤٧٤ واخمدت نيران الثورة التي اضرمها بازيليسك ولم يصل منها اليهِ ٤٧٦ ـ ٤٧٥ الا قليلٌ من القلق والانزعاج . واما الدولة الغربية فقد اكتنفتها المحن والرزايا فاصبحت دارسةً طامسةً فان اوغسطس الملقب باوغسطيلس ابن اوريستوس كان اخر الملوك الرومانيين . فبعد ان امتطى غارب الملك بوجيزٍ من الحين نزعهٔ الملكة اودواكرس ملك الهروليين . وهولاء الشعوب كانوا نحلاً توافدوا من انحاء بحر البوان توكسان بيدَ انهم لم يستمروا حاكمين زمانًا طويلاً

ومن الامور البينة ان الملك زنون تلقنت الاذان عنهٔ انباء لم تكن تسمع بها من قبل فانهٔ استمال الى ان يكون اول الملوك الذين ينهمكون في حل مشاكل الايمان وفي غضون ما كان المبتدعون النصف الاتيوخيين يناصبون مجمع خلكيدونية ويناوونه ابرز ضد المجمع المنوه عنه براءةً دعاها هنوتيك ٤٨٢ اي براءة الاتحاد التي يأنف منها الكاثوليكيون فابرم عليها البابا فيلكس الثالث قضاءه ٤٨٣ وقد كان تيودوريك ملك القوت الشرقيين الذريعة الكبرى لطرد الهروليين من رومية وشيد هذا الملك مملكة ايطاليا ٤٩٠ وان يكن اريوسيا فقد غادر للدين الكاثوليكي فسحةً كافيةً من الحرية . واما الملك اناستاسيوس فكان يهتك حرمة الدين في الشرق ٤٩٢ فانهٔ قفا اثر زنون متهافتًا على ان يكون للمبتدعين عضدًا وسندًا ٤٩٣ فعند ذلك نفرت عنه القلوب واخذ الشعوب يكشحون له بالعداوة واعتسف جدًّا عن طريق استرضائهم لا يجديهِ نفعًا ما زحزحه عنهم من اثقال الخراج . واما ايطاليا فقد كانت صاغرة لولاء الملك ثيودوريك وقد كان ادواكر في مدينة رافين يكابد الم الحصار فدان اليه ووالاهٔ عاقدًا معهٔ عهدةً لم يرعَ ثيودوريك المشار اليه ذمامها وافضى الامر بالهروليين الى ان يخلوا له كل البلاد وفضلاً عن انهٔ كان متبوءًا ايطاليا فقد كان مستوليًا على البروفنس طرًّا . وفي عصره ٤٩٤ كان القديس مبارك منزويًا في احدى مغاوز ايطاليا منذ نعومة اظفارهِ معتزلاً عن العالم أملَ ان يتخذ الفضيلة له ديدنًا . وبعد ان استقرأ بعضًا من

قواعد الكمال الرهباني انحف بها رهبان الغرب فتلقوها بالتكرمة والحرمة مثلما كان الرهبان الشرقيون يودون الكرامة لقوانين القديس باسيليوس

واما الرومانيون فقد نازلهم كلوفيس بن شيلدريك فظهر عليهم وانتزع بلاد غاليا برمتها من ايديهم وعارك ايضًا الالمانيين في تولبياك فنكس اعلامهم ظافرًا ٤٩٦–٤٩٥ واوجب على نفسه ان يتدين بدين المسيح اذ كانت تحضهُ على ذلك زوجهُ كلوتيلدة . اما كلوتيلدة فكانت من سراة ملوك بورغونيا وكان آلها اريوسيين وهي كاثوليكية سامية الهمة غيورة جدًّا نحو مذهبها وعلمّ القدس فاهت كلوفيس الدين المسيحي وعمدهُ في مدينة رمس اسقفها القديس رنجي مع كل الافرنسيس الذين كانوا يقتنونهُ وقد تفرد في اسعاد الدين الكاثوليكي بين ملوك الارض طرًّا فاتصف خلفاوهُ بمسيحيين وبعد ان قتل الاريك ملك الفيزيغوت في معركة هائلة ٥٠٧ ضمّ الى مملكته تولوزا والاكيتان واما انتصار القوت الشرقيين ٥٠٨ فكان لهُ مانعًا عن ان يتطوّح في الاستيلاء الى جبال البيرانه . ومحت اعاله في غاية ملكه كل ما نالهُ من السوءدد والمجد في بدء حكمه ٥١٠ واجتزأ بنوه الملك من بعده واستمروا يتشاحنون ويتباغضون وهبطت من السماء صاعقة منقضة على الملك انستاسيوس فاودت به الى الهلاك ٥١٨

واقام مجلس الندوة ملكًا على سرير الملك يقال جوستينوس مع عدم المبالاة بما فيه من سفالة النشأة والمحتد لانهُ كان ذا المعية ثاقبة كاثوليكيًّا ملتهبًا بنار التقوى والعفاف فرضخ هذا المالك ومرؤوسوه لاوامر البابا القديس هورميسداس واستمرت البيعة الشرقية رافلة ببرد الطمانينة والارتياح وبدا في عصره بوهسيوس الشهير بتعاليمه الحنة وجودة اخلاقه وبدا ايضًا حموهُ سيماك وتقلد كلاهما مهامًّ ذات شان . اما الملك تيودوريك فقد وغرَ عليهما صدرهُ حسدًا فاتهمهما بانهما تواثقا بما يعود على ملكه بالخيبة والخسران فاماتهما بغيًا واعتسافًا . وبعد ان فعل تلك الفعلة الذريعة جاش باله ندمًا على جريرته ولما أُدنيت منهُ جفنةٌ فيها ماكولة خيل لهُ الوهم ان فيها راس سيماك فخنق من ذلك فوادهُ وكانت عقباهُ بالموت عقيب ذلك ٥٢٦ واما القوتيون فلما راوا ابنتهُ امالازونتة قائمة بصيانة وليدها اتالاريك ومنهمكةً في شان تثقيفه رجاء ان يترشح لركوب التخت بعد جعله منعوها عن ذلك اشد المنع فأُرغمت على ان تغادره يتجول بين اترابه وقد رانهُ مرارًا معرَّضًا للنائبات وهي غير قد يرة على الاخذ بيده

وبعد ان مرَّ من ذلك الحين حولٌ عبثت براثن المنية بيوستينوس الملك ٥٢٧ بعد ان اشرك معهُ في ملكه حفيدهُ يوستنيانوس الذي اشتهر طول ولايته باعمال تريبونيانوس المستقرىء النواميس الرومانية وبحروب بليزار والخصي نرسيس ولعمري ان ذينك القائدين الماهرين قد ارهقا الفرس وقمعاهم بالحول والبسالة ٥٢٨–٥٤٢ ونكسا اعلام الفطط الشرقيين ٥٣٦–٥٣٩ . ٥٤٠–٥٥٢ والبندالة ٥٣٤ واعاد لسيدها افريقية وايطاليا ورومية . واما الملك فلما رآها يخطوان خطوات السعد ولواء النصر معقود بايديهما دبَّ في فؤاده الحسد عليهما وعلق يدهمها بما يعود بالخيبة والانحطاط الشان غير قائم بناصرها

وكانت مملكة فرنسا في ذلك الآن تنمو وتتعزز يومًا بعد يوم وفتح بعد حرب طويلة ولدا كلوفيس شلديبرت وكلوتير مملكة بورغونيا ٥٣٢ وفي الوقت عينه اغراها الطمع بان يقتلا اولاد اخيهما كلودومير الاحداث ويقتسما ملكهم بينهما وبعد ذلك بقليل من الحين اضرم بليزار الحرب على الفطط الشرقيين فاستجبن عند ذلك الفرنسيس وقبضوا على املاكهم في غاليا وانتزعوها منهم غنيمةً باردة وكانت فرنسا وقتئذ تمتدُّ كثيرًا وراء نهر الرين وقد كانت املاكها مجتزئة بسبب اقتسامات امرآيها الى ممالك شتى اهمها نوستريا (اي فرنسا الغربية) واستراسيا (اي فرنسا الشرقية) ولذلك شق عليها ان تكون راصحة لصولجان واحد. وفي السنة التي اعاد نرسيس مدينة رومية لأم يوستنيانوس في القسطنطينية المجمع الخامس العام الذي اثبت احكام المجامع الغابرة وقضى على بعض تآليف موافقة لمذهب نسطوريوس كانت تلقب بثلاثة الفصول بسبب انها لثلاثة موءلفين كانوا ماتوا قبل ذلك بزمان شاسع ولم تزل مقالاتهم موضوعًا للجدال فشجبت تآليف تيوادوروس اسقف المصيصة ورسالة ايهيبا اسقف الرها ومن تآليف تاودوريطوس ما كتبهُ ضد القديس كيرلس واما التآليف التي قام باعبائها اوريجانوس ولم تزل تخيم على الشرق منذ جيل بسرادق الاضطراب اهملت ونبذت جانبًا . وبعد ان كان ذلك المجمع غير محمود البداية نال حسن العاقبة وحازت اعالهُ لدى الكرسي الرسولي ارفع مكانة من القبول ٥٥٥ . واما نرسيس الذي ملّص ايطاليا من ايدي الفطط فبعد ان

مضى على ذلك الجمع حولان بر الى الفرنسيس بوائيهم وبد فعهم عنها قصد رعايتها من شر الغائلة وحينئذٍ ظهر على بوسالن قائد جيوش افرنسة الشرقية ومع كل ذلك فلم تلبث ايطاليا زمانًا طويلاً في اكف الامبراطورين وشاد البوين مملكة لمبردية ٥٦٨ واخذ مديولان سنة ٥٦٩ وباقي ٤٧٢ وكان ذلك في عهد يوستينوس الثاني حفيد يوستنيانوس بعد موت نرسيس . وقد كانت رومية ورافنة تكادان لاتنجوان من حبائلو فان الرومانيين قد كانوا يتجشمون المشاق والجور من اللمبرديين ورومية لاناصر لها من قبل ملوكها الذين ارهقهم الافاريون التتر والشراكسة والعرب ولاسيما الفرس كل الارهاق واوسعوهم تبريحًا واعناتًا في الشرق كلهِ ٥٧٤ . اما الملك يوستينوس الثاني فقد كان يستبد برأيه زهوًا وصلفًا فزحف عليه الفرس وملكهم كسرى بجنوده واستمرّ بذلك وبسلبهِ خير ما يملك حتى اودى به الى ان يصبح معتوهًا . واخذت حينئذٍ امرأته صوفيا تدبر المملكة . واصبح ذلك الملك في حالة كبرى من السوء والعثار ايامًا عديدة وبعد ان صحا من غشيان جنونه عرف لدن احتضاره خبث ماكربه ومصانعيه ومن ثم امسى عرضةً لمخالب المنون ٥٧٨ــ٦٧٩ وخلفه طيباريوس الثاني فناضل اعداء الدولة وقهرهم وارحب للرعية فسيح الفرج وكشف عنهم ما تانف منه النفوس واسى واحسن كثيرًا ٥٨٠ واقام موريس الكبادوكي على الجيش قائدًا فكان مبيدعًا مستميتًا بعنولة النصر صاغرًا فمات من ذلك كسرى الجبار كمدًا وقهرًا ٥٨٢ــ٥٨٣ فاسفر حينئذٍ طيباريوس عن مبسم المسرة والارتياح وجازى موريس بان اورثه عند موته السدة الملوكية وزف اليه ابنته قسطنطينة ٥٨٢ــ٥٨٣

وفي ذلك الحين كانت فردغونة الطاغية امرأة شلبيريك الاول تذكي نيران الحروب بين ملوك الافرنسيس فاستعرت بسببها جذوة القتال في مملكة فرنسا . وفي غضون ما كانت ايطاليا ينتابها من النازلات الكبرى شيء كثير ويشتد في رومية الوباء الهائل اقيم القديس غريغوريوس الكبير على الكرسي الرسولي رغمًا على ارادته ٥٩٠ فعلق هذا البابا يجأر الى ربه بالدعاء لينقذ عباده بازالة ذلك الداء العياء فاستجاب استصراخه ومنّ عليهم بقبول الدعاء وقد كان يونب الملوك ويوعز الى الرعية ان يودوا لهم كامل الرضوخ وابرز لافريقيا سلوةً وعززها وثبت في الايمان القوط الغربيين الذين في اسبانيا

جنحوا عن المذهب الاريوسي وملكهم ريكاريد الكاثوليكي الذي ارعوى عن غيه وغرّته ورتع في حجر الكنيسة . وانذر انكلترا بالايمان القويم ودمث عوائد الافرنسيس واسمى شان ملوكهم الكاثوليكيين فوق كل ملوك البسيطة وكظم غيظ اللومبرديين وانقذ رومية وايطاليا اللتين لم يتمكن ملوك القسطنطينية من القيام بناصرها ودفع عن بطاركة القسطنطينية الخيلاء والازدهاء وانار البيعة كلها بسناء تعليمه وساس الشرق والغرب بعزمهِ واتضاعهِ وترك من بعده للعالم انموذجًا يتسنن بهِ في سياسة الكنيسة

وليس في تاريخ البيعة امرٌ يبعث على المسرة اكثر من السرور بدخول القديس اوغسطينس الراهب في مملكة كنتا اي انكلترا هو واربعون من اخوانه الذين كانوا يقدمون عليها ناشرين امامهم الصليب ومثال السيد يسوع المسيح ملك الملوك وكانوا كافة يجأرون بالطلبات الحافلة لربهم كي يسعدهم على ارتداد الشعب الانكليزي الى حجر الايمان ٥٩٧ وان القديس غريغوريوس الذي حضهم على ذلك وبعثهم على تلك المأثرة العظمى لم يكن يألو جهدًا عن ان يرشدهم برسائلهِ الرسولية الحقة وجعل القديس اوغسطينس يعتبر وتاخذه الرعدة من العجائب التي كانت تلوح من لدن الله على يدهِ وقد الجأت برتا الاميرة الافرنسية بعلها ايدلبارت ان يعتنق الدين المسيحي واجمع الملوك الافرنسيون والملكة بربتوت على ان يقوموا بناصر تلك الرسالة الجديدة واشتركت اساقفة فرنسا في ذلك العمل المبرور . وهم الذين كرسوا القديس اوغسطينوس اسقفًا بامر من البابا والاعانة الجديدة التي امدَّ بها القديس غريغوريوس ذلك الاسقف الجديد اتت بثمار ترفعت الى اسمى الاهمية ٦٠١ واخذت البيعة في انكلترا تنشأ كل النشأة ٦٠٤ ولما تيقن الملك موريس خلوص الحبر الاعظم القديس وصفاء سريرته اذعن لنصائحهِ الموثرة واقتبل منه الثناء اللائق بكل ملكٍ مسيحي واصبح المبتدعون لايجسرون ان يبدوا في عصرهِ كلامًا ومع ذلك كلهِ فانه ارتكب جريرة كبرى وهي ان نفرًا عظيمًا من الرومانيين اسرهم البربر فماتوا ممتهنين ولم يفد احدًا منهم بفلقة من الفضة ٦٠٠ــ٦٠١ لكنه تندم فيما بعد على ذلك كثيرًا واستغاث من العلي ان يعاقبهُ في الحيوة الدنيا اخلق من ان يعاقبهُ في الموقف العظيم فنهض فوقا المتمرد وذبح امام مقلتيه كل آل بيته ٦٠٢ ومن ثم نحره . ومع ذلك لم يتفوه لدى تلك الملمة الرائعة

الأَّ بآية من مزامير داود وهي هذه عادل انت يارب واحكامك مستقيمة (١) وعند ذلك تسلق فوقا الى العرش الملوكي بهذا العمل المكروه وعلق يجهد في ان يستميل الشعب اليه بتادية المكرمة للكرسي الرسولي ٦٠٦ وبتثبيت حقوقه ولكن الحكم عليه كان ابرم ٦١٠ لان هرقل اقامه الجنود في افريقيا ملكا فزحف عليه بجنده فشعر حينئذٍ فوقا ان الفساد لم يشان الملوك اكثر من الظلم لانه كان قد اغتصب قبلاً امرأة فوتان فسلمه زوجها الى هرقل فاماته قتلاً . وجرى بعد ذلك في افرنسة حادث دموي يهيل جدًّا فان الملكة برنهوت قيد بها الى الملك كلوتير الثاني فاريق دمها على الارض لترويج مطامع هذا الملك ٦١٣–٦١٤ واصبح خامل الذكر حتى ان فضائله التي كان يثني عليها القديس غريغوريوس استمرت عرضة للتنديد والتفنيد الى ايامنا هذه

واما الدولة الرومانية فقد كانت وقتئذٍ مشرفة على الدثار فان كسرى الثاني ملك الفرس احرب الحرب على فوقا محتجًّا انه يثأر موريس واخذ يثخن فتوحاته الى زمان هرقل الذي دارت عليه الدائرة ٦١٠–٦٢١ وانتزع الكفرة خشبة الصليب ٦١٤ لكن هرقل لم يلبث ان ظفر على العدو خمس مرار متوالية ٢٢–٢٣–٢٥–٦٢٦ وولج الروم بلاد الفرس ٦٢٧ وقتل كسرى من يد ابنه وبعد ذلك استرجع الظافرون عود الصليب ٦٢٨ وفي عرض ما كانت الفرس تذوق عذاب الهون وتحطم شوكتها ظهر مذهب الاسلام واعترف العرب نبوة محمد فهاجر مكة في تلك الايام سنة ٦٢٢ واخذ المسلمون من ذلك حساب الهجرة الذي يتعارفون به الى الان وفي مدة تسع سنوات استولى على بلاد العرب عنوة او اختيارًا وبذلك اسس دولة الخلفاء .

وكانت حينئذٍ ارطقة المونوتوليتيين فهولاء كانوا يعترفون بوجود طبيعتين في المسيح والامر الغريب انهم لم يعترفوا الا بمشيئة واحدة فيه وفي مذهبهم ان الناسوت ليس بوسعه ان يشاء امرًا وان ليس في المسيح الا ارادة الكلمة ولقد كان اولئك المتشيعون يسرون سم بدعهم تحت الالفاظ المموهة بالالتباس والمحالة الى ان البعض منهم لرغبتهم الكاذبة في السلم عرضوا عليهم ان لا يتكلموا عن مشيئة او مشيئتين واقدموا على البابا انوريوس الاول بالمحالة والمصانعة واغروه

(١) مزمور ١١٨ ص ١٢٧ .

بان يتداخل معهم بمداراة خطرة ٦٣٤ وارتضى بالصمت الذي نتج منهُ ان البهتان والحق قد زهقا . وشرع الملك هرقل بعد ذلك بقليل من الزمن يفضُّ ذلك المشكل العظيم بسلطته الملوكية وبناء عليه اصدر من لدنه اشعارًا يقال له الاكتازاي البيان يعي ما يجنح اليه المونوتوليتيون واما الخداع الذي يمهك فيه الهراطقة المبتدعون فقد ارتفع عنه الغشاء وبدا بينًا لدى العيان فان البابا يوحنا الرابع حكم على الاكتاز وبادهة من لدنه بالحرم واخذ من ثم قنسطانت حفيد هرقل يدافع عن اشعار جده باشعار اصدره دعاه تيب ٦٤٨ فتصدى لذلك المشروع البابا ثيودوروس والكرسي الرسولي ولام البابا مرتينوس الاول مجمعًا في لاطران وعند ذلك باده القيب وروساء المونوتوليتيين بحرم جسيم ٦٤٩ واما القديس مكسيموس الذي اشتهر في التقوى وتعليمه في الشرق كافة فقد نفى عن البلاط الملوكي لما خامره من شائبة الابتداع الحديث واخذ من ثم يجاهر الملوك في التنديد والتثريب لانهم اجترئوا على الايمان بان يقضوا عليه . وكابد بعد ذلك المشاق الجسيمة غيرة على الدين الكاثوليكي ٦٥٠ واما البابا فقد واصل الملوك عذابه بنقله من منفى الى آخر وعاملوهُ بالاساءة والاذلال معاملة البربر ذوي الخشونة والهمجية . فاستاثرت به رحمة الله في غضون اعناته وتعذيبه ومع ذلك كله فلم يتغضب ولا يتقاعد عن اتمام ما تندبه اليه مرتبته ٦٥٤ وفي ذلك الحين كانت بيعة الانكليز الحديثة تعزز اركانها ويرعى مقامها البابا بونيفاسوس الخامس وهونوريوس واخذت من ثم تشتهر في العالم كله وكثرت فيها العجائب والفضائل مثلما كانت تكثر في ايام الرسل . ورفل ملوكها بارديه الفضائل والمآثر الحميدة فان ادوين الملك اهتدى هو وشعبه الى حجر الكنيسة وادّى به ايمانه الى التدثر بدثار الغنيمة والنصر على اعدائه . وعلق حينئذٍ ينصّر من يدانون ملكه ٦٢٧ وكان الملك اوزوالد ترجمان المنذرين بالانجيل ٦٣٤ وقد تقرر انه ملك عظيم الصولة نالت فتوحاته ارفع مكانة من الشهرة ومع ذلك فقد كان يوثر عليها اسم مسيحي وتنصر المرسيون بجهد اوزوين ملك نورثمبرلند ٦٣٥ ومن بدانيهم وقفنا اخلافهم آثارهم وكانت اعمالهم المأثورة تجاوز الحد

واما الشرق فقد كان وقتئذٍ على جرف هار فان الملوك كانوا ثمة يتهيكون في الجدل الديني ويستبضعون تجارة الابتداع وبينما كانت تلك شؤونهم كان العرب يشنون الاغارة على المملكة ويستولون على تخومها ويتبوئون سوريا وفلسطين ٦٣٥–٦٣٤ وادت

لهم المدينة المقدسة الخضوع وفتحت لهم بلاد الفرس ابوابها بسبب الشقاق فيها واخذوا هذه المملكة العظمى غنيمةً باردة ٦٣٧ـ٦٣٦ وتطرّقوا الى افريقيا فانتزعوها وجعلوها اقليمًا من مملكتهم ٦٤٧ وطاطأت لهم جزيرة قبرس رضوخًا ٦٤٨ وفي برهة لا تبلغ ثلاثين سنة ضموا كل تلك الفتوحات الى فتوحات محمد

واما ايطاليا التي كانت تتجرع كوموس الذلة والبوسى غير مرنوّ اليها بعيون الاسعاد فقد كانت تئنُّ تحت اثقال ولاة اللومبرد واخذ الملك قسطانس يجاهد في ان يبادهم بالممات. فحبط سعيهُ وخامرهُ الفشل وعوّل عند ذلك على ان يتلف كلما لم يكن يستطيع على رعايته وكان هذا الملك اشد قسوة من اللومبرديين ولم يلج رومية الاّ رجاء ان يسلب كنوزها ٦٦٣ ولم يطوِ عن التشنيع في الكنائس كشحًا. ونهب صقلية وسردينيا فاصبح مرذولاً من الجميع يأنف منه كل ذي ذوقٍ سليم فائتمر على قتله اصحابهُ ٦٦٨ وفي عهد ابنه قسطنطين بوغونات (اي اللحويّ) فتح العرب سيليسيا وليسيا ٦٧١ ولم تنجُ القسطنطينية من الفتوح الاّ باعجوبة ٦٧٣. واما البلغاريون فهم نحلٌ هاجروا الى مصبّ الفولغا وقد تولوا في بلاد التراس على قسمٍ يقال له ميزيا دعي من ثم بلغاريا ٦٧٨ واما بيعة الانكليز فكان ينشأ منها بيع جديدة فان القديس ولفريد اسقف يورك المنفيّ من كرسيه اغرى الفريسيين بان يتنصروا

واخذت البيع كلها تسطع وتزهو بالانوار التي انبثقت اليها من مجمع قسطنطينية السادس العام ٦٨٠ حيث البابا القديس اغاتون كان قابضًا فيه على زمام الرئاسة بواسطة وكلائه العظام. وابان فيه التعليم الكاثوليكي برسالة بليغة. واصدر المجمع الحرم على اسقفٍ ذاع فساد تعليمه وعلى بطريرك الاسكندرية واربعة من بطاركة القسطنطينية. وقصارى القول على كل روساء المونوتوليتيين ومع ذلك لم يعف بالعذل عن البابا هونوريوس الذي كان قد واطأهم. وفي اثناء التئام المجمع مات البابا اغاتون وعند ذلك ثبّت البابا القديس لاون الثاني احكام المجمع وصدّق على كل ما حرم. واما قسطنطين بوغونات الذي تسنن باعمال قسطنطين الكبير ومرسيانوس فدخل المجمع على مثالها ولما رآهُ المجمع انه ادى الخضوع مثلها لقبهُ بملك كاثوليكي محبٍّ للصلح مصلح للدين.

وخلفهُ ابنهُ جوستنيانوس الثاني وهو يافع ٦٨٥ فكان الدين في عهد هذا الخلف يترعرع بالنضارة والازدهاء في ناحية الشمال. فان القديس كيليانوس الذي بعث به البابا كونون

الى بلاد فرنكونيا ليكون هنالك نذيرًا ببشارة الانجيل اتم ما هو مندوب اليه ٦٨٦ وفي عهد البابا سرجيوس امّ شدوال احد ملوك الانكليز رومية ليعترف بعلاقته بالبيعة الرومانية من حيث دخل الايمان المسيحي جزيرته. واعتمد على يد البابا واستأثرت به رافة الله حينئذٍ حسب متمناهُ ٦٨٩

واصبح في ذلك الحين آل كلوفيس هابطين الى مهاوي الذلة مدحورين واخذت الاحكام الملوكية تنحط انحطاطًا يستحق الرثاء. ولما كان كثير من هولاء الملوك يرقون التخت الملوكي وهم قصر سنًّا فلم يكونوا يعكفون الا على التقاعد عمّا من شانه الفلاح والنجاح فكان ذلك مندوحة لان يربوا بالترف والرغد ولا يخرجون عنها بعد بلوغهم وكانوا منغمسين في عباب التواني والكسل لانهم كانوا ملوكًا لفظًا لا معنىً يكلون رعاية الملك لامراء يقال لهم بابر واخصهم بيبن هريستال الذي كان جل الحكم يناط بعهدته ٦٩٢ فانهُ اسمى آل بيته الى ارفع الآمال ونما الايمان في بلاد فريزيا التي ضمها فرنسا الى فتوحاتها بواسطة سلطانه وموت فيبير الشهيد. وان القديس سويبارت والقديس ويلبرود ومرسلون سواهما اوسعوا خطا الانجيل في الاقاليم المجاورة ٦٩٥ وفي ذلك الحين انتهى مد كون يوستنيانوس قاصرًا وكان لاونس استظهر على العرب وقمعهم وتوطدت اركان الدولة الرومانية في المشرق ٦٩٤ ولكن قبض على هذا القائد الجري عدوانًا وحل وثاقه دون تبصر في العاقبة. فجدّع انف سيده (ولذلك لقب يوستنيانوس بالاخرم) وطرده ٦٩٥ـ٦٩٦ فتجشم هذا الخائن الوقح نفس العذاب من قبل طباريوس المدعو ابسيمار الذي لم تطل ايامهُ من بعد ذلك على الارض

فاعيد يوستنيانوس الى ملكه ٧٠٣ـ٧٠٥ ونكر جميل اخوانه المخلصين واخذ ينقم من اعدائه الكاشحين فبدا له اعداء الداء خلافهم جرّعوه كاس المنية ٧١١ ولما استوى خليفته فيليكوس على صهوة الملك بعث بصورته الى رومية فلم تحز قبولاً لانه كان يجنح الى المونوتوليتيين ويعلن عداوته للمجمع السادس العام فتخير من ثم في القسطنطينية انسطاسيوس الثاني ملكًا للكاثوليكيين وسملت عينا فيليبكوس ٧١٣ وفي ذلك الحين فتحت رذائل الملك رودريك ابواب اسبانيا للمغاربة وكانوا يدعون بسراكنة افريقيا

فانه ارتكب الفحشاء بابنة الكونت بوليانوس فاستغاث هذا بالسراكسة لينتقم عن الاهانة التي المت بابنته فزحف المغاربة الى اسبانيا بغيالق جمة وتحارب الجيشان فقتل رودريك ورضخت اسبانيا وانقرضت دولة القطط وتوالت الاحن والرزايا على البيعة. في اسبانيا غير ان المسلمين لم يضادوا الايمان الكاثوليكي بل بقي سالمًا كما كان في عهد الاريوسيين واطلقوا لذويه بداءة بدء اعنة الحرية في الدين وان توالت بعد ذلك الحروب في القرون التالية . واما الملك انسطاسيوس فلم يبقَ امدًا طويلاً فان الجيش اجبر ثيودوسيوس الثالث على تقلد السلطة وتشحه بطيلسان الارجوان ٧١٥–٧١٦ وبعد ان استوى على اريكة الملك آل به الامر الى ان يحرب الهيجاء فظهر على انسطاسيوس واغراه بان ينزوي في احد اديرة المتعبدين . واما المغاربة الذين اتخنوا فتوحاتهم في اسبانيا فقد عولوا ثمة على ان يدوخوا باقي الامصار فاجتازت عساكرهم ما وراء جبال البيرانه لكن ذلك لم يستمر لان كرلوس مرتال الافرنسي استظهر عليهم فتقهقروا . وهذا وان يكن نغيلاً فانه خلف اباهُ بيبن هريستال واستقر على سرير الخلافة بعدهُ . وكان ابوه اخص لسرائه اوسترازيا اي افرنسة الشرقية لتكون له امارة مطلقة والولاية على نوستريا اي افرنسة الغربية قيامًا بحق كونه اميرًا في البلاط فكرلوس ضم المملكتين باقدامه

واما احوال الشرق فكانت وقتئذٍ في ازمةٍ عظمى فان الحاكم هنالك لاون الايسوري لم يخضع لثيودوسيوس فانحاز حينئذٍ الملك دون كرهٍ عن الملك الذي لم يتقبله الا بالاكراه والتجأ الى افسوس ولم يهتم الا في العظة الحسنة. وفي عهد لاون استظهر على السراكسة مرارًا كثيرة وأرغموا على ان يحصوا عن القسطنطينية ويرفعوا عنها الحصار ٧١٨ واما في اسبانيا فبيلاجيوس تسلق على جبال استوريا ٧١٩ هو ومن تبقى معه من القطط وبعد ان انتصر على العرب نصرًا مبينًا انشأ مملكة حديثة كانت معدة لطردهم من اسبانيا وكرلوس مرتال لم ترعه بسالة قائدهم عبد الرحيم وكثرة جيوشهم فظهر عليهم في موقعة طور الشهيرة ٧٣٢–٧٣٥ حيث قتل كثيرون واخصهم عبد الرحيم القائد الباسل وقنت

تلك النصرة نصرة اخرى ثبطت اقدام المغاربة واسرع الكرة واوصل سلطة الفرنسيس الى جبال البيراني . ومن ذاك الحين اخذ الغوليون يوافون الافرنسيس بالنفوس المستصغرة راضخين وبعد الجميع اعناقهم لكارلوس مارتال واما هذا السري البسول فاصبح ذا سطوة في الصلح والحرب وشوكة مطلقة في المملكة فانه تولى الحكم باسم كثيرين من الملوك فقد ولى من ولى ونزع من نزع منهم دون ان يتطاول الى ان يتلقب بذلك اللقب الرفيع فان الافرنسيس الذين كانت صدورهم واغرة من الحسد اغروه بان يداهنهم ويصانعهم

وكان الدين في المانيا في ذلك الان تزيد نشأتهُ ٧٣٢ ودين الكاهن القديس بونيفاسيوس اولائك الشعوب بدين النصرانية واقام عليهم اسقفًا من بعث به اليهم البابا غريغوريوس الثاني واما الدولة الرومانية فكانت اذ ذاك مترعة كؤوس السكينة والسلام عبران لاون بادها بالرزايا والنائباب حقبًا متوالية فانة طوح بنفسهِ الى ان يوقع بايقونات المسيح وقديسيه معتبرًا انها تماثيل صنمية ٧٣٦ ولما ضاق ذرعًا عن ان يحاز اليه القديس جرمانوس بطريرك القسطنطينية استاثر بغوتو وسلطانهِ . وبعد ان برزت الاوامر من مجلس الندوة تهد صورةً ليسوع كانت مركوزة فوق باب كنيسة القسطنطينية الكبير وحطها تحطيمًا ومنذ ذلك اخذ الجائرون يحطمون الصور ويفسدون وان التماثيل التي اركزها الملوك والاساقفة والمؤمنون في المحال المقدسة العامة منذ كانت البيعة في غضارة النعيم والرفاهية اصبحت كالهبا المنثور . واما الشعب فلما رأوا ذلك اصبحوا في تهويش واضطراب واخذوا تماثيل الملك وكسروها فاستكبر ذلك وايقن انهُ اهانةٌ لحنت به فونبةُ الشعب قائلين ان الاهانة التي يدعي بانها المت به فانة هو نفسه يقاذع بها يسوع المسيح واولياءهُ الاطهار وانهم ياخذون من استكباره تحطيم تماثلو دليلاً على ان اهانة الرسم اهانةٌ للعين . واما في بلاد ايطاليا فقد اتسع الخرق جدًا لان الشعوب لما رأوا ان الملك جنف عن سراط الحق واستبضع تجارة الكفر والطغيان اصروا على ان لا يودوا له جزيةً وتسنن بذلك لويتبران ملك اللومبرديين رجاء ان يقبض على مدينة رافين مركز الاكزرك اي الولاة فان الولاة الذين كان يبعث بهم الملوك الى ايطاليا كانوا يعثونهم على ذلك واقام البابا غريغوريوس الثاني الحجة على تحطيم الصور وفي الوقت نفسه كان يناوي اعداء المملكة ويناكرهم ويحض الرعية على الدعة والسلم وتادية الرضوخ المستحب للدولة واما الملك فانة ابرم صلحًا مع اللومبرديين ٧٣٠

وواثقهم بالعهود والاخاء ونفّذ الاوامر المعلنة بالايقاع بالصور والتماثيل جائرًا عاتيًا . فاجابه يوحنا الدمشقي المشهور انهُ لا يطاطئ لسوى اوامر البيعة في المشاكل الدينية وان امرهُ ليس لهُ عنده رعاية" الا النبذ جانبًا . فحنق الملك من ذلك جدًا واخذ يبالغ في الاعنات والاذلال واعزل البطرك جرمانوس عن كرسيهِ ونفاه الى حيث استاثرت بهِ رحمة ربهِ وهو في سن تسعين عامًا ٧٢٢ - ٧٢٩ ولم يمضِ على ذلك الحين قليل" من الزمن ٧٤٠ الاَّ عاد اللومبرديون يهرجون ويمرجون واخذوا يجشمون الرمانيين المشاق فاستنصر البابا غريغوريوس الثاني كارلوس مارلوس فلبى الاستصراخ جاهدًا ودرأ عن الرومانيين الخطوب المدفعة . واما مملكة اسبانيا الجديدة التي كانت تدعى وقتئذٍ مملكة اوفياد فكان ظفر الفونس صهر بلاج يسرعان في نشاتها ويزيدان في شبابها وقد تلقب هذا الملك بكاثوليكي اقتداء" بريكارد الذي كان يزعم انهُ من نسلهِ واستعزّ الله في ذلك الان بلاون الملك ٧٤١ تاركًا المملكة في اضطراب والبيعة مفئودة الفؤاد

وقبض على زمام الملك ارطاباز والي ارمينيا بدلاً من قسطنطين كبرونيم بن لاون وراعى حرمة الصور واصدر الامر بارجاعها وبعد ان عبثت المنية بكارلوس مارتال شرع لويتبراند يوعد رومية ثانية بالامر الهائل واصبحت حينئذٍ اكزركات رافين (ولاية) مشرفة على الدثار العظيم ولم ينقذ ايطاليا من فتكات العدو" الالد الاَّ رصانة القديس زكريا البابا وفرط حصافتهِ ٧٤٢ واما قسطنطين فكان في الشرق في حالة البوس والشدة ومع ذلك فلم يكن يفكر الاَّ في ان يكون مستعزًا على سرير الولاء فناضل ارطاباز ظافرًا عليهِ وفتح القسطنطينية واكثر فيها من المبرّحات المدقعه والنائبات الموقعة ٧٤٣ وقد كان لكارلوس مارتال ولدان يقال لاحدهما كارلومان وللاخر بيان وكلاهما خلفا اباهما بعد ان اغتاله الردى . اما كارلومان فقد انفَ الحيوة الدنيا وغادرَ العزة الملوكية وترف العيش وتبتل لله معتزلاً عن الناس الى بعض الاديرة طلبًا للعبادة ٧٤٧ فلدن ذلك استأثر اخوهُ بيان بالسلطة السامية ورعى منصبهُ بحسن سليقتهِ وجودة تدبيرهِ وعوّل على ان يركب التخت السلطاني . ولما كان في ذاك الحين الملك شيلدريك من سلالة الملوك المنغمسين في لجة التواني والتراخي وكان خامل الرأي معتوهًا جنحت الى بيان افكار الافرنسيس ٧٥٢ وتخيروا لهُ السودد الرفيع وزيادةً على ذلك فانهم كانوا وقتئذٍ قد انفوا من الملوك المتقاعدين والفوا آل كارلوس مرتال الذين نشأ منهم افراد"

تغتزُّ بهم الاسرة فلم يكونوا اذ ذاك يتهمكون الاَّ بما حلفوا لشيلدريك وبناء" على ما اوعز اليهم البابا زكريا تخيلوا انهم امسوا رافلين باردية الحرية وانهم عُتقوا مما حلفوا لملكهم بعبرة انهُ هو ومخلوفوهُ بدوا معتزلين عن حقوقهم في السلطان منذ مئةٍ من الاعوام اذ غادروا الشوكة منوطة بعهدة من تدرج الى منصب ميرديبالي (اي امير البلاط) وعلى ذلك اغروا بيان بان يستوي على اريكة الملك وجعلوا اللقب الملوكي موثوقًا بوثاق السلطة

ورأى البابا اسطفانوس الثالث في ذلك الملك الجديد غيرةً على الكرسي الرسولي مثلها في كارلوس مارتاس ضد اللومبرديين ولقد كان قبلاً يستصرخ ملك الروم فذهب استصراخهُ ادراج الرياح فاستنجد بالافرنسيس فهشّ بهِ ملكهم وقابلهُ بالتودة مبرزًا لديهِ المكرمة والحرمة وازدلف اليهِ واراد ان يمسح بيدهِ ملكًا ويتوّج بهِ ٧٥٤

وفي ذلك الحين اجتاز الملك بيان جبال الالب وانهض رومية واكزركات زافين من وهاد الخمول وارغم استولف ملك اللومبرديين على ان يوائقهُ ويبرم معهُ صلحًا مراعيًا فيهِ جانب العدل والانصاف وعلق ملك الروم يذكو نيران الحرب على الايقونات فلأم في القسطنطينية مجمعًا عظيمًا رجاء ان يوطد آراءهُ على الاسناد الكنائسية فلم يشهد حسب العادة ذلك المجمع وكلاء الكرسي الرسولي ولا اساقفة الكراسي البطريركية اووكلاؤهم ومع ذلك فلم يكتفِ المجمع بان يقضي بأنّ الاحترام المؤدّى للايقونات تذكارًا لاعيانها هو عبادة وثنية بل قضى بان فن الرسم والتصوير هو من الامور التي يأنف منها الطبع ويمجها الذوق وذلك اعتقاد الاعراب الذين يقولون ان الملك لاون لما حطم الايقونات كان معتقدًا رايهم فذلك بهتان" وتمويه" لانه لم يجاهر قط بالعدوان ضدّ الذخائر ولم يقضِ مجمع قبرونيموس بعدم تادية الحرمة لها وحرّمَ كل من كان يجحد الاستشفاع الى مريم البتول والقديسين . واما الكاثوليكيون الذين كانوا يئنون تحت باهظ التاويق والاضطهاد لابرازهم التكرمة للايقونات فكانوا يجاهرون امام الملك انهم يؤثرون الموت تحت اثقال النوائب الوبيلة على ازورارهم عن تأدية الاكرام ليسوع المسيح في مثالهِ وفي ذلك الحين نكث استولف العهود التي أُبرمت بشان الصلح فحنق على ذلك بيان ودوّخ جبال الالب مرة اخرى واصبحت الكنيسة الرومانية قريرة المقلتين لانها رأت من ذلك الملك الصالح مالم ترَهُ قبلُ من غيرهِ . فانهُ منحها كل

المدن التي انتزعها من اللومبرديين فحمس قبرونيموس ان يعيدها اليه فقابله بيان بالمزء والسخرية اذ لم يكن بوسعهِ من قبلُ ان يكون ذائدًا عنها وحاميًا لذمارها . ومنذ ذاك الحين تنامى الرومانيون سلطة ملوك الروم الذين اصبح الجميع يصوّبون عليهم سهام المقت والتفنيد يحتقرونهم لوهن عزائمهم ويكرهونهم لجنوحهم عن المحجة القويمة وغدا بيان يذود عن الشعب الروماني والبيعة الرومانية ومن ثمَّ توارث الذَّودَ من بعدهِ سرائه وكل ملوك الافرنسيس وبعد ان استعزَّ بهِ الله صعد على ذروة الملك ابنهُ كارلوس العظيم فنسج بما كان يفعل ابوه فثابر على الذود عن الرومانيين والبيعة ببسالة فائقة وتقوى خارقة ولما فتح ديدبه ملك اللومبرديين مدائن شتى واوعد ايطاليا برمتها بالامر المكروه استغاث البابا ادريانوس بكارلوس العظيم فلبى الدعوة مسرعًا واجتاز جبال الالب ٧٧٣ فاتحًا تخضع كل شيءٍ لباسهِ واحضر ديدبه لديه اسيرًا ٧٧٤ وانقرضت ملوك اللومبرديين اعداء رومية والمنصات الرسولية واستوى على ايطاليا ملكًا . وتلقب من ثم بملك فرنسا واللومبرديين وفي الوقت عينهِ كان يمارس السلطة في رومية لانهُ كان ملقبًا بباتريس (اي محامٍ عن الشعب) وثبت كل ما منَّ بهِ ابوه على الكرسي الرسولي وكان ملوك الروم يقاسون المشاق بدفاعهم البلغاريين ويحاربون ضد كارلوس العظيم الى اللومبارديين الذين انتزعت منهم املاكهم قائمين بناصرهم فيشكسون . ومع ذلك فقد استمرَّ الالمام بالايقونات واضطهادهنَّ فان لاون الرابع ابن قبرونيموس تراءى اولاً انهُ كاظمٌ غيظهُ لكنما جذوة الحقد بقيت مطبونة في فؤادهِ فانثنى الى غرتهِ وشرته واخذ ينهك حرمة الصور واهمًا انه يستوي على صهوة العرش فكان بذلك سهمه طائشًا لان طائر الموت انقض عليه فذهب بروحهِ عاجلاً ٧٨٠ وخلفه ابنه قسطنطين وهو في العام العاشر من عمره وتولى الامر والنهي تحت وكالة امه ايرانيا وحينئذٍ اخذت الشوءون تتغير والمنكرات تنسلخ فان بولس بطريرك القسطنطينية اعلن قبل انقضاء اجلهِ ان تصديه للايقونات وافتراءه عليهنَّ لم يكونا عن طيبة خاطرٍ منهُ ولكي يكفر عن نفسه دخل احد الاديرة متعبدًا ٧٨٤ واخذ من ثم يراسل الملكة ويرثي لما تعاسة كنيسة القسطنطينية المنفرزة عن اربعة الكراسي البطريركية واوعز اليها ان التئام مجمع عامٍ يكون دواءً لمزاولة ذلك الداء . واما خليفته تاريز فقد قرَّر ان المشكل لم يحل نظامًا لان القضاء بهِ كان بامرٍ بارزٍ من الملك وان المجمع الملتئم وقتئذٍ كان قد لوم ضد

القوانين . مع ان المجامع الدينية لها حق الاولوية في الاحكام الدينية وعلى الملك ان يكون عضدًا لاحكام البيعة ليس مبرزًا للحكم . وبناءً على ذلك لم يرضَ بان يكون بطريركًا في القسطنطينية الاَّ بشرط ان يصير التئام مجمعٍ عامٍ . فبدأ ذلك المجمع في القسطنطينية وانتهى في نيقية ٧٨٧ وبعث البابا اليه بوكلاء من لدنه اقاموا النكير على مجمع محطمي الايقونات ورشقوه بسهام التنديد والتفنيد واعتبروا ذويه اناسًا يقاذعون المسيحيين وينهمونهم بتادية العبادة للاوثان كما ينهم الشراقصة وتقرر ان الايقونات تؤدى لهنَّ التكرمة تذكارًا ومحبة لاعيانهنَّ . واليك صور العبادات التي تقررت في المجمع وهي : عبادة معزوَّة . او عبادةٌ او اسلام اكراميٌّ مقابلة للعبادة المطلقة والعبادة اللاطريًا او الرضوخ التام الذي اختص المجمع بهِ الله وحدهُ . وفضلاً عن ان وكلاء الكرسي الرسولي وبطريرك القسطنطينية حضروا المجمع فقد حضرهُ جميع البطاركة الذين كانوا وقتئذٍ تحت حكم غير المؤمنين وقد رفض البعض من اعضاء المجمع ان يعترفوا بوكلائهم . ومن الامور التي لا يشذُّ عليه نكيرٌ أن الكراسي برمتها قبلت احكام المجمع ولم يبدُ انها ناقضته بل حاز قبولاً لدى البيعة كلها . واما الافرنسيس فلما راوا عابد بن الاوثان او المرتدين الى الايمان حديثًا يكتنفونهم ضربوا لقبول المجمع اخماسًا في اسداس زمنًا طويلاً حذرًا من ان تجيش افكارهم ولاسيما لانهم كانوا متشبكين بابهام كلمة عبادة ولم يبرزوا الاكرام الا لصورة الصليب التي كانت تباين جدًّا الصور التي كان الوثنيون يخالونها مفعمة من الالوهية . ومع ذلك كله فلبثوا يحتفظون على الايقونات باكرام ويضعونها في محال مكرَّمة وبقوا مصرين على ان يمتنوا محطمي الصور ولم يتأتَّ من ذلك الاختلاف شقاقٌ ولا اخصام . وبعد ان مضت على ذلك مدة من الزمن تيقن الافرنسيس ان اباء مجمع نيقية لايخصون للصور الاَّ على عبادة مثل التي كانوا هم انفسهم يؤدونها للذخائر والانجيل والصليب مع رعاية المناسبة . وادى المسيحيون برمتهم الاحترام لذلك المجمع ودعي المجمع السابع العام . وبناء على ذلك قد تفهمنا المجامع السبعة العمومية التي حازت التكرمة والاحترام في الشرق والغرب سواء كان في الكنيسة اليونانية او اللاتينية وكان ملوك الروم يلثمون هذ المجامع العظمى بسلطانهم المطلق على الاساقفة او على روسائهم الذين كانوا حينئذٍ رعايا الدولة الرومانية ويجلبون من يلوذ بهم وكانت المراكيب العامة تقدم بامرٍ من الملوك وكانت المجامع تلتئم في الشرق حيث كان مقرهم ويبعثون بجنودٍ الى هنالك اعتياديًا

لرعاية النظام جزماً . واما الاساقفة الذين كانوا يلتئمون ثمة على ذاك المنوال فكانوا ياتون متقلدين بسلطة الروح القدس وتقاليد البيعة ومن يوم نشأة البيعة كان ثلاثة كراس مترئسة على سواها وهي كرسي رومية وكرسي الاسكندرية وكرسي انطاكية. وارتأى مجمع نيقية ان تكون اسقفية المدينة المقدسة من هذه المرتبة أمّا المجمعان الثاني والرابع فقد انهضا كرسي القسطنطينية الى هذه الدرجة ورغبا في ان يكون له المرتبة الثانية وعلى ذلك تاتى خمسة من الكراسي لقبت فيما بعد ببطريركية ونالت الكراسي في المجامع مقامات فكانت حينئذٍ المرتبة الاول منوطة بكرسي رومية ورتب مجمع نيقية سائر الكراسي بالنسبة اليه كلاًّ حسب منزلته وكان ايضاً جثالقة لهم سيادة على الاقاليم وكانوا يتقدمون على الاساقفة وطفقوا من ثم يلقبونهم رؤساء اساقفة وكانت سلطتهم لا تبرح مرعية قبل ذلك وفي اثناء التئام المجمع كان الملتئمون يتصفحون الكتب المقدسة ويتلون فقرات من اقوال الآباء الاقدمين الذين شاهدوا التقليدات التي كانت مغزى الكتاب وكانوا يفكرون ان المعنى الحقيقي كان كلاماً استعماليًا في الاعصار الغابرة ولم يكن حينئذٍ احدٌ يخال انهُ محقٌ بتعبيره على خلاف ذلك وكانت سهام الحرم مصوبةً على كل من لم يكن لذلك المجمع راضخًا وانهم كانوا اولاً يتهمكون في اثبات ما ينوط بالاعتقاد ومن ثم يهتمون في امر التدابير الكنائسية وقد كانوا يضبطون كل ذلك تحت قوانين وقواعد معتقدين ان الايمان لن تمسهُ شوائب التغيير. ولقد كانوا يجزمون على ان الاقتدا في الازمنة السالفة من الامور التي لا مندوحة عنها وان تكن التهذيبات جانحةً الى تغيير بعضها وفاقاً لاختلاف الزمان والمكان . ومع ذلك كلهِ فان البابوات لم يحضروا تلك المجامع العامة انفسهم بل اناطوا ذلك ببعثة وكلائهم لكنهم قرروا ما يتعلق بشان تعاليمهم بكل صراحةٍ وايضاح ولم يكن اذ ذاك في الكنيسة الاّ اعتقاد فقط

وقد اذعن الملك قسطنطين والملكة ايران والدتهُ في بادىء الامر لاوامر المجمع السابع بكل رضوخ واعتبار ٧٨٧ غيران سلوكها في امر اخر لم يكن على هذا المنوال وذلك لأن والدته اقرنته بعرس ليس لها في فؤادهِ منزلةٌ من الغرام فطوح بنفسهِ الى مهاوي الهوى وطفق يجهر العاهرات فاسقًا . ولما سئمت نفسه من الانقياد الاعمى الى والدتهِ التي تعنيه بشدة تبهنسها راى ان ابعادها عن الامور السياسية من الضروب اللازمة ومع ذلك فقد استمرت تتداولها رغمًا عنه وفي ذاك الحين كان العنيف الفونس متبوءًا

اسبانيا ٧٩٢ وقد استاهل تلك الصفة بعيشتهِ المستمرة في العفافة وكان ذريعة لان يرفع عن اسبانيا عار الجزية التي كان اهلوها يادونها للمغاربة وهي عبارة عن مائة بنت كان عمة مورنت مغتصبهن لم لكنما الفونس الباسل استكبر ذلك جدًا وانبرى الى مضمار القتال واجج نار الحرب عليهم . فقتل قائدهم مغاث وسبعين الفًا من جنودهم

واخذ قسطنطين يحرب الحرب على البلغاريين املاً بالفوز والغنيمة فسقطتْ سهم امله دون مرامه لكنه حطم شوكة والدتهِ ايرينا مخطبًا ليستعز على سرير الملك مفردًا فحبط مسعاه كل الحبوط لانهُ لم يكن اهلاً لرعاية الملك وحدهُ فطلق مريم امرأته واقترن بجاريتها ثيودوث ٧٩٥ فانفت من ذلك والدته كل الانفة وثارت عليه بانظارها كل الثورة فاتى من ذلك عثور للجميع ٧٩٦ واهلكت بحبها قسطنطين واملت اليها الشعوب طرًّا لانزالها مقادير الخراج وتظاهرت بالبر والتقوى فجنحت اليها الاكليروس والرهبان وقصارى الامر انها اصبحت وحدها قابضةً على زمام الامر

واما الرومانيون فقد تضجروا تلك الحكومة وجنحوا الى كرلوس الكبير الذي كان يعني السكسونيين ويقمع السراكسة ويلاشي البدع ويذود عن البابوات ويدين بالدين المسيحي الام الضالة ويقوم بناصر العلوم والتهذيبات الكنائسية ويلئم مجامع شهيرة فينبثق فيها سناه علوه وكانت آثار عدلهِ وتقواه تدوخ لا فرنسا وايطاليا فقط بل اسبانيا وانكلترا وجرمانيا وما جاورها من البلدان

العصر الثاني عشر

في كرلوس الكبير او تشييد الامبراطورية الجديدة

تخبر الرومانيون هذا القائد العظيم عن رومية وايطاليا او بالاحرى عن الكنيسة والنصرانية امبراطورًا ولقد كان انتخابه الى العرش فجأةً دون ان يكون له مستنظرًا وذلك سنة ٨٠٠ من ميلاد السيد المسيح وتوجهُ لاون الثالث الذي بعث الرومانيين على ان ينتقوا ذلك القسور العظيم . ولذلك اصبح كرلوس موطدًا هذه الامبراطورية الجديدة وعظمة الكرسي الرسولي الزمنية

فياسيدي هاك مارفعته لدى جلالتك من الاعصار وهو اثنا عشر عصرًا وعينتها في هذا الموجز وابنت لك كل ماهو مهم من حوادثها . ويمكن لك من الان فصاعدًا ان تنسق دون تصبٍ حسب النظام الزمني كل حوادث التاريخ القديم وان تركز كلاً منها في مقره . ولم يذهب عني ان ابث لديك في موجزي هذا التقسيم المشهور لدى المورخين وهو تقسيم مدة العالم الى سبعة اجيال وان بداءة كل جيل ليست الاَّ بمثابة عصر لنا وان رايت اني ادخلت في ذلك بعض اجيال اخرى فليس ذلك مني الاَّ لتمتاز الاشياء عن بعضها ويلوح لذلك نظام الازمنة عاريًا من التهويش والالتباس وان رايتني اناجيك بتسلسل الازمنة فلا تخالنَّ ان من ماربي ان اغريك بحفظ كل التواريخ بالضبط والدقة او ان اوقفك على خصام المورخين الذي يحدث غالبًا ببونٍ قليل من الحوول . واما الحسبان التاريخي الذي ينفر في كل هذه الفصول ويستغرقها فهو بلا تمويهٍ جليل الفائدة بيدَ انهُ ليس مما يهتم فيه مثل جلالتك لانهُ لايزيد على سناء عقل ملكٍ عظيمٍ نورًا ثاقبًا ولذلك لم ترني انقر في استقراء الازمنة واني قد انتقيت من الحسبان المستعمل ما هو دانٍ من الحق غير ضامنٍ اثباته

فليت شعري هل يقضى علينا بان ننفو من حسبان السنين منذ التكوين الى ابرهيم الحسبان السبعيني الذي يشعر بقدمية العالم او النسخة العبرانية التي تشعر بتاخيره عن ذلك اجيالاً مديدة . فان اسندنا استقراءنا على النسخة العبرانية بدا بذلك فضل عظيم . ومع هذا فان ذلك ليس لهُ في ذاتهِ اهمية كبرى لان الكنيسة التي قفت القديس ايرونيموس في حساب النسخه العبرانية في الفولغاتا اي النسخة العامية ادرجت الحسبان السبعيني في السنكسار وليس من ذلك للتاريخ اهمية ان زادت اجيال فارغة او نقصت ان لم يكن فيها حوادث مهمة ينقلها المورخ الى تاليفهِ . ولا يكفي ان تكون الازمنة التي تتضمن الحوادث الخطيرة في حالةٍ راهنة وان التقسيم يكون موطدًا على ركنٍ قويم مقرَّر وان حدث احيانًا اختلاف على بعض حوول متعلقة بهذه الازمنة فذلك ليس من شانهِ ان يجيش الافكار فلو افضى بنا الامر مثلاً ان نجعل تشييد رومية او ميلاد المسيح في قديمٍ من السنين او في متاخر منها فذلك لاينجم منهُ مضرة في تسلسل التاريخ او في اتمام مقاصد الربّ ولكننا مندوبون ان نحذر الشطط في الحسبان الذي يتأتى منهُ ابهامٌ في الامور نابذين عنا مابقي للعلماء يتخذونهُ موضوعًا يحملون عليه بحثهم وجدلهم

وليس من دابي ان اهوش ذاكرتك بحسبان الاولمبياد وان كان اليونانيون الذين يستعملونهُ يرونهُ ضروريًا لتحديد الازمنة لكنما يكفيك ان تعرف بما هو قائمٌ بهِ لكي تتمكن من البحث فيهِ اذا آل بك الامر الى البحث . فيكفيك اذًا ان تنهمك في الحسبان التاريخي الذي ابرزتهُ لديك لانهُ بسيطٌ ومتداول وهذه التواريخ هي من العالم الى رومية ومن رومية الى السيد المسيح ومن السيد المسيح الى ما ياتي من الزمان . وان المارب الحق من هذا الموجز ليس لاوضح لدى جلالتك تسلسل الازمنة وان يكن ذلك ضروريًا جدًّا لمطالعة التواريخ ولابراز تعلقاتها واني قد اشعرتك ياسيدي ان اخص موضوعي هو ان اوضح لديك بذريعة تسلسل الازمنة تسلسل شوءون شعب الله وشوءون الممالك العظمى . وان هذين الشأنين يتفقان في المسير في دور الاجيال العظيمة وما ذلك الاَّ لان لهما محورًا مفردًا في سيرهما وليس بوسعنا ان نتوصل الى درك ذلك الاَّ بان نفصلهما عن بعضها ونعتبر ما يليق بكلٍّ منهما

الجزء الثاني

* في تسلسل الامور الدينية *

الفصل الاول

* في التكوين والازمنة الابتدائية *

ان الدين وتسلسل شعب الله المتسق هما من اهمّ المواضيع التي تعرض على الانسان فبلا ريب انهُ يرتاح الى ان يذكر حال شعب الله المتباينة في عهد الناموس الطبيعي وفي ايام الآباء وفي عهد موسى وعهد السنة المكتتبة وعهد النبي داود والانبياء ومنذ انتهاء سبي بابل الى يسوع المسيح ثم في عهد المسيح اي في عهد سنة النعمة والانجيل وفي الاعصار التي كان يرى فيها يسوع وفي الاجيال التي اتى فيها وايام ان كانت عبادة الله محصورة في شعب واحد وفي الاجيال التي دوخت فيها العبادة

الارضين توفيقًا لما نوه الانبياء الاقدمون ثم في الاجيال التي كان فيها الانسان في حالة الوهن والخشونة اذ كان مفتقرًا الى ان يثبت على رعاية الشريعة ليستأهل ثوابًا وعقابًا زمنيين وفي الاجيال التي غدا فيها المومنون خارجين من حنادس الغي الى سناء الهدى ولم يألوا على نفوسهم الآن يكونوا عائشين في حجر الايمان معتصمين بالخيرات الازلية متجشمين المشاق قدر ما يتجلدون امل ان يتمتعوا بها ومن الامور التي تليق بالله ويمكن للانسان تخيلها ان الله تعالت قدرته لم يكن يرى بدًا في بادىء الامر من ان يتخير له شعبًا يكون سمة بادية لعنايته فاصطفى اذ ذاك شعبًا اناط سعادته وشقاءه بهمة طهره وتقواه وتدلُّ حاله على حكمة من يتولاه وعدله . فذلك ما تمهك فاطر الارض فيه من ذي قبل وما ابداه في الامة اليهودية ولم يتم ذلك الأ بعد ان ابرز بعلامات بينة ان هذه الحنيفة لاتحول وانه وحده يقود كل حوادث هذه الحيوة العتيدة ولقد كان قد آن الزمن ان يرفع الانسان الى افكار سامية وهي بعث ابنه يسوع المسيح الى الارض ليصرح عن اسرار الحيوة المستقبلة لشعب حديث كان قد جمعه من شعوب العالم . فما عليك الآن تستقرىء تاريخ الشعبين وترى ان المسيح كيف كان موضوع الاتحاد بين الطرفين فانه كان سلوانًا لابناء الله ومنتهى آمالهم سواء كان مأتاه منتظرًا ام اتى .

وما يدلُّ على ان الدين متساوٍ اوبالاحرى هو عينه من بدء العالمين ان الشعب كان يعترف بالله واحد خلق الجنس البشري وبمنقذ واحد له هو يسوع ويتبين لديك ان الدين الذي تستمسك بعروته اقدم شيء بين البشر وان اجدادك لم يبذلوا دون سبب سموّ مجدهم ليناضلوا في سبيله

فيالله من شهادة عظمى على حقيقة هذا الدين فان التاريخ الدنيوي لايأتينا بنباء عن الازمنة الغابرة الأ مشوه بالخزعبلات والاحاديث الملفقة بيد ان الكتاب كلَّ الكتاب يأتينا بالنبإ اليقين عن تسلسل الشوون المقررة ويوعز الينا عن الحدث الحق وهوالله عزَّجلالة البارىء كلَّ مبروء ويمكننا من معرفة تكوين العالم ولاسيما تكوين الانسان ومن معرفة سعادته الاولى وعلة شقائه ووهنه وفساد العالم والطوفان وابتداء الصنائع والامم واجتزائه الارض وانتشار بني الناس . وحوادث اخرى مهمةً جدًا لايبرز لدينا التاريخ الدنيوي عنها نبأً غيرخالٍ من التهويش والاضطراب بل يبعثنا على ان نبحث عن مصادرها الجمّة في تواريخ اخرى فان كان قدم الدين بهية اهمية خطيرة فان تسلسله

المستطردُ استمرارًا دون تغيير في كل الاعصار رغمًا عن القواسر يدلُّ على ان يدَ الله سندٌ قويم له وهي لم تزل تقوم بناصره

ولا ريب في ان الدين موطدٌ على تلك الاركان القويمة منذ بدء العالم ولا تقوى عليه عبادة الاوثان ولاالمجد الذي كان يكتنفه من كل الانحاء ولا الجائرون الذي كانوا يرشقونه بسهام العنت والاضطهاد ولا الكفرة الذين اجهدوا نفوسهم في ان يزيلوه ولا العاتون الذين لم يكونوا عليه بوءتمنين ولااخصائه الذين دنسوهُ بآثامهم وجرائرهم ولا طول الزمان الذي هو التدبير على ازالة الامور البشرية وهو ربُّ العجائب . فكل ذلك لم يتمكن من ازالته او فساده وان شحذنا الفكرة في التصورات التي يجيبها لدينا هذا الدين الذي نحترم قدمهُ نظرًا لموضوعه اي الكائن الاول نوقن انه يفوق كل ما يتصوره اولو الافكار ونجزم انه منبعث من لدن العلي وان الله الذي عبدهُ العبرانيون والمسيحيون يجلُّ عن ان تضاهيه الالهة الآفكة المختلقة من عدم الكمال ومن الفساد التي كان يوءدى لها العبادة في سائر الارض . لان الهنا مفردٌ لانهاية له ومتفرد في الكمال وبيده المعاقبة على الجرائم والسيئات ويثيب اولي الفضائل لانه وحده عين القداسة ويفوق العلة الاولى وانه المحرك الاول الذي كان يعرفه الفلاسفة ولا يعبدونه وقد ذهب بعض الى خلاف ذلك وهو انه مثل لنا الهًا اوجد مادة سرمدية تقوم بذاتها مثله وصنعها كالصانع الحقير المقتصر بصنيعه من المادة وكيفياتها التي لم يصنعها دون ان يدرك ان كانت المادة قائمة بذاتها لايمكن لها ان تترصد كمالها من الخارج وان يكن الله غير متناه وكاملًا لم يتعسر عليه صنع ما شاء لنفسه ولارادته الفائقة سموًا وقدرةً فان موسى اله اباءنا كتب عجائبه بانه نظم العالم بل صنعهُ بكماله من مادته وصورته وانهُ قبل ان ابرز الوجود من العدم لم يكن سواه فتقرر لنا انه صانع كل شيء بكلمته ولافرق في ذلك ان كان قد صنع كل شيء بحكمته اوانه صنعه بدون تعسف فانه لم يلتجىء في ابراز كل ما صنع الأ الى التصريح بكلمة واحدة وهي ارادته

اما الاننا فيما اننا عكفنا على استقراء تاريخ التكوين نقول ان موسى انبأنا ان هذا الفاطر القدير الذي لم يكلفه صنع المبروءات شيئًا شاء ان يصنعها مرارًا متعاقبة في ستة ايام ليشعرنا انه لم يصنعها كرهًا او بحجة عمياء كما وهم بعض الفلاسفة . ان الشمس تشرق فتلقي على الارض اشعتها فجأةً دون ان تستمسك ذاتها لكننا الله جلَّ جلالة الذي يفعل كل شيء

الى ما ينبئنا عنهُ بشان تكوين الانسان . فان الله فطر كل شيءٍ بامرهِ وسلطانه قائلاً فليكن النور فكان النور وليكن جلدٌ في وسط المياه ولتلتئم المياه الى محل واحد وليبدُ اليبس وليكن نيّرات عظيمة تفصل بين النهار والليل ولتفض المياه خشاشاً واسماكاً ولتخرج الارض حيوانات بحسب اصنافها بيدَ انهُ لما وصل الى برءِ الانسان غير منهج نطقهِ فان موسى انبأنا انهُ قال حينئذٍ فلنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا وبلا ريب ان هذا الكلام يباين ما تفوه بهِ قبلاً . فان كلامهُ الانف يدل على السلطة المطلقة وينجم منه ان ما خلق قبل ان فطر الانسان لم يسعهُ عليهِ احدٌ لكنه استرق كلامهُ عند خلقهِ للانسان فكأنه استشار نفسهُ بشان ذلك الصنيع ليشعرنا بان ما هو مزمع على برئهِ يفوق كل ما برأهُ الى ذاك الحين اهمية واستلفاتاً . فقوله لنصنع الانسان يدل على ان الله كان يناجي نفسه ومن يصنع مثله ويناجي الذي خلق الانسان على صورتهِ ويناجي من هُوَ هُوَ ومن نشأ كل شيءٍ بهِ وهو الذي قال في انجيله إن كل ما يصنعهُ الاب يصنعهُ الابن ايضاً (١) وفي غضون ما كان يتكلم مع الابن كان يناجي الروح القدس السامي المقدرة المساوي لهما في الجوهر والازلية

ولم يعلم من الكتاب المقدس ان احداً تكلم عن نفسهِ بصيغة الجمع سوى الله تعالت قدرتهُ حيث يقول . لنصنع . وانهُ جل جلالهُ لم ينهج على ذلك النمط سوى مرتين في الكتاب المقدس او ثلاثٍ ولم يبدُ ذلك التعبير منه الاَّ لدى مباشرته برُوء الانسان واذا ما غير الله منهج كلامه بنمط من تصرفهِ فذلك ليس دليلاً على انهُ يتغير في ذاته بل يود ان يشعرنا انهُ عازمٌ على ان يبرز في الاشياء نظاماً مختلفاً حسب آرائهِ السرمدية وبناء على ذلك فان الانسان المترفع فوق سائر المبروَّات التي انبأنا عنها موسى الكليم برز الى الوجود بامرٍ يبعث على الدهشة والحيرة. فان الثالوث طفق يبدو لما كوّنت الخلائق الناطقة التي قواها العقلية في صورة غير كاملة للافعال الازلية ومن ذلك يتبين ان الله مخصابٌ في ذاتهِ

اما الاستشارة التي احتفل بها الله فتدل على ان البريّة التي عنى برءها متفردة في ان تبرز افعالاً باختيارٍ وعقلٍ ولا ريب في ان ما خلق عدا الانسان يذهل العقول

....

(١) يوحنا ص ٥ : ١٩

بالرصانة والحزم والحرية المطلقة يستعمل قوته حسب ما يشا ومقدار ما يشا وكما انه لما صنع العالم بحكمته ابدى انه خالقه دون تعب لا يحول دون صنيعه مانع ولما خالقه في مرارٍ متوالية ابدى انه سلطان المادة وعلتها ومشروعها وان لا قاعدة لصنيعهِ الاَّ ارادته المستقيمة بذاتها يلوح لنا من نفس علاوة ان كل شيءٍ لا ينشأ الاَّ بهِ وان الفلاسفة الذين خالوا ان الارض التي يخامرها الماء وتضافرها حرارة الشمس بدت بذاتها وانمت بواسطة غضاريها النبات والحيوان زاغوا عن سراط الحق وركبوا متن الشطط والغثور .

وقد ابان لنا الكتاب المقدس ان العناصر لولم يهبها الله قوة النشأة بصيغة امرهِ لكانت عقيمة فلو لم يكن الله الذي اعدَّ المادة انفاً قد كوّن النبات والحيوان بارادته الكلية القدرة ولو لم يفيض لهما البذور اللازمة لتكاثرا في الاجيال طراً لما وجدا في الارض والماءَ والهواء .

فيا لعمري ان من يرى النبات ينمو بحرارة الشمس ويولد نباتاً تاخذ الريبة في مكونه مع ان الكتاب المقدس يعلن لنا ان الارض كانت ملتحفة بالكلا وصنوف النبات قبل ان تنشأ الشمس فذلك يبعث على الاعتقاد بان الله متفردٌ بابداع كل شيءٍ من العدم الى الوجدان .

وقد شاءَ ذلك الصانع الجليل ان يبدع النور قبل ان يحصره في الشمس والكواكب لانهُ اراد ان يشعرنا ان النيرين اللذين ادبت لهما العبادة لم تكن لهما في ذاتهما مادة ثمينة وساطعة يتركبان منها ولا شكل عجيب حصراً فيما بعدُ فيهِ .

ثم ان نبأ التكوين الذي نقله موسى الينا يزحزحُ لنا الغشاءَ عن سر الفلسفة الحقة وذلك ان في الله وحدة الابناء والقدرة المطلقة وانهُ وحده لسعيد وحكيم وكلي القدرة وكفوءٌ لنفسهِ يفعل اختيارياً كما انهُ يفعل دون احتياجٍ وان المادة لا تلجئه الى الصنيع ولا تبدي لديهِ اتباءاً كما بل يصنع بها بمطلق ارادتهِ لانهُ هو الذي منحها بارادته جوهر الوجود

وبما انهُ متولٍ عليها يقيمها ويصنعها ويديرها ويحركها دون عناءٍ وصعوبة ولا شيء الاَّ يتعلق بهِ وان كانت الاشياء متعلقة ببعضها كتلقيح النبات ونموه المتوقف على حرارة الشمس فما ذلك الاَّ لان هذا الاله البارىء الخليقة اراد ان يوثق بعضها بالبعض فتبدو حكمته بهذا التسلسل الغريب

وان ما يخبرنا عنه الكتاب المقدس بشان تكوين العالم ليس امراً مذكوراً بالنسبة

وبجبر الفكر . ولم نقف في سفر التكوين الى الان على ان بدَ الرب مست المادة الزائلة غيرَ انه لما شاء برء الانسان اخذ بيده ترابًا امسى في ما بعدُ ذا هيئة تنزَّهت عمَّا بدا فيما مضى قبلها . فللانسان قوامٌ قويم وهامةٌ رفيعة وعينانِ لهما وجهةٌ الى العلاء فهذا التكوين يدله على اصله وعلى المحل الذي هو مندوبٌ ان يناوحهُ بباصرتيه . فالعناية التي ابرزها الله لدى برئهِ الانسان تشعر بان فيه اهتمامًا خاصًا بهِ وان تكن سائر المبروَّات سواه برزت الى عالم الكون فجأة بفرط حصافته وحكمته السامية . واما ابداعة النفس فمن الشوءون التي تورث الفواد عجبًا انهُ لم يبدعها من المادة بل نفخ في انف الانسان نسمة حيوةٍ . ولما خلق نوع الحيوان قال فلتنض المياه اساكًا فبرزت حيتان البحار وكل ذي نفس حيَّةٍ متحركة مزمعةٍ على ان تعم اللجج وكل الحيوانات التي تدب على بساط الارض والطائفة الزحَّافة (١) فعلى ذلك المنوال كان تكوين الارواح الحيَّة ذوات الحيوة الوحشية والبهيميَّة التي لم يمن الله عليها بسوى الحركة التابعة لاجسامها وابرزها الى الوجود من الارض والمياه . اما النفس المزمعة ان تكون كمثال حياتهِ وتحيي مثله بالعقل والادراك وتتحد معهُ بتأملها فيه وتوقانها اليهِ فقد كونها الله كمثالهِ ولم يمكن للمادة ان تكون علة تكوينها وان الله الذي انشأ المادة لا يعسر عليه ان يبرز منها جسمًا عظيمًا لكنه وان احكم صنعهُ وقلَّبه يتعسر عليه ان يجعلهُ مماثلاً لصورتهِ مع ان النفس المشرقة على ان تتخطى غارب السعادة بامتلاكها ربها آل بها الامران تكون تكوينًا جديدًا غريبًا وذلك انها تاتي من العلاء وابد ذلك نسمة الحيوة التي نفخها من فيه مبدع الكائنات .

ولتتذكرنَّ ان موسى غرض على ذوي الجثمان حقائق روحانية بصور حسية ولا تخالنَّ ان نفخة الله في فم الانسان كالنفخات الحيوانية ولاتتوهمنَّ ان نفوسنا نسمات عليلة او ابخرة نحيلة لان النفخة التي ينفخها الله والتي هي حاوية في ذاتها صورة الله ليست هواء ولا بخارًا ولا نظن ايضًا ان نفوسنا هي جزءٌ من الطبع الالهي كما وهم بعض الفلاسفة لان الله ليس بكلٍّ معرض للتجزئة فلو كان لله اجزاء لما كانت صنعت فان الخالق لا يكون مخلوقًا ولذلك لا يتركب من اشياء مخلوقة . والحال ان النفس مخلوقة وليس فيها شيءٌ من الطبع الالهي . وانها مبروءة على صورة الله كمثالهِ فنقضي عليها بان تستمر متحدة مع صانعها وتتخذ

(١) سفرتك ١ : ٢٠ و٢٤

لمصداق ذلك دليلاً من النفخ الالهي الذي يبدو لدينا بهِ النفس الحية . فما قد تكوَّن الرجل وكوَّن الله منهُ زوجًا زفّت بارادة الله اليهِ وامسى البشر كافة يتناسلون من محتدٍ واحدٍ حتى اصبحوا كانهم عائلة واحدة وان كانوا يتشعثون في الارضين ويتكاثرون . وبعد ان برأ الله آدم ابانا وحواء امنا اقامها في روضة غنَّاء يقال لها الفردوس . واقتضى لله اذ ذاك ان يجعل صورته سعيدة

واوجب على الانسان وصية تشعرُ بان له ربًا فكان ما اوصيَ بهِ متعلقًا باشياء حسية لانهُ لم يكن حينئذٍ عاريًا من الحواس . ولم تكن تلك الوصية عسرة عليهِ لان الله اراد ان يجعل له الحيوة هنيئة ما دام عائشًا في البر والتقى فازورَّ الانسان عن القيام بحق تلك الوصية واصاخ لمنطوق المجرب المختال تابعًا ما اوعز بهِ اليهِ نابذًا وراء ظهرهِ قول ربهِ فاشرف حينئذٍ على ان يهوي الى دركات الهلاك ولاغروَ ان الله خلق اولاً الملائكة ارواحًا بسيطة منفصلة عن المادة وجعلهم في حالة القداسة . اما هولاء الملائكة فقد كان يقتضي ان يقدموا نفوسهم لخالقهم اختياريًا رجاء ان يستمروا على السعادة بيدَ ان كل ما خرج من العدم لا يكون كاملاً ولذلك قد استولى الحب الذاتي على قلوب بعضهم . فويلٌ لمخلوقٍ يعجب بنفسهِ لا بخالقهِ فان ذلك الاعجاب يكون له ذريعةً لان يفقد كل ما منحه خالقه العظيم ولا ريب ان الجريرة عظيمة المفعول . وبناء عليه اصبحت تلك الارواح النيرة ارواحًا حالكة وان ذلك النور الذي كان فيها اصبح كله مكرًا وخداعًا وتجنبت قلوب الملائكة من الشر بدلاً من المحبة وتحولت تلك العظمة فيهم الى كبرياء وصلف وسعادتهم الى السلوان الشجي بان يروا لهم شركاء في تعاستهم واصبح طغيانهم لابناء البشر وبهافتهم على تجربتهم من الامور التي يرونها سعيدة جدًا . وان من كان بينهم يفوق الجميع كالاً اضحى شديد الخنزوانة مستكبرًا ولذلك غدا انعمهم اجمع واشرهم . واما الانسان الذي نقصهُ عن الملائكة قليلاً فلما احرزهُ في جسمانهِ اصبح موضوع حسد الروح الشرير فازمع الملاك الشرير على ان يحمله على التمرد والعصيان رجاء ان يشركه في ورطة هلاكهِ . ولقد كان الخلائق الروحانية ما هو لله من الوسائل اللازمة الحسية للداخلة في امر الانسان الذي ليس بينها وبينهُ من المشابهة في الجوهر بونٌ عظيم فبناء على ذلك اصبحت الارواح الشريرة التي استخدمها باريء الكيان لتخبر امانة الانسان ملازمةً لها تلك الوسيلة قصد المداخلة في الفطرة الانسانية وقد كانت

عديمة السلطة على الخلائق الجسدية فعكف الشيطان الخناس على تلك الوسيلة وخادع ابوينا فاهبطها من العزة الى الفرة فسمح له العليُّ بان يلجُ جوف الثعبان لان الثعبان حريٌّ بان يمثل خبث تلك الروح الشريرة ولم يكن وسيلةً لان يقشعرّ منها ابوانا لان الحيوان طرًّا بدا امام مقلتي آدم في بادىء الامر قصد أن ان يعين لها اسماء لكلٍّ حسب نوعه ولتوءدي الرضوخ لذلك الملك العظيم الذي مازهُ ربهُ بالرفعة عنها واقامهُ عليها سيدًا ولذلك لم تكن الرعدة تستولي على فؤاده لانهُ طالما كان على تلك الحال لم يمكن لحيوانٍ ان يبادهه بادنى مضرةٍ

اما الان فلا يذهب عنا ان نعرف ما ناجاهُ بهِ الشيطان الختول وما اتاهُ بهِ من الخبث والرياء . ولما كانت الانثى منفطرة على الضعة والوهن اخذ يناجي حواءَ وكان في اثناء مكالمتهِ اياها يكالم بعلها قائلاً لكليهما علامَ صدكما الله من ان تلتهما هاتي الثمرة الناضرة فان كان براً كما ناطقين فليس من العدل ان تخفى عليكما من علل الكائنات خافية واني لاوقن ان هذه الثمرة لايخامرها سمٌّ زعاق وليست نفساكما تزهقانِ لدن اكلها فالتهاها تخجل لديكما الغوامض فنشدًا عليه في بادىء الامر نكيرًا ثم طعنا في كبد الرضوخ سهام الريبة فاعاد عليها الحديث قائلاً كلا الثمرة تزايلا نطاق العبودية وينفح لكما جدُّ الحرية وتمسيا الهةً تستأثران السوءدد والسعادة وتمح عليكما ميازيب الحصافة والحكمة . وتعلما الخير والشر اي لا يتوارى عنكما من الامور شيءٌ فبذلك يطلق العنان يقاوم اوامر الخالق ويدوس القوانين فرنت حواء الى الثمرة واستطابتها وجذبتها اليها الشهوة النفسية . ولما كانت عالمة ان الله قد احرز في الانسان النفس والجسد فكرت ان يكون قد اناط بالنبات قوى خارقة واحرز في المحسوسات هباتٍ عقلية فاخذت من ذلك الثمر واكلت وقدمت من ذلك لبعلها فاصبح عرضةً لكل خطرٍ جسيم فان التموزج والملاطفة يضعفان التجربة ولهذا اذعن لمآرب الطاغي فعمي عليهِ أمرهُ واستولت عليه الكبرياء والصلف والملذة الباطنية فكل ذلك بعثهُ على ما فعل ولم يكن الّا لينقاد لمرضاة شهوته وغرَّهُ نضارة الثمر فانقلب عبدًا للحواس بعد ان كان سيدًا

فعيذ ذلك انقلبت لديه المناظر واصبحت الارض غير بهجة عنهُ كما كان يراها اولاً اذ لم يكن يتلقف منها شيئًا الّا بعد مقاساة العناء والمتاعب ولم يعد يرى السماء صافية نافية . واما نوع الحيوان طرًّا الذي كان علة ارتياحهِ ونزهتهِ فقد بدا لديه هائلاً

مرعبًا وبعد ان كان صنع العليُّ كل شيءٍ لامرهِ وسعادتهِ احالهُ لتعنيتهِ والتبريح بهِ واصبح ذلك الرجل يطرح نفسه تحت اوقار العذاب بعد ان كان كل شيءٍ بودهِ فثارت حواسهُ ثورةً ايقظت فكرهُ وارتهُ في نفسه اشياء تبعث على الخجل . واستحالت هيئتهُ الاولى التي برأهُ بها ربهُ الى هيئة حملته على ان يجهد النفس باخفائها واصبح منغمسًا في غمرة التثريب والحياء وكان يود لو يكون متواريًا مستورًا وشتت عليهِ روءية خالقه جدًا لان الله ذا الحول والطول الذي براهُ على مثالهِ ومنحهُ حواس تسعد عقلهُ وبدا امامهُ بهيئة محسوسة امسى الانسان لا يطيق مرآه ولا الدنو منه بل كان يتمنى ان يتبطن في وهاد المفاوز رجاء ان يباين وجه من كان موضوع سعادتهِ وجذله واخذ من ثم ضميرهُ يونبهُ قبل ان ناجاهُ العليُّ واتى بعذرٍ قضى عليه بالخزي والعار واصبح هدفًا لسهام الردى . ونزع منهُ إساءه الهلاك واصبح موت نفسه الامارة رمزًا الى موت جسدهِ الواهن وبناء عليه فقد قضي علينا بقضائه فان الله الذي كان في عزمه ان يثيب كل اخلافه فقد عاقبهم بجريرته بعد عتوه وعصيانه ورشقنا طرًّا من بعدهِ بسهام الانتقام ولذلك اصبحت ولادتنا مبنية من اصلها على الفساد . وليس من شاننا الان ان نبحث عن عدل الاله بقضائه على الفطرة الانسانية بل لايحولنَّ دون عبادتنا احكامه حائل ولعمري هل يمكن لنا ان نعتبر البشر كافة مرذولين كابينا آدم فذلك لا يتيه عن معرفته احدٌ بل انهم سقطوا من عليين سقوطًا ابديًا وحرموا الجنة حيث كانت لذة ابينا

اما نظام العدل الانساني فيترتب عليه اسعادنا على ادراك كنه العدل الالهي وما ذلك الّا لانه رمزٌ اليه غيرانه يتعسر عليه ابانة عمق هذه الدركات . ومن المقرر لدينا ان العدل الالهي ورحمته لايقاسان بالعدل الانساني ورحمته بل لكلٍّ عواقب اكثر سعةً وتخصيصًا

وفي اثناء اعانات الله عبادهُ وايساعهم ارهابًا ووعيدًا يثني اعطافهم الى موضوع آخراعزلديهم وهورجاءٌ في النجاة اعدهُ الباريء لبريتهِ منذ سقوطهم فان الله ابان لامنا حواءَ في انسياب الثعبان المزور المضاهي لخداع الروح الختول اخلاق عدونا المقوتة وما أعدَّ له من كبير العقاب ولذلك اصبح الثعبان مرشوقًا بنبال القلى والبغضاء اكثر من اصناف الحيوان اجمع والشيطان ملعونًا اكثر من الخلائق قاطبةً وكما ان الثعبان يستمرُّ منسابًا على بطنهِ فيستمر الشيطان اسفل بعد هبوطه من صهوات العلاء وقبل في

الكتاب المقدس ان الثعبان يقتات ترابًا وليس ذلك الاّ رمزًا الى الافكار الدنسة التي يبعثنا عليها الشيطان ولا ريب في انه نفسه لايفكر الاّ باشياء دنسة لان افكاره كلها اثام وجرائم . وان البغضاء بين الشيطان والنوع الانساني تشعرنا باننا نكون عليه ظافرين بزرع مبارك بان يدوس راسهُ اعني يقمع كبرياءهُ ويلاشي مصالهُ عن وجه البسيطة

وما ذلك الزرع المبارك الاّ يسوع المسيح ابن مريم البكر ومن المعلوم ان خطيئة آدم الاصلية الحقت بنسلهِ اجمع الاّ يسوع المسيح لانه ولد انسانًا بنوع الهي وهو انه لم يحبل به من الانسان بل من الروح القدس وبناء عليه فانه بواسطة الزرع الالهي او بواسطة المرأة التي حل في احشائها حسب تعبير هذه الاية المتبابنة يحف الهلاك الانساني وينتزع السلطان من الشيطان مالك العالم لكونه ليس له شيء في يسوع المسيح (١) اما الجنس البشري فقبل ان يمن الله عليه بذلك الفادي العظيم فقد انبأه الاختبار المستطيل انه مفتقر الى المضافرة والاعانة . فترتب عليه امر نجاته وفسدت طباع الانسان وغالى في الرذائل والقبائح وامتلأت الارض آثامًا وجرائر . فعند ذلك فكر الله في ان ينتقم منه بامر يخلد ذكره بين البشر كافةً فاجرى عليه ميازيب الطوفان عرمرمًا فذهب صيت ذلك ما بين نوع الانسان قاطبةً ولم يزل الى الان تلهج بذكره الامم وما بعث الله عليه من الانتقام . فلا يخالنَّ الانسان اذ ذاك ان العالم يسير من تلقاء نفسه وان كل ما كان يبقى على ما كان بل ان الله الذي برأ كل شيء والذي لايكون كلُّ شيءٍ الاّ قائمًا بأمرهِ ازمع على ان يغرق نوع الحيوان والانسان وان في نفسه ان يلاشي احسن جزء من صنعهِ .

ولم يكن محتاجًا الاّ الى قدرته بان يزيل ما صنعهُ بمنت شنة لكنهُ رأى ان من اجلِّ شأنه ان يستقدم خلائقه ذريعةً لانتقامهِ فدعا المياه تنتقم من الارض المغشاة بالذنوب . بيد انه رأى ما بين اولائك رجلًا صدوقًا يستحق النجاة فان الله قبل ان رعاه من طوفان الماء كان قد رعاهُ بنعمته من طوفان الخطيئة ورعى عائلته اجمع لتعمر الارض ثانيةً حيث انها امست ان تكون خاويةً وانه بوساطة هذا الرجل الصدوق حفظ الله نوع الحيوان لكي يعرف الانسان انها صنعت لاجلهِ رجاءَ ان يستخدمها تمجيدًا للرب خالقهِ . ولقد صنع

(١) يوحنا ص ١٤ : ٣٠

شيئًا اعظم من ذلك وهو انه اسف جدًا على اجراء عدلهِ الصارم بعقابهِ للانسان الاثيم بان لايبعث اليه مرة اخرى بطوفان غامرٍ وابرم معهُ ومع سائر الطيور والبهائم (١) عهدًا تدلُّ عليه قوسٌ نصبها في الرقيع فوق الارض وما ذلك الاّ ليشعر بان عنايتهُ تمتدُّ فوق كل ذي حيوة فبدت تلك القوس مشكلة الالوان تخبرها ان تكون في غمامٍ رقيقٍ يحمل ندىً لطيفًا غيرَ متخبرٍ ان تكون في غمامٍ لبدٍ يحمل مطرًا سحاحًا . وذلك دليلٌ على ان الامطار التي تسيل من ميازيب الغمام لاينشأ منها فيما بعد طوفانٌ جارفٌ . ومنذ ذاك الحين اخذت القوس تبدو في المشاهد السماوية كانها زينة العرش الالهي حاملةً آثار رحمتهِ الصمدية . ومن ثمَّ عاد العالم الى نشأتهِ الاولى وبرزت الارض من غمرة المياه ومع ذلك فقد بقي لانتقام الله على ابن الطينة اثارٌ ليست بزائلة فان الطبيعة كانت منذ البدء الى الطوفان شديدةً قوية لكنما الارض بعد ان اماهت عليها السماء وطال مكث المياه عليها ذهبت عنها النضارة وفسدت ماويها وتناقلت الاهوآء الرّطابة وكثر الفساد واخذت آجال الاناس تتقلص فان الاعمار الانسانية كانت في ذلك الحين تصل الى الف حول فاعتراها من ثمَّ التناقص رويدًا رويدًا من لدن العليّ وزايلت الاكلاء والثمار تلك القوى الاصلية واقتضى ان يقتات الانسان بعد ذلك من لحمان الحيوان وبناء على ذلك اخذت الآثار الاولية تصبح عافية الرسم رويدًا رويدًا وقد كان ذلك التغيير الطبيعي دليلًا يبعث الانسان على ان يشعر بان الله تغير عليه بالغيظ والانتقام اذ تعاظمت آثامهُ وجرائمه . ولقد جاء في تاريخ شعب الله ان حيوة بني الانسان لم تكن في الابتداء غير مأثورة لدى الشعوب بل ان تقاليدهم القديمة قد ابقت لها في بطن التاريخ ذكرًا خالدًا وكان الموت الذي يباده الفطرة الانسانية يستلفتهم الى ما يلمُّ بهم من الانتقام السريع ولما كانوا يستمرون كل يومٍ متسكعين في مهاوي الآثام آل الامر ان تعنيهم العذابات المبرحة . ولا ريب في ان تغيير اقتياتهم الحالي كان يشعرهم بانهم اصبحوا في حالة بؤسى فان قواهم امست واهنة جدًا وكبوا في الوقت نفسهِ على النهامة واهراق الدماء . وقبل الطوفان كان الغذاء الذي يغتذي به الاناس كآثار حياتهم الساذجة واخلاقهم الرضية ثمار الارضين تتساقط لديهم من تلقاء ذاتها . اما الان فلا يطيب لنا الغذاء الاّ بان نهريق الدماء قسرًا

(١) تكوين ص ٩: ٩ و ١٠

عما باخذنا لذلك من الهول والدهش وان الوسائط التي نقوم بها قصد تغشية خوان الطعام تكاد لاتكفي ان تواري عنا الجثث التي ارقنا دمها في سبيل اقتياتنا . وما ذلك الا جزء ما يلم بنا من الكوارث فان الحيوة التي تقلصت بعد ان كانت مدينة بادهنها المظالم والجور بالنقص فان الانسان بعد ان كان في بادىء الامر بوفر حيوة الحيوان فقد اغرته العادة بان يسفك دماء ابن طينته وان ما اوصاه به الله ان لا ياكل لحم الحيوان بدمه وان لا يريق دماء اولاد جبلته ذهب ادراج الرياح ولم يقم الانسان بحق رعايته ولم يوحه الله بذلك الا ليبقي له من اخلاقه الاولية اثرا رضيا . ومع ذلك فان القتل زاد وفشا وان يكن قاين حرج صدره على اخيه هابيل قبل الطوفان فاجرى دمه على الارض صبيبا ولامك من اخلاف قاين هو ثاني من اجترأ على ان يريق مثله الدماء ويمكن لنا ان نفترض ان غيرها قد اقتفى اثرها السيء فان الحرب كانت وقتئذ في عدم بحت لا يتهافت على احرابها العالمون . فنشأ بعد الطوفان فقط جبابرة يعثون في البلاد ويخترقون الدساكر يدعون فاتحين فهولاء اغرام الهيام بسمو السودد والمجد بان يناصبوا الابرار ويبيدوا منهم عددا كبيرا فنشا من اخلاف حام المخزى من ابيه (١) رجل ملعون يقال له نمرود سولت له النفس الامارة على ان يشيد له مملكة فغالوا من ذاك الحين في الترهات واخذت المطامع النفسية تلعب بالحيوة البشرية لا تثنيهم عن المفاسد شكيمة فطفقوا يتقاتلون ويتساورون بغيا وعمدا واصبح من اعز الفنون واسماها ان يتفانوا ويجعلوا هياكل الاجسام عظاما رميما . وبعد ان مضى على الطوفان نحو من مائة سنة سخط الله على بني الانسان وضربهم ببلية كبرى هي بلبلة الالسن ولو لبثت اللغة التي علمها آدم لاولاده وتداولتها السنة الاقدمين عامة بعد ان تشعث اولاد نوح وهاموا على وجوههم في شواسع الارض لكانت وثاقا متينا ترتبط به الالفة الاجتماعية بيد انها قد اعتراها الاضمحلال وعبثت بها ايدي الملاشاة لدن اقامة البرج في بابل ولا فرق في ذلك ان كان اولاد ادم الجاحدون لم يثقوا بمواعيد الرب التي يعني منها ان الطوفان لن يغرهم مرة اخرى فاخذوا يبنون لهم لجأ شامخا يلوذون به وقت النازلة محتصنين او انهم قصدوا ان يخلدوا لهم ذكرا ببنائه قبل ان تلعب بهم ايدي سبا متشعثين

---

(١) سفر التكوين ص ١٠ : ٩ .

وذلك ما يدل عليه سفر التكوين فاحبط العلي سعيهم بان صدفهم عن تشييد ذلك البرج الباذخ آملين ان تنطح شرفته روق الغمام فاوقع بينهم الشقاق والاضطراب ضاربا بينهم وبين لغتهم السجاف الاولى المستور فتناست عندهم ومن ثم اخذوا يجتزئون الى امم وقبائل واخذت تتنوع بينهم اللغات ودل على الوسوسة التي تعنى من البلبلة برج بابل الدال على الاضطراب وليس ذلك الا كانتقام خالد من الفطرة الانسانية على ان الكبرياء هي مصدر الانقسام والبلبلة بين البشر . فذلك ما كان بدء العالم كما يستفاد من تاريخ موسى فكان ذلك الابتداء في بادىء الامر سعيدا ثم تشوه بالمشاق والكوارث الخارقة . فان استلفتنا الانظار الى كيفية برئه بالنظر الى بارئه التدبير نراه عجيبا غريبا وهذا البدء يستمر كما نعلمه عند التبصر فيه معتبرين ان الجنس البشري لا يزال في قبضة الخالق الذي انشأه من العدم المحض بمجرد كلمته ورعاه بصلاحه وساسه بحكمته وعاقبه بقسطاس عدله وانقذه برحمته وهو لم يزل راضخا لسلطانه . وليس العالم كما زعم بعض الفلاسفة انه موءلف من كتل تلاقت بعضها على سبيل الاتفاق وليس كما زعم بعض من هم احصف منهم وهو ان المادة كانت منذ الازل فتلقفها خالق الكون فاصبح حينئذ امر كيان الكون لا يتعلق بالخالق نظرا لجوهر الوجود او نظرا للحال الاولى لكنه قيد لها نواميس ليس بوسعه ان يناقضها .

لكن موسى والاباء الاقدمين الذين روى لنا عنهم النبأ الاكيد يثبتون لنا بذلك آراء سديدة وهي ان الاله الذي يستلفتنا اليه الكلام قابض على سلطان اخر عظيم وفي وسعه ان يبرم وينقض مثلما يشاء ويقيض للطبيعة نواميس يفوضها متى اراد . ولما نساه اكثر بني الانسان اراد ان يبدو لديهم فاخذ من ثم يبدي الاعاجيب المرهبة فالجأ الطبيعة الى ان تزايل نواميسها الثابتة ولدن ذلك طفق يبين انه هو السلطان المطلق الذي بيده وحده ان يحفظ وثاق النظام في العالم .

ولا ريب في ان بني الانسان نسوا خالقهم لان ثبات ذلك النظام العظيم لم يكن صالحا الا ليقنعهم انه خالد من تلقاء ذاته وذلك ما حملهم على ان يعبدوا العالم طرا او النجوم والعناصر او كل الاجرام التي يتالف منها . فلما اراد الله ان في بعض ظروف مهمة تنقض ذلك النظام ابدى جودة عظمى فلم يكونوا اذ ذاك يتعجبون او يندهشون من ذاك النظام لانهم كانوا قد الفوه بل انه كان يبعثهم على ان يتوهموا لكثرة غرتهم وعمه

وقتئذٍ كانة مبتلٌ بماء الطوفان ترَ عجيبًا . ولاسيا لما كان بنو الانسان القريبين بهذا المقدار من بداءة الامور لا يفتقرون الى معرفه وحة الله وما يفرض عليهم من القيام بخدمته ليعرفوا التقاليد التي حفظت منذ آدم ونوح الى ذاك الوقت الذي هو وشيكٌ من الاصل جدًا . وفضلاً عن ذلك فقد كان ذلك التقليد من الامور التي لا يقيم عليها العقل تكبرًا بنوع ان تلك الحقيقة البينة لم تكن على شرف التناسي بين البشر ولبث حال الدين على ذلك المنوال الى عهد ابراهيم اذ لم يكن بنو الانسان مفتقرين الى معرفة الرب الآبان تدلهم على ذلك عقولهم وذاكرتهم بيدَ ان العقل كان ضعيفًا يعروه فسادٌ واختلال . وكلما كان البشر يتقاصون عن الاشياء الاولية كانت تتوسوس تصوراتهم التي تلقفوها من آبائهم فعقَّ الاولاد متمردين وتمزَّق عنهم شعار الاداب وابوا ان يذعنوا لكلام اجدادهم المعمرين اعوامًا ولكثرة مغالاتهم بعد كل هذه الاجيال في تلك الاخلاق الخشنة اوشكوا ان لا يعرفوهم . واصبح الجنس البشري منحطًا عن المدارك العقلية يخبط في مهامه الخشونة والهمجية وازمع على ان لا يعبد الا ما تستقر عليه حاسة البصر ولذلك فشت عبادة الاوثان في اقاصي الارض

واما الروح الشرير الذي أطغى الانسان الاول فكان يجني ثمرة خداعهِ ويشاهد غوائل كلامهِ لما قال لادم وحواء انكما تصيران من الالهة ومن حين تفوه بذاك الحديث معها فكر في نفسه انه سيدب التهويش والاضطراب في فواد الانسان ويجعله يمزج تصوّره بالله بتصوره بمخلوقاته عازمًا على ان يجتزيء اسمه القدوس الذي هو محصور في عزته الالهية فركب بذلك متن الفلاح ولبث البشر اللحمانيون الدمويون يتصورون في الله تصورًا مبهمًا وهذا التصور ثبت بقوته الخاصة . بيدَ انه لما امتزج بالتصورات المتاتية من المشاعر عكف البشر على ان يعبدوا كل ما فيه قدرة وقوة ولذلك اصبحت الشمس والنجوم التي تظهر قوتها عن بعد والنار والعناصر التي مفاعيلها عامة من الامور الاولى التي تحق لها العبادة العامة من البشر كافة ثم الملوك العظام والجبابرة الفاتحون الذين كانوا اصحاب جرأة وصولة . ثم الذين اخترعوا اشياء مهمة للطائفة البشرية امسوا من الذين أُديت لهم الكرامة الالهية وعوقب البشر بخضوعهم لحواسهم وامست تلك الحواس فيصل حقٍّ في كل الامور ولم يمكن للعقل ان يصدها عن صنع الالهة التي أُديت عبادتها في جميع الارض

بصائرهم ان الابدية والاستقلال خارجان عن الله

وتاريخ شعب الله المثبت بتسلسله وبصلاح اولائك الذين كتبوه او باستقامة اولائك الذين رعوه من الغائلة باعتناء عظيم يذكر تلك العجائب صريحًا ويبدي لنا سلطان الخالق المطلق على كل مخلوقاته سواء كان قد اخضعها لنواميس الطبيعة او بوءهلها لان تكون مهيأَة للرضوخ لنواميس غيرها اذا آل الامر ان ينذر عبادهُ التائهين في الضلالة باعمالٍ غريبة

فذلك هو الاله الذي ينبئنا عنه موسى وهو الاله الفرد الصمد الذي يحق ان يعبد . عبدهُ من قبل موسى الاباء وهو اله ابراهيم واسحق ويعقوب فشاء ابونا ابراهيم ان يقدم له ابنه الوحيد قربانًا وكان ملكيصادق المرموز به الى المسيح كاهنًا له وقدم له نوح لدن خروجه من السفينة محرقاتٍ واعترف به هابيل الصدوق اذ قدم له اعزَّ شيء لديه وخلف الله على آدم بعد هابيل بشيت واظهر آدم عينة لبنيهِ انهُ اخرجه من بين يديهِ وانهُ هو وحده الذي يرفع عن عواتق ذريتهِ اثقال المشاق المبرّحة

فيا لله من فلسفةٍ عظمى تبعثنا على ان نقف على علة وجودنا ويالهُ من تقليد عظيم يرعى لنا ذكر هذه الصنائع العجيبة ويالهُ من شعبٍ ذي برٍّ وقداسةٍ هو شعب الله الذي يتسلسل تسلسلاً غير منفصل من بدء العالم الى ايامنا هذه ويحفظ دائمًا هذا التقليد وهذه الفلسفة المقدسة

الفصل الثاني

في الكلام عن ابراهيم والآباء

سيدي . لا يخفى عليك ان شعب الله كان في عهد هذا الاب الصدّيق في رعايةٍ نظامية ولذلك لابدَّ عني ان اضرب عن التبيان عنه لديك فاقول . ان ابراهيم ولد سنة الثلاثمائة والخمسين بعد الطوفان حين كانت حيوة بني الانسان مديدة وان كانت وقتئذٍ قد تقلصت فان نوح استعزَّ به الله في مقربة من لدة ابرهيم وكان ابنه سام في ريقِ حياتهِ فقضى ابراهيم معهُ في لدة الحيوة اعوامًا كثيرة

فياسيدي ان حانت منك التفاتة البصيرة الى ذلك العالم الحديث الذي كان

فلكم بدا الانسان حينئذٍ قاصياً عن وضع نظامهِ الاول ولكم اصبحت فيه صورة الله فاسدة . فليت شعري هل من العدل ان يقال ان الله براهُ في تلك الاميال السيئة التي كانت على وشك الازدياد يوماً بعد يوم وذلك الميل الغريب قد حملهُ على ان يعتاض عن عبادة مولاه الطبيعي بعبادة كل ما تراهُ مقلتاهُ فهل ذلك لا يدل بنوع جليّ على ان يداً غريبة لعبت بعقل الانسان فافسدت كل ما صنع الرب حتى لم يبقَ لذلك الا آثارٌ قليلة فعمه الانسان بصيرة وتاه في ليل الضلالة مغروراً في عبادة الاوثان ولم يكن في ذلك الوقت شيءٌ يصدفه عن ذلك فنما الشر وفشا وكاد يخيم على قاطبة البسيطة . ولما فكر المهيمن المتعال انهُ ان لم يبعث اليه بدواءٍ شافٍ يمتد في الارض طراً وتخفى عن عقول البشر معرفة الله دعا عبده ابراهيم وقيّض لهُ ولعيلتهِ عبادته وامرهُ ان يحافظ على الاعتقاد القديم في تكوين العالم وفي العناية الخاصة التي يسوس بها الرب الامور البشرية . وذهب صيتهُ في اقاصي الشرق ولم يكن العبرانيون وحدهم يتخذونهُ ابًا لهم بل الادوميون ايضاً وقد كانوا يتفاخرون بانهم من اخلافهِ . وقد عرف اسمعيل عند العرب ان اصلٌ لهم واستمرت الختانة عندهم دليلاً على اصلهم ولم يكونوا يختنون في اليوم الثامن من ميلاد الطفل حسب عادة اليهود بل في السنة الثالثة عشرة استناداً على ما علمناهُ من الكتاب المقدس عن اسمعيل ابيهم ولبثت هذه العادة محفوظة عند المحمديين . وشعوبٌ اخرى عربية يتذكرون ابراهيم وامراته قطورة وهولاء هم الشعوب الذين يعزوهم الكتاب المقدس الى هذه النسل وكان ذلك الاب كلدانيٌّ المحتد ونبغ هولاء الشعوب في معرفة الارصاد الفلكية وكانوا يثقون بان ابراهيم لهُ الباع الاطول في فن التنجيم وقد زعم المورخون السوريون انهُ استولى على العرش ملكاً في دمشق وانهُ اتى من انحاء بابل ويثبتون انهُ غادر مملكة دمشق ليسكن بلاد كنعان التي دعيت فيما بعد يهودية . لكنما الاجدر بك ياسيدي ان تثق بما ينقلهُ عنه تاريخ شعب الله وقد اسلفنا ان ابراهيم كان عائشاً عيشة الاقدمين قبل ان اجتزأ العالم الى ممالك وقد كانت لهُ السطوة على اهلهِ الذين كان عائشاً معهم عيشة رعائية مشهورة بالسذاجة والبر وكان مثريًا يملك من المواشي والعبدان والفضة شيئاً كثيراً ولكن لم يملك شيئاً من الاقاليم وفسيح الارض . ومع هذا وان كان في مملكة غريبة فقد كان محترماً ومستاثراً بالوِ عائشاً عيشة الملوك وما ذلك الا لان يد الله كانت تقوم بناصرهِ وتقرب اليه المكرمة من

ناظريه نظراً لما كان عليهِ من طيب السريرة ونزاهة النفس وكان يوافي الملوك الذين يرومون اخاءهُ فشاع من ثمَّ انهُ كان ملكاً . وقد أجج الحرب مراراً قسراً عن سذاجة عيشتهِ وجنوحهِ الى الصلح ولم يحرب الحرب احياناً الاَّ ليدافع عن المظلومين الذين كانوا يواخونه فاخذ بثارهم ظافراً ظفراً عجيباً ووهبهم اموالهم التي انتزعها من اعدائهم ولم يبقِ في يدهِ منها الاَّ العشر الذي قرَّبه لله وقسماً جازى بهِ الذين جاهدوا معهُ في ساحة القتال ومع هذا كلهِ فلم تجز لديه هدايا الملوك قبولاً ولم يتمالك ان يرى احداً يزعم انهُ جعل ابراهيم غنيًا ولم يشا ان يكون مديوناً لغير الله الذي كان يقوم بناصرهِ ولذلك كان يحفظ له في صدرهِ ايماناً حيًا ويودي له رضوخاً تاماً . وما يدل على امانتهِ انه نزح من ارض ابيه لياتي مهاجراً الى الارض التي اعدها له الرب ودعاهُ اليها ولما رآهُ اهلاً لان يبرم معه عهداً عقد معهُ معاهدة موثوقة بشروط واعلن لهُ انهُ سيكون الههُ واله اخلافه اي يستمرُّ قائماً بناصرهم وهم يعبدونه الهاً مفرداً فاطر السموات والارض ووعدهُ بارضٍ هي ارض كنعان لتكون مركزاً للدين وموطناً سرمديًا لهُ ولاخلافهِ طراً . ولم يكن لابراهيم في باديء الامر اولاد لان امراته سارة كانت عاقراً فقسم الله بسرمديته وجوهر ذاته انهُ يمنّ عليه من امراته العاقر بذرية تتكاثر كنجوم السماء ورمال البحر . واهم ما يذكر هو ان كل الشعوب الذين كانوا جانفين عن طريق الحق يعبدون الاوثان اوعز اليه عنهم انهم سيتباركون بهِ وبنسلهِ اي يزدلفون الى معرفة الله التي لا بركة الاَّ بها . فلذلك اصبح ابراهيم ابًا لكل المومنين واختار الله ذريتهُ لتكون مصدراً تنبعث منها البركة المزمعة ان تمتد في اقاصي الارض وهذا الوعد يحوي مجيء المسيح الذي تنبأ عنه اباؤنا بانه يكون مزمعاً ان ياتي من نسلهِ وان يكون منقذاً من لجة الآثام كل عابدي الاوثان وساير شعوب الارض ولهذا اصبح هذا الزرع المبارك الذي وعدت بهِ حواء زرع ابراهيم وابيه . فهذا هو ركن الميعاد وعماده والشروط التي ابرمها الله مع ابراهيم . واقتبل ثمة هذا الميعاد في الختانة التي ينتج منها ان هذا الاب الصالح يناط هو وعائلته بالله . ولما اخذ الرب يبارك ذرية ابراهيم لم يكن لهُ اولاد وغادرهُ الله بدون بنين من الاعوام كثيراً . ومن ثم ولد لهُ ولدٌ دعاهُ اسماعيل وكان موهلاً لان يكون ابًا لشعوبٍ عظيمة غير الشعب المصطفى الذي وعد بهِ العليُّ اباهُ ابراهيم . بل ان هذا الشعب يخرج منه ومن امراتهِ سارة التي كانت عاقراً . وبعد ان تقادمت على ولادة اسماعيل ثلاث عشرة سنة ولد لابراهيم ولدٌ دعاهُ

اسحق اي الضحاك او ابن المشاشة وابن المعجزات والمواعيد . ويتبين من ولادتهِ ان اولاد الله الاحفاء يلدون بالنعمة

ولما ترعرع اسحق وزادت نشأتهُ ورجا ابوهُ ان يرى منه اولاداً امتحن الله مصداق ايمان ابراهيم فامرهُ ان يسرع بهِ الى ذروة جبل عينهُ لهُ كي يذبحهُ ثمة تقدمةً للرب . فرضخ ابراهيم للامر وقاد ابنه الذي وعده بهِ العلي ان المسيح وشعوباً كثيرة تنشأُ منهُ ولما رفع الجارحة فوق نحرهِ واصبح الوليد على وشك الزهوق ناداه العليُّ من العلاء ان ارفع اليد عنهُ محققاً حينئذٍ رضوخ الولد وابيه . ولم يعنهما بعد ذلك بثقل الامتحان واصبحا كرمزٍ الى يسوع المسيح بتقدمتهِ ذبيحة لله وقد ذاقت نفساهما مرارة صليبهِ واستحقا ان يصيرا من اجدادهِ ولما راى الله ان ابراهيم ثابت الامانة انجزلهُ كل مواعيدهِ وبارك عائلتهُ وبها كل امم الارض ولا ريب في ان الله واظب على الدفاع عن اسحق بن ابراهيم وعن حفيدهِ يعقوب وكلاهما تسننا باعمال ابراهيم وتخذاهُ نموذجاً لهما واستمسكا بالاعتقاد القديم والعيشة الرعائية ونظام العالم القديم وهو ان كل ابا عائلة كان يناط بعهدتهِ سياسة عائلتهِ . ولم يكن التقلب الذي كان ينشأُ بين البشر ذريعة لتغيير الاثار القديمة في الدين وسلوك ابراهيم واولادهِ .

وبناءً عليهِ اعاد الرب لاسحاق ويعقوب المواعيد التي وعد بها ابراهيم وزيادة على ان شاء اولاً ان يدعى باله ابراهيم فقد رغب في ان يلقب ايضاً باله اسحق ويعقوب فعاش هؤلاء الثلثة يقطنون بلاد كنعان تحت رعاية الرب ولكنهم كانوا في تلك الارض غرباء محاويج لا يملكون من اجزائها شيئاً . ولما تضوَّر يعقوب جوعاً هاجر الى ارض مصر فنما هنالك نسله واصبحوا كما قال الرب جيشاً كبيراً . ومع ذلك ولو ان الشعب الذي ادخله الرب في ميعاده اقتضى ان ينمو نسلهُ وتنتقي البركة النسل فلم يتقاعد هذا الاله العظيم عن ان يتخير البعض منهم مخصصاً اياهم بنعمتهِ . وبيان ذلك هو انهُ بعد ان اصطفى ابراهيم من بين الامم تخير من اولادهِ اسحاق ومن توأَمي اسحق يعقوب الذي دعاهُ فيما بعدُ اسرائيل .

ولقد فضل يعقوب على عيسو بالبركة الرسمية التي نالها من اسحق ومن المقرَّران هذه البركة التي حازها يعقوب في بادي الامر اختلاساً قد كانت بعناية صمدية لان هذا العمل الرمزي كان قد تأهب بسرٍ الهي منذ كان الاخوان مستقرين في احشاء رفقا

لانها كانت وقتئذٍ تشعر بتراع عظيم في بطنها فضرعت لله طالبةً من لدنه ايضاح ذلك فاجابها ان في احشائكِ شعبين اكبرهما يؤدي للاصغر رضوخاً . وقد تمت هذه النبوة بان ترك عيسو لشقيقهِ حقوق البكورية وصدَّق لهُ على ذلك بيمين ولما باركه اسحق اناط بعهدتهِ هذه الحقوق التي منَّ الرب نفسه عليهِ بها . اما تفضيل الاسرائيليين اولاد يعقوب على الادوميين اولاد عيسو فقد ثبت بهذا العمل الذي يدل ايضاً على تفضيل الوثنيين المدعوين حديثاً للميعاد بيسوع المسيح على الشعب القديم

ولقد كان ليعقوب اثنا عشر ابناً اصبحوا اثني عشر اباً اصل الاثني عشر سبطاً ولقد كانوا برمتهم موهبين للدخول في العهد . واما يهوذا فقد اصطفي من بين اخوتهِ قصد ان يكون اباً لملوك الشعب المصطفى واباً للمسيح الذي وعد بهِ اباءَهُ ومن الامور المقررة ان عشرة اسباط قد غالوا في الترهات والمجد فصلوا عن شعب الله . وان ذرية ابراهيم لم تستمر راعية البركة القديمة اي الديانة وارض كنعان والرجا الوطيد في مأتى المسيح الا ان سبط يهوذا وحدهُ تلقب باسمه جميع الاسرائيليين فدعوا يهوداً واصبحت البلاد التي يقطنونها يقال لها يهودية وبناءً على ذلك فقد كان الانقاب الالهي يبدو دائماً عينهُ في ذلك الشعب الجسداني الذي كان مزمعاً ان يستمر بواسطة التناسل الاعتيادي . فلما كان يعقوب على وشك الموت واولاد يكتنفونه طالبين البركة منه رأى بالروح سرَّ ذلك الانقاب فابان له الرب حالة الاثني عشر سبطاً كيف تكون بعد ان يقطنون ارض الميعاد فاوضحها بكلامٍ موجزٍ يتضمن اسراراً لا تحصى .

فلما اخذ يناجي اخوة يهوذا اتى بفصاحةٍ تشده العقول وتحير الالباب وتبين انه خارجٌ عن ذاتهِ ولما انتقل بالحديث الى يهوذا ترفع الى مثابة اعلى فقال . يهوذا اياك يحمد اخوتك . يدك على قذل اعدائك يسجد لك بنو ابيك يهوذا شبل اسدٍ . من فريسةٍ صعدت يا بنيَّ جثم وربض كأسدٍ وكلبوءةٍ فمن ذا يقيمه . لا يزول صولجان (اي السلطة) من يهوذا ومشترعٌ من صلبهِ حتى يأتي شيلو وتطيعهُ الشعوب . وقد روي في نسخةٍ من الكتاب ليست اقدم من النسخة التي اخذنا عنها انه قال كلاماً زيادة عما ذكرنا وهو حتى ياتي من حفظ كلُّ شيءٍ لاجلهِ . وسائر النبوءة منوطة بالمحالّ التي يقطنها سبط يهوذا في الاراضي المقدسة واما الكلام الاخير الذي اوردناه فلا بدل في كل الوجوه الا على الذي ياتي من لدن العليِّ خادماً لارادتهِ ومفسرها ومنجزاً لمواعيدهِ

ومنها للشعب الجديد وهو يسوع المسيح اي ممسوح من الله .

واما يعقوب فلم يتكلم عنه بصراحة ووضوح الا ليهوذا لان المسيح موءهل لان يلد منه ولم يكن ايعازه الى يهوذا وحده بل الى كل الامم التي انحازت اسباطها الى سعاية بعد ان لعبت بهم ايدي التفريق . وكل الالفاظ النبوية في غاية الصراحة والوضوح وليس فيها الا لفظة صولجان فانها على اصطلاح لغتنا علامة للملك فقط وعلى اصطلاح اللغة المقدسة تدل على السلطة والسلطان والقضاء وقد توجد هذه الاستعارة في كل سفر من الكتاب المقدس وقد بدت في إبانة وجلاء في نبوءة يعقوب وكانت مآرب هذا الاب الصدوق ان يقول ان في ايام المسيح كل سلطة تزول في بيت يهوذا وذلك دليل على ان تصير مملكة برمتها قاعًا صفصفًا .

وبيانًا لذلك ان مأتى المسيح يشار اليه بحادثين عظيمين وهما ان مملكة يهوذا والشعب اليهودي يندثران اندثارًا كبيرًا وان مملكة كبرى تتألف من كل الشعوب ترضخ لقضاء المسيح وهو يكون ملكًا عليهم ومنتهى اوطارهم وآمالهم . اما شعب يهوذا فلم يعثر عليه في الكتاب المقدس الا في صيغة الافراد لكونه شعب الله واذا عثرت يا سيدي على تلك اللفظة في بعض المحال مجموعة اي الشعوب فالذين معتادون على قراءة هذا الكتاب المقدس يفهمونها غير الشعب اليهودي وهولاء الشعوب نراهم موعودين بالمسيح حسب نبوة يعقوب . وهذه النبوءة العظيمة تتضمن باوجز الفاظ كل تاريخ شعب يهوذا او تاريخ المسيح الذي وعد به وتدل على كل تسلسل شعب الله ولم تزل عاقبة ذلك في حيز الوجود . وبناء عليه فليس من المقتضي ان اجهد لديك في ايضاحها لانك تحصل عليها دون نصب وكد وليس عليك الا ان تلاحظ تاريخ شعب الله وتتفهم معنى هذه النبوءة اذ يتضح لديك جليًا بما تنبئك عنه الحوادث

الفصل الثالث

في موسى والشريعة المكتتبة ودخول شعب الله الى ارض الميعاد

بعد ان مات يعقوب مكث شعب الله في مصر الى حين ارسالية موسى اي نحوًا من مائتي سنة وعلى هذا مضى نحو اربع مائة وثلاثين سنة قبل ان من الله على شعبه بالارض

التي وعدهم بها ، وقد ودّ ان يعوّد مختاريه على الثقة بكلامه ويحققوا ان لابدّ من تتمة ذلك في الوقت المعين من حكمته السرمدية

وكانت آثام الامور بين الذين اراد ان يهبهم اراضيهم وغنائمهم غير كاملة . وذلك كما اوعز عنها لابراهيم اذ كان منتظرًا ان ينتقم منهم دون شفقة ورحمة بايدي شعبه المختار وقد آل الامر ان يفسح لهذا الشعب الزمن لكي يتكاثروا ويغنموا الارض المهيأة لهم ويحلوا فيها عنوة ويقرضوا فيها قاطنيها الذين لعنهم الرب

وقد اراد ان يتجشموا في مصر اثقال الاسترقاق وما ذلك الا لكي يحبوا منقذهم عند نوال الحرية بنجاتهم بمعجزات غريبة وتجمع قلوبهم على محبة الله ويثبون رحمته الى الابد فهذه هي مآرب العلي وقد انذرنا بها ليحضنا على ان نخافه ونعبده ونوده ونستنظره بالامانة والصبر.

ولما جاء الوقت سمع جوار اولاده واستصراخهم فاوعز الى موسى ان اذهب الى مصر وملص اولادي من وثاق العبودية .

فبدا الله امام هذا الرجل العظيم بطريقة لم يبدُ بها لغيره من قبله فظهر له بنوع يدل من جهة على العظمة والجلال ومن اخرى على السلوان والامال . واوعز اليه انه هو الذي هو وان كل ما سواه ليس سوى شبح وقال له انا هو الكائن (اي ان الوجود والكمال يختصان به تعالى وحده) وتخذ اسمًا جديدًا يدل على الحيوة والوجود كانه لها مصدر . وهذا الاسم العظيم المرهب السرّي لايمكن ان يشترك به واراد ان تكون عبادته متيحة به . وليس من مآربي ان ازيدك علمًا برزايا مصر وقسوة قلب فرعون وعبور البحر الاحمر والغمام والبوق الهاتف والرعدة الهائلة التي تراءت لشعب الله على ذروة جبل سينا حيث كتب الله على لوحين من حجارة بيده وصايا الدين والالفة الاجتماعية الاساسية ونص ما تبقى على موسى بصوت جهير . ورغبة في ان تكون هذه السنة مرعية تمامًا امر الرب موسى ان يوءلف جمعية ذات حرمة تنضوي على سبعين مشيرًا وتدعى مجلس ندوة لشعب الله او مجلس شورى الامة المستمر فبدا الله جهرًا وامر ان تنشر سنته بحضوره وذلك باظهار عزته وقدرته بنوع عجيب . ولم يكن الرب قد ابرز الى ذاك الحين شيئًا خطًا ليكون للبشر دستورًا بل ان اخلاق ابراهيم كان مفروضًا عليهم ان يختتنوا محتفلين بذلك اشعارًا بالميعاد الذي امتن عقده الرب مع هذه الامم المصطفاة . وكانت هذه العلامة

تبعهم على ان ينفرزوا عن ساير الامم الذين يودون للالهة الكذبه رضوخاً وعبادة ، وفضلاً عن ذلك فانهم كانوا لايناموون عن ان يحرصوا على حرمة الميعاد لانهم كانوا يذدكرون ما وعد به الرب آباءهم وكانوا يعتقدون انهم مندوبون ان يستمروا شعباً يعبد اله ابراهيم واسحق ويعقوب كأنّ الله اصبح منسيًا. فاقتضى ان يعرّف باضافته الى اسماء الذين كانوا يعبدونه اذ كان عنهم لائذاً ومحامياً

ولم يكن من مشيئته ان ينيط بخواطر بني الانسان اسرار الدين والميعاد فقد حان الزمان الذي فيه ان يوقف امتداد الاصنام التي امتدت بين الجنس البشري وكانت تكاد تلاشي ما تبقى من النور الطبيعي

ولا ريب ان الضلالة في ايام ابرهيم كانت خافقة البنود وبعد ان استأثرت بو رحمة ربه بدا الناس يعرفون الله في فلسطين ومصر فان ملكيصادق ملك سيلم استمر يمارس الكهانة لله الذي فطر السماء والارض (١) وابيمالك ملك جيرار وخليفته المسمى باسمو كانا يخشيان الله ويحلفان باسمو القدوس ويتعجبان من معظم قوتو . وكان فرعون ملك مصر تاخذه الرعدة من وعيد الله الرهيب . اما في عصر موسى فقد تهافتت تلك الامة على على الفساد واصبح الله العلي في مصر منسياً غير معروف فرانه اله الشعوب طراً بل انه اله العبرانيين وكان الناس هنالك يعبدون كل شيء حتى نوع الحيوان وخشاش الارض . وكل ما ترى نواظرهم على الارض كانوا يدعونه الهاً فغدا والحالة هذه العالم الذي فطره الله من العدم البحت هيكلاً للاوثان فغالى النوع الانساني في فيافي البطل والاعتساف حتى اصبح يودي العبادة لما تبعثه عليه النفس الامارة من القبائح والمنكرات ولا غروَ من ذلك فان الانسان كان يخال ان كل قوة لامحيص منها ولا مناص لابدّ من ان تكون الهًا فلذلك راى ان قوة شهوتو التي تبعثه على الطيش عمداً وقسراً تزايله كل المزايلة فتخذها الهًا له لانها تجذبه الى الفحشاء وهو عارٍ من شكيمة تنبو عن مهاوي ذاك الضلال . فاقام هيا كل شتى وامسى للقبائح التي تأنف منها النفوس الابية دخلٌ في تقدمة القرابين

ومع هذا كلهِ فقد دخلت القسوة في الدين فانه بعد ان اجرم اضطرب باله فظن ان الله العلي من الد اعدائهِ ففكر انه لا يمكن له ان يسترضيه بذبائح اعتيادية فاجترأ بفيح

....

(١) سفر التكوين ص ١٤ : ١٨ و ١٩

الفكر ان يسفك دم ابناء نوعو ويقرنه بدم البهائم ذبيحة . ولما استولت عليه المخاوف فاعمت بصيرته توصل الاباء الى ان يقدموا ولدانهم محرقات للالهة بدلاً من البخور فشاع ذلك في عهد موسى وكان جرماً من اجرام الاموريين الذين وكل الله امر اعنانهم الى الاسرائيليين . بيدَ ان هذه المنكرات لم يكن الاموريون يرتكبونها وحدهم بل ان بني الانسان طراً كانوا يقدمون للالهة بعضهم ذبائح ولم يخلُ صقعٌ من فسيح الارض الا بدت فيه تلك الالهة التي اوجب بغضها للنوع الانساني ان يقدم لها القرابين البشرية . وتوغل الانسان في الخشونة والجهالة حتى انه توصل الى ان يعبد كل ما تصنع يداه وفكر انه يصنع في التماثيل روحًا الهية . واوصله الغباوة الى ان ينسى ان الله هو الذي صنعه متوهمًا انه قادرٌ ان يصنع الله . ولولم يكن الاخبار ابدى لنا ان الضلال مرسوخٌ في سجية الانسان وغير قابل للتعليم لشدّ عليهِ نكيرٌ . وبناء عليه فلاشيء يصدنا عن الحكم بان النوع الانساني يستاهل الخزي فان اول الحقائق التي يدل عليها الكون والتي ليس لقوة تاثيرها مضاهاة امست قاصية عن ناظريه كثيرًا. وان التقليد الذي لبث مستظهره كان على وشك الاضمحلال واستكنت في مثابيهِ خرافات جمة مفعمة من الكفر والبله. ولما راى الله ان قد حان الان اذ اذهان البشر لم تكن تعي الحقيقة ارتأى ان يجعلها مرعية كتابة وامل ان يتهذب شعبه بالفضائل بواسطة نواميس كثيرة خاصة عكف على ان ينصها خطاً . ودعا بموسى لهذا العمل فجمع هذا الرجل البرّ تاريخ الاجيال الماضية اي تاريخ آدم ونوح وابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف او بالاحرى انه جمع تاريخ الرب وصنعتو العجيبة . ولم يحوجه الامر ليبحث بعيدًا عن تقاليد اجداده السالفين لانه وُلد بعد موت يعقوب بنحوٍ من ماية سنة وان مشايخ عصره امكن لهم ان يكونوا سنوات جمةً مع ذلك الاب الصدوق . وقد كان ذكر يوسف حيًا وان العجائب التي كان الرب قد صنعها عن يد وزير ملوك مصر العظيم كانت لاتزال اذ ذاك وان حوة ثلاثة او اربعة انفار كانت متصلةً بنوح الذي شاهد اولاد آدم فكان اذ ذاك يشهدُ بداءة الاشياء . وبناء عليه كانت تقاليد النوع الانساني القديمة وتقاليد عائلة ابراهيم سهلة الائتلاف لان ذكراها كانت وتنفذ لاتزال حيةً ولاغرو ان رائينا احيانًا موسى يتكلم في سفر التكوين عن كل ما حدث ءانفًا في الاجيال الغابرة مثلما يتكلم عن اشياء مستمرة كانت مقررة اذ تبقى منها آثار جمة لدى الامم المجاورة وفي ارض كنعان

ولما كان ابراهيم واسحق ويعقوب قد قطنوا تلك الارض اقام كلٌ منهم فيها آثاراً تدل على كل ما حدث لهم وقد استمرت الى عصر موسى المنازل التي فيها والآبار التي احتفروها في تلك المفاوز لتستقي منها عيالهم ومواشيهم . وقد عُرفت الاطواد الروائح التي تراءى لهم الله عليها فقدموا له ثمة محرقات والحجارة التي اقاموها او كرسوها لتكون آثاراً تذكرها الاجيال التالية والاجداث التي كانت تحوي رفاتهم المقدسة . وكانت ذكرى اولائك الافراد باقية في تلك البلدان والاصقاع الشرقية حيث امم كثيرة لم تنسَ انها من اخلافهم . ولما دخل الشعب العبراني في ارض الميعاد فشت بينهم ذكرى اجدادهم وكانت المدائن والاطواد الروائح والصخور الصماء توعز اليهم عن اولائك الاشخاص المشهورين وتذكرهم بالرويا العجيبة التي اثبت الله بها امانتهم القديمة الحنة ولا غروَ ان كل من عنده علم بالآثار القديمة ولو جزئياً يفهم حالاً ان البشر الظاعنين كانت لهم الرغبة في ان يقيموا آثاراً كتلك يستبقونها الى ما سياتي وهم عليها محافظون . وقد كان خلفاؤهم يصرون على كل ما كان ذريعة لذلك البناء وتلك مزايا كان من شانها ان تجعل التاريخ ثابتاً . وبعد ان مضت على ذلك اعوام تمهكوا في صقل الحجارة ونحتها وصنعوا بها تماثيل بعد ان كان من قبلهم يقيمون اعمدة ضخمة بحجارة خشنة . ولنا ادلةٌ قاطعة على حفظ تواريخ الازمنة الخالية خطاً في القبيلة التي حفظت فيها معرفة الله لان البشر لم يهملوا ذلك ابداً ومن المقرر انهم كانوا يعلمون اولادهم اناشيد في الاحتفالات والاجتماعات كانت تؤيد الاعمال المشهورة التي حدثت في الازمنة السالفة ومن ثم تولد القريض وتغير فيما بعد على اساليب مختلفة . واما اسلوبه الاول فلم يزل الى الآن محفوظاً في القصائد والنشائد المستعملة عند الاقدمين لمدح الالوهية والابطال وفي ايامنا هذه عند الامم التي لا تعرف اصول الكتابة

ولا ينكران تلك الاناشيد بليغة المعاني جداً ذات انفاس سامية طبيعية النسق جديرة بان تمثل الطبيعة بمحاسنها . وفضلاً عن ذلك فانها متضمنة اوزاناً شتى تتوسع بها معانيها وتطرب بها السماع وتشنف العقول وتسحر الالباب وتتهافت على حفظها الذاكرة . واكثر من استعمل تلك الاناشيد وتهمك فيها شعب الله فموسى اشار الى جم منها وكان يذكر من انواعها المصراع الاول وكان الشعب يعرف الباقي ونظم هو نفسه على ذلك النمط انشودتين احداهما تتضمن عبر الاسرائيليين البحر الاحمر وغرق البعض من

اعداء الرب في لجة البحر واضطراب البعض من كثرة الروع والخشية والاخرى تتضمن تبكيتة للاسرائيليين على نكرانهم جميل الله والايعاز الى خيراته ومعظم معجزاته . واقتفى اثره ابناء الاجيال التالية لان الله وما برأ من العجائب كانا موضوعاً لكل نشيد وقد كان الله يوحي بها الى اوليائه الاطهار وقصارى الامر ان كل شعر يشنف العقول ويدله القلوب قد كان يتغنى به شعب الله

وتغنى يعقوب بتلك الاناشيد النبوية متضمنة كل ما ازمع ان يحدث لبنيه وقد كان كلُّ سبطٍ يحفظ بسهولة ما يناط به ويتعلم ان يسبح الرب العظيم بنبوءاته والصادق في تتميمها .

وكل ذلك وسائل استخدمها الرب ليحفظ الى وقت موسى ذكر الشؤون الآنفة . وان موسى الذي عرف كل ذلك رفعه الروح القدس فوق كل شيء والهمه ان يكتب صنائع الرب بالتدقيق والضبط وبساطة تبعث على الامانة والعجب من اعمال الله نفسه . وقد اضاف للاشياء القديمة التي كانت تحوي نشأة ابتدا شعب الله على ما كتبه من التقاليد القديمة المعجزات التي صنعها الله في شأن خلاص شعبه ولم يكن موسى يقيم على مصداق كلامه دليلاً سوى ما رأته ابصارهم لانه لم يكن يأتيهم بنبإٍ بعيد عن مداركهم ولم يأتهم بما يحدث في الكهوف العميقة ولم يكلمهم ابهاماً بل كان كلامه مبنياً على الصراحة والوضوح خيفة ان يبعثهم على الريبة فيرشقوه بحجر الظن ويكذبوه . فشيد نواميس الاسرائيليين وحكم على العجائب التي شاهدوها عياناً وهذه العجائب قائمة بتغيير الطبيعة فوراً على انماط متغايرة قصد نجاتهم وعقاب اعدائهم فانشطر البحر قسمين وانشقت الارض وانزل الله لهم من العلاء مناً واجرى لهم من فؤاد الصخرة الصماء ماء قراحاً بان ضربها موسى بعصاه واقام لهم في الاوج علامة تقودهم مدة تسيارهم وصنع لهم معجزات اخرى استمرت اربعين عاماً . ولم يكن في ذاك الحين الاسرائيليون يفوقون غيرهم في جودة العقل ولم يكونوا اذكى من الشعوب الذين تغلبت عليهم مشاعرهم وما امكن لهم ان يقروا بوجود اله غير منظور بل كانوا يضاهون سواهم في الخشونة والهمجية ان لم تقل اكثر من غيرهم جلافة اما هذا الاله غير المنظور فكان لا يزال يبدو لهم محسوساً بمعجزات مستمرة وكان موسى يجهد دائماً في ان يحمل في عقولهم من ذلك تأثيراً ومن كثر ذلك اخذ بافكارهم كل مأخذ واصبح له عندهم عظيم وقع فاشعر باله بسيط يصنع كل شيء بكلمته وادرك اخيراً ان هذا الاله ليس

سوى عقلٍ وروحٍ وفهم . ولما اخذت عبادة الاصنام التي زادت جدًّا منذ عهد ابراهيم تغشي وجه البسيطة اصبح نسل هذا الاب البارّ بريئًا وحدهُ من ذاك الدنس وشهد له بذلك اعداؤهُ . واما الشعوب الذين لم ينسوا تمامًا الحقيقة والتقاليد فكانوا يتعجبون قائلين . انهُ لم يبصر اثمًا في يعقوب ولم يرَ إصرًا في اسرائيل إنهُ لا عيافة في يعقوب ولا عرافة في اسرائيل الرب الههُ معهُ وهتاف الملك فيهِ

ولما رأى موسى انهُ لا مندوحة لهُ من ان يرسخ في عقولهم وحدة الله وتخصيص العبادة بهِ جل شانه كان يكرّر على مسامعهم قائلًا ان هذا الاله الحي يصطفي لهُ في ارض الميعاد محلًّا مفردًا حيث تتم فيهِ الاحتفالات وتقدم لهُ فيهِ المحرقات والقرابين والعبادات العامة وبينما كان الشعب يهيم على وجههِ في الفيافي والقفار صنع موسى تابوت العهد وجعلهُ قابلًا للانتقال من محلٍّ الى آخر وقد كان لديهِ بنو اسرائيل يقدمون القرابين لله الذي فطر السموات والارض وقد تعطف عليهم بان يجوب معهم الفيافي ويقودهم في القفار والمفاوز

وعلى هذا المبدا والاساس كانت السنة موطدة ولا بدع فانها لسنة عادلة ذات نفع منفعة من الحكمة والبساطة والبلاغة ولقد كانت وثاقًا يمتن ربط الالفة بين البشر ويجعل الانسان يزدلف الى ربهِ . وزاد موسى على تلك السنن قوانين تجري بموجبها الاحتفالات الدينية المقدسة واعيادًا مشهورة توعز الى المعجزات التي كانت ذريعة لنجاة شعب اسرائيل وايقن لهم مرارًا جمة انهم مزمعون ان يحجموا في اشغالهم ان لبثوا مستمسكين بعروة السنة والّا فيحل عليهم من العقاب اشدهُ ولات حين مناص . هذا ما قالهُ الشارع واقتضى ان يكون هذا الامر مقرّرًا لديهِ من قبل الرب ليجعله ركنًا لسنتهِ . واتضح من الحوادث جليًّا ان موسى لم يتكلم عن نفسهِ واما القوانين التي القاها الى بني اسرائيل وان كانت تبدو في ايامنا غير مفيدة فقد كانت قبلًا ضرورية جدًّا لانها كانت تؤثر شعب الله على سائر الشعوب وكانت كحاجز يمنع شعب الله عن عبادة الاوثان وان لا يطوّحوا بنفوسهم كباقي الشعوب

وقد تخير سبطًا واحدًا من الاثني عشر سبطًا واناط بعهدتهِ القرابين والاعشار وكل ما يختص بالاشياء المقدسة وما ذلك الّا ليحفظ الدين وكل تقاليد شعب الله . وأُنيط لاوي واخلافه بالله تكريسًا لهُ كعشر الشعب وتخير من سبط لاوي هرون ليكون

كاهنًا عظيمًا وتوارث الكهانة من بعدهِ اخلافهُ وبناءً عليهِ اصبحت المنابر مرعية كل الرعاية واصبح للسنة ذائدون ومن ثم اخذت الكهنة تتعاقب استمرارًا منذ عهد هرون الكاهن الاول . ومن الامور التي تزيد تلك السنة جلالًا انها كانت تمهد طريقًا لشريعة افضل منها غير محملة من الاحتفالات مثلها لكنها مخصبة بالفضيلة اكثر منها . واما موسى فلكي يعزز الشعب ويجعلهم يتأسون على انتظار تلك السنة اثبت لهم مأتى النبيء العظيم الذي يأتي من نسل ابراهيم واسحاق ويعقوب وقال لهم يقيم لكم الرب الهكم نبيًّا من بينكم من اخوتكم مثلي لهُ تسمعون . فهذا النبيء الذي يضاهي موسى المشترع مثلهُ لا يمكن ان يكون سوى المسيح الذي تعليمه يصلح العالم اصلاحًا عظيمًا

ويحرز المسيح وحدهُ شعبًا جديدًا ويقول لهُ ايضًا فرضت عليكم سنّةً جديدة وقال ايضًا من يحبني يحفظ وصيتي وقد تكلم في موضع آخر باكثر صراحة حيث قال . قد قيل للقدماء لا تقتلوا وانا اقول لكم الخ . وسائر القول على هذا النمط فهذا هو النبي الذي يضاهي موسى ويشيد شريعةً جديدة وعن ماتاه تنبأ منذرًا وقائلًا لهُ تسمعون . وتتميمًا لذلك ان الله لما بعث بابنهِ الى الارض نادى من العلاء هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سررت لهُ اسمعوا . والى نفسهِ قد رمز موسى بارقم نحاسيٍّ اقامه لدى الاسرائيليين في القفر . لان لدغة الارقم القديم الذي تنث في الجنس البشري سمًّا مدقعًا يبرأ منها من يرنو الى المسيح . اي يبرأ بتقتهِ بهِ كما ابان عن ذلك هو ذاتهُ ولنا في ذلك فسحة نظر وهو لماذا لا نخص هنا بالذكر الا الارقم النحاسي مع ان في سنة موسى وكل الذبائح والحبر الاعظم الذي نصبهُ باحتفالات سرية وادخاله اياه الى قدس الاقداس وكل طقوس الدين اليهودي المقدسة التي فيها كل شيء يتطهر بالدم ويترتب عليها نحر الحمل في عيد الفصح تذكارًا لخلاص الشعب ادلة كبرى على ان المسيح مزمع ان ينقذ شعبهُ باهراق دمهِ الالهي . وقد كان محتومًا على اليهود الى ان اتى المسيح ان يقرئوا في كل مجامع الشعب اسفار موسى وبناءً على ذلك ترى اليهود في كل ظرف وآن لا يستندون الّا على موسى وكما ان مدينة رومية كانت تحترم شرائع روميلوس وشرائع نيما والاثني عشر لوحًا واثينا تتوكأ على شرائع سولون ولاسيديمون تعتبر قوانين ليكورك كذلك كان الشعب العبراني يستند دائمًا على شرائع موسى . وفي اليقين ان هذا المشترع قد نظم الشريعة نظامًا محكمًا ولم تمس الحاجة فيما بعد الى ان يطرأ عليها ادنى تغيير وبناءً عليهِ لم يكن مجموع الشرائع

العبرانية مولفًا من قوانين مختلفة في اوقات وظروف متباينة بل ان موسى الموحيّ اليهِ من الروح القدس قد فكر في بادىء الامر في كل شيءٍ ولم نرَ في هذه الشريعة اوامر من داود او من سليمان او من يوشافاط وحزقيا . وقد كانوا طرًّا يتهافتون على العدل بل ان الملوك الاخيار كان محتومًا عليهم ان يستمسكوا بشريعة موسى ويكتفوا بان يحملوا خلفاءهم على حفظها وقد كان من الامور المنكرة ان يزاد عليها او ينقص منها شيءٌ وكانت الشريعة ما لا اندحة عنه في كل آن فانها كانت من الضروريات التي يفتقر اليها نظام الاعياد والمحرقات والاحتفالات بل الاشغال العامة والخاصة والاحكام والمعاهدات والزيجة والوراثة والجنازة ونوع اللباس وقصارى الكلام كل ما يناط بالاخلاق والعادات . ولم يكن سوى كتاب الشريعة يتعلم منه المطالعون فنَّ الآداب فتحتم اذ ذاك على كلٍّ ان يتصفحه وينقر فيه إناءَ الليل واطراف النهار فيقتبس منه آيات يشخصها دائمًا امامه وكانت هذه الشرائع يتعلم بها الصبية الاحداث القرآءة . وقاعدة التربية هي التحتم على الآباء طرًّا ان يعلموا بنيهم الشريعة المقدسة ويجهدوا في ان يرسخوها في عقولهم ويفسروها على ان يسعوا بموجبها حتى اذا راهقوا وبلغوا من الاعمار اشدّها اصبحوا حكماء . وبناء على ذلك كانت معرفتها من الامور اللازمة وفضلاً عن ان مداولتها كانت مستمرة فكانت تقرأ كل انتهاء سبعة اعوام مرة في عام الغفران والراحة قرآءة عامة في عيد المظال امام الشعب الذي كان يجتمع مدة ثمانية ايام . والقى موسى على تابوت العهد النسخة الاصلية وخشيةً من ان تمسها ايدي المفسدين اولي الغواية ويحرفوها فكانوا وقتئذٍ ينقلون نسخًا مفرزة عدا النسخ التي تتداولها ايادي الاحداث وكان الكهنة واللاويون ينقرون فيها ويصلحونها اذا وقع فيها خلل ومن ثم يدعونها عندهم محفوظةً لتكون نسخًا اصلية يعول عليها ويكون مآب الامر اليها .

ولما تنبأ ان هذا الشعب يأتيهم آنٌ يكون لهم فيه ملوكٌ كسائر الامم حتم موسى على من يتبوَّؤون سرير الملك بموجب نصٍّ في تثنية الاشتراع على ان يقتبلوا من ايدي الكهنة نسخةً من النسخ المصححة بكل اعتناء لينقلوها بايديهم ويقرأوها طول ايام حياتهم وهذه النسخ قد كانت جديرة بالاعتبار لدى الشعب وكانوا يعتبرونها كانها صادرة رأسًا من يد موسى في الصحة والكمال مثلما املاها الله عليه ووجد نسخةٌ مصححة منها في هيكل الرب في عهد يوشيا ومن المحتمل ان تكون النسخة الاصلية نفسها التي وضعها موسى في تابوت

العهد فكانت تلك ذريعةً لان يتذرع بالامانة والطهر ويحمل شعبهُ على ان يتوبوا الى الله عما فعلت ايديهم من السيئات . ولقد كانت النتائج التي نجمت من قرآءة تلك الشريعة لاتعد ولاتحصى وبايجاز القول ان ذلك الكتاب مدثرٌ بالكمال . لانه يحوي تاريخ شعب الله ويسلتنه الى اصلهِ ودينه ونظامهِ وعاداتهِ وحكمتهِ وكل ما تترتب عليه حياته وما يوول الى اجتماع البشر واتحادهم وينطوي على الامثال السيئة والحسنة وعلى جزاءٍ من فعل الخير وعقاب من صنع الشرّ .

وبواسطة هذا النظام العجيب وصل ذلك الشعب الذي تملص من وثاق الاسترقاق الى البلاد التي اعدت له بكل ترتيب بعد ان حبس في بطن القفار اربعين عامًا . فقاده موسى الى مدخل البلاد ولما شعر ان منيتهُ حانت دعا يشوع وسلمهُ القيادة وقبل ان اغتالته المنية نظم نشيدًا طويلاً عجيبًا هاك مطلعه : انصتي ايتها الارض والسماوات فاتكلم ولتسمع الارض لاقوال فيَّ . وبمجرد اسكاتهِ الطبيعة كان يناجي شعبه بقوة لامزيد عليها . ولما وعى حسبان اثامهِ وجرائمهِ اجلى له عن كلّ المنكرات ثم ارتأى ان الكلام البشري لايناسب ذلك الموضوع فغير منهج كلامهِ والتفظ بما قاله الرب واخذ اذ ذاك يتكلم كلامًا ساميًا فلم يدرِ الشعب هل كان الله يجي اليه بالخوف والاضطراب او بالمودة والايمان فامر الرب وموسى بالشعب ان يتعلموا ذاك النشيد على ظهر قلوبهم فتعلموه ثم استعزت بذلك الرجل الصدوق رحمة ربهِ مسرورًا ولم يضرب لشعبه عن امرٍ يعود عليهم بالنفع العميم ليذكروا مبرات الله واحسانه ووصاياه . وغادر ولدانه بين شعبه دون ان يختصهم بمنفعةٍ خاصة فاعجب من ذلك شعبه وكل الامم ولم يحز مشترعٌ ما حازه موسى من الشهرة والمنقبة بين البشر وقد افتخر كل الانبياء الذين خلفوه في قديم العهد والذين كتبوا بالوحي ان يكونوا بمذهبهِ متمذهبين .

وقد كان يوخذ من مناجاتهِ انه اروعيٌ عريقٌ باحسن الصفات التي لم ينلها احدٌ من المولفين سواهُ وقد كان تاليفه عريًّا من التعقيدات بل كان ذا بساطة يقارنها علوّ النفس والفصاحة الخارقة وفي اليقين ان من قرأ تاليف مورخ لاعمال الله يعلم ان المولف يتكلم عن الله عزَّ شأنه واما من قرأ تاليف موسى لايظنُّ ان ما يقرأهُ صادرٌ من غير فم الله .

ومن تصفح سفر ايوب بعنه ما أُودع فيهِ من سموّ الفكر ودقة المعنى على الجزم بانه

من انشاءِ موسى . وخشيةً من ان العبرانيين تاخذهم نشوة الكبرياءِ لدن ظنهم ان رحمة الله لم تحلَّ الاَّ عليهم اخذ موسى يناجيهم بان الله له مختارون حتى في نسل عيسو ولم يكن من إمكانهِ أن ينث بينهم تعليمًا افيد لهم من صبر ايوب وحزنه الذي اناط الله امرهُ بهمة الشيطان الختول ليضيق عليه ويعذبه بكل انواع المبرحات الموبقة . فاصبح عريًا من رزقه واولادهِ وكل سلوى على بساط الارض ثم اصابه الله بتفريح جسمهِ وامتُحنَ باطنًا بالتجديف والقنوط ومع ذلك فلم يجنف عن طريق الايمان فتبين من ثمَّ ان النفس الطاهرة ذات الامانة تقوم نعمة الله بناصرها وقت التجربة وتضافرها قسرًا عن الافكار الخبيثة التي يبادهها بها العدو الخناس فانها تستمرُّ في حيز الإمانة وتصعد الى ذرى التأمل عالمةً بان ما يتراكم عليها من النوائب والنازلات دليل على ضعة الانسان ووهنهِ وعلى حكمة الله غير المتناهية . فذلك ما نقتبسه من سفر ايوب . ولرعاية هيئة عصرية كانت امانة هذا الرجل الصدوق ذريعةً لان تتراكم عليهِ الخبرات الزمنية . واما شعب الله فقد هبَّ من سنة الغفلة وفقه ماهية فضيلة العذاب وشرع يذوق لذة النعمة المزمعة ان تتعلق ذات يوم بالصليب . بيدَ ان موسى قد ذاق تلك اللذة لما آثر تجشم المشاق وما تكبد هو وشعبهُ من النائبات السود على ملذة البلاط الملوكي في مصر وغضارة نعيمهِ . ومن ثم علق الله بذبيئة ما يهيأ ليسوع المسيح من العار ولاسيا لما اركن الى الفرار في منفاه مدة اربعين عامًا . وكرع كاس مصائب المسيح لما اصطفاه الله لينقذ شعبهُ وأُلجيء ان يحتمل تمرُّدهم المستمر لما كان معرضًا للمخاطر وعلم ما يصرف في شان امر نجاة اولاد الرب وابدى عن بعدٍ ما سيترتب عليهِ امر الخلاص الاعظم وقت مجيء مخلص العالم . فلم تقرَّ مقلتا موسى برؤية ارض الميعاد عن قرب بل انهُ رآها عن بعد من اعلى ذروة الجبل . ولم يشقَّ عليهِ ان يكتب انهُ غير مستحقٍّ الدخول الى ارض الميعاد لعدم امانتهِ فاستحقَّ عقابًا عظيمًا وان كانت خطيئتهُ صغيرة . فاصبح عقابهُ دليلاً على ان الله ذو غيرة عادلة صارمة على الذين يجنفون عن منهج طريقه ولاسيا على الذين تقسرهم النعمة على ان يسلكوا باكثر كمال من غيرهم في الامانة . ويتبين لنا ايضًا من صدِّ موسى عن الدخول الى الارض المقدسة سرٌّ اعظم من هذا وهو انهُ مع كل معجزاتهِ التي صنعها لم يمكن له ان يقود اولاد الله الاَّ الى مقربة من ارضهم . فذاك دليلٌ على ان لم يكن بالناموس كمالٌ لشيءٍ بل لا يمكن له ان يقودنا الى نعيم المواعيد بل جعلنا نحييها عن

بعدٍ او بعبارةٍ اخرى انهُ يقودنا الى قرب باب ميراثنا لان يشوع الذي يكون باسمهِ ورفعة مقامهِ نائبًا عن مخلّص العالم احق منهُ في كل شيءٍ وهذا الرجل الذي كان احظ من موسى في كل امرٍ كان بتعالى عليهِ بشرف اسمهِ وهو الذي انيط بعهدتهِ ادخال الشعب الى الارض المقدسة . وبظهورهِ المبين جزرت مياه الاردن الى الوراء وسقطت اسوار اريحا من تلقاءِ ذاتها وانحبست الشمس في كبدِ السماء وامكث الله اولادهُ في ارض كنعان طاردًا منها شعوبًا كثيرةً منطويةً على الرذائل والمفاسد والهم شعبهُ ان يكاشحوهم بالبغضاء وجعل عدوانهم لهم امرًا طبيعيًا حرصًا عليهم من ان يكتسبوا عاداتهم السمجة

ولقد اوسعهم اعتناتًا واحمل عليهم شعبهُ فخافوهُ خوفًا عظيمًا وبعد ان اخرجوا من تلك الاصقاع تحلت منهم فرقةٌ الى افريقية حيث كشف فيما بعد على آثارهزمهم وظهور يشوع في تاريخ قديم . وبعد ان وطَّن يشوع الاسرائيليين بظفرهِ المبين في اكثر الاراضي المقدسة اخذ يشاطرهم اجزاءها هو واليعازار الكاهن ورؤساء الاسباط وفاقًا لسنَّة موسى فنال سبط يهوذا من ذلك القسم الاكبر لانهُ فاق منذ عهد موسى غيره بالعدد والباس ورفعة المقام . ثم استأثرت رحمة الله بيشوع وواصل الشعب الاسرائيلي فتوح ارض الميعاد وقد شاءت العزة الالهية ان يكون سبط يهوذا في مقدمة الاسباط اجمع فالمعت ان في عزمها ان تسلم الارض اليه

ولا ريب ان هذا السبط قد قمع الكنعانيين وظفر بهم واستولى على اورشليم التي اهّبت لان تكون المدينة المقدسة وحاضرة الملك وقد كانت تدعى من قبل سيلم وكان ملكيصادق مليكها في عهد ابرام . وان ملكيصادق يعنى منه ملك العدل ويدعى ايضًا ملك السلم لان سيلَم معناه السلم وقد قرَّر بذلك ابرام واعتبرهُ كالكاهن العظيم كأن اورشليم أُهبت لان تكون المدينة المقدسة وحاضرة الدين فانيطت في بادىء الامر بهمة اولاد بنيمين . ولما كانوا على جانب من الضعف وقلة العدد لم يمكن لهم ان يطردوا منها اليابوزيين قاطنيها الاقدمين ولذلك آل بهم الامران يخالطوهم . وقد كانت اميال شعب الرب في عهد القضاة متباينة في الخير والشر . وبعد ان مات الشيوخ الذين شاهدوا معجزات الرب اصبح ذكر تلك المصانيع يكاد يكون نسيًا منسيًا وجنح شعب الله الى عبادة الاوثان . وقد كان الله يعاقب من يرتكب ذلك المنكر عقابًا صارمًا وينوم بناصر كل من يرعوي عن غرّتهِ .

وبناء على ذلك دبَّ الايمان بعناية الله وبصدق مواعيد موسى ووعيدهِ في قلوب الصالحين يومًا بعد يوم لكنما الرب كان يهيّئ لهم انموزجًا عظيمًا. وطلب الشعب ان يكون لهم ملك فاقام الرب لهم شاول الذي رذله بسبب آثامهِ ثم ازمع على ان يقيم له سلالة ملوكية يخرج منها المسيح فتخير ان يكون ذلك من سبط يهوذا فاصطفى منه راعيًا يقال له داود وهو اصغر اولاد يسى ولم يكن ابوه واخوته بعالمين باهليتهِ وبما سيترشح له واما الرب فعلم طيب سريرتهِ وحسن طويتهِ فكرّسه ملكًا بيد صموئيل في بيت لحم منبت شعبتهِ

الفصل الرابع

في الكلام عن داود وسليمان والملوك والانبياء

في ذاك الحين تخذ شعب الله له هيئة جديدة وثبت الملك في سراة داود فنشأ في باديء الامر ملكان من تلك الاسرة ليسا على اتفاقٍ بالسليقة لكنهما كانا مجلبةً لكل دهشةٍ وحيرةٍ فان داود كان يود احتدام الحرب والفتوحات فظهر ببأسهِ على اعداء شعب الله والقى رهبة اسلحته في كل الشرق وسليمان كان على جانب من الرصانة والحكمة وذهب صيتهُ بذلك داخل مملكتهِ وخارجها فانال شعبهُ غضارة الترف والسعادة لكثرة تهافتهِ على الامن والسلام. بيدَ ان تسلسل الامور الدينية تستلفت انظارنا الى هذين الملكين وتحضنا على ان نسرّح طائر النظر في حياتهما فنقول: ان داود تبوّأ في اول الامر تخت اليهودية وكان قادرًا ظافرًا ثم رضخ لشوكتهِ كلُّ الاسرائيليين فنزع من اليابوزيين قلعة صهيون التي كانت لاورشليم حصنًا منيعًا ولما استولى عليها بحولهِ وطولهِ جعلها حسب امر الله مركزًا للاحكام والدين وشاد بيتهُ على قمة طودها واقام حولهِ منازل جمةً دعاها مدينة داود واقام يوآب ابن اختهِ باقي المدينة واصبحت اورشليم ذات هيئة جديدة وتبطن اولاد يهوذا سائر البلاد وخالطهم اولاد بنيمين القليلوا العدد

اما تابوت العهد الذي اقامه موسى وكان الرب مستويًا فيه على الكاروبيم وكان فيه لوحا الوصية في غاية الرعاية والحفظ فلم يكن له محلٌ يناط بهِ. فنقله داود باحتفالٍ الى جبل صهيون الذي فتحه باعانة الرب العظيم القدرة وما ذلك الاَّ ليحكم ثمة عزَّ وجلَّ

ويكون لائذًا عن داود واورشليم والملك. واما المظلة التي كان الشعب يؤدي فيها لله العبادة في البرية فقد كانت لا تزال في غباوون حيث كانت تقدم الذبائح لله على المذبح الذي شادهُ موسى وكان ذلك باقيًا الى ان يشاد هيكل ليركز فيه المذبح والتابوت وتتم ثمة عبادة الرب. ولما ظهر داود على اعدائهِ وقمعهم وامتدت فتوحاته الى نهر الفرات ظافرًا دار في خلدهِ ان يصرف جلَّ عنايتهِ في ان يعزّز العبادة الالهية فعين محل اقامة الهيكل بامر الله على ذروة الجبل حيث ابراهيم عوّل على نحر ابنهِ الوحيد فصدفه عن ذلك ملاك الرب

فاقام اذ ذاك للهيكل رسمًا واحرز فيه كلَّ ما جلَّ وغلا من المواد واعدَّ له كل ما سلب من الملوك والشعوب المدحورين ولما كان فاتحًا سفاكًا للدماء صدَّهُ الله عن بنائهِ فاناط امر تشييدهِ بسليمان حليف السكينة والسلم فبناهُ اذ ذاك على رسم المظلة وصنع مذبح المحرقات ومذبح العطور ومنارة الذهب ومائدة الخبز المقرّب لله وادوات الهيكل باسرها مثل التي صنعها موسى في القفار. ولم يضف عليها موسى الا العظمة والغناء. واما التابوت الذي قام باعبائهِ رجل الله الكليم فوضعهُ سليمان حيث قدس الاقداس وذلك في محلٍ لا سبيل الى الوصول اليه وما ذلك الاَّ دليلٌ على عظمة الرب التي لا يقرب اليها احد وعلى السماء التي كانت محجورة عن بني الانسان الى ان يهبط منها المسيح فيفتح ابوابها المغلقة بسفك دمهِ الطاهر. وبدا الله بجلالهِ وجبروتهِ يوم تكريس الهيكل وتخير تلك المثابة مقرًا لاسمهِ ومنتدىً لعبادتهِ واوجب عليهم ان لا يذبحوا خارج اورشليم. ودلَّ على وحدة الله وحدة هيكلهِ واصبحت اورشليم المدينة المقدسة وصورة البيعة لان الرب كان في عزمهِ اذ ذاك ان يستوي في هيكله الحق واصبحت صورة السماء ايضًا لاننا ننال السعادة بابراز مجد الله

وبعد ان شاد سليمان لله هيكلاً اقام صرحًا ملوكيًا فكان بناءً عظيمًا يليق بذاك الملك العظيم وبنى بيتًا للنزهة دعاه غابة لبنان. واما القصر الملوكي فكان زينة اخرى لاورشليم وكل تلك البناءات قد كانت ذات غُرَفٍ شاهقة ودهاليز فائقة ومماشٍ فسيحة وأروقةٍ عظيمة واقام عرشًا سلطانيًا وسدّة رفيعة يستوي عليها عند ابراز القضاء ولم يستخدم لكل ما شاد سوى خشب الصندل. وقد كان كل ذلك مرشوقًا بالنضار والحجارة الكريمة

وقد طالما اندهش القاصي والداني من عظمة ملوك اسرائيل . وان ما تبقى من الابنية التي بناها ذلك الملك العظيم لم تكن اقل عظمةً من تلك . وكل ذلك كمدائن كبرى وحوانيت الاسلحة وكان عنده من اكرم الخيول المطهمة واحسن العجلات وابسل الظهراء . واصبحت اورشليم من اغنى مدائن المشرق لسعة تجارتها وما ساد اهلوها على غيرهم في سلك البحار وما تقرّر فيها من السكينة وما ترتب من النظام وكانت المملكة باسرها في غضارة وخصب . وكان كل ذلك كمثال للمجد السماوي وقد تأتى من الحروب التي اذكى نيرانها داود الحصول على النعمة التي تستلزم مشقة عظيمة وابان حكم سليمان كم لهذه الراحة من ملذة . وفضلاً عن ذلك فان سموّ هذين الملكين وارتفاع شان عائلتيهما تأتى باختيار خاصّ فراق ذلك لدى داود فابرز في سبيلهِ نشيدًا قائلاً : ان الله قد خص الملوك في بيت يهوذا وفي بيت يهوذا اخص بيت ابي . ومن بين اولاد ابي حسن لديه ان يتخيرّني ملكًا على كل شعبهِ الاسرائيلي ومن بين اولادي (لان الله منّ عليّ باولادٍ كثيرين) تخيرّ سليمان ليجلس على عرش سيدهِ ويحكم على اسرائيل

ولقد كان هذا الانتخاب لهُ غاية اسمى من التي تبدو ولولا لان المسيح الذي وعد بهِ الرب ابراهيم ليكون ابنًا له كان موهبًا لان يكون ابنًا لداود وسائر ملوك اسرائيل . واما وعد الله لداود بقولهِ ان ملكهُ لن يزول الى الابد فكان تلميحًا على المسيح وملكهِ الازلي وان سليمان الذي اصطفي لان يكون خلفًا عنهُ كان رمزًا الى ما تى ابن الله ولذلك قال الرب اني ساكون له ابًا ويكون لي ابنًا . وبناء عليهِ برزت اسرار المسيح في عهد داود والملوك اولادهِ بنبوات عظيمة وفاقت الشمس بهاءً وسطوعًا

فرآهُ داود عن بعدٍ ونشدهُ في مزاميرهِ ببلاغة فائقة وفصاحة خارقة . وقد طالما خالج فكره ان ينشد مجد سليمان ابنه . ثم اختطف بالروح ورأى من هو اقصى من سليمان الذي يفوقه بالمجد والحكمة فتراءى له المسيح انهُ مستوٍ على العرش يفوق الشمس والقمر ثباتًا وبصُر بالامم المقموعة مصروعةً تحت اخمصيهِ ومباركة بهِ في الوقت نفسهِ وفاقًا لما وعد بهِ ابراهيم .

ثم راه يسمو متعاليًا في بهاء القداسة من الجوف قبل الفجر له ندى ولادتهِ من ابيه وهو كاهن الى الابد ليس له من خليفة ولا يخلف احدًا بل وسم كاهنًا بنوع غريب لا على رتبة هرون بل على رتبة ملكيصادق (رتبة جديدة غير معروفة لدى شريعة موسى) ورآه

جالسًا عن يمين الاب ناظرًا من اعلى السماء الى اعدائهِ المدحورين فاصبح مندهشًا من ذلك المشهد العظيم ومتعجبًا من مجد ابنهِ فدعاه سيدهُ . ورأى الله الذي مسحهُ الله ليسلطه على كل البسيطة بالبر والاستقامة وشاهدهُ بالروح فسمعهُ يقول هذه الفقرة التي القاها على ابنه وهي انت ابني وانا اليوم ولدتك واضاف الى ذلك وعد مملكة ابدية تمتد على كل الامم وملكه يمتد الى اقاصي الارض ولماذا ارتجت الامم بالباطل . وباطلاً اثتمر الملوك والعظماء على الرب فالساكن في السموات يضحك والسيد يستهزئ بهم . ويشيد قسرًا عن انوفهم ملك مسيحهِ فالقى الله عليهم عبء حكم ابنه فآل بهم الامر ان يصبحوا اول من يطأطئ للمسيح صاغرًا بعد ان راموا ان ينبذوا عن عواتقهم نيرهُ . وان يكن قد تنبأ عن المسيح مرارًا جمة في الكتاب بتصورات عظيمة فان الرب لم يخف عن داود ما سيلحق ثمرة احشائهِ المباركة من العار لان هذا التعليم كان لشعب الله ضروريًا وان يكن ذلك الشعب لايزال ضعيفًا مفتقرًا لمواعيد جسدية فلم يكن من المقتضي ان يغادر الصعود الانساني معتبرًا كسعادتهِ الاخيرة ومكافآتهِ المفردة ولذلك كان الرب يوعز عن بعدٍ بالمسيح المنتظر الذي هو انموزج الكمال وموضوع لرغبتهِ كانهُ غارق في عباب الاشجان والاوجاع وبدا الصليب لداود كعرش حقيقيٍّ له فانه رأى يديه ورجليه مثقوبة بالمسامير وعظامهُ كانت تعدُّ وثيابهُ معرَّضة للاقتسام وعلى لباسهِ طرأ الاقتراع . وسقي خلاً ومرارةً واعداؤهُ يحدّمون حوله غيظًا وهم يفترون سرورًا باهراق دمهِ ثم رأى ذلك النبي في الوقت نفسهِ نتائج ذله المأثورة وذلك ان كل شعوب الارض تذكروا الههم الذي كانوا قد نسوه منذ اجيالٍ عديدة . وان اول من اتى موائد المسيح الفقراء ثم اعقبهم الاغنياء والاشراف وجاؤوا كلهم يعبدونه ويباركونه وكان هو متصدرًا في الكنيسة العظيمة والكثيرة العدد اي في جمعية الامم المرتدين الى الايمان وانذر فيها جميع اخوته باسم الرب وحنانته العظيمة واما داود الذي نظرت مقلتاهُ كل ذلك فشعر بان ملك ابنه ليس في ذا العالم ولم يكن بذلك متعجبًا لانه يعلم ان هذا العالم حليف الزوال . ولقد كان يعلم ذلك الملك الذي استقرّ بكل تواضع على العرش انه ليس من الخيرات التي ينتهي اليها كلُّ امل الانسان .

واما سائر الانبيا فلم يفقهم داود برؤية اسرار المسيح ولم يكن شيءٌ من العظمة والافتخار الا اوعز بهِ الانبياء عن ملكهِ فمنهم من كان يرى بيت لحم احقر مدن يهوذا مشرفة

بان ولد فيها وانه صعد الى اسمى من ذلك ورأى مخارجه منذ القديم منذ ايام الازل من حجر ابيه ومنهم من كان يرى بتولية امه قائلاً هذا عمانوئيل (اي هذا الاله الذي معنا) يخرج من حجر بتول هذا الولد العجيب الذي يدعوه الله . ومنهم من كان يراه داخلاً الى الهيكل ومنهم من كان يراه مجدًا في قبره حيث ظهر على الموت وفي اثناء انذارهم بمعجزاته لم يضربوا صفحًا عمّا لحقه من العار لانهم رأوه مباعًا وعلموا من قبل قدر الدراهم التي بيع بها بانها ثلاثون من الفضة وعرفوا استعمالها وفي عرض ما كانوا يرونه عظيمًا ومرفع المقام كانوا يرونه محتقرًا وغير معروف بين بني الانسان وانه اصبح اعجوبة للبشر بذله وعظته وكانوا يدعونه احقر البشر ورجل الآلام الحامل كل الخطايا المبدي الرحمة غير المعروف المشوه بسبب قروحه وبهذا كان يشفي جروحاتنا وانه عومل معاملة ذي الجرائر وقادة الاشرار الى العذاب وسلم نفسه كالنعجة البريئة بكل سكينة وارتياح للموت . وذرية كبرى مآهبة لان تلد منه بهذه الذريعة وانزل الله على شعبه انتقامًا لعدم ايمانهم . ولكي تتم النبوءة افضى بهم الامر الى ان حسبوا السنين الى مجيئه وذلك امر بين لا ينكره الا من كان خامد البصيرة والبصر

وليس الانبياء قد نظروا المسيح فقط بل انهم كانوا رمزًا اليه والى اسراره ولاسيما رمز الصليب لان اكثرهم قد تجشموا مشاق الاضطهاد للعدل ومثلوا لنا بعذاباتهم البر والحقيقة اللذين اضطهدا في المسيح . فلقد كان اليا واليشاع هدفًا للاضطهاد المستمر ولكم كان اشعيا هزءًا وسخرية للشعب والملوك الذين قتلوه حسب تقليد اليهود المتواصل ورجموا زكريا بن يوياداع بالحجارة وكان حزقيا غارقًا في لجة الحزن وارميا في مشاق متواترة يكل اللسان عن تبيانها . وقد طرح دانيال مرتين في جب الاسود وكل اولائك كانوا هدفًا لكل اضطهاد موبق ويظهروا لنا جميعهم بانموذجهم ان الشعب القديم وان يكن مستلزمًا بالعموم ان يعضد بالبركة الجسدية بسبب ضعفه فان اقوياء اسرائيل اولي التقى والبر كانوا يقتاتون خبز الشجون ويجرعون سابقًا الكاس المعدة لابن الله رجاء النجاة . وبمقدار ما كان اقنوم المسيح مقدسًا كانت تلك الكاس مرة ولقد رأى الانبياء بوضوح بين البركة التي اهبطها الرب على الوثنيين بواسطة المسيح فانذروا بها من قبل بكلام ترفع الى اعلى البلاغة فان اصل يسى وداود قد بدا لاشعيا النبي كانه راية معطاة من الله للشعوب واياه ترتجي الامم . واما رجل الاوجاع الذي اصبحت قروحاته علة شفائنا فقد اصطفي

ليغسل الوثنيين بنضحة هي دمه والمعمودية ولايجترئ الملوك ان يبدوا امامه حديثًا وراية مقالة من لم تسمع به اذناه وجيء اليه بمن لم يكونوا يعرفونه فهو الشاهد الذي ناله الشعوب والقائد والمعلم الذي بُعث به الى الوثنيين . وقد انحاز في عهده شعب مجهول الى شعب الرب وهرع اليه الوثنيون من جميع الانحاء ولا ريب انه صديق صهيون الذي كان نوره يتلألأ في الآفاق وهو المنقذ صهيون الذي يضيء كالنبراس وسوف يراه الامم وجميع الملوك سوف يعرفون ذلك الرجل الشهير في نبوات صهيون

فها قد صرح به بزيادة ايضاح واكثر بيان واخص صفات . وهو انه قد دعي بالرجل العريق في الكياسة المصطفى بنوع خاص من لدن الله الذي سر به وقد بعث به ليقضي للامم وتستأني سنة الجزر التي تدعوها الامم العبرانية اوروبا والامصار القاصية لايهنف ولا يسمع له صوت خارجًا لانه لطيف ودمث الاخلاق لايسحق الآباءة المرضوضة ولا يزيل دخان الكتان ولا يضيق على بني الغبراء المجرمين بل صوته الرخيم يدعوهم اليه ويده الكريمة تاخذ بايديهم . سوف يفتح عيون العميان فيبصرون ويخلص من زوايا السجن مسجونًا ولا يكون له من السلطة اقل من الرافة . ومن اعرق صفاته ان يقرن الرحمة بالقوة ولذلك يدوخ صوته الرقيق اقصى العالم ويجعل الارض واجنة مائتة دون ان ياخذ ساكنيها تمرد ولا يكون مأنوفًا منه اوزاحفًا وهذا الذي كان في اليهودية يكون معروفًا لاينتصران يكون ركنًا للاتحاد بين الله وبني الانسان بل يكون نورًا لجميع الامم ايضًا ولا يكون في زمان ملكه العجيب الاثوريون والمصريون والاسرائيليون الا شعبًا واحدًا للرب وتصبح كل الامم شعبًا اسرائيليًا مقدسًا ولاتكون اورشليم مدينة خاصة بل نموذج الفة جديدة حيث يلتئم فيها كل الامم من اوروبا وافريقيا واسيا . ويدوخ تلك الامصار الرسل الذين يفخمهم الرب بعلاماته ليكشفوا عن مجده لجميع الامم ويصبح المصطفون الذين كانوا يدعون باسم اسرائيل يدعون منذ ذاك الآن باسم آخر حيث تتم المواعيد بانقلاب ابدي السعادة وان الكهنة واللاويين الذي كانوا الى ذاك الآن من نسل هارون يخرجون من ثم من بين الامم . وتحل محل الذبائح القديمة ذبيحة اخرى اكثر منها قبولاً وطهارة وحينئذ يعرف لماذا كان داود ينشد كاهنًا من مرتبة جديدة وسوف ينزل الصديق من السماء كالطل وتنبت الارض المخلص الذي ينبت معه العدل لان السماء والارض تتحدان معًا مشتركتين بولادته . ذاك الذي يكون سماويًا ارضيًا وتبدو

طرق اخرى للفضيلة في العالم بامثاله وتعليمه وترخ النعمة التي يهبط من لدنه عزّ وجل في القلوب ويغبر كل شيء لدى مجيئهِ وقد آلى الله على نفسه ان تودي له السجود كل ركبةٍ ويقسم بهِ كل لسان ويعترف بنوتهِ

فهاك قسمًا من العجائب التي ابداها الرب للانبياء في عهد اولاد داود ولداود نفسه قبل غيره فكتبوا جميعهم تاريخ ابن الله قبل ما أتاهُ بانه مزمع ان يصير ابن ابراهيم وداود. وبناء على ذلك تسلسل الامور طرًّا بالمقاصد الالهية بكل دقة ونظام لان ذلك المسيح الذي قد بدا عن بعدٍ كأنهُ ابن لابراهيم قد بدا عن قربٍ كانه ابن داود وان الملك معدٌّ له وان معرفة الله التي ذاعت في كل العالم اصبحت كانها دليل قاطعٌ على مأتاه وقد تقرر ارتداد الامم الى الايمان الحق والبركة المزمعة ان تحل على كل شعوب الارض التي وعدَ بها منذ زمان مديد ابراهيم واسحق ويعقوب . وقد كان كل شعب الرب على وشك ذاك الانتظام ومع ذلك فلم ينفك الرب يقودهُ بنمطٍ غريب فتعاهد مع داود معاهدةً جديدة ووعدهُ بان يذود عنه وعن كل الملوك خلفائه ان استمروا يسعون حسب القوانين التي منحهم اياها بواسطة موسى والأ فيبرحهم بالعقاب الاليم . وعلى ذلك ان داود تغافل عن تلك الوصايا فكان اول من تجشم مشاق العقاب ولما تاب عن خطيئته مكفرًا عنها رضي الله عنه واثقله بالنعم والخيرات فاصبح انموذجًا يقتدى به لكثرة صلاحه ولذلك توارث الملك في بيته وطالما اقتفى سليمان اثره بالبر والتقى فكان سعيدًا . بيد انه ضل عن طريق هدايته شيخًا ومع ذلك فقد عفا الله عنهُ لحبه لداود عبده لكنه توعده بقصاص سوف يوقعه على ابنه وعليهِ قد ابان للآباء حسب حكمته السرية انه يبقي لأولادهم ثوابًا او عقابًا يتكفل بها المستقبل وما ذلك الأ ليجعلهم مستمرين على الرضوخ لاوامره بشان مهامهم العائلية وتنفيذًا لهذه الاوامر اسلم رحبعام ذاته لمشيرين ذوي غرة فتناقصت مملكته بانحياز عشرة الاسباط عنهُ وفي غضون انفصال تلك الاسباط المتنفي عن الله وملكهم كان اولاد يهوذا ذوي الامانة بالله وبصفيه داود مستمسكين بعروة العهد وبامانة ابراهيم واخاهم على ذلك اللاويون وسبط بنيمين فلبثت مملكة شعب الله موطدة بذلك الاتحاد باسم مملكة يهوذا واستمرت سنة موسى مرعية بكل ما لها من القوة.

وكان الله لايزال يذكر عهده مع ابراهيم واسحق ويعقوب قسرًا عن العبادة الوثنية والفساد العظيم الذي كان بين عشرة الاسباط المنفصلين ولذلك لم يتلاشَ ذكر

سنتهِ بين اولائك المتمردين فاستمر يدعوهم الى ان يتوبوا بمعجزات كثيرة وبانذارات متواصلة كان يبعث بها اليهم بلسان ابنائه الابرار . ولما تصلدت قلوبهم وتمادوا في الآثام والجرائر انف من الرفق بهم ولذلك طردهم من ارض الميعاد قاطعًا عنهم الرجاء بالأياب اليها .

واما تاريخ طوبيا الذي كان في ذلك الحين نفسهِ وفي ابتداء اسر الاسرائيليين فيتبين لنا منه سلوك ابناء الله الذين بقوا بين الاسباط المنفصلين لان ذلك الرجل الصدوق قد انحبس عن تادية الرضوخ للاوثان طالما كان بين الاسباط قبل السبي وقصارى الامر انهُ كان يرعى السنة حق الرعاية لانهُ كان يجاهر بعبادة الله في هيكلهِ في اورشليم دون ان يجنح بهِ الاقتداء الذريع او يردعهُ عن ذلك ذعر اوخوف . ولما كان اسيرًا في نينوى ومستهدفًا لسهام الاضطهاد لم يبرح ثابتًا في التقى والبر هو وعائلته . ويتضح من المجازاة التي نالها هو وابنهُ في تلك الارض ان الله كان له وسائل خفية قسرًا عن الاسر والاضطهاد بان يظهر لعابديه البركة المعدة لمن يرعى السنة لكنهُ كان يرفع افكارهم الى العلاء بواسطة المشاق التي كانت تمنيهم وكان بنو اسرائيل يعرفون بواسطة انذار طوبيا وارشاده أنّ يدَ الرب التي كانت تعاقبهم بضرب العصا ومع ذلك فقد استمر معظمهم على العتوّ والعناد واما بنو يهوذا فلم ينجع بهم مثال اسرائيل ولم يرعووا عن غرورهم فلبثوا بهم ممتثلين فواصل الله انذارهم بواسطة انبيائهِ الذين كان يبعث بهم بالتواتر ليسهروا في الليل ويستيقظوا في الصباح كما يقول هو نفسه وما ذلك الأ دليلٌ على اهتمامهِ الابوي . ولما غالوا في الجحد انف منهم وتحرك عليهم غضبهُ وتوعدهم بان يعاملهم كما عامل اخوتهم المتمردين .

الفصل الخامس

في حيوة الانبياء ووظيفتهم واحكام الرب المعلنة بالنبوّات

ليس في تاريخ شعب الله ما هو اهمّ من وظائف الانبياء فان اناسًا كثيرين كانوا متباعدين عن البشر بعيشتهم ومرتدين بالبسة خاصة وكانوا في منازلهم يعيشون معيشة جمهورية تحت ادارة رئيس يقيمه الرب عليهم . ولقد كانت عيشتهم في الفاقة والتقشف

رمزًا الى العيشة التي ينذر بها في عهد الانجيل . وكان الرب يترائى لهم بنوع خاص ويظهر امام الشعب ذلك الوحي العجيب ولم يكن يغالي به الا حينما كان الفساد يتكاثر وقد بدا وقتئذٍ ان عبادة الاوثان كانت مزمعة على ان تلاشي سنة الله وكان الانبياء يذيعون في تلك الاوقات التعيسة انذارات الله شفاهًا وكتابةً رجاء ان يقوموا بناصر الحق المبين وقد كانت الايدي تتداول تآليفهم ويستبقيها الشعوب كتذكارٍ مستمرٍ للاجيال الآتية وكان يخاز اليهم كلٌّ من كان يستمرُّ واثقًا بالله .

وقد نرى في اسرائيل حيث استمرّت عبادة الاوثان ان كل من كان يجنح الى الايمان كان يحتفل نهار السبت وايام الاعياد المومأ اليها في سنة موسى . وقد طالما كان يحض الانبياء الصديقين على الثبات في ميعاد الرب وتحمل جمٍّ غفيرٍ منهم عقاب الموت الزوءام وتسنن كثيرٌ من الناس باعالهم المبرورة في ايام الملك منسى ايام البوس والشدة . وهُريقت دماؤهم في سبيل الله ويتبين من ذلك ان الحقيقة لم تلبث قليلاً دون شهادة .

وينجم من ذلك ان الالفة كانت سائدة بين شعب الله لان رباط الاتحاد بين الانبياء كان متينًا وكانت فيالق من المومنين يثبتون معهم علانية في الاتحاد بشريعة الرب والكهنة الابرار الذين ثبتوا في ما غادره لهم سلفاؤهم منذ هرون . وفي عهد الملوك الكفرة كاحاز ومنسى لم ينفك اسعياء وانبياء آخرين من الغفاة الجنانة التي كانت تثبيت الميعاد وفيها كل رعاية السنّة كما يقول بولس الرسول . ولم تنسخ رعاية السبت والاعياد وان يكن احاز قد قفل باب الهيكل ووقف الذبائح حينًا من الدهر ظلمًا وعدوانًا فلم يكن ذلك مانعًا من ان يسبح الله اولياؤه ويجهرون باسمه فان الخالق جلّ شانه لم يشأ ان تنسخ الصلوة من بين شعبه . ولما عزم هامان على ان يمحو ميراث الرب ويغير مواعيدهُ ويزيل تسابيحه لم يخفَ على احدٍ ما صنع الله به قصدَ ان يصدهُ عما يشاء وعلت قوة الله وسمت لما ازمع انتيوخوس على ان يقوض ركن الهيكل والدين وانذر الانبياء احاز ومنسى كثيرًا ليقوما بناصر الحقّ والدين ويدعا العبادة سالمة وقد كتبت كلمات الانبياء الذين كانوا يناجونهم باسم الرب اله اسرائيل في تاريخ ملوك اسرائيل كما ينوه عنه الكتاب المقدس واما منسى فقد تلين قلبهُ وتاب بسبب انذارهم واصبح ارشاد الانبياء ذريعة لان يحفظ للشريعة من المومنين عددًا كبيرًا . وان حزب الصالحين

كان لم يزل قويًّا حتى ان الاحكام كانت تصدران الملوك الكفرة الذي تبادهم غائلة الموت ليس من الحق ان يرمسوا في تربة داود سكنو الصالحين وان يكن قد كتب ان احاز قد دفن في مدينة داود فيوخذ من الكتاب المقدس انهُ لم يرمس في تربة ملوك اسرائيل . ولم يخرج منسى عن نطاق ذلك الحكم ولو اصبح من بعد تحجن تائبًا ولم يكن ذلك الا ليبقى له اثرٌ مستمرٌ يبعث على الرعدة والارهاب من سلوكه ولكي لا يدور في خلد احدٍ ان الذين كانوا متحدين بالعبادة علانية مع الانبياء لم يكن بينهم خلفاء شرعيون للكهنة قال حزقيال صريحًا : اما الكهنة واللاويون بنوا صادوق الذين رعوا سنن مقدسي اذ ضلّ بنو اسرائيل عني فهم يزدلفون اليّ ليخدموني . ويقفوا قدامي ليقربوا لي الشحم والدم قال الرب .

ومع ذلك فان عبادة الاوثان التي كانت وسيلة لان تطمس اسرائيل كانت مرارًا جمة تجذب اليها في مملكة يهوذا الملوك واكثر الشعب قسرًا عن الانبياء المومنين والكهنة الصديقين والشعب المتحد معهم في حفظ الشريعة . وان يكن الملوك غادروا الله اباءهم نسيًا منسيًّا فجعلهم الله اكرامًا لعبده داود لانه كان دائمًا يرنو اليه . ولما كان الملوك بنو داود يتسننون باعمال ابائهم كان الله يتجع لهم بالعجائب العظيمة قصدَ نجاتهم الا انهم كانوا يشعرون بقوة يده التي كانت تثقل عليهم لما كانوا ينغمسون في الفساد والغواية . وكان ملوك مصر وسوريا ولاسيما ملوك اثور وبابل كقضيب حنقهِ . ولما فشا الكفر اقام الرب في الشرق ملكًا جبارًا مرهبًا يقال له نبوخذنصر وولاه على بابل فكان اشر الفاتحين . وكان يخيف الله به الملوك عن بعدٍ كانه نقمةٌ عليهم في عزمهِ ان يوسعهم ارهاقًا وتعنيتًا فعلق يسعى والذُّعر يسعى امامهُ فانقض في بادئ الامر على اورشليم ففتحها ونقل من سكانها جزءًا الى بابل . ومع ذلك فلم يرعو من استقرَّ بهم المقام في بلادهم ولا من جيء بهم وقد طالما جدّ ارمياء النبيء وحزقيال في سبيل ارجاعهم عن غيهم فلم يرجعوا بل آثروا عليها الانبياء الكذبة الذين غالوا في ان يداهنوهم ويصانعوهم بالخديعة فانثنى من ثم ذو الانتقام الى بلاد يهوذا وعنّى اهل اورشليم بالمبرحات الموبقة وصوّب عليها سهام غضبه فاتلف منها جانبًا كبيرًا ولما تعاظمت الجرائر وتمادى قاطنوها في الخيلاء والصلف وجه عنايته الى اتلافها فجعلها قاعًا صفصفًا

ولم يعفُ الله عن ادمار هيكل قدسهِ . ولا ريب في ان بني اسرائيل لو استمروا

ثابتين في عبادة الله لكان ذلك الهيكل الذي هو زينة العالم ابديًا لا يمحوهُ كرور الايام . فنجح الله عنه فاذكى الاثوريون فيه النار فاحرقوهُ . واما قول اليهود ان هيكل الله هيكل الله هو عندنا فقد ذهب ادراج الرياح زاعمين ان ذلك الهيكل في وسعهِ ان ينقذهم وحدهُ فشاء ذو اليد القوية ان يدلهم على ان نجاة المرء ليست موقوفة على بناء الحجارة بل على قلوب انطوت على الطهر والامانة

ولذلك عرّض هيكل اورشليم لان يصبح يبابًا وكنوزهُ للسلب واصبحت كل ادواته الثمينة التي وقفها اليه الملوك الصديون فريسة لمطامع ذلك الملك الجحود . الآن سقوط شعب الله ازمع ان يكون مثالاً لكل الارض وانذارًا لانا نرى في هذا الملك العتي الظافر صفات كل الفاتحين الذين كانوا عصيًا لغضب الله فكان جلّ جلالة يتخذهم آلةً لتنفيذ احكامهِ العادلة ثم ينفذ احكامه فيهم لان نبوفولصّر الذي قد استلأم بقوة الهية واصبح ظاهرًا ظهورًا فائقًا عاقب جميع اعداء شعب الله وبيان ذلك انهُ زحف على الادوميين والعمونيين والموآبيين وسلب ملوك سوريا املاكهم واضحت مصر التي القت على عواتق اليهود نير الاسترقاق هدفًا لسهام هذا الملك الجبار فانهُ اثقلها بالجزية بيدَ أن بأسهُ لم يكن اقل مضرةً على يهوذا فان الشعوب لم ينتهزوا الحين الذي اوسعهم بهِ الرب رجاء الاياب اليهِ فوهي فيها كل ما كان قائمًا وقوّض نبوفولصّر قضيب غضب الرب ركن كل شيءٍ وقد اصبح هو نفسه على جرف سوف ينهار . واما الرب الذي قد تخذ ذلك الملك آلةً يعاقب بها شعبه واعداءهُ ترك قصاصةً لمهلة بدءِ التوبة

الفصل السادس

في قضاء الرب على نبوفولصّر والملوك خلفائهِ وكل دولة الاثوريين

ان الرب لم يخفّ على شعبهِ ما كان مزمعًا ان يحل في ذلك الملك الذي كان يعنتهم ويضيق عليهم وفي دولة الكلدانيين التي تتخذهم اسرى وخيفة ان يصبحوا جانحين الى مجدِ الكافرين وسوددهم اخذ الانبياء ينذرونهم بان ملك الاشرار قريب الزوال فان اشعياء الذي شاهد ما اتصل اليه نبو فولصر من العزّ والمنعة والجبروت تنبأ بانه سيهبط مدحورًا وتصبح مملكته طامسةً دارسةً وذلك قبل ان يبرز الى عالم الوجود وقد

كانت بابل حقيرة جدًا لما تنبأ هذا النبيء عما ستصل اليه من الباس والشوكة . وبعد ذلك بقليل من الحين رأى ما الم بها من الدثار وعلى ذلك كانت التقلبات التي تنشأ في المدائن والممالك التي طالما ارهقت شعب الله او تغتنم من خسائرهِ تكتب في تلك النبوءات التي كانت لا يمضي عليها قليلٌ من الحين الآ تتم وان اليهود الذين عوقبوا بكل صرامةٍ شاهدوا سقوط السامرة وادوم وغزة واسكالون ودمشق والمدائن العمونية والموآبية العدوتين اللدّاوين وحاضرات الممالك العظام كصور ملكة البحر وتانيس وممفيس . وثاب التي كان لها مائة بوابة سقطت مع غنا سيزوستريس ونينوا نفسها مركز ملوك اثور الضاهدين وبابل ذات الخيلاء والكبر الظاهرة على غيرها المثرية بما اغتنمت . وكلّ ذلك تم قبل اليهود او في اثنائهم او بعدهم بقليل كما كتب في سفر الانبياء .

وبلا ريب ان اورشليم سقطت في ذاك الحين نفسهِ لكثرة ما تحملت من الجرائر والمنكرات بيدَ ان الله لم يدعها فاصمةً حبل الرجاء فان اشعياء الذي تنبأ عن سقوطها رأى نهوضها المجيد وانه عينهُ اوعز قبل ميلاد قورش بمايتي عام الى انهُ ينقذها وان ارمياء النبي الذي لايشكُّ في سموّ نبوآتهِ وعدَ الشعب بالاياب السنة السبعين بعد السبي وما ذلك الاَّ ليبدي لهم ما سيعتورهم من الهلاك عقابًا على نكرانهم الجميل وفي اثناء السبي كان الشعب مرعيّ الحرمة بسبب انبيائهِ الذين كانوا ينذرون الامم والملوك بما سيطرأ عليهم من الموبقات .

ونبو فولصر الذي كانت تودى له العبادة خرَّ لدانيال خاشعًا لأن الدهش اخذه اذ شعر بالاسرار الالهية التي كان دانيال ينشرها لديهِ . واعلمهُ بما سيقضى عليه فكان انفاذهُ عقيب ذلك دليلاً على مصداق ما قال . فان ذلك الملك الظافر كان يحتفل في بابل التي جعلها اعظم المدن وامنعها قوةً وابهج مدينة اشرقت عليها الشمس فوقف له الرب هنالك في المرصاد لينكس اعلام عظمتهِ فكان في حكمه سعيدًا لاتلمُّ بجسمهِ قرحةٌ طالما كان مترئسًا على جنودهِ وفي كل ايام فتوحاته وكان مشرفًا على السقوط في بيته تطبيقًا لنبوءة حزقيال ولكثرة ما كان متماديًا في الكبر والصلف تعالى فوق العالم الانساني . ففاجأهُ الله اذ ذاك بالضربات الويلة وذهب بعقلهِ وطرح بهِ بين البهائم الاَّ انه لما جاء الحين المتاح الذي اوعز اليهِ بهِ دانيال رجع الى عقلهِ وتاب الى رب السماء الذي جعله يشعر بقوته بيدَ ان خلفاءهُ لم يتسننوا باعمالهِ فتغيرت حينئذٍ

الشوءون في بابل وازف الوقت الذي حدده الانبياء بنهوض يهوذا فبدا قورش مترئسًا على الماديين والفرس ورضخ كل شيء له فازدلف رويدًا رويدًا وزاحف الكلدانيين لانهُ توقف في تسياره كثيرًا وفشا نبأ ماتاه كما تنبا اشعياء ومن ثم زحف على بابل . فهذه المدينة التي طالما توعدها الانبياء مرارًا جمة لتوغلها في عباب الكبرياء والعظمة غير ثابتة عراها الظافر الجريء وهي لاتذعر منهُ ولاترتعب . فانها كانت تتشامخ بهامتها لكثرة ما كان لها من الغنى والثروة وبذوخ اسوارها وعظم جيوشها وسعة نطاق حكمها الذي كان يكتنف بلادًا باسرها كما روى القدماء وذخرها العظيمة . وبعد ان حوصرت زمنًا مديدًا لم ترهب ادنى غائلة بل كانت تهزأ باعدائها غير مبالية بما كان يحتفر قورش حولها من الخنادق والاخاديد ولم يكن يهتم اهلوها داخل ابوابها الا في المآدب والملذات وقام ملكها بلشصر حفيد نبو قولصر الذي كان يضاهيه بالكبرياء لابالبسالة ودعا ظهراءه المقربين وصنع لهم احتفالاً عظيمًا . وحدث في ذلك الاحتفال فساد ما عليه من مزيد . لانه اتى بالاواني القدسية المنتزعة من هيكل اورشليم ودنسها مازجًا الارجاس بالتبرج فحنق الله حينئذٍ منهُ وهبطت من العلاء يدٌ سماوية وكتبت على ظاهر المنزل المعد للوليمة كلامًا يبعث على الارهاب والذعر فاوقفه دانيال الذي كان قد تنبأ عن سقوط جن الكتيب عن معناهُ : قائلاً ان صاعقة ستلمّ بو ونتيجًا لاوامر الرب فتح قورش له في بابل بابًا . واما نهر الفرات الذي كان قد حوله قورش عن مجراه بواسطة خنادق احتفرها له منذ ايام مديدة فقد اكتشف له مجراهُ المتسع وعبر الملك في ذلك المجرى غير المنتظر وعليه اصبحت بابل ذات الكبر فريسة الماديين والفرس وقورش كما قال الانبياء . ولدى ذلك اندثرت معها مملكة الكلدانيين التي ادمرت من الممالك مقدارًا كبيرًا وهكذا تحطمت مطرقة جميع الارض كما يقول ارمياء النبي وسحق الرب عصًا ضرب بو كل الامم حسب قول اشعياء . ورأى الشعوب الذين كانوا يعانون اثقال ملوك الكلدانيين انهم يعانون مثلما كانوا يعانون . وقالوا لبابل اصبحت قرحى مثلنا فضاهيتنا ولقد طالما كنت تقولين في قلبك اصعد الى السماء فاكون نظير العليّ وذلك ما قد انذر بو اشعياء النبي قائلاً سقطت سقطت بابل الكبرى وتحطمت الهتها وسحقت اصنامها وانكسر باعال والهها نابو العظيم الذي كان ملوكها العظام يشقون منه القابهم فان الفرس اعداءهم كانوا يعبدون الشمس ولم يكونوا يقنطون من الاصنام او الملوك الذين اقاموهم آلهة عليهم . واما

سقوط بابل فقد طابق ما تنبأ عليه الانبياء فان مياهها نضبت كما قال ارميا لُججها الظاهر عليها واخذت بها سنة النوم والغفلة وهي غريقة بحار الملذات كما قال النبي وقبضت عليها ايدي اعدائها كان احبولة طُرحت عليها فاصبحت قنيصة وهي غير شاعرة . فغدا كل سكانها هدفًا لنصال السهام وفريسة لغرار الحسام . فان الماديين الظافرين لايطلبون كما قال اشعيا نضارًا ولا لجينًا بل الانتقام وحدهُ ويجهدون في ان يشفوا غليل غمرهم بان يهلكوا شعبًا ظالمًا حمله تكبره على ان يكون عدوًا لبني الانسان قاطبةً . وكان السعاة يأتون متوافدين على الملك ينبئون لديه ان المدينة قبضت عليها ايدي الاعداء وتنبأ ارميا عن ذلك ومحبوه الذين كان يثق بهم وكانوا يعدونها بملك ابدي ولم يمكن لهم ان ينقذوها من ايدي الظافرين وذلك ما تنبأ عنهُ اشعيا وارميا معًا ولم ينج في هذه المذبحة الهائلة من حسام الظافر الا اليهود وحدهم لانهم كانوا يعرفون ذلك انفًا وقورش الذي امسى قابضًا بنفوذه على كل الشرق شعر ان في هذا الشعب المدحور مرارًا امرًا الهيًا فقرت عينهُ لما سمع بالنبوءات التي اعلنت سلفًا بانتصاره وذعن ان ملكهُ هبةٌ من رب السماء الذي يعبده اليهود . فاوعز اول عامٍ من حكمه الى ان ينهض الهيكل ويبتني الشعب الاسرائيلي .

الفصل السابع

في اختلاف احكام الرب بقضائهِ الصارم على بابل
وحكمهِ الرحوم على اورشليم

من ذا الذي لاياخذه العجب والدهشة من الحكمة الالهية البادية بنوعٍ صريح على اليهود والكلدانيين واورشليم وبابل . فشاء ذو العزة ان يعاقب هاتين المدينتين كلتيهما عقابًا شديدًا فانذر بذلك بفم انبيائهِ الاطهار حذرًا ان يدور في خلد البعض ان ذلك العقاب ليس منه تعالى . فكان اذ ذاك لاورشليم وبابل سقوطٌ رائع حسبما فاهت بو الانبياء من قبل . واما الرب فقد اذاع سرّ ذاك العقاب فاثقل الكلدانيين بالمبرحات وعاقب اليهود الذين هم بنوه رافقًا راحمًا فسقط تكبر الكلدانيين الى الحضيض دون رجاء النهوض وما ذلك الا لان الخيلاء قد اخذت بهم كل مأخذ فاصبحت

فيهم من الصفات الغريزية وملكة في دولة بابل فقد قال النبي ارميا ان ذا الكبر يهوى الى اسفل مدحورًا وليس من احدٍ يقوم بناصرهِ وقد قال اشعياءُ النبي ان بابل الشديدة الختروانة التي هي مثابة عظمة الكلدانيين ستصبح طامسة دارسة مثلما اصبحت صدوم وعمورة . ويغادرها الرب آيسة قنوطة . بيدَ ان ذلك العقاب الصارم لم يوقعهُ على اليهود بل انهُ قاصهم كما يقاصّ الاب بنيه المتمردين امل ان يجنحوا عن غرتهم مزدلفين اليه رضوخًا فيتناسى ما فعلوا ان تابوا اليهِ نادمين ويسدل سجاف الستر على زلاتهم . قال الرب لاتجزع ياعبدي يعقوب فاني انا معك واني ابيد جميع الامم . واما انت فلا ابيدك بل اودبك بالحكم ولا اغفر لك كأنك ذكي . وعلى هذا قد أُخذت بابل من الكلدانيين اخذًا موبدًا . وأُسلمت لشعبٍ آخر ونهضت اورشليم بعد ان كانت دائرة بنوعٍ عجيب . وآب اليها بنوها من كل اصقاع العالم .

الفصل الثامن

في اياب الشعب تحت قيادة زروبّابل وعزرا ونحميا

إنَّ من اعاد بني اسرائيل من السبي زروبّابل من سبط يهوذا ومن نسل الملوك فاتى بنو يهوذا اجواقًا وافعموا الارضين . بيدَ ان عشرة الاسباط تشعثوا وتبدّدوا ما بين الامم الاّ الذين هم موسومون باسم يهوذا فانهم انحازوا تحت رايته وآبوا الى ارض ابائهم . وشادوا في ذاك الحين المذبح واقاموا الهيكل ورفعوا اسوار اورشليم

وكبتَ الفرس الذين اصبحوا ذائدين عن شعب الرب حسد الامم المجاورة وعاد الكاهن العظيم الى مهام امرهِ والكهنة الذين امكن لهم ان يبينوا تسلسلهم بواسطة السجلات العامة . وكل من لم يبين ذلك اصبح مرفوضًا وعزرا نفسه الذي كان كاهنًا ومعلمًا في السنّة والحاكم نحميا اصلحا كل الفساد الذي طرأ منذ السبي وحملا الشعب على ان يرعى الناموس بكل دقة ونظام . وكان الشعوب يصببون العبرات معها على كل الزلات التي سببت لهم ذلك العقاب الاليم . واذعنوا ان موسى تنبأ عن كل ذلك وكانوا جميعهم يطالعون في الكتاب كل ما كان عبد الرب يتوعدهم بهِ وكانوا يشاهدون تنفيذهُ . وكانت نبوّة النبي ارميا والاياب الذي وعدوا بهِ بعد سبعين سنة من الاسر يدهشانهم

ويعزّيانهم فاخذوا اذ ذاك يرضخون لاحكام الرب ويزدلفون اليهِ ويعيشون بالامن والسلام .

الفصل التاسع

في ان الرب الذي كان على وشك ابطال النبوات اذاع نور حقهِ اكثر من الآنف

ان الرب الذي يصنع كل شيء في حينهِ قد استحان الوقت لان يلغي الوسائط الخارقة العادة اي النبوات بين شعبهِ . لانهُ راهُ نبغ في الرشد ولم يكن باقيًا في ذاك الحين الى ماتى المسيح الا خمسمائة عام . واناط الله بعهدة ابنه ذي الجلال ان يسكت الانبياء في كل ذاك الآن ليبقى شعبه منتظرًا من هو مزمعٌ ان يكون منقذًا لتلك النبوات وفي اواخر الاوقات التي عزم فيها الرب على ان يلغي النبوات لاحَ في فكرهِ ان ينشر كل نور حقائقهِ ويكشف كل اسرار حكمتهِ الالهية فابان بنوع صريح اسرار الاوقات الاتية .

فان دانيال رأى في اثناء السبي ولاسيما نحو اواخر ذاك الحين اربعة الممالك التي ازمع الاسرائيليون ان يعيشوا تحت رايتها مرارًا مختلفة بهيئات متباينة . ولا غروَ انهُ نبيء قد ذاعت في تلك الارجاء حكمته وتقواه ورعت الملوك لهُ الحرمة وقد تخذهُ بعضهم سندًا يعوّل عليه في امور الدولة لفرط حصافتهِ وحكمته التي دارت ذكراها على الالسنة وكشف عما كان مطويًا بشان تلك الدول لانهُ كان مزمعًا ان يرى دولة ملك من ملوك اليونان ظاعنة كالسيل الآتيّ وهي دولة الاسكندر وعند سقوطها تقوم دولة اضعف منها ويأخذ بها الشقاق والانقسام فتفنى وهذه الدولة هي دولة خلفائهِ الذين بنوه النبي عن اربعةٍ منهم وهم انتيباطور وسلاكوس وبتولماوس وانتيغونوس . ومن الامور المقررة في التاريخ انهم كانوا ذوي جراءة وباس يفوقون بذلك سواهم . وتوارث شوكتهم خلفاؤهم وقد اوعز ايضًا الى ما اججوا من الحروب وما اوغرت صدورهم من الحسد والى اتحادهم المبني على الرياء والمخاتلة ويشير عن جور ملوك سوريا ومطامعهم وكبريائهم وصفاتهم الذميمة التي قد امتاز بها انتيوخوس ايفان الذي كاشح لشعب الله بالقلى والبغضاء وجار عليهم . وقد

اوعز دانيال الى قصر حكمهِ وما يلم بهِ من العقاب السريع على جورهِ . وفي اواخر تلك الازمنة تتوطد احكام ابن الانسان وتبرز كانها ناشئة من بين تلك الممالك ويعرف بذلك الاسم يسوع المسيح وتدعى مملكتهُ ملك قديسي العلي ويودي كل الشعوب لها رضوخًا عظيمًا وانها لدولة تتهافت على السكينة والسلم وقد وعدها الله بان تكون ازلية وان شوكتها لا تحول الى دولةٍ أُخرى سواها .

ان الله اوحى الى دانيال عن مأتى ابن الانسان اي المسيح المنتظر وعن كيفية تتمة العمل المندوب بهِ اي انقاذ الجنس البشري . لانهُ بينما كان منهمكًا في سبي شعبهِ في بابل وفي السبعين سنة التي حصر بها الله مدة السبي وفي جوارهِ الى ربهِ بالدعاء لينتج له نجاة اخوتهِ رفعهُ الى افكار اسمى منها لانهُ رأى من السنين عددًا سوى ذلك ونجاة اهمّ فقد راى بدلاً من السبعين سنة التي تنبأ عنها ارميا سبعين اسبوعًا منذ الامر الصادر من ارتحشستا ذي اليد الطولى سنة العشرين من ملكهِ لاجل قيام اورشليم فانهُ يقول حينئذٍ بنوع صريح في انتها السبعين عامًا ان الخطيئة تمحى ويتلاشى الاثم ويسود العدل الابدي وتتم النبوة ويمسح قدوس القديسين وان المسيح سوف يبدو كقائد الشعب بعد تسعة وستين اسبوعًا بعد تسعة وستين اسبوعًا (لان النبي كرَّر ذلك) وعند ذلك يقتل جورًا وعدوانًا ويختم قتله لتتم النبوة ويوعز النبي الى اسبوع خاصٍ وهو آخر اسبوع السبعين الذي يقتل فيه المسيح حيث يثبت العهد وفي وسط ذلك الاسبوع تلغى الذبيحة والتقريب ولا جناح في ان ذلك يكون بسبب موت المسيح لان ذلك التغيير ينشأ عقيب موتهِ ولم يبقَ بعد موت المسيح والغاء الذبيحة الا الرجس واليباب فحينئذٍ ترى خراب المدينة والقدس وان الشعب والقائد المتقدم يبيدها ويكون في الهيكل رجسٌ ويستمر اخر دثار الشعب الذي جحد مخلصهُ الى الانقضاء .

فاذا اريد بهذه الاسابيع اسابيع سنوية حسب مقتضى الكتاب المقدس نتج من ذلك اربعمائة وتسعين سنة وقادنا ذلك منذ السنة العشرين من الملك ارتحشستا الى الاسبوع الاخير المفعم من الاسرار حيث تالم فيه المسيح والغى بموتهِ ذبائح السنَّة واتم كل الرموز . فالعلماء ياتون بحسبان متباين ليطابقوا ذلك الوقت تمامًا اما الحسبان الذي رفعتهُ اليك فهو خالٍ من الارتباك ولا يشوش تسلسل ملوك الفرس بل يجعل له وضوحًا بينًا وليس من العجب ان يكون في تاريخ هولاء الملوك قليلٌ من الارتباك الا ان السنين

القليلة التي يقع عليها النزاع لا تكون مشكلاً مهمًا بالنسبة الى تعداد اربعمائة وتسعين سنة فعلامَ نطيل البحث عن هذه المسئلة فان وجد موانع في هذه الامور فقد كان العليّ ازالها بحكم لا يناقض فان الحادث البين يحملنا على ان لا نعبأ بتنقيبر المورخين طرًا فان دثار اليهود الذي وليَ موت السيد المسيح يبين لمن كان اعمى البصيرة تتميم النبوة . ولم يبقَ عليّ الان الّا ان احملك على ان تسرح طائر النظر في احد الظروف فان دانيال يانينا بسرٍّ اخر وهو ان نبوة يعقوب كانت قد انباتنا ان مملكة يهوذا سوف تزول لدن ما تى المسيح بيدَ انهُ لم يوعز الينا ان موته يكون ذريعةً لانقضاءِ هذه المملكة بل الرب قد كشف هذا السرَّ المهمّ لدانيال النبي لما ابان له ان انقضاء اليهود سوف يكون نتيجة موت المسيح وجحدهم اياهُ . فادر لحاظك ياسيدي الى هذا القول فان تسلسل الامور سوف يبينهُ لديك على احسن منوال .

الفصل العاشر

في نبوات زكريا وحجّاي

انك قد عثرت على كل ما ابان الرب لدانيال قبل انتصار فورش وترميم الهيكل . وفي غضون ترميمهِ اقام الله حجاي وزكريا النبيين ثم بعث فورًا بملاخي المزمع ان يكون خاتمة انبياء العهد القديم فكم من الامور التي رآها زكريا النبي . فقد تبين ان كتاب احكام الرب كان كانهُ مفتوح امامهُ وانهُ كان يقرا كل تاريخ شعب الله منذ سبائهِ . فقد انجلى لديهِ تسلسل اضطهاد ملوك سوريا والحروب التي اذكرها على يهوذا لانهُ كان فتوح اورشليم ونهبها يتضحان لديهِ . ترى ببصيرتهِ خرابًا هائلاً وبليلة عظيمة وشعب الله موليًا في البرية آيسًا جزوعًا عائشًا بين الموت والحيوة . وقبل ان اضمحل بزغ امامهُ نورٌ جديد وهو ان الاعداء الكاشحين تشعثوا منهزمين مقموعين وتقوضت الاركان الصنمية في كل الاراضي القدسية وآب الامن والسلام والغضارة الى المدينة والبلاد واصبح الهيكل مرعيّ الحرمة في كل الشرق . ومن الظروف التي تستلفت الانظار اليها ان زكريا اُوحيَ اليه من العلاء ان يهوذا نفسه يحارب اورشليم اي ان بني اورشليم سوف يسلبونها وان كثيرين من اليهود هم من زمرة اعدائها . وكان يرى احيانًا في بيت يهوذا تواتر حوادث معيبة لانهُ

يقول عن لسان الرب انا اقوي بيت يهوذا واني اذلل المالك التي اضطهدتني واعاقب المالك المجاورة التي لاتنفك تضطهدني . فقد ارتد بعضها وانحاز الى شعب الرب . ولقد كان يرى ان الشعب غائص في لجة انعام الله . ومن جملة انعامات الله انه كان يناجيهم بانتصار الملك المتنبر الطاهر السليقة والقلب المنقذ الذي يدخل اورشليم راكبًا اتانًا

وبعد ان انبأهم عن سعادتهم على يديهم عن تسلسل المصائب وهو انه راى ان النار التهمت الهيكل وساد في البلاد والعاصمة الدثار والقتل والجور وما الى بو الملك من العسف والعدوان اما الرب فيرفق بشعبه المنبوذ جانبًا ويصبح له راعيًا وبعصته يبدع ثم تحتدم الحروب الاهلية وتحول الحال والى ذلك يوعز بدلائل فردية ويكون بدء ذلك الحين لدن سقوط ثلاثة رعاة اي ثلاثة ملوك حسب قول الكتاب فيسقطون في شهر واحد وقول النبي في ذلك بين ذو وضوح اذ يقول قطعت ثلاثة رعاة اي ثلاثة ملوك في شهر واحد وتضايقت نفسي بهم اي بشعبي لان اهواءهم قد اختلفت بي ولم يثبتوا في سنتي وقد قلت لهم اني لا ادعي راعيًا اي لا اكون لكم قائدًا بل اغادركم وشأنكم بخامل بختكم ولا اعبا بما يلم بكم من الشقاق ولا انهمك في ان ادرأ عنكم النوائب المعدة لكم وعلى هذا فليمت من يموت وليتصرم ما يتصرم وبنهم كل من الباقين لحمان خدنه والى ذلك يكون مآل اليهود الذين نسيهم الرب عدلاً . وقصارى القول ان السقوط قد تم بعد فناء هولاء الملوك الثلاثة وان ما هو مزمع ان ياتي سوف يبدي لنا ان تتميم هذه النبوة لم يكن قليل الوضوح .

وفي اثناء هذه المصائب العديدة التي تنبأ عنها زكريا جليًا يتبين لنا بلية اشد من كل تلك النوازل وهي انه بعد ان سار الشقاق بين اولائك الشعوب وآل بهم الامر الى السقوط باعوا الرب العظيم بثلاثين من الفضة . وقد توصل النبي الى ان رأى بروياه حقل الخزفي الذي صرفت في سبيله واصبح من بعد ذلك بلية عظيمة بين الشعب فقست قلوبهم وتحطمت شوكتهم .

فيا سيدي ان لساني لعيّ عن تبيان نبوة زكريا العجيبة التي راى بها الراعي مضروبًا والضان مبددة والشعب يرنو الى ربه الذي طعنه ولقد راى دموعًا تسح عليه تفوق دموع الثكلى على وحيدها وحزنًا عليه شجيًا اقوى من الحزن على الملك يوشيا وقد راى امرًا اعظم من كل ذلك وهو ان الرب بعث بالرب الى اورشليم ليدعوا الامم لكي يلتصقوا

بشعبه ويقطن هو بينهم .

اما ما قاله حجاي بشان ذلك فقد كان عريًا عن كل اطراء ومفرغًا في قالب الغرائب لان الشيوخ لما كان يبني الهيكل الثاني كانوا يسحون العبرات حزنًا والتياعًا مقابلين سودد البناء الاول بالبناء الثاني الذي هو نتيجة الفاقة والفقر اما النبي الذي كان اسمى معرفة منهم فقد كان يبذرهم بمجد الهيكل الثاني ويؤثره على الاول ويبين لهم انه يقام بمن ينتظره الامم وهو المسيح الموعود به منذ الفين سنة ومنذ ابتداء العالم ليكون منقذًا للامم وهو الذي سيبدو في الهيكل الاخير لان الرب يهب فيه السلام وكل الارض تشهد باتي مخلصها ولا يبقى لماتاه الا قليل من الحين وان الازمنة المهياة لمجيئه قد اصبحت من آخر الازمنة .

الفصل الحادي عشر

في نبوة ملاخيا آخر الانبيا وتتميم الهيكل الثاني

لما ناهز تجاز الهيكل اخذ الشعوب يقدمون الذبائح بيد ان اليهود ذوي الخسة والدناءة همكوا في تقدمة قرابين ذات عيب وارتفع اعتبار ملاخيا الذي كان يونبهم على ذلك فانه لما كان يرى قرابين اليهود ذات الرجس كان يرى قربانًا ذا طهر عريًا من الدنس موهبًا لان يقرب لله ولا يكون ذلك في هيكل اورشليم فقط بل في فسيح من الارض من مشرق الشمس الى مغربها ليس من اليهود بل من ساير الامم الذين يصبح اسم الرب بينهم عظيمًا كما يقول النبي .

ويرى ايضًا مثل حجاي مجد الهيكل الاخير والمسيح الذي تحل فيه ركابة خطيرًا الا انه كان يرى في الوقت ذاته ان ذاك المسيح هو الله نفسه الذي كرس له ذاك الهيكل لانه يقول عن لسان الرب هئنذا ابعث بملاكي ليسهل الطريق امام وجهي ولدن ذلك ياتي الى هيكله الرب الذي انتم تطلبون وملاك الميثاق الذي انتم تبتغون . يبعث بملاك وهئنذا الملاك المبعوث ذو السودد السامي ولي الهيكل والمبعوث هو الله يلج هيكله كما يلج موئله الخاص وهو المبعوث الذي يطلبه كل الشعب الذي ياتي ليضع ميثاقًا جديدًا ولذلك دعي ملاك الميثاق او العهد .

واذا تحتم ان يبدو هذا الاله المبعوث من قبل الرب في الهيكل الاخير فان مبعوثاً اخر يسبقهُ ويهد لهُ الطريق . ومن ذلك يتضح ان المسيح يسبقهُ البشير وقد اوعز الله عن صفات ذاك البشير الى النبي ملاخي وانهُ يكون كاليا المشهور بالطهر والقداسة ورقة العيش والسلطان والغيرة .

وعلى هذا ان النبيّ الاخير من الشعب القديم قد ابان كل صفات النبيّ الاول المزمع ان ياتي بعدهُ وهو اليا الجديد بشير المخلص الذي سيبدو . ولم يكن شعب الله يستأني الى ذاك الحين نبيًا بل كان يقتصر على سنّة موسى .

ولذلك اتمّ ملاخي نبوَّتهُ بهذه الكلمات اذكروا سنّة موسى عبدي التي اوصيته بها في حوريب الى جميع اسرائيل هئنذا ابعث اليكم باليا النبي ويعطف قلوب الاباء على البنين ويرد قلوب البنين الى ابائهم . ويظهر للبنين ما كان يستنظرهُ الاباء وضمّ الرب الى شريعة موسى الانبياء الذين تكلموا حسب منظوقها وتاريخ شعب الله الذي الله الانبياء اذ كانت مواعيد الناموس وتهديداته مقرّرة بحوادث ظاهرة . ولقد كان كل ذلك مكتوبًا بعناية كبيرة ومنصوصًا حسب ترتيب الازمنة وهذا ما غادرهُ الرب لتعليم شعبه لما الغى الانبياء .

الفصل الثاني عشر

في زمن الهيكل الثاني وثمرة العقابات والنبوات الاخيرة

والغاء عبادة الاصنام وطرد الانبياء الكذبة

ان هذا التعليم قد سبب تغييرًا عظيمًا في اخلاق الاسرائيليين ولم يكونوا بمفتقرين الى الرويا ولا للانذارات الصريحة ولا للمعجزات الغريبة التي كان الرب يستخدمها في شان انقاذهم بل ان الادلة التي باتت لديهم كانت كفوًا لهم في ذلك . وان قلة امانتهم قد لاشتها الحوادث التي تمت لديهم وانارت بصائرهم فانثنوا راضخين ومن ثمّ ضعفت اميالهم الى عبادة الاوثان التي كانوا يتهافتون عليها بنوع غريب . وذلك لانهم لم يجنوا بجحدهم الله ابائهم ثمارًا وكانوا يذكرون دائمًا نبوقولصّر وما تنبيءَ لهم عن الخراب ومع ذلك فقد نشا الخراب في وقت ادنى ما كانوا يخالون . ولقد كانوا يعجبون من رجوعهم في الوقت

المحدود قسرًا عن كل الامور البادية وبسبب من عين لهم ليردهم . ولم تكن ابصارهم ترف على الهيكل الاخير الا يشعرون بما سبب خراب الهيكل الاول وما من شانه قيام هذا وبناء عليه كانوا يثبتون في سبيل الامانة بكتبهم التي كانت الاحوال طرًّا تشهد لها .

ولم يبق بينهم انبياء كذبة لانهم جحجوا عنهم وانفوا من عبادة الاصنام . وبيان ذلك ان زكريا قد تنبأ ان هذين الامرين يحدثان لهم وهاك ماقاله حزقيال في ذاك الشان : في ذلك اليوم يقول رب الجنود اهلك اسماء الاوثان من الارض ولن تذكر الى ما بعد وانزع من الارض الانبياء الكذبة والروح النجس وان تنبأ احدٌ الى ما بعد يقول لهُ ابوهُ وامهُ اللذان ولداهُ لا تحيَ من اجل انك انت تكلمت بالكذب باسم الرب ويمكن لك ان ترى في النبوة نفسها ان ما بقي من القول ليس باقل قوة من هذا . وتمت هذه النبوة بوضوح وجلاء فان الانبياء الكذبة تواروا في عهد الهيكل الاخير ونكص الشعب عما صانعوا وداهنوا وانفوا من ان يسمعوا لهم كلامًا وعكفوا على ان يطالعوا مولفات انبياء الرب الصادقين ولم يكونوا وقتئذ بمحتاجين الى ايضاح ما كانوا يسمعون من النبوة لان الحوادث كانت تتمّ كل يوم وتصبح دليلاً على مصداق ما كان الانبياء يتنبئون .

الفصل الثالث عشر

في السلام بين الشعب وفي من تنبأ عنهُ

لاريب في ان الانبياء طرًّا وعدوا الشعب بسلام عميم ولم نزل نطالع بكل ارتياح ومسرة ما اوعز اليه اشعياء وحزقيال بشان الان السعيد المزمع ان ياتي عقيب سباء بابل . فان ما كان خربًا اصبح مرمومًا واقيمت المدائن والدساكر زاهية وكثرت الشعوب وتنكست اعلام الاعداء الكاشحين واخصبت الارضون وامتدت الغضارة والترف في المدائن وسادت فيها السكينة واصبحت مرتعًا للمسرة والسلام ووعد الله شعبه بسكينة مستمرة دائمة فقبضوا على ناصيتها في ابان حكم الفرس وكانت اوامر الملك قورش مرمم الدولة تقرر لليهود راحة طول ايام الحكم . وقد كانت العيون تحدق بهم في عهد كل من

بدعى احشوروش ويرهبون ما بهيأ لهم من الاذلال والتاويق . فتعطف الله عليهم وزأفهم اذ كانوا يستعبدون وأحال قلب الملك حالاً عنهم ونقم لهم من عدوهم هامان . وبعد ان مرّ ذلك الحادث سريعاً ذهبت عنهم الروعة واصبحوا دون رهبة وليسوا يحزنون . وكان الانبياء ينذرونهم بان يودوا الرضوخ للملوك الذين يتولون امرهم بالله فانقادوا الى ذلك صاغرين . وبناء على ذلك كان الملوك لا يعاملونهم بالقسوة والغلظة بل كانوا يرفقون بهم وياخذون بايديهم ولا يحملّونهم من الجزية ما يبهظهم فارتاحوا الى ذلك وعاشوا في رقة العيش حسب نواميسهم . وكان اذ ذاك السلطان الكهنوتي بينهم مرعيّ الحرمة فكان الكهنة العظام يقيدون اهواءهم ولا يغادرونها تجمح بهم وكان المجلس الشوروي الذي اقامة موسى يرعى مالهُ من السلطان وكانوا يجرون بينهم السلطة في الحبوة والممات دون ان يتداخل احدٌ في اشغالهم وذاك ما كان الملوك يامرونهم بهِ . ولم يغيّر دثار دولة الفرس شيئاً من احوالهم فان الاسكندر لم يهتك حرمة هيكلهم بل اعجب من نواميسهم وزاد في اكرامهم الا انهم أُرهقوا قليلاً في عهد خلفائهِ الاولين . فان بتولماوس بن لاغوس باغت اورشليم وقاد الى مصر مائة الف من الاسرى بيد انهُ توقف فوراً عن ان يكون لهم مكاشحاً بالبغضاء او بالاحرى لم يبغضهم قطُّ بل عزم على ان يخرجهم عن تأدية الخضوع لملوك سوريا اعدائهِ والحقُّ يقال انهُ لما اخضعهم اتاح لهم بحقوق سكان الاسكندرية عاصمة مملكتهِ او بالاحرى صدّق على الحقوق التي كان الاسكندر موسس هذه المدينة قدمنَّ بها عليهم ولما سبَر اعمالهم ورآهم ممن تفردّوا بخلوص النية والامانة ادخلهم في سلك عسكرهِ واناط بعهدتهم المراكز المهمة . فان كان اللاغيديون قد رعوا لهم مقاماً فان السلاسيديون عاملوهم احسن معاملة فان سلاكوس نيكاتور رئيس هذه العائلة اقامهم في انطاكية وادخلهم حفيدهُ انتيوخوس الاله في كل مدائن اسيا الصغرى فانتشروا في البلدان اليونانية عائشين حسب نواميسهم ومتمتعين بكل ما لسكان تلك الارجاء من الحقوق مثلما كانوا في الاسكندرية وانطاكية . وفي ذاك الحين امر بتولماوس فيلادلفوس ملك مصر بشريعتهم ان تترجم الى اللغة اليونانية فعرف الامم اذ ذاك دين اليهود وجدت بالملوك والشعوب الهمة ان يسيّروا الهبات والصلات النفيسة الى هيكل اورشليم واصبح اليهود راتعين في بحبوحة الامن والسكينة تحت لواء ملوك سوريا وتمتعوا براحة لم يتمتعوا بمثلها في عهد ملوكهم

الفصل الرابع عشر

في ابطال الصلح واعادة تقريبه وانقسام الشعب المقدس

واضطهاد انتيوخوس

ان الشعب المقدس لو لم يبد بينهم الشقاق لما كان السلم فيهم مهوّشاً ولقد مضت عليهم من الاعوام ثلثماية وهم راتعون في حلبة الارتياح الذي تنبأ عنهُ الانبياء يوم دخل فيهم الطمع والحسد واوشكا ان يهلكاهم . فان بعض عظائم الاعيان خانوهم رجاء ان يداهنوا الملوك لينالوا منهم حظوة لانهم شاؤا ان ينالوا الشهرة اليونانية وآثروا المجد الباطل على المجد الحقيقي الذي كانوا يقتبسونه وهم بين اهليهم اذ كانوا يحافظون على سنن اجدادهم . فعكفوا على اللهو والتصوف كسائر الامم . وكانت هذه الامور المحدثة تبعث الشعب على الدهشة والذهول . وبدت في طيّ ذلك الزهو عبادة الاوثان كأنها قرّة في عيون كثيرٍ من اليهود . وفضلاً عن ذلك فانهم لم يكونوا متحدي الكلمة والراي في انتخاب الكهنوت العظيم الذي كان في اسمى مكانة في الشعب . وكان ذوو المطامع النفسية يزدلفون من ملوك سوريا أملاً ان يترشحوا الى ذاك المنصب السنيع وكانت هذه الوظيفة المقدسة جزاء لاولائك المصانعين الا ان الحسد والشقاق بين بعض افرادهم اتاهم بمصائب ودواهٍ جسيمة داهمهم والمدينة المقدسة . وحدث حينئذٍ ما قد اوعزنا اليه وتنبأ عنه ذكريا النبي . وهو ان يهوذا نفسه يقاوي اورشليم فسلم المدينة سكانها وهجس انتيوخوس ملك سوريا ان يبيد ذلك الشعب المنقسم رجاء ان يغنم غناهُ . وبدا حينئذٍ هذا الملك مطابقاً لكل ما قاله عنه دانيال النبي : اي طامع خسيس مصانعٌ جائر وقح كافر معتوه بشخ بانفوان كان منصوراً ويانف من نفسهِ ان كان مدحوراً . فولج اورشليم مستعداً لان يصنع ما يشاء . وكان يعزّز آماله على انقسام اليهود لا على قوّة جنوده وفاقاً لما تنبأ عنهُ دانيال وغالى في القسوة اذ دخل المدينة وبعنتهُ كبرياؤهُ وعظمة نفسهِ على ان يرتكب فواحش تنفر منها النفوس . وابدى كلاماً يلمّ بشان العليّ كما تنبأ النبي ايضاً . فتتميماً للنبوات الصادقات ونقمةً مما اقترف الشعب من الجرائر المنكرات اتاح الله له قوة ضد المحرقات الدائمة ودنس الهيكل الذي

احترمهُ من قبلهِ الملوك اسلافه وسلب منه اموالاً افعمت خزينةَ الخاوية . وامر باليهود ان يعبدوا الالهة التي كان اليونانيون يعبدونها مدّعيًا انهُ يساوي عوائد شعبهِ . مع ان ذلك كان ليشفي أُوام مطامعهِ ولاسيا انهُ كان يود لو يعبدون المشتري اولامبيان الذي اقام تمثالهُ في الهيكل نفسهِ . ولما كان يفوق نبوفولصّر بالكفر والاعتساف تهمك في ان يلغي الاعياد والسنة الموسوية والذبائح والدين ويبيد الشعب برمتهِ الآن الانبياء قيدوهُ بشكيمة خيبة الجموح . فان متتيا تصدّى له واحرز كل الاخيار وصنع ابنه يهوذا المكابي هو وقليلٌ من الناس افعالاً عجيبة وظهر هيكل الرب ثلاث سنوات ونصف سنة بعد ان تدنس وهذا كلهُ تنبأ عنه النبي دانيال ثم علق بمحارب الادوميين والامم الذين اجتمعوا مع انتيوخوس . وبعد ان استولى على امنع حصونهم ومعاقلهم انثنى ظافرًا صغير النفس كما تنبأ اشعياء ومنشدًا اناشيد بالرب الذي اتى يبن يديهِ اعداء شعبهِ وهو مضرّجٌ بدمائهم . ولم يفتأ ظاهرًا على اعدائهِ قسرًا عن الجنود العظيمة التي كان يقوم بامرها قادة انتيوخوس . ولم يكن دانيال يعين لهذا الملك الكافر الا ست سنوات ليضطهد شعب الرب . وشعر في الوقت المعين سابقًا في مدينة باعال يهوذا الجريئة وبادهةِ الشجون والاتراح فمات كما قال عنه النبي تعيسًا وليس يبد انسان بعد ان اعترف باِله اسرائيل اعترافًا لم يجدِهِ من بعد ذلك نفعًا . وليس من الامور ان ارفع اليك النبأ عن الحروب التي قام باعبائها خلفاؤهُ ضد اليهود وعن موت يهوذا مخلصهم او عن فوز اخويه يوناتان وسمعان اللذين تعاقبا في الكهنوت واقاما بشدة الباس مجد شعب الرب واعاداهُ الى ما كان سابقًا . فعلم جميع هولاء الافراد ان ملوك سوريا وكل الشعوب المجاورة قد تألبت قلوبهم عليهم عدوانًا . ومن الامور التي كانت تبعثهم على الاسف والثبور انهم كانوا يرون مرارًا جمة بني يهوذا يتدججون في شكتهم ضد وطنهم اورشليم وقد كان ذاك الامر الى ذلك الحين غريبًا الآن النبوة عنه كانت قد صدرت في ما مضى . وكانوا في غضون تلك النوائب يكلون امورهم الى الله فلم يتقهقروا ولم تقهمهم تلك النوازل بل استمروا اشداء اقوياء واستمرّ الشعب تحت لوائهم سعيدًا مغبوطًا وتملص من وثاق عبودية الامم في عهد سمعان الحبر والمحاز اليه خاضعًا له ولبنيهِ بارادة ملوك سوريا ورضاهم

وان ورقة الوثيقة التي بمقتضاها نقل شعب الرب لسمعان واخلافهِ السلطة العامة

والحقوق الملوكية كانت على جانبٍ عظيم من الاعتبار وهي تحوي ما نصه : وهو ان سمعان وذريتهُ يتمتعان بالسلطة الى ان ياتي النبي الحقيقي الامين .

ولما كان معتادًا منذ كيانهِ على القضاء الالهي وشاعرًا بان السلطة منوطةٌ ببيت داود منذ اقامةُ الله على العرش ملكًا وانها سترد اليهِ عند جيئة المسيح وان يكن ذلك بنوع رمزي واسى ممن كانوا ينتظرون جعلوا للكهنوت اجلاً مسمى يقبضون على السلطة في غضونهِ عائشين تحت الويتهم منتظرين ذلك المسيح الذين وعدوا بما تاهُ من قديم الزمان . وبناء عليهِ نهضت مملكة يهوذا المستقلة وتخبرت لها ملكًا يتولى زمامها . فان ذرية يعقوب استمرت مالكةً على سبط يهوذا ومن انحاز اليهِ وملكت باستقلالٍ وسكينة في الارض التي عينت لها .

وزها اذ ذاك الدين اليهودي ذائعًا ونال من لدن الله دلائل جديدة فان اورشليم التي كان انتيوخوس سيداتيس يحاصرها مضيقًا عليها نجت من ذاك الحصار نجاةً تبعث على الحيرة والدهشة لان ذلك الملك لما رأى الشعب عاكفين على تأدية فروض دينهم غير عابئين بما المّ بهم من العسر وشدة الجوع تحركت الشفقة في قلبهِ ومنحهم هدنةً تستمر سبعة ايام في قضاء اسبوع المظال القدسية . ولم يكتف بان ينفس الكرب عنهم بل كان يبعث اليهم ذبائح يقربونها في الهيكل غير عابيءٍ انها تكون موونة يسدّون بها سغبهم في تلك الأزمة الشديدة . ويوخذ من نص العلماء الموءرخين ان اليهود كانوا يحتفلون السنة السابعة وهو انهم يدعون الارض في اثنائها غير مزدرعة رجاء ان تنال بذلك راحةً وذلك طبق ما نصه موسى وكان اليهود في اكبر فاقة الى كل شيءٍ وملك سوريا في وسعهِ ان يبيدهم طرًّا دفعةً واحدة . لانه كان يتراءى له انهم اعدآءٌ له الداء فاراد الله ان ياخذ بايدي شعبهِ وينقذهم من تلك الورطة الشديدة فانزل في قلب الملك الرحمة عليهم غير باعثٍ بملائكتهِ ليقتلوا اعدآءهم كالسابق والجاءهُ الى ان يتعجب من الاسرائيليين الذي لم تصدهم الاخطار الوبيلة والنوائب الجسيمة عن حفظ قوانين دينهم الشديدة ولذلك منّ عليهم بالحيوة والسلام . وكان الانبياء قد تنبئوا ان الرب اقلع عن ان يستمرّ منقذًا شعبهُ بالمعجزات كالايام السالفة بل يستخدم لذلك حكمتهُ الالهية الرحومة ومع ذلك فلم تكن هذه الوسيلة اقل مفعوليةً من تلك وسوف تبدو بنوعٍ حسيٍّ مع تواتر الايام وبواسطة مفعول هذا التدبير الالهي اخذ يوحنا هيركان الذي اشتهر بالجراة

والاقدام لدى عساكر انتيوخوس يستولي على وطنهِ عقيب موت ذلك الملك .

وفي عهدهِ اوسع اليهود نطاق فتوحاتهم فانهم افتتحوا السامرة وفاقًا لما تنبأ عنه حزقيال وارمياء وقمعوا الادوميين والفلسطينيين والعمونيين اعدآءهم الكاشحين ودبنوهم بدينهم تطبيقًا لنبوءة زكريا . وقسرًا عن بغضاء الشعوب المجاورين وحسدهم شيدوا لهم مملكةً جديدة هي مملكة المكابيين فاتصلت الى اكبر درجة من السعة خلا الطول الذي حازته في ايام داود وسليمان وكان ذلك تحت لواء كهنتهم الذين اصبحوا في ذاك الحين ملوكهم

وهاك الهيئة التي مكث بها شعب الرب في عرض تلك التقلبات وقد كان تارة مرضوضًا تحت صدمات العقاب وتارةً متجلدًا تحت اوقار النوائب وانهُ يجهر بالشهادة للحكمة الالهية والعناية الصمدية التي تعامل العالم معاملة متباينة كلاًّ حسب ما يستحق

الفصل الخامس عشر

في انتظار المسيح وما يستند عليه وتاهب ملكه وعود الامم

ان الشعب لم يبرح في أية حالة كانت يوطد آمالهُ على ماتى المسيح اذ كان مرتقبًا انعامًا جديدة تفوق عظمةً على كل ما نال الى ذاك الحين ولم يكن احدٌ يعتقد ان الايمان بالمسيح وبمجيئهِ الذي لم يبرح بين اليهود الى الان قد انتقل اليهم من ابائهم وانبيائهم وذلك من ابتداء الامة لان الله لم يبعث اليهم بنبوات جديدة ولا بنبوات حديثة مدة تسلسل تلك الاعوام المديدة اذ كانوا هم نفوسهم يذعنون بان لا يقوم بينهم نبيٌّ بقصد الحكمة الالهية ومع ذلك كانت امانتهم بمأتى المسيح اقوى منها في الايام السالفة وكانت الامانة شديدةً فيها لما شادوا الهيكل الاخير حتى انهُ لم يكن من المقتضي ان يكون انبياء يثبتوا الشعب وكانوا يثابرون على الامانة بالنبوات القديمة التي شاهدوا مغزاها مرارًا جمة بكل دقة ونظام . وان ما كان لم يتمَّ بعد منها لم يكونوا منذ ذاك الحين يرتابون في تتميمهِ ولم يعانوا ان يثقوا بان الرب الصادق بكل شيء يتمُّ كل ما يناط بالمسيح في حينهِ اي اعظم مواعيدهِ وعماد غيرها

ومن اليقين ان كل تاريخهم وما كان يطرأُ عليهم يومًا فيومًا لم يونا الاَّ بيانًا للنبوات

التي اتاحها لهم الروح القدس . ولا يحملنا على العجب ان نراهم انثنوا الى اراضيهم عقيب سبائهم ونالوا بعد ذلك بردًا وسلامًا مدة ثلاث مائة سنة وان هيكلهم كان مكرمًا وديانتهم مرعية الحرمة في الشرق او ان كوموس الطانينة تعكرت بانشقاقهم او ان ملك سوريا الجبار بذل اقصى الجهد في ان يهلكهم فائزًا حقبةً من الحين بذلك معاقبًا على جريمتهِ او ان دين اليهود وكل شعب الرب زهوا زهاء غريبًا ومملكة يهوذا امتدت في اخر الزمان بفتوحات عظيمة . فكل ذلك قد شاهدناه مكتوبًا في النبوات . ولا ريب في ان كل شيءٍ كان مقررًا حتى الزمان المزمع ان يسود فيهِ الاضطهاد والمحال التي تتأجج فيها مواقد القتال والارض التي يصير فتوحها

انني اوعزت اليك بالاجمال عن هذه النبوات والاسباب في شان ذلك يقتضي له خطبة سابغة الذيول . فحسبك ما قد رايت منها فتثق بوجود هذه النبوات التي هي ركن عقادنا وعماده وكلما غالى الانسان بها متبحرًا اكتشف منها على حقائق فان نبوات شعب الرب تمت صريحًا في اثناء تلك الاوقات ومن ثم لما كان بعض الوثنيين او بالاحرى عدوا الكتب المقدسة بورفيروس وجوليانوس الجاحد قد ارادوا ان يتنبئوا تخذوا نبوات اليهود وتسننوا بها

ويمكن لي ان اثبت لديك ان كان شعب الله لم يكن له انبياء مدة خمسماية سنة ان حالة ذاك الحين كانت باسرها نبوية لان افعال الرب كانت جارية والطرق مهيأة رويدًا رويدًا لتتميم النبوات القديمة

وان انثناء الشعب من سباء بابل لم يكن الاَّ رمزًا الى حرية اعظم وجزيلة الجداء اكثر من تلك وهي التي اتاحها المسيح للبشر الذين هم اسرى الخطيئة واخذ الشعب الذي كان قد تشعث في محال مختلفة في اسيا العليا واسيا الصغرى ومصر والبلدان اليونانية يذيع اسم الله ومجد اله اسرائيل بين الامم . وترجمت الكتب المقدسة المزمعة ان تصير نور العالم الى اشهر اللغات وتقررت قدميتهم . وفي غضون ما كان الهيكل مكرمًا والكتب المقدسة مذاعة لدى الامم كان الرب يبثُّ اياتهِ ويجعل لذلك عن بعدٍ اساسًا

وكل ما كان يحدث بين اليونان كان توطئةً لمعرفة الحقيقة فان فلاسفتهم آبانوا ان العالم كان يتولى امرهُ اله يباين الآلهة التي كانوا هم ورعاع الشعب يعبدونها وان مؤرخيهم يثبتون في مؤلفاتهم ان هذه الفلسفة السامية نشأت في المشرق وفي المحال التي

تشعشت بها اليهود . فمن اية جهة تاتي هذا الحق شرعت الحقيقة المهمة المبثوثة بين الامم توقظ الجنس البشري وان تصدّى لها او كانت منبوذة من اولائك الذين كانوا يعلمونها الآن انتشارها سوف يكون منه براهين قاطعة للذين يحال الى عهدنهم انقاذ الجنس البشري من مهاوي جهله

الفصل السادس عشر

في غباوة الوثنيين الكليَّة قبل ماتى المسيح

لما كان جنوح الامم الى الدين الحق موقوفًا على المسيح وهو السمة الخاصة لماتاه كان الضلال والكفر يسودان على البسيطة . لان الامم الاكثر نورًا كالكلدانيين والمصريين والفينيقيين واليونانيين والرومانيين كانوا اجهل القوم واغباهم في الامور الدينية وذلك دليلٌ على ان الانسان لا يمكن له ان يتدرج الى مدارج هذه الامور الا بنعمة خاصة وحكمة علوية فمن لا يأنف من ان يكشف عن احتفالات الالهة العظيمة واسرارها الدنسة . فان عشقهم وقسوتهم وحسدهم وكل رذائلهم كانت موضوع احتفالاتهم وطقوسهم وذبائحهم واناشيدهم التي كان الناس يتناشدونها في هياكلهم والايقونات التي كانوا يركزونها فيها وعلى ذلك كانوا يتعبدون للاثم زاعمين انه من المقتضيات التي تبذل في سبيل رضى الالهة . وقد منع اعظم الفلاسفة المغالاة في شرب الخمرة الا يوم عيد الاله باخوس اكرامًا له وقد ندد فيلسوفٌ آخر في الايقونات الرجسة طرًّا الا ايقونات الالهة فانه جزم بانها تحتاج الى ان تكرم بتلك النجاسة . فمن يقرأ ما يقتضي صنيعهُ اكرامًا للزهراء والمعاهر المكرسة يحار من ذلك جدًا ولم يصدّ اليونانيين عن الاعتصام بتلك الاسرار القبيحة حكمةٌ او آدابٌ

ولما كانوا يقعون في ورطة خاصة او عامة كانوا ينذرون للزهرا نساءً عواهر ولم يخجلوا من ان يعتقدوا بان نجاتهم موقوفةٌ على صلواتهنَّ المقدمة لتلك الالهة وبعد ان ظهروا على الملك وقمعوا جنودهُ الكثيرة اقاموا في هيكلهم ايقونة تمثل دعاءهم وزياحاتهم ورقشوا عليها الفاظًا فاه بها الشاعر سيسمونيد الشهير وهاك مغزاها ان هؤلاء العاهرات جارن بالدعاء للالهة الزهراء فانقذت اليونانيين اكرامًا لهنَّ . فان كان الحبُّ لامندوحة من

التعبد له فمن طريق اولى كان من المقتضي ان تفرَّغ تلك العبادة للحب المباح لكنما ذلك كان بعكس الامر فان سولون نفسه الشهير الذي لم يكن يظن به ان يقترف فظاعةً كبيرة شاد في اثينا هيكل الزهراء العاهرة او معبد العشق الفاحش . وكانت بلاد اليونان باسرها مفعمةً هياكل مكرسة لهذه الالهة ولم يكن في كل تلك البلاد هيكلٌ لارتباط المودة بين الزوجين . ومع ذلك كانوا يانفون من الزناء في الذكران والاناث وكانوا يعتبرون ان الزيجة من الامور المقدسة بينهم بيد انه لما كانوا يهمون في الدين كانوا يرون ان روحًا اخرى تستولي عليهم وان النور الطبيعي يغادرهم . ولم يكن الرومانيون ينظرون الى الامور الدينية بعين الرصانة والحزم فانهم كانوا يكرسون لاكرام الالهة دنس المراح ومشاهد القارعين بالقواضب الدموية وقصارى الكلام كل ما كانوا يقترفون من المفاسد ودواعي الخشونة . ولست بعالم ان كانت العبادة والتخريبات التي كانوا يخامرونها بالدين انت بكبير مضرة مع انها كانت ذريعة للانفة منه . فليت شعري هل امكن لهم ان يثابروا على الاحترام والوقار المفروضين للامور الالهية في خلال السفاهة التي كانوا يبثونها بالاحاديث المروية في كل العبادات فلا ريب في ان كل العبادة الجمهورية لم تكن الا ملهاة بالاسم الالهي وحقارةً للامور الالهية واقتضى اذ ذاك ان يكون قوةٌ مناقضة للاسم الالهي تبعث بني الانسان على ان يرذلوا صفاته القدسية ويتخذوها باشياء دنيئة وينيطون لها مواضيع ليس للاستهزاء فيها مثابة . وقد قرر الفلاسفة فيما بعد ان وجود الهٍ عدا التي يعبدها رعاع الشعب من الامور التي لامناص منها ولكنهم لم يكن بوسعهم ان يجهروا بذلك عيانًا فان سوقراط اوعز الى ان كلاًّ لابد له من ان يتبع دين وطنه وتلميذه افلاطون الذي كان يشاهد مرارًا بلاد اليونان وكل اقاصي الارض مفعمةً من العبادات الاعتسافية الباعثة على العثور والريبة جعل دعامة جمهوريته ان لا يسوغ لاحد ان يغير شيئًا من القواعد الدينية وان هجس احدٌ بتغيير شيء منها فلا يكون علة الا من داعيات الجنون . فهؤلاء الفلاسفة الذين اتوا باقوالٍ سامية في الطبيعة الالهية لم يكن لهم جراءة على مقاومة الضلالة العامة وقد ايسوا من ان يفوزوا عليها ولما اتهم سوقراط بانه يجحد الالهة اخذ يدافع عن نفسه كما يدافع عن جريرةٍ كبرى اقترفها واذ كان افلاطون يتكلم عن الاله الذي فطر المبروءات قال انه من الامور التي يعنى وجودها وايضاحه امام الشعب امرٌ منكرٌ . وآلى على نفسه انه لايتكلم عنه الا بطريق الاحاجي والمعميات خشية ان

نصبح هذه الحقيقة العظيمة عرضةً للهزء والسخرية

فياللداهية الدهماء ان النوع الانساني قد تهور الى مهاوي الخمول ولم يمكن له اذ ذاك ان يتحمل الاله الحقيقي وان اثينا العظمى المعتبرة بين المدائن سيدتهن بالنظر لما استغرقت بالتمدن والآداب والمعارف كانت تشدّ النكير على من يتكلمون بالروحانيات وتنمي اليهم الجحود الالهي وبناءً عليهِ قضت على سوقراط بزهوق الروح .

فلو كان بعض الفلاسفة اجترئوا على ان يذيعوا ان التماثيل ليست "الهة كما كانت العامة تخال ذلك لكانوا قد أُرغموا فيما بعد ان يكذبوا نفوسهم ولكان قد جزم مجلس (الارهوباج) اي مجلس الشيوخ بنفيهم وعوملوا معاملة الجاحدين وكانت الضلالة سائدة في اقطار كل البسيطة . وقد كان الحق اذ ذاك زهوقًا ولم يكن للاله الحق من معبدٍ ولا عبادة الاَّ في اورشليم ولما كان الوثنيون يقدمون له القرابين لم يكونوا يعتبرونهُ كاله اسرائيل بل كسائر الالهة . وبلاد اليهودية وحدها كانت تشعر بتفرده في الالوهية وتعلم حق العلم ان اجتزاء العبادة بينهُ وبين الالهة من شانهِ ان يزيلها عنه .

الفصل السابع عشر

في الفساد والاعتقادات الباطلة عند اليهود

وتعليم الفريسيين الكاذب

ان اليهود الذين كانوا يعرفون الرب وهم مستودع الدين الحق شرعوا في اواخر الحين ان ينسوا اله ابائهم او ان يمزجوا بعبادتهم اياهُ اعتقادات باطلة لاتليق بشانهِ تعالى طالما كان النوع الانساني يضعف لديه الحق كلما توالت عليه الاحقاب والاحيان . فقد نشأت في عهد المكابيين منذ زمان يوناثان شيعة الفريسيين فنالوا في بادىء الامر شهرةً عظيمة لسبب تعاليمهم الصادقة ورعايتهم السنة اكمل رعاية وسلاسة مسعاهم وحفظهم للقوانيْن وعيشتهم بالاتحاد والالفة ومدافعتهم عن الثواب والعقاب الآخريين فلذلك كان الناس يحفقون بهم الآمال ويودون لهم الكرامة الاكيدة بيدَ ان المطامع النفسية دبت في رؤوسهم واغرتهم نفوسهم الامارة بان يتولوا زمام الشعب فأُتيح لهم ذلك ورفعوا

على الأُمة لواءَ السلطة واصبحوا حاكمين بالامور الدينية وتعاليها واحالوا رويدًا رويدًا القواعد الدينية الى اعتقادات باطلة لاتفيد الا صوالحهم وسلطتهم التي زعموا ان يكلوا لها الضمير ولذلك اوشك روح الناموس الحقيقي ان يزول . واشرُّ من ذلك كبرياؤهم وثقتهم بنفوسهم وادعاؤهم وقد آلَ بهم ذلك الادعاء الى ان يعزوا لنفوسهم الهبات الالهية . واما اليهود المعتادون على تلك الانعام المستنيرون منذ اجيالٍ مديدةٍ بمعرفتهِ تعالى فتذهب عن اذهانهم ان الجودة الالهية فرقتهم وحدها مجانًا عن ساير الامم فشرعوا يعتبرون نعمتهُ كانها دينٌ محتم لهم . وبما انهم شعب مبارك منذ الفي سنة ومصطفى منهُ تعالى فكروا في نفوسهم انهم وحدهم يستاهلون معرفة الرب وخالوا انهم من جنس اخر بابن الاناس الذين كانوا يرونهم عارين عن تلك المعرفة . وبناء على ذلك كانوا ينظرون الى الامم بالحقارة والأنفة ولما كانوا من نسل ابرهيم بالجد كانوا يتوهمون انهم مترفعون فوق كل النوع الانساني ولذلك كانت تتصاعد الى رؤوسهم خمرة الكبرياء ويفكرون انهم قديسون حسب الطبيعة لا حسب النعمة ولم يستمر هذا الضلال بينهم انما الفريسيون ادخلوا ثمة تلك الاعتقادات في اواخر الايام اذ كانوا يطلبون المجد بسبب علمهم ورعايتهم المدققة لطقوس الشريعة . ولما كانوا لايفكرون الاَّ بان يكونوا ممتازين عن البشر كافةً ضاعفوا كثيرًا اعمالهم الظاهرة وابانوا لدى الناس ان افكارهم تقاليد حقيقية مع انها مناقضة لشريعة الرب كل المناقضة

الفصل الثامن عشر

ذيلٌ لما مرَّ من فساد اليهود ودلائل سقوطهم

وفاقًا لما تنبأَ عنهُ زكريا النبي

ان هذه الافكار وان لم تكن بموجب امرٍ عامٍ كقاعدة في جمعية اليهود الاَّ انها كانت تزجُ تدريجًا بين الشعب الذي خنق اضطرابًا وبلبلةً وتمردًا . وبدت اخيرًا الانقسامات التي هي داعية سقوطهم كما قال الانبياء بسبب الشقاق الذي حدث بين المكابيين. وقد كان حينئذٍ المسيح قريب المآتى لايبقى له من ذاك الحين الاَّ نحوٌ من ستين عامًا وذلك لدن تناضل على الكهنوت التي كانت السلطة الملوكية متعلقة بها هيركان وترازويل

ولدا اسكندر جني . فهاك الوقت التعس الذي يقرر فيه التاريخ العلة الاولى لدثار اليهود فدعا الاخوان بومبيوس ليقضي بينهما فاخضعهما للدولة الرومانية ونزع الملك حينئذٍ عن الملك انتيوخوس اخر ملوك سوريا الملقب بالاسيوي وان سقوط هؤلاء الملوك الثلاثة معًا دفعةً واحدةً هو ابتداء السقوط المنوه عنهُ بالفاظٍ صريحة في نبوات زكريا النبي . ومن البين والمقرر في التاريخ ان تغيير احوال سوريا واليهودية قد نجز بواسطة بومبيوس بعد ان انهى حرب متريدات وكان اذ ذاك متاهبًا للرجوع الى رومية فرتب احوال الشرق على تلك الصورة وابان النبيُّ ما هو مزمع ان يتم لدن خراب اليهود وهو ان احد الاخوين اللذين ركبا تحت الملك يمسي اسيرًا بقوده بومبيوس هاشًا طربًا بما نال من الظهور عليهِ والاخر وهو هيركان الواهن يترع عنهُ بومبيوس التاج الملوكي ويسلبهُ من مملكتهِ قسمًا عظيمًا ولم يبقَ لهُ من السلطة الَّا الصورة مع انه كان على وشك فقدانها ولدى ذلك اصبح اليهود يرضخون للرومانيين ويؤدون لهم خراجًا فكان دثار مملكة سوريا باعثًا على خراب مملكتهم لان تلك المملكة المجاورة لمملكتهم اصبحت اقليمًا من الدولة الرومانية . وذلك ما ضاعف شوكة الرومانيين ولم يبقَ حينئذٍ لهم محيص الّا بان يتذللوا لها راضخين ولهذا شرع ولاة سوريا ينهمكون في مداخلات متواصلة في اليهودية وغدا الرومانيون متبوئين البلاد واضعفوا بالتواتر قوة حكومتها باوجهٍ متباينة . وبواسطتهم انتقل الولاء في يهوذا من ايدي المكابيين الى هيرودوس الغريب الادومي ولما كان هذا الملك منطويًا على الجور ومداهنًا مصانعًا باعتقاده بدين اليهود غير كل مبادىء الحكم القديمة ولم يكن هؤلاء اليهود احرارًا في اعمالهم في ذاك الوقت مثلما كانوا في عهد الفرس والسلوسيديين ولم يكونوا مهتمين الّا بان يعيشوا بالامنية والطمانينة لكن حبط بذلك مسعاهم فان هيرودوس الذي قد القى على عواتقهم نير الاسترقاق هوش كل شيء ثمَّ وغير حسب هوى نفسه الخلافة الكهنوتية واوهن سلطتها بل جعلها دون نظام وقيد . واضعف ايضًا المجلس الشوروي فاصبح من المتعسر عليهِ ان يبرم امرًا . فامست اذ ذاك السلطة العامة في يد هيرودوس والرومانيين الذين كان هذا الملك في بادىء الامر من الراضخين لولائهم وبناء عليه زعزع اركان حكم مملكة اليهود .

واما الفريسيون والشعب الذي لم يكن يصغي الّا لاحساساتهم كابدوا من ذلك عرق القربة ولبثوا يعانون الثبور مبرحين تحت اثقال عبودية الامم تعاملهم بالحقارة

وتكباشهم بالعداوة والبغضاء . ولذلك رغبوا في ان لا يكون المسيح الذي سيأتيهم الّا فاتحًا يوقع الرهبة في قلوب السلطنة التي تعنيهم تحت اوقار العبودية الباهظة وبناء عليهِ ذهب عن بصائرهم ما تنبأت عنه الانبياء مما سيلمُّ بهِ من العار ولم تكن تترقب ابصارهم وتترصد للسماع آذانهم الّا النبوات التي تنذرهم بالانتصار المبين وان يكن ذلك الانتصار الذي انذرت بانباه الانبياء مباينًا لما كانوا يرغبون فيه .

الفصل التاسع عشر

في الكلام عن المسيح وتعليمهِ

لما تنكست اعلام الدين وتشوهت احوال اليهود في اواخر حكم هيرودوس اذ كان الفريسيون يدنسون الشريعة بالمعائب بعث الله بالمسيح الى الارض ليعيد الحكم لبيت داود ويجعله اسمى مما كانوا يخالون منذرًا بالتعليم الذي ازمع الرب ان يعلمهُ للبشر فذلك الولد العجيب هو الذي دعاهُ اشعياء الرب القدير واب الجيل الاتي ورب السلام فقد ولدَ من بكرٍ عذراء في بيت لحم حيث ذهب ليقرر نسلهُ فحبلت بهِ من الروح القدس واصبح منذ ولادتهِ قدوسًا . وكان عيب ولادتنا موكولاً محوهُ اليهِ وحدهُ ودعيَ مخلصًا لانه ازمع على خلاصنا من وثاق الخطيئة وعند ولادتهِ بدا على الفور نجم في المشرق رمزًا الى النور المزمع ان ينير بهِ الامم فتوافد اذ ذاك اليهِ الوثنيون مرتدين وبعد ان مرَّ على ذلك حينٌ من الزمان ذهب ذاك الرب المنتظر الى هيكله المقدس حيث رآهُ سمعان انه مجد اسرائيل ونور الامم الضالة . ولما آن وقت الانذار بالانجيل دعا يوحنا المزمع ان يهيء لهُ الطريق كل الخطاة الى التوبة وجارَ بصوتهِ في البرية التي كان يقضي حياتهُ فيها منذ نعومة اظفاره في التقشف والدعة والبر وعرف الشعب الذي لم يكن يسمع مدة خمسمائة سنة صوت نبيٍّ أنه ايليا الجديد وكان مستعدًّا ان يتخذه مخلصًا لما ظهر له من قداستهِ العجيبة . اما هو فكان يوعز اليهِ بن لم يكن هو اهلاً لان يحل سير حذائهِ ومن ثم اخذ المسيح ينذر بانجيله وينشر الاسرار التي كان يراها وهو في حجر ابيه منذ الازل وقد اقام اركان بيعتهِ بدعوة الاثني عشر صيادًا وجعل بطرس راعي ضئانهِ ومازهُ عن غيره بنوع صريح . وذلك ان الانجيليين طرًّا لم يحفظوا لتعداد الرسل رتبةً مقررة لما كانوا يأتون

بحسبانهم الا انهم يذكرون دائمًا بطرس في مقدمتهم كأنهُ رئيسهم .

ودوخ المسيح اليهودية وافاض عليها جزيل انعامهِ فانه كان مهتمًا بتمريض المرضى رافقًا بالخطاة مبينًا انهُ هو الطبيبُ الحق وكان يسمح لهم بان يزدلفوا اليهِ وذلك كان دليلاً للبشر على انهُ قابضٌ على السلطة والرحمة معًا فائقًا بذلك كل من ظعن قبلهُ ولقد كان ينذر باسرارٍ عالية ويثبتها بمعجزات عظيمة وكان يسن فضائلَ سامية وكان يهب في غضون ذلك نورًا ثاقبًا ومثلاً عظيمًا ونعمة علوية وبهذا بدا ممتلئًا نعمةً وحقا ومن امتلائهِ نحن كلنا اخذنا .

وكل ما بدا منهُ استمرَّ منطبقًا على بعضه سواء كان على حياته او تعليمه وعجائبه . لان الحقيقة ذاتها كانت تبدو في كل ما هو له . وكل ما صنع يدلُّ على انهُ سيدُ النوع الانساني ومثال الكمال .

وهو وحدهُ قد عاش بين البشر مستطيعًا ان يقول امام الجميع دون ان يكذبهُ احدٌ : من منكم يمكن له ان يوبخني على خطيئةٍ ويقول ايضًا : انا نور العالم والذي ارسلني هو معي ولم يدعني وحدي لاني افعل ما يرضيهِ كلَّ حينٍ .

واما اعاجيبهُ فهي من مرتبةٍ خاصة وذات صفاتٍ حديثة لانها ليست سمات في السماء كما كان اليهود يطلبون بل كانت في بني الانسان رجاء ان يشفوا من علاتهم ولا ريب في ان تلك الاعاجيب قد كانت رأفةً اكثر منها قوةً دون ان تبعث كثيرًا على الدهشة بل كانت تلين القلوب . ثم كان يتمها بسلطانه لان الامراض كانت تخضع والشيطان له فكان العميان اذا تكلم يبصرون والموتى يخرجون من ارماسهم والخطايا تغفر للخاطئين فكانت مبادي تلك الاعاجيب منه وهو مصدر فعلها وقد كانت قوةٌ تخرج منهُ وتشفي الجميع ولهذا لم يفعل احدٌ اعاجيب عظيمةً كهذه ولا عديدة نظيرها ولذلك كان يعد ان تلاميذهُ سوف يصنعون باسمهِ معجزاتٍ اعظم منها لان القوة التي فيه كانت عظيمة جدًا .

فمن لا يتعجب من ضعة تعليمه السامي فهو لبانٌ للاطفال وخبزٌ للاشداء ويلوح انه ممتلئٌ من اسرار الرب الا انه لا يبدو انه مندهش من ذلك كسائر البشر الذين يتراءى لهم الرب . فانه يتكلم بذلك طبيعيًا كأنهُ ولد هذه الاسرار وفي هذا المجد . لا وزن لمالهِ وينطق بهِ بوزنٍ ليتمكن وهن النوع الانساني من احتمالهِ

وان يكن قد بعث بهِ الى جميع البشر فلم ينتهك في بادىء الامر الا في ضئان اسرائيل الضالة لانهُ أُرسل اليها بنوعٍ خاصٍ لكنه اعدَّ الطريق لاباب السمرة والوثنيين فان امرأةً سامرية عرفته ان هو المسيح الذي كان شعبها ينتظرهُ مثلما كان ينتظرهُ اليهود . وتعلمت منهُ اسرار العبادة الجديدة التي لم تعد تناطُ بمكانة واحدة ونزعت منهُ امرأة كنعانية وثنية شفاء ابنتها وان يكن قد اظهر انهُ يرفضها واقرَّ في محالٍّ متباينة ان الوثنيين مثل اولاد ابراهيم . ويتكلم عن تعليمهِ كانه مزمع ان ينذر في كل البسيطة حيث يقاوم ثم يصبح مقبولاً ولم يكن الناس الى ذاك الان نظروا الهُ مثيلاً . وكان تلاميذهُ يتعجبون من ذلك ولم يكن يخفي عنهم ما سيكابدون من المشاق والمكايد . وكان يوعز اليهم عما سيبادهم من الاضطهاد والجور والمخادعات والتعاليم الكاذبة والاخوة الكذبة والنزاع الداخلي والخارجي وايمانهم المزمع ان يختبر بكل المشاق وابان لهم ان سوف يصير في اخر الزمان ضعفٌ كثيرٌ في الايمان وتقلُّ المحبة بين الرسل وتلبث الكنيسة والحق في عرض تلك المخاطر غير متزعزعين

فهاك نظامًا للاحوال جديدًا فلا يوعدُ اولاد الله بمكافاة جسدية فان المسيح ابان لهم حياة مستقبلة وبينا هو يثبط اقدامهم على ذاك الانتظار يعلمهم ان ينفصلوا عن الاشياء الحسية واصبح الصليب والتأسي ميراثهم على الارض وابان لهم ان يقتضي ان يفتحوا باب السماء عنوةً وقد داس هو اولاً الطريق التي اوعز الى بني الانسان عنها . ولقد كان ينذر بحقائق بسيطة تدهش اصحاب الغواية والمتكبرين وكان يغشي تكبر الفريسيين ومداهناتهم الخفية ويبين ما يحرف الشريعة علماؤهم بتفاسيرهم وفي غضون توبيخهِ اياهم كان يراعي حرمة وظائفهم وحرمة كرسيّ موسى الذي كانوا يتبوئونهُ وكان يتردد الى الهيكل ويحمل الناس على ان يحترموهُ وكان يبعث الى الكهنة بالبرص الذين شفاهم . وبهذا كان يعلِّم البشر كيف يقتضي ان يصلحوا العيوب دون ان يلموا بالسلطة المقامة من الرب وكان يبين ايضًا ان جمعية اليهود ما برحت قسرًا عن فساد اعضائها . الا انها قد كانت على وشك دثارها لان الكهنة والفريسيين كانوا يثيرون على المسيح شعب اليهود الذي كان دينهُ قد تحوّل الى اعتقادات باطلة . ولهذا لم يكن يحتمل الخلاص الذي كان يدعوهُ الى عبادة حقيقية بل صعبة . وبناء عليه اصبح اصلح البشر وافضلهم بل معدن القداسة والجودة موضوع الحسد والبغضة . ولم ينفر منهم ولم يتقاعد عن ان

يصنع الخبير لابناء وطنهِ ومع ذلك لم يقابل الاَّ بنكران الجميل . وكان يتنبأُ عمَّا سيبادهم من العقاب اسيفًا جدًّا وانذر بدثار اورشليم قريبًا وتنبأ ايضًا على ان اليهود اعداء الحق الذي اتى لينذرهم به سوف يلقون بنفوسهم الى الضلالة ويمسون العوبةً بين ايدي الانبياء الكذبة . وفي ذاك الوقت كان حسد الفريسيين والكهنة له يقودهُ الى عذاب العار وحينئذٍ غادره تلاميذهُ وسلمهُ احدهم وجحدهُ ثلاث مرار ريسهم الذي كان يتظاهر انه اكثر غيرةً عليهِ من غيرهِ . وشكوهُ الى المجلس الشوروي ولبث يحترم سلطان الكهنة الى نهاية الامر واجاب رئيس الكهنة الذي كان موكولاً باستنطاقهِ شرعيًا بنوعٍ خاص . الاَّ انَّ الان الذي تكون فية فيئة اليهود مرذولةً كان قد آن ولذلك قضى رئيس المجلس ولفيف الاعضاء على يسوع بالموت لانه كان يقول انه ابن الله . وعند ذلك اسلموهُ لبيلاطس البنطي والي الروماني اما بيلاطس فايقن ببراءتهِ ومع ذلك فقد خالف ضميرهُ سياسةً مراعاةً لمصلحتهِ فحكم على ذلك البرّ بالموت فنتج منه ان اكبر جريمة اقترفها اليهود سببت اكبر رضوخٍ أُدي في العالم فان المسيح المالك حياته وكل شيءٍ اسلم نفسه للاشرار وقدم فدىً عن البشر ذبيحةً واذ كان على الصليب وجه انظاره الى النبوات ليرى ما كان باقيًا عليهِ ان يتمهُ فاتمه وصرخ قائلاً قد كمل كل شي . وبعد ان فاه بتلك الكلمة تغير كل شيءٍ في العالم فان الشريعة بطلت والرموز اليها عبرت والذبائح ابدلت بن هو اسمى وافضل منها . وبعد كل ذلك مات المسيح متاوهًا وهاتفًا بصوتٍ زعزع عناصر الطبيعة واعجب الخفير الذي كان يحرسه غاية العجب ونادى بجهير الصوت قائلاً انه ابن الله حقًّا . وانثنى كل الذين عاينوا ذلك المشهد العظيم آسفين وهم يقرعون صدورهم وبلاً وثبورًا ونهض في اليوم الثالث من عقال الموت وظهر لتلاميذهِ الذين كانوا قد غادروهُ غير موقنين بقيامته فنظروهُ وناجوهُ ولمسوهُ فوثقوا بهِ وظهر مرارًا جمة في محال كثيرة رغبةً في ان يكون الايمان بقيامتهِ ثابتًا . فكان كلٌّ من تلاميذهِ يراهُ آونةً وحدهُ وآونةً بينهم وظهر مرةً امام اكثر من خمسماية رجل وهم مجتمعون معًا ويحقق الرسول الذي كتب ذلك عنه ان الذين رأوهُ كانوا احياء لما كتب ما كتب عنه . وقد وهبَ تلاميذهُ بعد قيامتهِ وقتًا كافيًا ليوطدوا ايمانهم بهِ وبعد ان اتضح لديهم بكل ما راموا اذ لم يعد بهم ما يخامرهم من الريب امرهم ان يذهبوا في الارض ويشهدوا بما رأوه منه وما سمعوا ولمسهم اياه بعد قيامهِ وحذرهُ من ان تكون امانتهم بهِ غير وطيدة الجأهم الى ان يزكوا شهادتهم بدمهم وعلى

ذلك كان انذارهم بهِ متينًا وركن امانتهم من الحادثات المقررة ومصدقًا عليها من جميع الذين شاهدوه وصدقهم مقررًا باكبر بينةٍ يمكن تصورها وهي عذابهم وبذل موتهم في سبيل الحق . فهاك التعليم المقرر الذي اعطية الرسل وعلى ذلك اخذ الاثنا عشر قناصًا يرشدون العالم الى حجر الايمان الحق وهم يروبهم يناقضون الشرائع التي يفرضونها عليهم والحقائق التي كانوا ينذرونهم بها كل المناقضة . وامر بهم الرب ان يبتدئوا بالارشاد من اورشليم ومن ثمَّ يمتدون في كل اقاصي الارض ليعلموا كل البشر ويعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس . ووعدهم يسوع بان يكون معهم كل الايام الى انتهاء الاجيال وقرر بهذا الكلام السلطان الكنائسي وبعد ذلك صعد الى السماء امامهم .

فمواعيد سوف تتم والنبوآت سيكون لها مغزى وامر بعد قيامهِ ان تحمل الامم على معرفة الله ورسم احتفالاً جديدًا ليجدد هذا الشعب الحديث ويثق المومنون بان هذا الاله الحق الذي هو اله اسرائيل الاله الواحد غير المنقسم وهو من يكرَّس في المعمودية هو آب وابن وروح قدس معًا .

وبهذا قد اوقفنا على عمقهِ الذي لا يحدُّ ولا يدرك وعلى عظمة وحدته الفائقة الوصف وعلى سعة طبعهِ غير المتناهي المخصب في الداخل اكثر منهُ في الخارج القادر ان يكون بثلاثة اقانيم متساوية غير متجزئة .

لدن ذلك اتضحت الاسرار التي كانت مكنونةً مخفية في العهد القدم وصرنا اذ ذاك نفهم سرَّ ذاك الكلام وهو فلنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا .

وان الثالوث المنوه عنه في تكوين الانسان ظهر بنوعٍ صريحٍ وقت فدائهِ . والان امكن لنا ان نفهم ما هي هذه الحكمة التي حبل بها قبل كل زمان في حجر الرب وفاقًا لما قال سليمان وهي موضوع حبهِ وبها رتب كل اعمالهِ وامكن لنا ايضًا ان نعرف من هو الذي رآهُ داود مولودًا قبل انبلاج الصبح لان العهد الجديد يعلمنا انه هو الكلمة اي كلمة الرب الباطنة وفكره الازلي الذي هو دائمًا في حجرهِ والذي بهِ صار كل شيءٍ وبذلك امكن لنا ايضًا ان نجيب عن المسالة السرية المذكورة في سفر الامثال وهي قل لي ما اسم الرب وما اسم ابنه ان كنت تعرف ذلك

فاننا صرنا نعرف ان اسم الرب السري الخفي هو اسم الآب اي بهذا المعنى العميق

وهوانه قد ولد منذ الازل ابنًا مساويًا له وان اسم الابن هواسم الكلمة وهي الكلمة التي ولدها منذ الابد بالنظر لنفسو وهي ترجمة حنو الكامل وصورته وابنة الوحيد وضياء مجده وصورة جوهره

ونعرف ايضًا مع الاب والابن الروح القدس الذي هوالحب المتبادل بينهما واتحادهما بالازلية وذلك هو الروح الذي يوحي الى الانبياء ويكون مستقرًا عليهم ليكشف لهم اسرار المستقبل ومقاصد الرب وذلك هو الروح الذي كتب عنه: ان الرب الاله ارسلني وروحه هو الذي يمتاز عن الرب وهو الرب نفسه لانه يبعث الانبياءَ ويكشف لهم الاشياء المستقبلة وذلك هو الروح الذي يناجي الانبياءَ ويناجي بهم وهو متحدٌ مع الاب والابن ومشتركٌ معهما في تقديس الانسان الجديد.

وبناءً عليه فان الاب والابن والروح القدس اي الاله الواحد في ثلاثة اقانيم قد ظهر لآبائنا بنوعٍ خفي وبدا في العهد الجديد بنوعٍ واضح واذ تقرر اننا عرفنا ذاك السر السامي ودهشنا من علوه غير المدرك فلا يؤول بنا الامر الآن نغشي وجوهنا حياءً من الرب مثل الساروفيم التي شاهدها اشعياءَ النبيُّ ونعبد معها هذا الاله المثلث القداسة.

اما اسرار الطبيعة الالهية العجيبة فقد كان نشرها لدينا منوطًا بعهدة الابن الوحيد الذي قام باعبائها دون ان يبارح حجر ابيه مع ان موسى والانبياءَ لم ينوهوا عنها بتلميح الاشارة

فكان يناطُ به وحده ان يفهمنا لماذا وُعد بالمسيح كانسان مزمع ان ينقذ جميع الشعوب وروى لنا عنه انه اله واحد فرد. وانه يتصور فيه ما يتصور في الخالق نفسه وكان يصنع هكذا وهو يعلمنا. اي انه كان قبل ان كان ابراهيم وان كان ابنًا له. وانه هبط من السماءَ وهو لم يزل فيها وانه ابن الله العلي وابن الانسان معًا وهو عمانويل الحق اي الرب معنا وبوجيز العبادة ان الكلمة التي تجسدت في اقنومه وجمعت فيه الطبيعتان البشرية والالهية رجاءَ ان يصلح كل شيء بنفسه.

فتبين لدينا السران الاعظمان وهما سر الثالوث وسر التجسد الآن الذي ابانهما جعلنا نرى صورتهما فينا لتكون دائمًا حاضرةً امامنا ونعرف شرف طبيعتنا. ومن اليقين اننا لو قضينا على حواسنا بالصمت وانعطفنا راجعين الى نفوسنا اي الى ما هو منا

حيث يسمع صوت الحق لرأينا صورة الثالوث الذي نؤدي له العبادة. لان التفكر الذي نشعر به يتولد من روحنا فهو كابنٍ لعقلنا وذلك ما يجعلنا بنوعٍ ما نعرف كيف ابن الله يتولد ازليًا في عقل الاب السماوي. ولذلك يدعى ابن الله العلي كلمة ونتفهم اذ ذاك انه يلدُ في حجر ابيه ولادةً تباين ولادة الاجساد. بل نتولد مثلما نتولد في عقلنا الكلمة الباطنية التي نشعر بها لما نتأمل في الحق.

الآن خصب عقلنا لاينتهي بهذا الفكر الداخلي وبهذا التصور وصورة الحقيقة التي تكون فينا. واما نحن فاننا نود الكلمة الباطنة والروح الذي يتولد منها ونشعر لدى حبنا اياها اننا لا نفصل حب نفوسنا وعقولنا عليها وانه لناشيءٌ من كليهما وهو محرزهما ومتحدٌ معهما وليس معهما الا حيوةً واحدة. وبناءً على ذلك اقول ان الحب الازلي يتولد في الرب بمقدار ما تكون مناسبة بين الله والانسان وانه ينبثق من الاب الذي يفتكر والابن الذي هو فكره ليكون معهُ ومع فكره بطبيعة واحدة متساويًا بالعز والكمال. وقصارى القول ان الله كلي الكمال وكلمته التي هي صورته الحقيقية الازلية. ليست باقل كمالًا منه وحبه المنبجس من منبع الجودة غير المتناهية والذي له كلُّ الجودة لم ينقصه الكمال غير المتناهي واذ لم يكن فينا تصورٌ في الله الا الكمال اقتضى الامر حتمًا ان يكون كلٌّ من الثلاثة على حدتهِ الهًا ولما كان الثلاثة ليسوا سوى طبعٍ واحدٍ اقتضى الامر ايضًا ان نجزم بانهم الهٌ واحدٌ فقط

فيقتضي اذًا ان لانتصور في الثالوث الاقدس شيئًا غير متناهٍ او منفصلًا مهما كانت هذه المساواة غير مدركة. فاذا اصغينا لانذار العقل فلابدّ له من ان يأتينا بشيءٍ من ذاك ودليل ذلك ان نفوسنا كائنة وبما انه قد تقرر انها تعرف ماهيتها فمعرفتها تحقق كيانها واذا كلفت بوجودها ومعرفتها كما يستأهلان من المحبة فذلك الحب يساويهما كليهما. وكذلك ثلاثة الاشياء فانها عديمة الانفصال بل الواحد منها متصل بالاخر. وبيانه اننا نتفهم وجودنا الذي نحبهُ ونود كياننا وفهمنا. فمن ادرك نفسهُ لا ينكر ذلك. واذ تقرّر ان احد الثلاثة لا يؤثر على غيره من سائرها قلنا ان الثلاثة باسرها لا يمكن ان تؤثر على احد افرادها لان كلًّا منها يتضمن كلها. وفي الثلاثة تقوم سعادة الجوهر العاقل ومجده وجلاله. وبناءً على ذلك يكون كاملًا غير منفصلٍ مفردًا في جوهره متساويًا في كل الوجوه بنوعٍ غير متناهٍ وهو الثالوث الذي نعرفهُ

والذي تكرّسنا له بالمعمودية . واما نحن صورة الثالوث فاننا بعبارة اخرى صورة التجسد لان نفسنا التي هي صبغة روحانية وغير فانية لها جسمٌ فان يتحد معها وباتحادهما معًا ينتج المجموع المعبر عنه بالانسان المركب من روحٍ وجسدٍ معًا من فانٍ وغير فانٍ من مدرك وغير مدرك . فهذه الصفات تليق بمجموعها بالنظر لكلٍ من هذين الجزئين . وبناء عليه قد اتحدت الكلمة الالهية التي تعضد قوتها كل شيء بنوعٍ خاص او بالاحرى اتحدت نفسها اتحادًا كاملاً بيسوع المسيح ابن مريم ولذلك هو الهٌ وانسانٌ معًا مولود منذ الازل ومولود في الآن وهو لا ينفأ حيًّا في حجر ابيه وقد مات على عود الصليب في سبيل خلاصنا الآن الاستعارة والتشابيه المتخذة من الاشياء البشرية لاتكون في ما يدخل فيه الرب الآ غير كاملة لان نفسنا لم تكن قبل جسدنا . واذ تنفصل عنه ينقصها شيء واما الكلمة الكاملة في ذاتها منذ الازل فلم تتحد بطبعنا الا لتشرفه والنفس المستقرة في الجسم تحدث فيه تغييرات مختلفة وتؤثر فيه فتتاثر هي منه ايضًا . لان الجسم اذا كان يتحرك بامر النفس وحسب ارادتها اضطربت وحزنت وتحركت بانواعٍ مختلفة بغم او بكدر حسب استعداد الجسم . وبناء عليه فكما ان النفس ترفع الجسم اليها باستيلائها عليه فتهبط نحته بما تتكبده منه واما في المسيح فالكلمة مترئسة على الكل وكل شيء في يدها وتحت سلطتها وهكذا يكون الانسان مرتفعًا والكلمة لا تهبط ولا بنوعٍ من الانواع بل هي غير متغيرة وغير متنوعة تسود في كل شيء وفي كلٌ محلٌ على الطبع المتحد معها . ومن ذلك ينتج ان الناسوت في المسيح اصبح راضخًا مطلقًا لارادة الكلمة التي رفعته اليها ولهذا لم تكن افكاره او حركاته الا افكارًا وحركات الهية اي ان كل ما يفتكر به وكل ما يريده ويقوله وما يكتمه في باطنه وما يظهره في الخارج آتٍ من الكلمة ومنقادٌ من الكلمة واهلٌ للكلمة اي لائق للعقل نفسه وللحكمة نفسها وللحق نفسه ولذلك كل ما هو في المسيح هو نورٌ وسلوكه دستورٌ وعجائبه تعليم وكلامه روحٌ وحيوةٌ

وليس يمكن لاحدٍ ان يدرك هذه الحقائق السامية ولاان يرى في ذاته صورة الاشياء الالهية العجيبة التي استمسك بعراها اوغسطينوس وغيره من الاباء بل ان الحواس متسلطة علينا ولا يمكنا التخيل الطارىء على افكارنا من ان نقف امام ذلك النور الساطع . واننا لا ندرك نفوسنا ونجهل الكنوز المكنونة في لجج طبائعنا ولا يقدران يرنو اليها الاّ

العيون ذوات البهاء الثاقب واذ نتمكن من الوقوف على كنه ذلك السر ونسدل الغشاء عن ركن اعتقادنا يكفينا ذلك لان يرفعنا فوق كل شيء وحينئذٍ لايمكن لشيء من الامور الفانية ان يجاذبنا اليه .

ولذلك قد دعانا المسيح الى مجدٍ غير فانٍ وهذا هو ثمرة اعتقادنا في الاسرار . اذ يعدنا الاله المتأنس والحقيقة والحكمة المتجسدة التي تجعلنا نعتقد باشياء عظيمةٍ بروية الله الساطعة والطوباوية كانّ ذلك جزاء معدٌ لامانتنا وكلها بالاستناد على شهادته تعالى وحده . وبناء على ذلك غدت ارسالية المسيح مفضلةً على ارسالية موسى بامرٍ ليس له من نهاية لان موسى قد ارسل ليوقظ بمجازاة زمنية اناسًا ذوي شهوات نفسية رعاعًا لانهم كانوا قد اصبحوا اجسادًا ولحمانًا واقتضى ان يخذهم بالحواس ويرسخ في عقولهم بتلك الواسطة معرفة الرب وبغضه للاصنام التي كان يجنح اليها النوع الانساني جنوحًا غريبًا . وعلى ذلك كانت ارسالية موسى متوقفة ولقد انيط بالمسيح ان يرسخ في عقل الانسان افكارًا سامية ويعلمه نزاهة نفسه وانها عديمة الموت وان سعادتها ازلية

وفي غضون غرة بني الانسان اي في غضون الاوقات التي مرت قبل ماتى المسيح كان كل ما نعرفه النفس عن شرفها وعدم ميتوتتها يبعثها على الخطا لان عبادة الموتى كان ركنًا لعبادة الاوثان فكان اكثر البشر يقدمون ذبائح لنفوس موتاهم وتلك الغواية القديمة تبين لنا حقًّا قدمية الاعتقاد بعدم ميتونة الانفس وتدلنا على ان ذلك يعدُّ من تقاليد الجنس البشري الابتدائية الاان الانسان الذي يفسد كل شيء قد افسد تلك التقاليد كل الفساد لانه قد آل به الامر الى ان يقدم ذبائح للموتى ووصل البشر الى انهم كانوا يضحون اناسًا لذلك لانهم كانوا يقتلون عبيدهم ونساءهم رجاء ان يوردوا لهم الخدمة في ذلك العالم . وكان الغوليون يفعلون ذلك كثيرًا . واقتفى آثارهم شعوب كثيرون . وان الهنود الذين بنوه المولفون الوثنيون عن انهم كانوا يدافعون عن عدم ميتونة النفس هم اول من ادخل الى الارض القتل المرذول بحجة الدين ولطالما كان الهنود ينتحرون لكي يحصلوا باقرب آنٍ على السعادة الابدية ولم يزالوا عاكفين على ذلك الغي العظيم

ومن ذلك ينتج ان تعليم الحق ان كان مباينًا عما وضعه الرب يكون على شافة المخاطر . ومن الخطر على الانسان ان يمكّن من معرفة ماهيته قبل معرفة ربه تمامًا .

ولما كان اكثر الفلاسفة لم يعرفوا الرب ما امكنهم ان يقولوا بان النفس غير مائتة الا ان يجعلوها جزءا من الالوهية . او الهة او موجودا ازليا غير مخلوق غير متغير لا بدء له ولا نهاية . ولقد كانوا يعتقدون بتقمص النفوس فتنحدر من السماء الى الارض وتصعد من الارض الى السماء وتنتقل نفس الانسان الى الحيوان ونفس الحيوان الى الانسان ويتدرج المرء من السعادة الى الشقاء ومن الشقاء الى السعادة دون ان يكون لذلك التغيير حدٌّ او نظام مقرر فيالها من ظلمة كان فيها العدل والحكمة والجودة الالهية في اثناء هذه الغواية ولذلك كان من المتحتم على الانسان ان يعرف الله وقواعد حكمته قبل ان يعرف النفس وعدم ميتوتتها .

ولهذا ينتج ان شريعة موسى لم تكن تهب الانسان الا بعض الالمام بجوهر النفس وسعادتها . ولقد علمنا ان النفس قد تكونت في بادئ الامر بقوة الرب كسائر المخلوقات الا انها قد تكونت بصفات خاصة اي صنعت على صورة الرب وبنفخته وذلك لنعرف بمن يناط جوهرها ونوقن انها ليست من جوهر الاجسام ولم تكون باجتماعها . بيد ان نتائج هذا التعليم وعجائب الحيوة العتيدة لم تتوضح حينئذ تماما بل بقي ذلك لوقت المسيح ليبدو بنور ساطع امام الجميع . فنشر الرب بعضا من تلك الحقائق في العهد القديم لان سليمان قال ويعود التراب على الارض كما كان وتعود الروح الى الله الذي منحه اياها . وعاش الآباء والانبياء في هذا الامل وقال النبي دانيال سوف ياتي حينٌ من الدهر حيث كثيرٌ ممن يرقدون في تراب الارض يستيقظون بعضهم الى الحيوة الابدية وبعضهم الى العار لينظروا دائما . وفي الوقت نفسه الذي اكتشفت له هذه الامور امر بان يكتم الكلام ويختم الكتاب الى الاجل المسمى لكي يبين لنا ان كشف الحقيقة بكمالها يختص بغير آن وجيل . وان يكن لليهود في الكتب المقدسة بعض مواعيد في السعادة الازلية وانهم كانوا يتناجون بالحقائق في ابان المسيح لانها كانت مزمعة ان تبدو اكثر من الماضي كما يتبين ذلك من اسفار الحكمة والمكابيين فان تلك الحقيقة لم تكن قاعدة عامة ومقررة عند اليهود حتى ان الزنادقة لم يكونوا يعترفون بها ومع ذلك كانوا يقتبلونهم في جمعية اليهود وفي درجة الكهنوت ايضا واما هذا الاعتقاد فهو من صفات الشعب الجديد بان يكون للايمان وللدين ركنٌ هو الحيوة المستقبلة وذلك من ثمار ماتى المسيح

ولذلك لم يكتف ان يقول لنا ان الحيوة السعيدة والازلية منوطة ببني الرب بل انه قال لنا بماذا تقوم هذه الحيوة لان الحيوة السعيدة هي ان نكون معه في مجد الله ابيه او هي ان نرى مجده في مجرايه من ابتداء العالم او ان المسيح يكون فينا كما يكون في اعضائه وان حب الآب الازلي نحو الابن يمتد الينا ويغمرنا بالانعام نفسها وقصارى الكلام ان الحيوة السعيدة هي ان نعرف الاله الواحد الحقيقي والمسيح الذي ارسله الآن نعرفه المعرفة الجلية وهي الروية الساطعة المعبر عنها بوجه يتلوح وجها دون حجاب اي ان الروية التي تكوّن فينا صورة الرب وتكملها حسب قول القديس يوحنا تجعلنا نكون شبهه لاننا سنراهُ على ما هو عليه

ويعقب هذه الروية حبٌّ لا مزيد عليه وفرحٌ عظيم وانتصارٌ غير محدود ويترنم المنشدون قائلين هللويا وامين في اورشليم السماوية وبذلك تزاح كلُّ الاتراح وتنعم الشهوات ولا يبقى الا مدح الرب وجودته الالهية . وفضلا عن ذلك الثواب الجديد قضى ان يبرز المسيح افكارا جديدة بشان الفضيلة واعمالا اكمل من الاعمال السالفة واطهر منها . ولذلك كانت المحبة غاية الدين وروح الفضيلة ومخلص الناموس الا اننا يمكنا ان نقول لغاية يسوع المسيح ان كمال هذه الفضيلة ومفاعيلها لم تكن معروفة تماما بل ان يسوع المسيح قد علمنا ان نكتفي بالله وحده وحثنا على محبة الله رجاء ان يشيد بذلك ملك المحبة وتبين كل واجباتها ولو افضت بنا الى ان نبغض نفوسنا ونستمرَّ على مقاومة الفساد الطارئ على قلوبنا . ولقد فرض علينا ايضا محبة القريب وحثنا على ان نجعل ذلك فاشيا في جميع الناس دون ان نستثني من ذلك مضطهدينا وفرض علينا ايضا ردع شهواتنا الحسية كاننا نقطع بذلك اعضاءنا الخاصة اي اخص ما يتعلق بالقلب وفرض علينا الرضوخ لاوامر الرب حتى اننا نهشُّ الى ما يرسله لنا من النوائب . وفرض علينا الضعة نحب العار اكراما لمجد الله ونعتقد انه لا يوجد اهانة تنكسنا امام الناس الا يكون لنا اهانةٌ احطُّ منها امام الرب بواسطة خطايانا . وبواسطة ركن المحبة تكمل جميع مراتب الحيوة البشرية ولهذا قد آبت الزيجة الى هيئتها الاصلية ولم يعد حب القرينين متجزئا وان هذه الجمعية المقدسة لا تزول الا عند زوال الحيوة . ولا يرى الاولاد ابهاتهم يبدلن بخالات لم وبدت العيشة البتولية كاقتداء في حيوة الملائكة الذين لا يهتمون الا بالله وبحبه الطاهر . وشعر الرؤساء انهم خادمون مرؤوسيهم ومكرسون

لنفسها مصالحهم وعرف المرؤوسون امر الرب بالسلطة الشرعية ولو غالوا في استعمال سلطانها وذلك مما لطف مشقة الخضوع تحت سلطة روساء جائرين ولم تعد الطاعة تشق على المسيحي الحقيقي .

وقد ضم المسيح لهذه القوانين مشورات للكمال السامي وهي رفض الملذات وقضاء الحيوة في جسم كانه لم يكن جسمًا . وغادر كل شيء ووهب المساكين كل شيء رجاء ان لايملك الا الله وحده ويعيش بيسير من الشيء كان معيشته من العدم البحت وذلك اليسير يقتضي انتظاره من العناية الالهية .

الان اخص شريعة للانجيل هو حمل الصليب لان الصليب هو امتحان الايمان الحق وركن الرجاء الحقيقي وتنقية المحبة الكاملة وقصارى الكلام هو طريق السماء . فقد مات المسيح على صليب عانى حمله طول ايامه ويرغب في ان يتبعه الناس حتى الصليب ولا ينال احد الحيوة الابدية الا بهذا الشرط . واول من اختص بعدة الراحة المستقبلة رفيقه الذي كان معه على الصليب فقال له انك تكون معي اليوم حقًا في الفردوس واذ ارتفع على الصليب انشق حجاب الهيكل من اعلى الى اسفل وانفتحت ابواب السماء يدخلها القديسون . وبعد انزاله عن صليبه وخروجه من رمسه بدا للتلاميذ ممجدًا وظاهرًا على الموت وذلك يدلهم على انهم لايتبوّئون تخت المجد لا بالصليب وانهم لايجدون طرقًا سواه . وبناء على ذلك مثلت في شخصه صورة الفضيلة التامة التي لاتملك على الارض شيئًا ولا تنتظر منها شيئًا ولم يحسن بنو الانسان جزاءها الا بالضهد الذميم مع انها لاتنفك توسعهم خيرًا فكانت اعمالها من داعيات عقابها . فقد مات يسوع لايرى منة في الذين اغرقهم في لجة جميله وافضاله ولا امانة في اخدانه وخلانه ولا عدالة في الذين قضوا عليه ولم تنقذ براءته التي اتضحت امام الجميع . ونبذ عنه ابوه الذي به امله كل ملاذ واسلم الصديق لاعدائه ومات متروكًا من الله والناس . بيد انه قد اقتضى ان يصرح للرجل الصالح انه لا يتنفر لدى تحديق المشاق والمخاطر اليه الى سلوان انساني او ادلة حسية من قبيل العناية الالهية بل يكفيه ان يحب الله ويثق به موقنًا انه يفتكر به دون ان يبدي له ادنى سمة الا انه قد خصه بسعادة ابدية وقد نقر اعقل الفلاسفة في هذا البحث عن الفضيلة فرأى ان اعظم الاشرار من يمكن له ان يواري خبثه عن الناس ويتصانع امامهم بالصلاح فيثقون بانه صالح ويتعهم الفضيلة على ان يرعوا حرمته فنجم من ذلك ان

صاحب الفضيلة العظمى الحقة من بحسده النوع الانساني ويتمنى له الشر والقلى ولا يبقى له شهادة على براءته الا ضميره وانه يعرّض لكل ملة واهانة ويفضي به الامر الى ان يعلو على الصليب ولاتأتيه فضيلته باعانة يسيرة اي تملصة من العذاب الاليم . أفلا يظهر من ذلك ان الله وحي بهذا التصور الى احد الفلاسفة ليكون في ابنه ويتبين منه ان الصديق له مجد وراحة وسعادة غير التي ينالها على الارض فان وضع هذه الحقيقة وبيان كالها بنوع عظيم الوضوح وخطير الحيوة لمن اعظم الاعمال التي في وسع الانسان صنيعها والحال ان الله قد رأى هذا العمل عظيمًا فخصه بالمسيح ابنه المنتظر اي الانسان الذي جعله اقنومًا واحدًا في ابنه الوحيد

وعلى كل حال فليس امر اعظم من الفضيلة يمكن ان يخص بالعز نزل من السماء الى الارض . واي شيء كان من ارادة هذا الاب ان يبرمه اكثر من ان يظهر على الارض الفضيلة كاملة والسعادة الازلية حيث المصائب العظيمة تقودها اليه

فلو اعتبرنا كل ما هو سام وخاص بسر الصليب لتعسر على عقول البشر قاطبة ادراكه اذ يتبين لنا ظهور فضائل بالصليب لايقدر على تتميمها الا الانسان الاله وليس بممكن لاحد سواه ان يكون بمثابة الذبائح القديمة ويلغيها ويستبدلها بذبيحة ذات عظمة واقتدار لانهاية لها . وقد تأتى منذ ذاك الحين ان لايتقدم لله الا هو نفسه فهاك العمل الديني الذي قام بعبئه المسيح على الصليب وهل كان يمكن للاب الازلي ان يجد بين الملائكة او بين البشر خضوعًا يوازي خضوع ابنه المحبوب لديه لما اسدى حياته له طوعًا دون كره في سبيل مسرته اذ رأى ان لايوجد احد يتمكن من نزعها منه قسرًا عنه . وان لساني لقاصر عن تبيان اتحاد ارادته التامة بارادة الله وعن حبه الذي كان يقرنه بالله الذي قد اصلح به العالم . وقد استغرق بذلك الاتحاد غير المدرك كامل الجنس البشري واصلح السماء والارض وانغمس بشهوة عظيمة في بحر ذاك الدم حيث له صبغة ينبغي ان يصطبغ بها مع كل اصحابه واخرج من قروحاته نار محبة الله على الارض المزمعة ان تحرق الارض طرًا وهاك ما يقصر عن ادراكه عقل كل انسان وهو العدل الذي اتمه هذا الاله الانسان الذي سمع ان العالم يقضي عليه ليبقى العالم مقضيًا عليه مؤبدًا بسبب هذا الحكم العظيم . فقد انت دينونة العالم فيطرح رئيس هذا العالم خارجًا كما حكم على ذلك يسوع نفسه . وان الجحيم الذي تولى على العالم ازمع ان يفقد السلطة لانه لما

عكف على اضطهاد البري ء الجأه الامر الى ان يعتق الخطأة من اسرهم واما صك القضاء الذي كان يُعلن اننا مسلمون للشيطان فاخذه يسوع المسيح واقامة معهُ على الصليب ليمحوه بدمهِ . فبكى الجحيم على ذلك بكاءً مرًّا واصبح الصليب مركزًا لانتصار مخلصنا بقفوه الاعداء وهم يرتعدون خوفًا ورهبةً . ويبدو لنا من ذلك ظفرٌ اعظم من ذاك وهو ان العدل الالهي قد اصبح مغلوبًا وان الاثيم الذي كان من اهلهِ ان يتقدم له ضحيةٌ قد تملص من بين يديهِ لانه وجد له عن ذلك كفيلاً قادرًا ان يؤدي عنه ثمنًا غير متناهٍ وجعل المسيح في حوزته كل الاخيار الذين فداهم بنفسهِ لانهم اعضاؤه وجسده والاب نفسه لم يجنح اليهم الا لكونهِ رئيسهم ولهذا قد اوصل اليهم حبه غير المتناهي نحو ابنه بواسطتهِ لان الابن طلب منه ذاك الحب اذ لا يودُّ ان يندفع عن البشر الذين شراهم بدمهِ . ولهذا كان يقول بالآباء اني اريد ان يكونوا معي وسوف يتلذذون من روحي ويتمتعون بمجدي ويجلسون معي على منصتي . وبعد هذه الحسنى الفضلى لم نتمالك ان نهتف بسرورٍ مظهرين عاطفات المنونية مشاركين احد الفلاسفة الشهيد بقوله يا أيتها العجيبة يا أيها الانقلاب غير المدرك ويا اجل الحكمة الالهية الغريبة كيف يعاقبُ واحدٌ مفردٌ والكثيرون يخلصون ان الرب بناصٌ ابنهُ البار لينقذ البشر الخطأة ويصفح عن البشر الاثيمين محبةً بابنه البريء . لان المسيح اذ كنا بعد ضعفاء مات في الاوان عن المنافقين ولا يكاد احدٌ يموت عن صالحٍ . وان الذي احبنا ونحن مجرمون متضحيًا عنا لا يمكن له ان يرفضنا بعد ان اصلحنا وبررنا بدمهِ .

وقد نلنا اموراً كثيرة بالمسيح وهي النعمة والقداسة والحيوة والمجد والسعادة واصبح ملكوت ابن الله ميراثنا ولم يبقَ شيءٌ يفوقنا بشرط ان لا نحطَّ نفوسنا .

وفي غضون ان كان المسيح ينعم شهواتنا ويفوق آمالنا كان يتم عمل الرب الذي بوشر بهِ في ايام الانبياء وشريعة موسى

فكان الرب وقتئذٍ يبدو لهم باختبارات حسية لانه كان يبدي عظمته بمواعيده الزمنية وجودته اذ كان يغمر اولاده بالاحسان الذي يداري حواسهم وقدرته بانقاذه اياهم من ايدي اعدائهم وصدقه لما قادهم الى الارض الموعود بها اباؤهم وعدله بثوابهِ او عقابهِ للذين كان يبعث بها اليهم علانيةً جزاءً على ما كانوا يعملون . وكل هذه الاعاجيب كانت تعد الطرق للحقائق التي كان المسيح مزمعًا ان يقوم بها . وذلك اذا

كان الرب صالحًا كثيرًا فينا ما نطلبه بالحواس فكم بالاحرى كثيرًا يهبنا بالروح المصنوعة على صورته ومثاله . وان كان بهذا المقدار رؤوفًا ومحسنًا نحو اولادهِ فهل يحصر حبهُ واحسانهُ في بضعٍ من السنين التي يدور عليها محور حياتنا . الا يهب محبيهِ من السعادة الا خيالاً وارضًا مخصبة بالحبوب والزيوت . اليس من محلٍ آخر يفيض فيه عليهم خيراتهِ الحقيقية

أجل يوجد لا ريبَ محلٌ اخر مهيأ قد اتى يسوع ليريناهُ وذلك لو كانت عظمة الرب تنتهي بعظمة معرَّضة لحواسنا الواهنة لما كانت مبروءة لائقةً بشأنهِ لان كل ما ليس بازليٍّ لا يليق بعزة الهٍ ازليٍّ ولا امل الانسان الذي اوقفهُ الرب على ازليتهِ ومن ثم ان امانتهُ غير المتغيرة نحو عبيده لو لم تكن تمتد الى شيءٍ ثابت وغير فانٍ لما كان يوجد لها موضعٌ مناسب .

فلذلك قد اقتضى الامر ان يفتح لنا المسيح باب السماء ليبين لايماننا المدينة الثابتة التي تجمعنا بعد هذه الحيوة . ويلوح لنا ان الله قد تلقب باله ابراهيم واله اسحق واله يعقوب ليكشف لنا ان هؤلاء الاباء الصالحين يستمرون دائمًا امامهُ احياء ليس باله للموتى بل للاحياء وليس يليق بشان الرب ان يقتصر على مرافقةِ اصفيائه الى الرمس مثلما يصنع البشر غير تاركٍ لهم رجاءً وراء ذلك . ولو لم يشد في السماء مدينةً عظمى ازلية يقطنها ابراهيم واولاده بكل سعادة لحق بهِ العار بقوله بعظمة وجلالٍ انه اله ابراهيم .

وعلى ذلك اتضحت لدينا حقائق الحيوة المستقبلة بيسوع المسيح . وقد ابان لنا كل ذلك في السنة لان ارض الميعاد الحقيقية هي السماء وان ابراهيم واسحق ويعقوب كانوا يذكرون هذا الوطن السعيد لان بلاد فلسطين لم تكن لائقة بان تكون غاية انتظارهم او محل آمالهم الوحيد

فان مصر التي كان ينبغي ان يجالوها والصحراء التي اقتضى ان يطووها وبابل التي الجئوا الى ان يسمفوا باب سجنها ليلجوا اوطانهم آيبين يتخصصن العالم وملذاتهِ واباطيله حيث نحن مبرحون تحت اثقال الاسترقاق وتائهين في تلعات الغرق والخطيئة وشهواتها . فعلينا ان نطرح عن عواتقنا نير هذه العبودية فننال في اورشليم مدينة الهنا الحرية الحقيقية ومندسًا لم تشده الايادي يبدو فيهِ مجد اله اسرائيل . وقد ابان لنا تعليم المسيح سرَّ

الرب لان الشريعة روحانية كلها وتقودنا مواعيدها الى مواعيد الانجيل وهي كركن لها . ويبدو لنا نور فرد ساطع في كل محل لانه بدا في عهد الاباء ونما في ايام موسى والانبياء ويسوع الذي هو اعظم من الآباء وسلطته اسمى من سلطة موسى ونوره اسطع من نور الانبياء ابانه لنا بكماله . ولقد انبطت كل الحقيقة اي حقيقة الاسرار وحقيقة الفضائل وحقيقة المكافاة التي اعدّها الرب لمحبيه بمرة من بينها لنا وهو المسيح الانسان الاله وحسب قول ماري اوغسطينوس الانسان الذي يقوم مقام الحقيقة على الارض ويرينا اها كانها قائمة فينا

فهاك العظمة التي كان يجدر على اليهود ان يطلبوها من المسيح لانه لا شيء اعظم من حفظه للحقيقة بذاته واظهارها لبقي البشر كلها . فتكون لهم ملاذًا وقائدًا وتجعل ابصارهم نقية وتمكنهم من روية الرب . وفي وقت ان تحتم ان تبدو الحقيقة لهداية البشر بكمالها كان قد سن ان يبذر بها في كل الارض وفي كل الازمان ان الله لم يمنح موسى الا شعبًا واحدًا ووقتًا معينًا لكنه وهب المسيح كل الام وكل الاحيان . ودليله ان مختاريه يمرحون في كل محل وبيعته مبسوطة في العالم باسره تستمر لهم اما . لانه قال لرسله : اذهبوا الآن وتلمذوا كل الام معمدين اياهم باسم الاب والابن والروح القدس وعلموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به وها انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر . (١)

الفصل العشرون

في حلول روح القدس وتشييد البيعة وحكم الرب على اليهود والام

ان نشر الحقائق السامية في كل زمان ومكان وارساخها في وسط الفساد لزم ان تقوم بها فضيلة غير بشرية ولهذا وعد المسيح بان يبعث بروح القدس لتثبيت رسله الاطهار واحياء جسد بيعته احياء ازليًا

ولكي تظهر قوة الروح القدس اقتضى ان تبدو بكل ضعف فقال يسوع لتلاميذه وانا ارسل اليكم ما وعد به ابي (اي الروح القدس) فامكثوا انتم في هذه المدينة الى ان

(١) متى ص ٢٨ : ١٩ و ٢٠

تلبسوا قوة من العلاء .

فمكثوا امتثالاً لذلك الامر في العلية اربعين يومًا وحلّ الروح القدس بينهم في الاجل المسمى وان الالسنة النارية التي هبطت على تلاميذ المسيح تدل على مفعولية كلامهم ومن بعد ذلك اخذوا ينذرون و يبشرون . وادى الرسل شهادة ليسوع لانهم كانوا على اهبة ان يتحملوا كل صنوف المشاق ليقرروا انهم رأوه منبعثًا من الموت وكانت المعجزات تعقب اقوالهم فارتد ثمانية الاف من اليهود بواسطة انذارين قام بهما بطرس . ومحت عيونهم بالبكاء على ضلالهم وتطهروا بالدماء التي اهرقوها

وبذلك اقيمت البيعة في اورشليم بين اليهود قسرًا عن مجد اكثر الشعب وابدى تلاميذ المسيح للعالم محبة وبأسًا وخلالاً دمثة لم تبدُ من قبل في الفة اجتماعية ابدًا . ولما ساد الاضطهاد كثرت الامانة وتعلم اولاد الرب من آن الى اخر ان لا يبتغوا الا الى ملكوت السموات . واما اليهود فقد صوبوا عليهم بكثرة خبائثهم انتقام الرب وقربوا اليهم المشاق الويلة التي كان يتوعدهم بها ولقد كانت احوالهم تزداد سوءًا وفي غضون ما كان الرب يفرز من بينهم كثيرين ليضمهم الى مختاريه بعث بالقديس بطرس ليعمد قائد المائة كورنيليوس الروماني . فانه علم في باديء الامر بروءيا من العلاء وفي ما بعد بالاختبار ان الام مدعوون لمعرفة الله لان يسوع المسيح الذي شاء ارتدادهم ناجى من العلاء بولس الرسول المزمع ان يصير معلمهم . واقام لديه معجزة غريبة لم يسمع الى ذاك الوقت نظيرها فتحول الدين المسيحي بعد ان كان مضطهدًا ليس فقط الى محام يبادهه بالتلي والمكافحة بل الى ان يكون منذرًا غيورًا على الايمان ايضًا وكشف له سر دعوة الام بسبب رذل اليهود الناكرين للجميل الذين استمروا متوغلين في القباحة وما يبعثهم على عدم استهالهم للانجيل وبسط مار بولس يديه نحو الام واخذ يتكلم بكل فصاحة وبلاغة عن كل تلك الامور المهمة وهي هل سيتألم المسيح ويصبح اول من يقوم من بين الاموات فيبشر بالنور الشعب والام . وعلى يثبت قوله بموسى والانبياء و يدعو الام الى معرفة الرب باسم يسوع المسيح المنبعث من الموت وتقاطر الشعب والام الى الايمان اجواقًا وابان مار بولس حينئذ ان دعوتهم من النعمة التي لا تميز بين اليهود والام . فدبت الحدة في قلوب اليهود مستشيطين وتوامروا على القديس بولس حنقين منه لاسيما لانه كان ينذر الام ويردهم الى الاله الحق فسلموه للرومانيين مثلما سلموهم يسوع

المسيح فاحتدمت دولة رومية غضبًا على البيعة الجديدة واصبح نيرون المضطهد لجميع البشر اوّل من اضطهد المومنين وامات القديسين بطرس وبولس فتكرست رومية بدمهما . وتشيد في حاضرة المملكة كرسيٌ للدين الخاص بسبب اشهاد القديس بطرس رئيس الرسل . بيد انه كان قد ازف الوقت الذي كان الرب مزمعًا فيهِ ان ينقم من اليهود المصرّين على آثامهم لان الانقسام قام فيما بينهم واعمت الغيرة الفاسدة بصائرهم وجعلت بني الناس طرًّا يانفون منهم وكان انبياؤهم الأفاكون يخاتلونهم بمواعيد مالكٍ وهمي. ولما انخدعوا ايّ خداعٍ وانغمسوا في لجة الغرور تعسر عليهم ان يحتملوا السلطة الشرعية او يقتصروا على جرائرهم المستفظعة فغلّب الله عليهم شهواتهم السيئة فتمردوا على الرومانيين الذين اذاقوهم مر العذاب والضنك. وتيطس نفسه الذي تم دثارهم قد قرّ انه لم يكن الّا آلةً تصوبها يد غضب الرب عليهم وابادهم ادريانوس فهلكوا . وقد كانت كلُّ ادلة الانتقام الالهي عليهم لانهم طردوا من اوطانهم وتشعثوا اسرى وعبيدًا في كل المسكونة . فلم يبق لهم من هيكل ولا مذبح ولا ذبيحة ولا وطن وانمحت آثارهم من كل يهوذا

بيد ان الرب قد اعدَّ له منذ الازل شعبًا اخر يودي له فروض العبادة لان الامم تفتحت ابصارهم واتحدوا بالروح مع اليهود الابيين الى حجر البيعة. وبناء على ذلك انحازوا الى اخلاف ابراهيم واصبحوا اولاد الايمان وورثة المواعيد التي وعد بها ابراهيم فصار الجميع شعبًا واحدًا وبدت على وجه البسيطة ذبيحة جديدة وهي الذبيحة التي اوعز اليها الانبياء في نبوءاتهم

وعلى ذلك المنوال تمت نبوة يعقوب بكل دقة وضبط اي ان بني يهوذا يزيدون اكثارًا من البدء على كل بني اخوته . ولما كان يستمرُّ حافظًا على نوع ما السلطة عليهم فقد نال الملك اخيرًا ميراثًا له واصبح على طول المدى شعب الله منحصرًا في سبطه وملقبًا باسمهِ . وتكاثر يهوذا الشعب العظيم الذي وعد بهِ ابراهيم واسحق ويعقوب واستدامت بهِ المواعيد الاخرى اي عبادة الرب والهيكل والذبائح والاستيلاء على ارض الميعاد التي لم تكن لتدعى الّا يهودية لان اليهود قسرًا عن احكامهم المتباينة قد استمرُّوا جمعيةً واحدةً وشعبًا واحدًا في مملكة واحدة منظمة راضخين لسنة واحدة . فلبث ملوكٌ وقضاةٌ واعيانٌ يتولون امورهم الى ان اتى المسيح . ولدن ما تاه اخذت مملكة

يهوذا تندثر حينًا بعد حين وبعد ذلك تم دثارها وطرد منها اليهود ايسين من الاياب الى ارض ابائهم واصبح المسيح رجاءَ الامم ومنتهى امالهم وملكًا يحكم شعبًا جديدًا . ورغبةً في رعاية الخلافة والاتصال اقتضى ان يطعّم الشعب الجديد في القديم حسبما قال مار بولس ان الزيتونة البرية اذا طعمت في الزيتونة البستانية اصبحت شريكة لها في دسمها ولهذا اتفق ان الكنيسة المشيدة في باديء الامر من اليهود قبلت في حجرها الامم لتصبح شجرة واحدة وجسمًا واحدًا وشعبًا واحدًا وتشركهم طرًّا بمواعيدها ونعمتها . ولا تعلُق اذ ذاك لكل ما حدث لليهود غير المومنين على عهد فسباسيانوس وتيطوس بشعب الله بل ان ما طرأ عليهم كان كعقابٍ للمتمردين الذين لسبب عصيانهم الابن الموعود بهِ ابراهيم وداود لم يلبثوا يهودًا ولا اولادًا لابراهيم الّا حسب الجسد ولقد جحدوا المواعيد التي كانت مزمعةً ان تكون بركةً على كل الامم . وعليهِ ان البلية الاخيرة التي المت باليهود لم تكن كسبي بابل وليست كتوقيف الحكم والسلطة في شعب الله والخدمة في الدين لان الشعب الجديد الذي تكوّن وامتزج بالشعب القديم يسوع المسيح لم ينتقل من اليهودية واخذ في الامتداد والنماء دون انقطاع من اورشليم حيث نشأ الى اطراف المسكونة واصبح حينئذٍ الامم الذين انحازوا الى اليهود اليهود الحقيقيين ومملكة داود الحقيقية برضوخهم للشرائع وانجيل يسوع المسيح ابن داود

وبعد ان تشيدت هذه المملكة الحديثة لا يعجب من دثار كل شيء في بلاد اليهودية لان الهيكل الاخير لم يعد يصلح لشيء بعد ان اتم المسيح كل ما قيل بالانبياء . لانه قد نال المجد الموعود بهِ ماتى المسيح المطلوب من الامم . وقد كانت اورشليم اتمت كل ما كانت مندوبةً اليهِ لان البيعة كانت قد تكونت فيها ومن ثم اخذت اغصانها تمتدُّ في كل اطراف الارض ولم تعد اليهودية او اليهود من اهتمام الرب او الدين. وقد كان من العدل ان يتشعثوا في الارض عقابًا لقساوة قلوبهم

وذلك نفس ما كان مزمعًا ان يحل بهم في زمن المسيح تطبيقًا لما فاه بهِ يعقوب ودانيال وزكريا وجميع انبيائهم ولكن بما انهم يعودون يومًا ما الى المسيح الذي جحدوه وان اله ابراهيم لم يكن قد افرغ كل كنوز رحمتهِ نحو ذرية هذا الاب الامين فقد راى وسيلة ليس لها من نظير في تاريخ العالم وهي ان يحفظ اليهود خارج اوطانهم

فمن ذا الذي لا تاخذه الرعدة عند ما يسمع كلام الرسول وهل يمكننا ان لا نخشى من انتقام الرب اللاحق باليهود منذ اجيال عديدة فان القديس بولس ينبهنا من قبيل الرب قائلاً ان كفرنا سيجذب الينا عقاباً كهذا وبناء عليه فلننصغ لكلام الرسول القائل : فانظر اذاً الى لطف الله وشدته اما الشدة فعلى الذين سقطوا واما لطف الله فلك ان ثبتَّ في لطفه والاَّ فتنقطع انت ايضاً وهم ان لم يثبتوا في الكفر يطعَّمون لان الله قادرٌ ان يطعِّمهم لانك ان كنت قد قُطعت من زيتونٍ بريٍّ بالطبع وطعِّمت على خلاف الطبع في زيتونٍ بستانيٍّ فكم بالحري هوَلاء الذين هم فروع طبيعية يطعَّمون في زيتونهم الخاص

وارتفع هنا الرسول فوق كل ما قاله ودخل في حجر مشورة الرب فقال فاني لا اريد ايها الاخوة ان تجهلوا هذا السر لئلاَّ تكونوا عند انفسكم حكماء وهو ان عمًى قد حصل لجانبٍ من اسرائيل الى ان يكون قد دخل ملء الامم وهكذا سيخلص جميع اسرائيل كما كتب سيأتي من صهيون المنقذ ويصرف النفاق عن يعقوب وهذا هو عهدي لهم حين ازيل خطاياهم

فهذه الاية قد نقلها القديس بطرس عن النسخة السبعينية حسبما كانت عادته لانها قد كانت متعارفةً في كل الارض . وانها لاقوى عبارة في النسخة الاصلية اذا استُقرئت متصلةً لان النبي يتكلم اولاً عن ارتداد الامم ويقول ان القاطنين في الغرب يخافون اسم الرب والقاطنين في الشرق يرون مجده ثم رأى الشعياء عن بعد الاضطهادات التي تؤول لنماء البيعة كنهرٍ منقضٍّ مغوارٍ ثم كشف له الروح القدس عما هو مزمع ان يحلَّ في اليهود فقال وياتي لصهيون الفادي وللذين يتوبون عن الوثم في يعقوب يقول الرب هذا عهدي معهم يقول الرب روحي الذي فيك وكلامي الذي جعلته في فمك لا يزولان من فمك ومن فم نسلك ومن فم نسل نسلك يقول الرب من الان الى الابد

فيبين لنا النبيء بنوعٍ صريحٍ ان المخلص الذي لم يعرفه صهيون وقد يجحده بنو يعقوب سوف ياتي بعد ارتداد الامم اليهم ويمحو عنهم الاثام ويتيح لهم ادراك النبوات بعد ان كانوا قد فقدوه زماناً مديداً . حتى ان هذا الادراك يتعاقب من يدٍ الى يد في الاجيال كافة حسبما يشاء الرب ويكون هذا الحادث العجيب . وعلى هذا

بدثارهم ويبقيهم زماناً اطول من زمان الظاهرين عليهم لعدم وجود اثار للاثوريين الاقدمين والماديين والفرس واليونانيين والرومانيين لان دثارهم قد عفت واختلطوا بالامم الاخرى . اما اليهود الذين كانوا فريسة لهولاء الامم المشهورة في التاريخ لبثوا بعدهم وان الرب لم برغمهم الاَّ ليجعلنا متنظرين ما هو مزمع ان يصنع ببافي هذه الامة البائسة بعد ان صبب عليها احساناً سابقاً ومع ذلك كانت قساوة قلوبهم وسيلةً لخلاص الامم الذين يرون بين ايديهم الكتب المقدسة غير المرتاب فيها التي تبين يسوع المسيح واسراره . وما نراه ايضاً في الكتب المقدسة عينها المرعية بكل اعتناء من اليهود هو عمى قلوبهم ومشاقهم وعلى هذا نقتبس العبرة من مصائبهم . وعدم امانتهم اصبح ركناً لامانتنا لانهم بذلك يعلموننا مخافة الرب وقد صاروا انموذجاً موبداً لاحكامه الصارمة على بنيه الجاحدين وذلك لئلاَّ نفتخر بالنعمة المعطاة لاَبائنا .

وقد يحتم علينا ان ندقق بالفحص عن السر العجيب الذي يراعى به جانب الافادة للنوع الانساني وليس لنا حاجةٌ لكلام البشر لكي ندركه لان الروح القدس قد اراد ان يفسر لنا ذلك بواسطة القديس بولس الرسول. فاملي وطيدٌ على ان نصيخ لما قاله هذا الرسول للرومانيين

فبعد ان تكلم عن يسير العدد من اليهود الذين اعتنقوا الانجيل وعن قساوة غيرهم شرع ينفر في ما يصير اليه الشعب المغمور بالنعمة الالهية فيكشف لنا بذلك عن الثمرة التي نجتنيها بسقوطهم والثمرة المزمعة ان تنشأ يوماً ما من رجوعهم الى الايمان فقال : العلَّ اليهود عثروا حتى يسقطوا حاشا بل بزلتهم حصلت الامم على الخلاص لا غارتهم فان كانت زلتهم غنًى للعالم ونقصانهم غنًى للامم فكم بالاحرى امتلاؤهم . لانه ان كان رفضهم هو مصالحة العالم فما يكون قبولهم الاَّ حيوة من بني الاموات . وان كان الاصل مقدساً فكذلك الفروع . وان كان بعض الفروع قد كسر وقد كنت انت زيتونةً برية فطعمت فيها فصرت شريكاً في اصل الزيتونة ودسمها فلا تفتخر على الفروع فان افتخرت فلست انت تحمل الاصل بل الاصل يحملك ولعلك تقول ان الفروع قد كسرت لاطعَّم انا . حسنٌ انها من اجل الكفر قد كسرت وانت بالايمان ثبت فلا تستكبر بل خف فانه ان كان الله لم يبقِ على الفروع الطبيعية فلعله لا يبقي عليك انت ايضاً

سوف يؤدب اليهود وبعد ابايهم لايعودون يضلون الى الابد ولكن لايؤوبون الأ بعد ان يمتلئ الغرب والشرق او بعبارة اصرح تمتلئ الارض كلها من خوف الرب ومعرفتهِ

وابان الروح القدس للقديس بولس ان رجوع اليهود موقوف على محبة الرب لآبائهم ولهذا تراه يتمم ما قاله بهذه الكلمات :

اما من جهة الانجيل فهم اعداءٌ من اجلكم واما من جهة الانتخاب فهم احباءٌ من اجل الآباء لان مواهب الله ودعوته هي بلا ندامة. فكما انكم كفرتم حينًا بالله ونلتم الآن رحمةً من اجل كفرهم „ قد شاء الله ان ينتخبكم لتكونوا بمثابتهم „ كذلك هؤلاء ايضًا كفروا الان لاجل رحمتكم حتى ينالوا هم ايضًا رحمةً لان الله اغلق على الجميع في الكفر ليرحم الجميع „ وحتى يشعر الجميع بالاحتياج الى نعمته „ فيالعمق غنى الله وحكمتهِ وعلمهِ ما ابعد احكامه عن الادراك وطرقه عن الاستقصاء من عرف فكر الرب ومن كان مشيرًا ومن سبق فاعطى له فيكافأ . ان كل شيء هو منه وبهِ واليهِ فله المجد مدى الدهور آمين

ذلك ما قاله القديس بولس بشأن انتخاب اليهود وسقوطهم وابايهم ثم ارتداد الامم المدعوين ليكونوا بمثابتهم ويردونهم في اخر الاجيال للبركة الموعود بها آباءهم وهي يسوع المسيح الذي جحدوه ويبين لنا ايضًا هذا الرسول انتقال نعمة الرب من شعبٍ الى اخر لكي تاخذ الرعدة كل الشعوب عند فقدانها ويبين لنا ايضًا قوة هذه النعمة التي بعد ان ردت الامم استاثرت لمفعولها الاخير بان يكتب كفر اليهود وبردع خبثهم ومكرهم

وبسبب مشورة الله السديدة بقي اليهود في وسط الامم حيث لعبت بهم ايدي التفريق وهم تحت اثقال الاسر الأ انهم لبثوا على حالتهم المرذولة فاقدين لسبب كفرهم المواعيد التي اعطي آباؤهم اياها ومجالين عن ارض الميعاد ولم يكن لهم من ارضٍ يرثونها بل استمروا عبيدًا ايان رحلوا واين حلوا لاشرف لهم ولا حرية ولا هيئة شعب .

وكابدوا تلك الاحوال ثماني وثلاثين سنة بعد ان صلبوا المسيح واستخدموا الزمان الذي اعطي لهم ليرعووا عن اغوائهم ويتوبوا بان يرهقوا الرسل ويضطهدوهم . وفي غضون ما كان الشعب القديم مرذولاً لسبب كفرهِ كان الشعب الجديد اخذًا في النماء يومًا بعد آخر بين الامم . وقد اتصلت المعاهدة التي عوهد بها انفًا ابرهيم حسب

الميعاد بكل الشعوب الذين كانوا قد نسوا الرب لان البيعة المسيحية تدعو اليها كل البشر . ولما كانت مستكنة في معمعة العذاب مدة اجيال عديدة ابانت للبشر ان لا يطلبوا السعادة على الارض .

فهاك ياسيدي ثمرة معرفة الرب ومفاعيل هذه البركة العظيمة التي ينبغي ان ينتظرها العالم بيسوع المسيح فكانت على التواتر تحل على بيوتٍ متتابعة وشعوبٍ متواصلة وكان البشر يهتدون من يوم الى اخر فيشعرون بما وصلوا اليه من الضلة بعبادتهم للاوثان . ولقد كان المسيحيون يغيرون هيئة العالم ويمتدون في كل الاصقاع قسرًا عن قوة الرومانيين دون ان يتمردوا او يثوروا بل كانوا يتجشمون كل انواع العذاب .

وسرعة هذا التغيير الخارقة العادة هي عجيبة ظاهرة فان يسوع المسيح كان قد تنبأ ان انجيله ينذر بهِ في كل الارض وتمت هذه النبوءة حالاً بعد موته وكان قد قال „ اذا رفعتم ابن الانسان „ اي ان صلبه سوف يستميل اليه كل شيء ولم يكن الرسل اتموا مسيرهم الا قال ماربولس للرومانيين ان ايمانكم يبشر به في العالم باسره وكان يقول للكولوسيين ان الانجيل يبشر بهِ في كل مكان

وقد وصل اليكم كانه قد وصل الى العالم كلهِ الذي يثمر بهِ وينمو . ومن التحديق في التقليد نرى ان القديس توما قد انذر بهِ في الهند وسائر الرسل في البلدان العاصية وليس بتثبيت هذه الحقائق من حاجةٍ الى التواريخ فان الافعال تبينها صريحًا ومن هنالك يتضح مطابقة كلام القديس بولس للرسل باستناده على مزامير النبي : في كل الارض خرج منطقهم وفي اقطار المسكونة انبث كلامهم

وفي زمان الرسل خلفائهم لم تكن بلادٌ قاصية ومنكورة الا بشر فيها الانجيل فبعد ان مضى على موت المسيح ماية من الاعوام كان القديس جوستينيانوس يعدُّ من زمرة المومنين كثيرين من البربر وكثيرين من النحل الرحل الذين ينتزحون من مقرٍ الى اخر على عجلاتٍ وليس لهم من موطنٍ مقرر . وليس ذلك من نوع الغلو والمبالغة بل امرٌ مقرر كانوا يبرزونه وفتشذٍ لدى الملوك والعالم كلهِ واتى بعد ذلك بقليل من الزمن القديس ايريئوس وزاد عدد البيعة وكان الاتحاد عجيبًا لان ما كان يعتقد بهِ في غاليا واسبانيا وجرمانيا كان نفس ما يعتقد بهِ في مصر والشرق وان لم يكن في العالم

الاشمس واحدة لم يكن يرى في الكنيسة من اقصى العالم الى اقصاه الانور حقيقة واحدة

وكلما ازدلف المرء قليلاً يأخذه العجب والدهشة من النجاح الذي كان للبيعة . ففي وسط القرن الثالث بيين ترتوليانوس واوريجانوس ان شعوبًا برمتها قد انحازت الى البيعة ولم تكن منها وان الذين كانوا قاطنين في اقصى العالم المعروف لم يحسبهم اوريجانوس منها لكنما اتى من بعده ارنوب فضمهم الى مومنيها

فعلى ايّ شيء عثر العالم حتى سارع متهافتًا على يسوع المسيح فاذا كان عثر على بعضٍ من الاعاجيب فيكون الرب قد تداخل بنوع صريح في ذلك العمل وان لم تكن في ذلك الحين حدثت امامهم اعاجيب فارتدادهم وقتئذٍ من اكبر الاعاجيب واعظمها ودخول فيالق جمة في اسرارٍ سامية وإنّ رضوخ عدد غفير من العلماء واقناع اناس لايثقون باشياء عسرة التصديق لمن الغرائب والعجائب

بيد ان عجيبة العجائب ان ساغ لنا القول هي ان الفضائل السامية والاعمال الشاقة قد كثرت والايمانَ بالاسرار في العالم قاطبةً فانّ تلاميذ المسيح خطوا خطوات سيدهم في الطرق الشكسة فقد كانوا معرضين لكل شيء في سبيل الحقيقة ومقتفين آثار مخلصهم وكانوا يقدمون على الملمات جذلاً وفرحًا اكثر منه اعلى الملذات

ولا يمكن لنا ان نحصي اولائك الذين افتقروا حبًا بسد سغب المعسرين . ولا اولائك المبتئسين الذين آثروا الفقر على الغنى ولا العذارى البارات اللواتي تسنّنّ على الارض بالملائكة ولا الرعاة المتخشعين الذين كرسوا ذواتهم خدمة للجميع وقد كانوا دائمًا لا يتهجدون الليالي بالعياء والسهر باذلين نفوسهم حبًا بقطعانهم . ولقد كانت التقشفات والندامة في اعلى ذروة من السيادة فان القضاة وقتئذٍ لم يكونوا يقضون على المجرمين البائسين باكثر ما كان الاثيمون يقضون على نفوسهم وفضلاً عن ذلك فقد كان الابرياء يعاقبون نفوسهم بقوة عظيمة بسبب الميل الفاسد الذي يحملنا على الخطية .وقد اصبحت حيوة القديس يوحنا المعمدان التي بدت عجيبة بين اليهود ذائعة بين المومنين فامتلات البسابس والقفار من الذين اقتفوا آثارهُ وكثرت النساك حتى ان الذين كانوا يطلبون الكمال الاعظم قد كانوا يتوغلون في وهاد الارض . ولقد كان جمٌ غفير يعتزلون عن العالم ويلتذون بالحيوة الرياضية والروحية بواسطة سكنهم القفار. فهاك الثمار الثمينة التي نجمت من الانجيل فان البيعة لم تكن اقل غنىً بالامثال من

التعليم فان تعليمها قد بدا مقدسًا وانشأ زمرةً كبيرةً من القديسين وان الله الذي يوعز ان الفضائل السامية لاتنمو الاّ بتجشم المشاق الوبيلة قد شاد بيعته على الاشهاد واراد ان تلبث على تلك الحال مدة ثلاثة اجيال دون ان تخامرها راحة ولما ابان باختبار مديد عدم احتياجهِ للمساعدة البشرية والسلطة الدنويّة لاقامة بيعتهِ دعا اليها الملوك واقام قسطنطين الاكبر ذائدًا عنها ومحاميًا . فعند ذلك توافدت الملوك من كل صقعٍ ونادٍ ليجلوا البيعة وكل ما قاله الانبياء عن مجدها قد تمّ امام العالم كله .

وكما ان البيعة لم تقمعها ايدي العدو الخارجي كذلك لم توقع بها الانقسامات الداخلية سوءًا . فقد بدت البدع التي تنبأ عنها المسيح ورسلهُ واخذت تضطهد البيعة وعلى المبتدعون يناصبونها اكثر ما كان يناصبها الملوك ومع ذلك لم يضيق ذاك الاضطهاد عليها الاّ بعد ان انقضت مناصبة الوثنيين لان الجحيم في ذاك الحين افرغ ما عنده من القوة ليجعل ابناء البيعة يتناصبون بعد ان كانت اركانها قد توطدت بتحديق ابصار اعدائها القاصين عنها اليها . فلم تلبث ان استكنت وطفقت تتمتع بالراحة التي نالتها في عهد الملك قسطنطين الاّ بدأ اريوس الشقي يبادهها بامور وبيلة لم تكن اذ ذاك الحين تجشمتها واخذ قسطانس بن قسطنطين الملك يرهق الكاثوليك في كل الارض فان الاريوسيين كانوا قد خاتلوه والجئوه الى تثبيت بدعتهم فاخذ يضطهد المسيحيين اشدّ الاضطهاد وهو يؤجج عليهم الحرب باسم المسيح فوهت البيعة المجتزئة تحت سلطة جوليانوس الجاحد الذي استخدم كل الوسائل لاتلاف الدين المسيحي ولم يرَ له من ذريعة لتتميم ذلك الاّ بان يثير الاحزاب التي كانت تناصبهُ وخلفه فالانس الجانح الى الاريوسيين كقسطانس لكنه كان اشدّ منه عتوًا وجورًا

وقد دبّ الحنق في قلوب بعض الملوك سواه فقفوا اثره بالعطوف الى بدعٍ اخرى والذود عنها . فشعرت الكنيسة بالاختبار ان يقضى عليها بان تتكبد مشاقّ على عهد الملوك المسيحيين ليست باقل مما تكبدته على عهد الملوك الوثنيين ورأت ان من المتحتم عليها اهراق دم بنيها للدفاع عن تعليمها او بالاحرى للذود عن كلٍ قاعدة منه. فلم يكن بندٌ من بنوده خاليًا من تصويب سهام بنيها عليها لان كثيرين من المتشيعين نزحوا من حجرها ناكثين ذمامها واخذوا يطارحونها . لكنها وان رأتهم قد

قاموا ضدّها بناوشونها فقد رأيتم كما قال المخلص مدحورين قسرًا عما ضافرهم الملوك العظام . واما ابنآ وها الحقيقيون فقد كان ذلك الامتحان كافيًا لتثبيت ايمانهم وذلك كما قال القديس بولس . ان الحق يثبت اذ تعرض للمناوشة ولبثت البيعة غير مزعزعة

الفصل الحادي والعشرون

في بعض ملاحظاتٍ خاصةٍ باليهود ونبوّات يسوع المسيح

بينما كنت عاكفًا على ان ارفع لدى جلالتك النبأ عن تسلسل مآرب الرب في ادامة شعبه بالتواتر لحث على حوادث كثيرة ذات بالٍ تستلفت اليها الانظار فليكن مسموحًا لي ان اعود ارفع عنها سجاف الغموض فتقف اذ ذاك على حقائقها .

غير اني احقق الامل بان تعتبر بنوع خاصٍ سقوط اليهود فان كل ظروفه تؤول لتثبيت الانجيل . وقد اتصلت الينا بواسطة مؤرخين من اليهود والوثنيين يوثق بهم كل هذه الحوادث التي اراد الرب ان تكون ذريعة لسقوط اليهود وان لم يفهم هؤلاء المؤرخون مقاصده .

فلم تزل ايدينا تتداول مؤلفات المؤرخ يوسيفوس اليهودي العالم باحوال امته فانه قد اساد بلاده بتآليفه الموعزة الى اثار اليهود القديمة وماكتبه فيها كلام مسهب عن الحرب الاخيرة التي كانت علة لدثار تلك الامة وقد كان هو نفسه يشهد منها بخدم الوطن بامورية خطيرة .

وكتب اخرى قديمة عند اليهود تنطبق على ما ذكرناه لان عندهم شروحًا قديمة على الكتب المقدسة من جملتها شروح بالكلدانية في ذيل توراتهم ولهم كتاب يدعونه التلمود اي التعليم يراعون حرمته كالكتاب المقدس وهو ينطوي على مقالات واحكام قام بها العلماء الاقدمون وان تكن اجزاء ذاك التاليف ليست من قرن واحد فان المؤلفين المذكورين فيه اخيرًا قد كانوا في اوائل جيل الكتاب المقدس وفيه نرى اثارًا حسنة في مقاليد اليهود القديمة وبراهين قاطعة لاقناعهم وان يكن فيه خزبلات عديدة الان اكثرها كان بعد المسيح

ومن الامور المحققة ان الانتقام الالهي لم يهبط اليهود اكثر منه عندما اندثروا اخيرًا

وذلك بفرون به عيانًا .

ومن الاحاديث الصحيحة المذكورة في التلمود والمثبتة من جميع الربانيين ان اشياء غريبة كانت مستورة التبيان قبل دثار اورشليم باربعين سنة اي في عصر ينطبق على وشك موت المسيح . وقد كانت معجزات متوالية تحدث في الهيكل يومًا بعد يوم فالتجأ احد الربانيين المشاهير الى ان يهتف ذات يوم قائلاً يا ايها الهيكل يا ايها الهيكل علامَ تضطرب وعلامَ تخيف نفسك بنفسك

وهل من امرٍ جليٍّ لدى الجميع اكثر من ذاك الدويّ الذي سمعهُ الكهنة في بيت المقدس وقت عيد المظال وذاك الصوت الجهاري الذي خرج من الهيكل هاتفًا فلنخرجنّ من هنا فلنخرجنّ من هنا واعلن الملائكة القديسون الذائدون عن الهيكل انهم يغادرونه وما ذلك الّا لان الرب رذله بعد ان كان قد جعل فيه مقامة اجيالاً مديدة .

ونقل يوسيفوس المؤرخ وتاسيوس الروماني نفسه ذلك الحادث الغريب وشعر به الكهنة وحدهم ولكن قد بدا لدى الشعب طرًا حادثٌ آخر لم يتأتَّ لاحد الشعوب ان يرى مثلهُ وبيان ذلك هو ان يوسيفوس المؤرخ يقول ان احد القرويين هتف قبل احتدام نار الحرب باربعة سنوات قائلاً : صوتٌ خرج من الغرب وصوت خرج من الشرق وصوتٌ خرج من مهاب الرياح الاربع صوتٌ ضد اورشليم وضد الهيكل وصوتٌ ضد الذين تزوجوا حديثًا واللواتي تزوجوا حديثًا وصوتٌ ضد الشعب كله ومن ثم استمر يصرخ ليلاً ونهارًا الويل الويل لاورشليم وكان يضاعف صراخهُ ايام الاعياد غير متفوهٍ بكلمةٍ اخرى عدا ذلك ولم يجب احدًا ممن كانوا يأسفون عليه ومن كانوا يلعنونه او يحسنون اليه الّا بهذه الالفاظ الرهيبة وهي الويل الويل لاورشليم فالقي عليه القبض وحكم عليه القضاة بان يجلد بالسياط فكان يجيب على كل سؤال يوجه اليه ولدى كل جلدةٍ تلمُّ به دون شكوى بالكلام ذاته اي الويل الويل لاورشليم فحسبوا منه واطلقوه معتقدين انه معتوه . فدوخ القرى والدساكر وكرر تلك الالفاظ الرائعة ولبث على ذلك المنوال مدة سبع سنوات دون سآمةٍ او ضجرٍ .

وحينما كانت اورشليم مضيقًا عليها محاصرةً كان داخلها يطوف حول اسوارها صارخًا بجهير الصوت الويل للهيكل الويل للمدينة الويل للشعب ثم قال الويل لي

فعند ذلك فاجأهُ حجرٌ كبيرٌ مرشوقٌ بالمجنيق فصرعهُ على الارض قتيلاً

فياسيدي من ذا الذي لا يوقن عند مرآه ذلك المشهد ان الانتقام الالهي بدا جليًا في ذلك الانسان الذي لم يكن الاليتفوه باحكام الرب الذي افعمتهُ قوة واقتدارًا لكي يعدد بصراحة مصائب الشعب وهلك اخيرًا بحكم ذاك الانتقام الذي انذر به منذ مدة مديدة قبل وقوعه . وما ذلك الاَّ ليجعله عنيدًا وبينًا ليس لانه تنبأ عنه وقرره مرارًا بل لانه اصبح ضحيةً لهُ ايضًا .

فالنبيء الذي تنبأ بمصائب اورشليم يدعى يسوع وتضح من ذلك ان اسم يسوع اسم الخلاص والسلام مزمعٌ ان يتحول لليهود الذي لم يعبئوا به في المخلص دلالةً سيئة عليهم واما اولئك الجاحدون الذين نبذوا وراء ظهورهم يسوع الذي انذرهم بالنعمة والرحمة والحيوة فقد بعث الله اليهم يسوع اخر ينذرهم بمشاق وبيلة لا ينجع بها دواء ويوشك خرابهم الذي لا محيص منه ولا مناص .

فلنغص اذًا في عباب احكام الرب بنور كتبهِ المقدسة . وسنرى ان قد قضي على اورشليم والهيكل بالدثار مرتين مرة في عهد بختنصر الملك واخرى في عهد تيطس وفي ذينك العهدين لم يبدُ عدل الرب بالطرق نفسها وان يكن حتى في الدثار الاخير حنقًا بينًا

ولكي ندرك تسلسل مآرب الرب ينبغي في بادىء الامر ان نتوكأ على الحقيقة المكررة في الكتاب المقدس وهي ان من عاده قضاء الانتقام الرائع ان يسلط علينا شهواتنا المرذولة فتتطوّح بالمفاسد فنصبح صمًّا عن نصائح الحكمة وعميًا عن روية الطرق المفتوحة امامنا الموءدية الى النجاة وموهبين لان نسلم نفوسنا لكل ما يلقي بنا الى التهلكة ويخاتل شهواتنا بالدهان والتدليس فنثبت على كل عملٍ بجراءةٍ غير موازنين قوانا مع قوى الاعداء الذين اغظناهم والرب يسمح بكل ذلك عقابًا على ما اقترفنا من الجرائر

وعلى ذلك المنوال كان دثار اورشليم وملوكها بيد بختنصر ملك بابل فكابدوا به صاب الويل ولهذا شعروا مرارًا بان اثارتهم تعود عليهم بالتقهقر والنكبات فدانوا له مقسوبين . وكان ارميا يوعز اليهم من لدن الله ان الرب فوّض امرهم لهذا الملك وان ليس لهم فرج الاَّ بان يكونوا له صاغرين ويتحملوا اثقال نيره . فقد كان يناجي صدقيا الملك وشعبه قائلاً طاطئوا روءوسكم تحت نير ملك بابل وادوا له العبادة تحيوا . علامَ

تموت انت وشعبك وعلامَ تبلُ هذه المدينة خرابا فلم يثقوا بكلامهِ . وبينما كان بختنصر يضيق عليهم في المدينة مكتنفهم بمترسات عظيمة كانوا يثقون بالانبياء الكذبة الذين كانوا يعدونهم بان النصر ياتيهم عن قريب فقد كانوا يخاطبونهم باسم الرب مدعين انهم مرسلون من لدنه قائلين . اني سحقت نير ملك بابل وانا من الان الى سنتين ارد الى هذا المكان جميع انية بيت الرب التي اخذها بختنصر .

فخدع الشعب بهذه المواعيد الكاذبة وعلقوا يحتملون مقاساة الجوع والظماء والمشاق الكلية وافضت بهم الوقاحة الى ان لا يبقى لهم لدى الظافر عليهم رحمة ولذلك اندثرت المدينة وحرق الهيكل واصبح كلٌ مستاصلاً

وقد كان من ذلك ادلةٌ بينة تدع اليهود يشعرون بان يدَ الرب تداهم . ولكي يبدو لديهم انتقام الرب صريحًا في دثار اورشليم الاخير كما بدا لديهم في دثارهم الاول عثروا به على الغرور عينهِ والوقاحة نفسها وعتو القلب ذاته

وان يكن تمردهم صوب عليهم الاسلحة الرومانية وابدوا من الوقاحة شيئًا عظيمًا ليزحزحوا عن عواتقهم نير الرومانيين الدائنة له الارض باسرها فلم يقصد تيخوس دثارهم بل انه ودَّ مرارًا ان يعاملهم بالرفق والتودد ليس في ابتداء الحرب فقط بل بعد ان رأى ان لم يبق لهم من بدٍ مفرٌ لانهُ كان قد اخذ عنوة حول المدينة سورًا باذخًا محصنًا بمترساتٍ وقلاعٍ امنع من قلاع المدينة لما بعث اليهم يوسيفوس وطنيهم احد روساء شرطتهم وكهنتهم اذ كان اسره من بينهم وهو يدافع عن وطنه . فاخذ يحضهم على الرضوخ فلم تنجع بهم نصائحهُ وقد ابرز اليهم ادلة قاطعة على وجوب طاعتهم فانبأهم ان السماء والارض متحالفتان على تنكيلهم وان دثارهم بالعناد من الامور التي لا مندحة منها . وان نجاتهم موقوفة على رحمة تيخوس وناداهم بجهير الصوت قائلاً انقذوا المدينة انقذوا نفوسكم انقذوا هذا الهيكل اعجوبة العالم الذي يراعي الرومانيون حرمتهُ ويودُّ تيخوس نفسه ان لا يراهُ منقوضًا الاَّ باسفٍ عظيم ولكن ما الحيلة في انقاذ اناسٍ يثابرون على ان يصروا على هلاكهم فان انبياءهم الكذبة كانوا يطغونهم ولذلك لم يصيخوا لاقوال ذاك الرجل ونصائحهِ . وقد كانوا في ازمةٍ شديدة لان كثيرين منهم كان يلمُّ بهم الجوع الشديد فكان يفني منهم اكثر من الحرب وقد افضى بهم الامر الى ان الوالدات يأكلن اولادهن فعطف عليهم تيخوس راثيًا واقسم بالهنوانهُ لم يكن علة لدثارهم . وفي اثناء المشاق التي كانت

تناصيهم كانوا يعتقدون بالانبياء الكذبة التي كانت تعدهم بالاستيلاء على العالم وفضلاً عن ذلك انهم راوا ان المدينة تملصت من بين ايديهم عنوة وشبت فيها النار من كل جانب ولم يرعووا عن اغوائهم بل لبثوا يصيخون لاقوال الانبياء الافاكين الذين كانوا يغرونهم بالمدافعة بحملهم على اليقين بان يوم انقاذهم قد حان فلبثوا على ذلك والرحمة عنهم قاصية فقتل الفاتح اذ ذاك منهم خلقًا كثيرًا بحد الحسام وقوض المدينة من اركانها ولم يبق سوى بعض قلاع يستبقيها آثارًا للاجيال التالية فهوت اورشليم ولم يبق منها حجرٌ على حجر

فانك ترى ياسيدي ان ما حلَّ على اورشليم من النكبات والمصائب في ايام حزقيا قد حلَّ نفسهُ عليها الان وان تيخوس لم يكن الاَّ بلاغًا من قبيل الرب كبختنصر ليهلك اليهود بالكيفية نفسها فاننا نرى في اورشليم العصيان نفسهُ والجوع عينهُ والازمة ذاتها ووسائط نجاتهم ذاتها وعين الطغيان وذات التهور ونفس العناد ولكي تكون المضاهاة تامةً بكل الوجوه حرق الهيكل الثاني في عهد تيخوس في الشهر والنهار اللذين حرق فيهما في عهد بختنصر وكلُّ شيءٍ كان قد كتب عن ذلك آنفًا ومع ذلك لم ينتبه الشعب لوعيد الله وانذاره .

الاَّ ان بين دثاري اورشليم واليهود بونًا عظيما وكل هذا الاختلاف يبين ان الدثار الاخير قد تمَّ بصرامة غريبة بانتقام الرب فان بختنصر اضرم النار في الهيكل اما تيخوس فقد استخدم اكثر الوسائل لرعايته غير مبالٍ بما تفوه به لديه اعضاء مجلسهِ الشوروي قائلين ان لم تقوض اركان هذا الهيكل فاليهود يستمرون على التمرُّد والعتو لكن لما اتت الساعة التعيسة اي اليوم العاشر من شهر آب وهو الوقت الذي حرق فيه هيكل سليمان احرق هذا الهيكل المكرَّم احد جنود الرومانيين وقد حملهُ على ذلك وحيٌ الاهي كما قال يوسيفوس المورخ وبيانهُ ان نفرًا من ارفاقه اصعدوهُ الى نافذة الهيكل حيث القى النار قسرًا عن تحريم تيخوس لذلك امام جميع الرومانيين واليهود وقسرًا عن جنوح الجنود الطبيعي الذين كانوا يودون ان يسلبوا منه ما كان فيه من الاشياء الثمينة احرى من ان يحرقوها فاذ علم بذلك تيخوس اسرع حالاً وامر بان تخمد النار فلم ينجع شيءٌ ما استعملهُ من الوسائل فان النار اضطرمت بهِ من كل جانب وحوَّلت ذاك البناء العظيم الى رماد .

فان كان عناد اليهود في عهد الملك دليلاً على مفعول انتقام الله الرهيب عليهم فكم بالاحرى عنادهم في عهد تيخوس الملك فقد كان اليهود وقت حصار اورشليم الاول متوانقين على الالفة وتالب القلوب اما وقت ان دثرها الرومانيون اخيرًا كانت قلوب اهاليها متنافرة موهجةً قبسة الشقاق . فكانت تمزق بذلك امعاءها ولم يكن عند قاطنيها حنقٌ على الرومانيين مثلما كانوا يحنقون على بعضهم ويتهافتون على المباغضة . ولهذا لم يتجندل في المواقع الخارجية قتلى منهم بمقدار ما تجندل في المواقع الداخلية لانهم بعد ان كانوا يجالون الاعداء عن اسوارهم اندفعوا على بعضهم وعلقوا يتبارون بسفك الدماء . وكان يجاذب المدينة طرفان من الجور والسلب فعملت بها عوامل الخراب واصبحت كقاعٍ صفصفٍ مغشىً بجثث القتلى وغدا روساؤها يتنازعون على السلطة واصبحت حالتها تضاهي حالة الجحيم حيث التكبر والبلبلة والرجز . والابالسة يودون قلى اعدائهم وهكذا كان الهالكون في اورشليم فانهم كانوا يجهدون في سبيل المباغضة

فلتثقنَّ ياسيدي ان انتقام الرب من اليهود ببختنصر هو صورة انتقامهِ منهم بتيخوس فهل من مدينة شاهدت هلاك احد عشر كرةً من سكانها بحصارٍ واحدٍ مدة سبعة اشهر

فهاك ما شاهده اليهود في حصار اورشليم الاخير فلم يحملهم الكلدانيون شيئًا مثلهُ لان سباءهم عند الكلدانيين لم يستمرَّ اكثر من سبعين سنة اما بعد حصار اورشليم فقد بادهتهم النائبات ستة عشر جيلاً وهم يئنون تحت اوقار العبودية في العالم كله لايجدون لهم من يزحزح عن عواتقهم الاثقال الباهظة اويخففها قليلاً . ولاغروَ من ان تيخوس قد رفض تباريك الشعوب المجاورة على انتصاره ونبذ ما اسدوهُ له من التيجان والمكرمات على ظفره فان الظروف الغريبة وحنق الرب العظيم على اليهود ويده التي تنتك ظاهرة عليهم حملته على العجب من كل ما جرى وبعثته على ان يقول انهُ ليس بظاهر بل هو آلة في يد غضب الرب

ولم يكن بمدركٍ ذاك السرلان الساعة المتوقفة عليها معرفة الملوك الرومانية بأتي المسيح لم تكن اتت الى ذاك الوقت بل كان ذلك الوقت اضطهاد البيعة واذلالها ولذلك لم يعرف تيخوس الجريرة التي يعاقب الربُّ اليهود عليها وان يكن قد عرف ان اليهودية درست بحكمٍ من لدنه تعالى فعلة هذا الانتقام هي اكبر الذنوب وهو

ذنب لم يسمع بهِ الى ذاك الوقت اي قتل الهِ

ولقد تسبب بهِ انتقام لم يرَ لهُ في العالم مثيل . بيدَ اننا لو حدقنا الى الامور بعيون البصيرة وتحريناها حق التحري لما ندّعنا العلم بعقاب اليهود وجريتهم الكبرى . فلتتذكرنَّ كلام المسيح حينما تنبأ لهم عن دثار اورشليم والهيكل قائلاً لا يترك هنا حجرٌ على حجرٍ الا ينقض وكان قد تنبأ لهم عن حصار هذه المدينة الجاحدة وما سيحيط بها من الاسوار وان بنيها تعمل بهم ايدي البومي فيتضورون جوعًا وان انبياء كذبة يطغونها . وكان قد حذّر اليهود ان ابان اهوائهم قريب واوعز اليهم بادلة قاطعة تشعر بأن حلوله وابان لهم تسلسل آثامهم التي تسبب لهم تلك العقابات الرائعة وقصارى الكلام انه كان قد اسلف لهم عن تاريخ الحصار وغوائله ودثار اورشليم

فاعلم ياسيدي انه تنبأ لهم عن كل ذلك وقت الامه رجاء ان لاتذهب عنهم علة نكباتهم لانه كان في مقربةٍ من اعدائهِ حين قال لهم . ها انا ارسل اليكم انبياء وحكماء وكتبة فمنهم من تقتلون وتصلبون ومنهم من تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينةٍ الى مدينة لكي ياتي عليكم كل دمٍ زكيٍ سُفك على الارض من دم هابيل الصديق الى دم زكريا بن بركيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح . الحق اقول لكم ان هذا كلهُ سياتي على هذا الجيل . يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها كم من مرة اردت ان اجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدي هوذا بيتك يترك لك خرابًا .

فهاك تاريخ اليهود فانهم ضهدوا المسيح في شخصهِ واخوانه واثاروا كل الارض على رسلهِ ولم يدعوا لهم راحةً في اية مدينة كانت وقد حملوا الرومانيين وملوكهم على ان يتقلدوا السلاح على البيعة الجديدة ورجموا القديس اسطفانوس بالحجارة وقتلوا اليعقوبين اللذين كانا على جانبٍ عظيم من الطهر والتقى فاكتسبا مراعاة الحرمة حتى لديهم وذبحوا القديسين بطرس وبولس بسيف الامم وذلك كان ذريعةً لهلاكهم لان ما اهرقوا من ذلك الدم ودم الانبياء صارخ من لدن الرب بالانتقام لتصبح بيوتهم ومدائنهم كلها طامسة دارسة ولا يكون دثارهم اقلَّ من اثمهم وكان يسوع ينذرهم ان وقت ذلك قريب وان هذا الجيل لايزول حتى يكون هذا كلهُ اي ان المعاصرين سوف يشاهدون كل ذلك اما الآن فاسمح لما انبئك بهِ عما بقي من نبوة فادينا لانه عندما كان مقدمًا على

اورشليم قبلَ ان مات بقليل من الزمن عطف فوءاده شفقة اذ رأى ما سيحل عليها من الويلات والمشاق بسبب الامهِ فرنا اليها باكيًا وقال :

لو علمت انتِ ايضًا في يومك هذا ما هو لسلامك لكنه الان خفي عن عينيك انها ستاتي عليك ايام يحيط بك فيها اعداوءك بترسةٍ ويحاصرونك ويضيقون عليك من كل وجهٍ ويهدمونك وبنوك فيك ولا يتركون فيك حجرًا على حجرٍ لانك لم تعرفي زمان افتقادك

فبهذه الكلمات اوعز صريحًا الى كيفية الحصار وغوائل انتقام الرب الاخيرة لكن لم يكن يقتضي ان المسيح يذهب للعذاب قبل ان ينقل على اورشليم بالقصاص الذي تحمله لمعاملتها اياه سوء المعاملة فانهُ لما كان حاملاً على عاتقهِ صليبهُ وهو ذاهبٌ الى جبل الجلجلة وكان يقفوهُ لفيف كبيرٌ من الشعب والنساء اللواتي كنَّ يلطمنَ ويبكينَ عليهِ فحانت منه اليهنَّ التفاتة قائلاً

يابنات اورشليم لاتبكينَ عليَّ بل ابكين على انفسكنَّ وعلى بنيكنَّ فها انها تاتي ايامٌ يقال فيها طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدي التي ترضع

حينئذٍ يبتدئون يقولون للجبال اسقطي علينا وللاكام غطينا لانهم اذ كانوا صنعوا هذا بالعود الرطب فماذا يكون باليابس . ان كان بهذا يتعذب البريءُ الصديق فبماذا يتعذب الخطاة

هل رثى ارميا دثار اليهود باكثر شدة من هذا وهل كان يمكن للمخلص ان يستعمل غير الالفاظ باكثر قوةٍ ووضوح لينبههم على مشاقهم وبأسهم فقد اوعز اليهم عن الجوع المدقع انه يهلك بنيهم ونساءهم اللواتي نضبت اثداوءهنَّ ولم يبق لهنَّ سوى العويل بهبنة اولادهنَّ واللواتي الجأهنَّ الجوع الشديد الى ان ياكلن ثمرة بطونهنَّ .

الفصل الثاني والعشرون

في ان نبوءتي يسوع المسيح الشهيرتين يتضحان بتتميمها وبشهادة التاريخ

ان النبوءات التي اتينا بالنباء عنها قد تنبأ بها امام الشعب اما التي لم يتفوه بها الا امام تلاميذه فانها ذات بال لا مندوحة من استلفات الاحداق اليها وانها توءخذ من

كلامهِ عن دثار اورشليم ودثار العالم قاطبةً ولم يكن ذاك الوثاق دون سرٍ وها هي غايتهُ .

فان مدينة اورشليم الطوباوية التي اصطفاها الرب وطالما مكثت تنتظر الميعاد والعهد قد كانت رمزًا الى الكنيسة والسماء حيث يبدو الرب لدى بنيهِ ولذلك نرى من الانبياءِ كثيرين قد ضموا ما يناط باورشليم الى ما يناط بالكنيسة والمجد الابدي وذلك في اثناء خطاب واحدٍ وهو من اسرار النبوات ومفاتيح اقفالها واما اورشليم المرذولة الجاحدة مخلصها فهي رمزٌ الى جهنم وسكانها الخائنون هم كالهالكين وقضاءُ المسيح عليهم هو رمزُ قضائهِ على كل الارض اذ يأتي في آخر الاجيال بكل عزتهِ ليدين الاحياءَ والاموات ومن دأب الكتب المقدسة والوسائل التي تقوم باعبائها لترسخ الاسرار في عقولنا ان تمزج في التعليم الرمز بالحقيقة وعلى ذلك مزج مخلصنا تاريخ اورشليم وخرابها بتاريخ انقضاءِ العالم وذلك يبدو في الخطاب الذي عليه يدور محور كلامنا لكن لاتخالن ان كل هذهِ مزوجة ببعضها حتى انه لا يمتاز ما يناط بكل منها بل ان المسيح قد ميز كلاً بصفات خاصة يمكن ابانتها ولكن يكفي ان ابين كل ما يناط بدثار اورشليم واليهود .

واذ كان الرسل مكتنفين يسوع نحو آلامهِ كانوا يشيرون الى الهيكل وما حوالهُ من الابنية معجبين جدًا من مناعة البناء ونظامهِ وحسن حجارتهِ فرنا اليهم المخلص واخذ يقص عليهم قائلاً انظروا هذا الهيكل الحق اقول لكم لايترك هنا حجرٌ على حجرٍ الاَّ ينقض فتعجبوا من كلامهِ وسألوا متى يصير كل هذا اما هو فاذ لم يشأ ان يجعلهم قلقين في اورشليم لدى دثارها اخذ ينبئهم عما سيتوارد عليها من المصائب على التتابع (لانه اراد ان يكون انفصال الاخبار عن الاشرار بخراب المدينة رمزا الى الانفصال الذي يحدث في الزمان الاخير) فقال لهم سوف تكون أوبئةٌ ومجاعات وزلازل في اماكن شتى ومصادقةً على ذلك فقد قال المورخون ان تلك الحوادث الويلة التي حدثت في ذاك القرن لم يكن لها من نديدٍ في القرون الغابرة ثم قال سيصير في كل الارض بلابل واخبار حروب وستقوم أمةٌ على أمةٍ وتحدث في كل الارض قلاقل فذلك يمثل لنا كل ما جرى اخيرًا في حكم نيرون فان الدولة الرومانية اي الارض كلها التي كانت رائعة في بحبوحة السكينة منذ انتصار اوغسطوس وعهد خلفائهِ شرعت تتزعزع لان غاليا واسبانيا

وكل مقاطعات الدولة الرومانية علقت تتقوض بوقت واحدٍ فان اربعة ملوك تألبت قلوبهم معًا على نيرون واخذوا يتناظرون وان ظهراء الملك وعساكر سوريا وجرمانيا وفيالق اخرى من الشرق والغرب تصادموا في مواقع القتال ودوخوا تحت قيادة ملوكهم الارضين من اقصاها الى اقصاها ليبتوا خصامهم بمعارك دموية ولكن لا يكون المنتهى اذ ذاك كما قال ابن الله : وسوف يتجشم اليهود من ذلك مشاق عمومية الاَّ انهُ سوف يحل عليهم نوائب خاصة وهذا كلهُ اولُ المخاض

ثم اضاف الى كلامه ان قال ان بيعة المضطهدة منذ تشييدها سوف تكابد اضطهادًا جديدًا اشق من الاول في ذاك الحين ولقد ذكرنا ان نيرون اراد ان يبيد في اخر ملكه المسيحيين وامات القديسين بطرس وبولس . واما الاضطهاد الذي اثاره اليهود حسدًا وبغيًا فقد عاد عليهم بالدثار بيد ان الاجل المسمى لم يكن الى ذاك الوقت قد تعين . لكنهُ قد كان يلوح ان ما أتى المسحاء الدجالين والانبياء الكذبة هو الاجل المسمى لدثار اورشليم الاخير

فان الذين سدوا آذانهم عن استماع صوت الحق آل بهم الامر الى ان يصبحوا بالانبياءِ الكذبة هالكين . ولم يخف المسيح عن رسلهِ حلول تلك المشاق في اليهود فانهُ اوعز اليهم ان سوف يقومُ كثيرون من الانبياءِ الكذبة ويضلون كثيرًا وقال ايضًا سيقوم مسيحوا كذبٍ وانبياء كذبة

فلو كنت تعرف اخلاق اليهود لنضيت بان الوصول الى ادراكها امرٌ ذو صعوبة فلقد انبأتك انهم بعد ان خذلهم الانبياء الكذبة وسببوا دمارهم ولا سيما في عهد حزقيا انفوا من افواهم وآلوا على ان لا يسمعوا لهم قولاً وكان قد مرَّ على ذلك اكثر من خمسمائة سنة ولم يبدُ في اسرائيل انبياءُ كذبة واما المجيم الذي كان يمت بينه وبينهم رباط الاخاء فقد استيقظ وقت ماتى المسيح وان الله الذي يقبض بيمينهِ على الارواح الخداعة قد اطلقها وشانها لكي تبرح باليهود وتمحن المومنين وتثبيتًا لذلك فان الانبياءَ الكذبة لم تظهر بمقدار ما ظهرت عقيب موت المخلص ولا سيما في وقت حرب اليهود وعهد نيرون كان قد اجيج تلك الحرب فتكاثرت اذ ذاك كما اشار الى ذلك يوسيفوس المورخ حتى ضاق الحسبان دونها وكانت تخاتل الشعوب وتجذبهم الى بطون الكفار بالسحر والمكر وتعدهم بالفرج القريب .

ولذلك اشار المسيح بنبوءاته الى البرية حيث يتوارى الانبياء الكذبة وكانوا بالحقيقة يجذبون الشعب ثمة الى دثاره الاخير . ويمكن لك ياسيدي ان توقن ان اسم المسيح الذي يتعسر على اليهود ان يخلصوا بدونه كان ممتزجًا بتلك المواعيد الباطلة وانك سوف تقف على ما هو اهلٌ لاقناعك

ولم تكن اليهودية وحدها عرضة لهذه الغرة العشواء بل كانت كل مقاطعات الدولة الرومانية مثلها فلم يكن من زمن مثل ذاك ينبئنا التاريخ فيه عن العدد المديد الذي اتصل اليه الانبياء الافكون وعما عثوا وزعموا ان يدركوا حقائق المستقبل ويختلوا الشعب بسحرهم كسيمون الجيسباني والياس وابولونيوس تيانوس وجم غفير من السحرة المذكورين في التاريخين الديني والدنوي فكل اولائك بدوا في هذا الجيل حيث بذل الجحيم جهده ليوطد مملكة المزعزع واشار المسيح الى ذلك بقوله سوف يقوم في ذاك الوقت ولاسيما عند اليهود عددٌ كثيرٌ من الانبياء الكاذبة ومن يتنبه لكلامه يرى ان هذا العدد يتكاثر قبل دثار اورشليم وبعده اوفي ما قرب منه ويضاعف الخداع التعليم الكاذب والعجائب الباطلة فيعزّز ويمي رجسًا ويكاد المختارون يتخدعون لو كان ذلك ممكنًا

ولست بناكر ان قد يحدث في آخر الاجيال شيءٌ كهذا او اكثر منه مكرًا لاننا قد اسلفنا ان ما حدث في اورشليم هو محضُ رمز الى ما يحدث في آخر الزمان اما المسيح فقد ابان لنا ان هذا الغرور مفعول غضب الرب على اليهود وسيماء هلاكهم . وقد ثبّت هذه النبوة واقعيّ الامر لان كل شيءٍ قد تحقق بشهود عدلٍ لا تنبذ شهادتهم فاننا نرى نبوة ضلالهم في الانجيل وتتمتها في تاريخها ولاسيا تاريخ يوسيفوس

وبعد ان تنبأ يسوع المسيح عن كل ذلك قاصدًا بنبوته انقاذ تلاميذه من المشاق التي توعد بها اورشليم اخذ يورد عليهم أدلة خراب هذه المدينة الاخير

ان الرب لا يبين هذه الادلة لمختاريه دائمًا لانه لدى العقابات الصارمة التي تظهر قوته امام الامم طرًّا قد يضرب احيانًا الصديق والخاطئ معًا وما ذلك الا لان الوسائل التي يستخدمها في سبيل عزل الواحد عن الآخر هي اشدّ قطعًا مما تبدو لدى حواسنا فانّ الضربة التي تسحق التبن يتأتى لها فصل الحبة . وينتقي التبر بالنار التي تحرق بيبس التبن وهكذا ينتج بالعقاب فكما يهلك به الاثيمون كذلك يخلص به الصالحون واما في خراب اورشليم فلكي تضح الهيئة الدنوية الاخيرة ويظهر غضب الله صريحًا على

الجاحدين لم يشاء الله ان اليهود الذين اقتبلوا الانجيل يخالطون من سواهم . ولذلك ابان المسيح لتلاميذه بادلةٍ بينة عن وقت نزوحهم من المدينة المرذولة . وقد استند حسب عادته على الانبياء الاقدمين الذين كان مفسرًا وخاتمةً لهم . وبعد ان ذكر ما فاه به دانيال عن دثار اورشليم الاخير قال هاتي الكلمات «فمتى رأيتم رجاسة الخراب التي قيل عنها بدانيال النبي قائمةً في المكان المقدس» وكما قال القديس مرقس قائمةً حيث لا ينبغي فحينئذٍ الذي في اليهودية فليهرب الى الجبال ويذكر القديس لوقا ذلك نفسه بالفاظ مختلفة قائلاً :

وإذا رايتم اورشليم قد احاطت بها الجنود فاعلموا حينئذٍ ان خرابها قد اقترب فحينئذٍ الذين في اليهودية فليهربوا الى الجبال والذين في داخلها فليخرجوا والذين في البلاد فلا يدخلوها

ان الانجيليين يشفون عن معاني اقوال بعضهم وان قسنا هذه الآية يسهل لدينا ان نفتهم ان الرجاسة المذكورة في دانيال هي الجنود حول اورشليم وهكذا عبّر عنها الآباء القديسون ويؤيد لنا العقل مصداق ذلك . لان الرجاسة حسب عادة الكتاب تدلّ على الصنم ومن ذا الذي يجهل ان الجنود الرومانية كانوا يحملون على الويتهم صور الهتهم وقياصرتهم الذين كانوا يتعبدونهم اكثر من كل الالهة . وقد كانت تلك الالوية موضوعًا تحملهم على عبادة ما عليها ولما كان دخول الاصنام الى الارض المقدسة محرّمًا بامر الله لم تدخل ثمة العلامات الرومانية ولهذا نرى في التاريخ ان الرومانيين طالما اعتبروا اليهود لم يسمحوا بادخال علاماتهم الى اليهودية ولذلك عند ما عبر ويتليوس هذه المقاطعة ليكر على العربية محاربًا استنادًا على رواية التاريخ كان يقود جنوده دون علامات لان الرومانيين كانوا يحترمون وقتئذٍ دين اليهود ولم يكن من رغبتهم ان يحشموا هذا الشعب ما يناقض دينه

اما في ابان حرب اليهودية فلم يبقَ الرومانيون يراعون شعبًا عازمين على استئصاله وبناء عليه كان يكتنف اورشليم وقت حصارها اصنامٌ توازي ما كان للرومانيين من العلامات ولم تبدُ رجاسةٌ بهذا القدر اذ لا ينبغي ان تكون في الارض المقدسة وحول الهيكل

ويعترض على ذلك بان هل هذه العلامات العظيمة هي نفس ما وهب المسيح

تلاميذه وهل كان الوقت يمكنهم من الاركان الى الفرار لما اخذ تيخوس يحاصر اورشليم قافلاً ابوابها غير ممكن . لاحدٍ منها الخروج . فعلى هذا عينه نتوقف غرابة هذه النبوءة فان اورشليم حوصرت مرتين في ذاك الحين فقد حاصرها في بادىء الامر سيستيوس والي سوريا سنة ٦٨ بعد المسيح وحاصرها مرة ثانية تيخوس بعد ذلك باربع سنوات اي سنة اثنتين وسبعين ولم يعد في الحصار الاخير من وسيلة للفرار لان تيخوس اخذ يبذل الجهد في الحرب وباغت اليهود المتالبين في اورشليم وقت عيد الفصح ولم يكن لاحدٍ من وسيلةٍ الى النجاة . وقد احبطت المترسات التي اقامها حول المدينة أمل الاهالي في الاركان الى الفرار بيد انه لم يرَ شيئاً من ذلك في حصار سيستوس فانه اقام عليه حصاراً في حيزٍ يبعد عن اورشليم ستة اميالٍ وكان عسكره يحيط بالمدينة غير منشىء لسبيل ذلك اخدوداً او مترسات بل كان يوجج الحرب دون اعتناء ولبث على ذلك الى ان بارحته الفرصة من فتح المدينة فان الروع والمنازعات الداخلية وكثيراً من حزب الرومانيين كانا ذريعة لافتتاحها فلم يكن في ذاك الابان ممرٌ لمن يحاول النجاة بل ان التاريخ يذكر صريحاً ان كثيرين من اليهود خرجوا من اورشليم . فكان اذ ذاك وقت الخروج والعلامة التي اعطاها ابن الله تلاميذه ولذلك قد ميز بكل صراحة بين الحصارين فان المدينة تكون بالحصار الاول محاطة بالجنود فقط ولا تكون محاصرة حقاً فيكون للذين في اليهودية ذريعة الى الفرار الى الجبال وتكون بالحصار الاخير محاطة بمترسات واخاديد فيكون القضاء على الذين داخلها بالهلاك

فامتثل المسيحيون كلام سيدهم وان يكن فيلق كبير منهم في اورشليم واليهودية فلم نعثر بتاريخ يوسيفوس او سواه على أن شيئاً من ذلك العدد كان لدن افتتاحها وعكس ذلك ان المسيحيين لجئوا الى مدينة بيلا في الجبال الدانية من القفار على حدود اليهودية والعربية وذلك كله مقررٌ في تاريخ الكنيسة وكل ما نقله الينا الآباء الاقدمون

ومن ذلك يمكن ان نستنتج كم من مرة احتذر المسيحيون بنوعٍ صريح اذ لا شيء اهم من انفصال اليهود الذين لم يومنوا بالمسيح من الذين امنوا به فان منهم من قطن في اورشليم لمعاقب عن اثمه ومنهم من نزح من المدينة كما نزح لوط من صادوم ولجئوا الى مدينة حقيرة ومنها كانوا يراعون وهم في روعٍ وهول كل مفاعيل غضب الرب واحكامه التي شاء ان ينفذهم منها

وقد يوجد عدا نبوات المسيح نبوات تلاميذه منها نبوات القديسين بطرس وبولس وذلك لان اليهود لما كانوا يبرحونهما بالعذاب الاليم وهما شاهدان ليسوع المسيح المنبعث من الاموات انذراهم اذ سلموهما للالام بدثارهم القريب وقالا ان اورشليم لابدَّ من ان تتقوض من الاساس وان اهلها يهلكون جوعاً وقنوطاً وينفون من ارض آبائهم نفياً موبداً ويمسون متشعثين في كل المسكونة كالاسرى ولذلك اجلٌ قريب المأتى فهذه المصائب برمتها سوف تحل عليهم لانهم هزئوا بابن الله وامتهنوه بعد ان بدا لديهم بمعجزاتٍ عظيمة

فهذه النبوءة قد حفظها الآباء الاقدمون عن لسان الرسل وتمت حالاً بنوعٍ صريح وقد فاه القديس بطرس بنبوات كثيرة وهي اما ان تكون قد اوحيت اليه بنوعٍ خاصٍ او عند تعبيره كلام سيده فان فليغون احد مولفي الوثنيين قال حسب ما يشهد اوريجانوس ان كل ما فاه به هذا الرسول قد تم بكل دقة

وعلى هذا لم يكن يحدث شيء لليهود الأ تنبأ لهم عنه وتبدو لدينا علة مشقاتهم بحقارتهم ليسوع المسيح وتلاميذه لان ابان النعمة والرحمة جرى عليها القضاء وكان قد ازف ابان الهلاك

فاصبح اذاً جد تيخوس في انقاذ اليهود والهيكل عبثاً فان الحكم عليهم كان قد صدر من العلاء فاصبحت حجارة البناء كالهباء المنثور

وان يكن احد الملوك الرومانيين قد جرب عبثاً ان يمنع دثار الهيكل فقد جرَّب سواه عبثاً ايضاً ان ينهضه وقد فكر جوليانوس الجاحد الذي شرع ان يحارب ضد المسيح بان يكذب نبواته ولما قصد ان يقيم للمسيحيين اعداء الداء من كل ناحية تنازل وانهض ضدهم اليهود المرذولين من العالم وبعثهم على ان يقيموا هيكلهم وقدم لهم مبالغ عظيمة وعضدهم بكل قوة الدولة الرومانية . فاصخ الى هذا الحادث ياسيدي وانظر كيف الرب يرذل الملوك الجبابرة فهذا يشعرنا به جميع الآباء القديسين والمورخين الكنائسيين ويبينونه بآثار لا تزال من ازمانهم . واقتضى ان الوثنيين انفسهم يحققون ذلك لان اميانوس مارسيلينوس الوثني الدين والمدافع بغيرةٍ عن جوليانوس ينبئنا عن عن هذا الحادث بقوله لما كان اليبوس يعضد والي الاقليم ويسرع بعمار البناء على قدر امكانه هبَّ من الاساس كرات نارية وزعزعت اركان العمار بهزات قوية واحترق

الفعلة الذين آبوا الى اعمالهم وقد اصبح من المستحيل الدنو من ذلك المحل فنبذوا العمل

واما مورخوا الكنيسة فيوردون النبأ عن ذلك الحادث بدقه كبرى ويذكرون ان نار السماء خامرت وقتئذٍ نار الارض . وقصارى القول ان كلام المسيح اصبح ثابتًا وذلك ما حمل بوحنا الذهبي الفم على ان يقول ان الرب اقام على الصخرة بيعةً لا تتزعزع ودثار الهيكل ليس بوسع احدٍ انهاضه اي لا احد يمكن له ان يقوض ما اقامه الرب ولا احد يمكن له ان يقيم ما قوّضه

ولندعنّ الان اورشليم والهيكل ونرنونّ الى الشعب نفسه الذي كان آنفًا هيكل الرب الحي واصبح الان عرضة لغضبة ومن المقرران اليهود اصبحوا اكثر سقوطًا من هيكلهم ومدينتهم لان روح الحق لم يبق بينهم وبطلت النبوءة وبرحت المواعيد التي كانوا يسندون عليها آمالهم ولم يبق شيءٌ قائم في ذلك الشعب ولم يترك من البناء حجرٌ على حجر

وانظر الان كيف سلموا نفوسهم الى الضلال والى اية درجة اتصلوا فكان المسيح قد قال لهم : انا اتيت باسم ابي فلم تقبلوني وان اتى اخر باسم نفسه قبلتموه) فمنذ ذاك الحين استولى عليهم الفشل حتى انهم صاروا متأهبين ان يسلموا انفسهم لانه لم يكفهم ان الانبياء الكاذبة سلموا المدينة الى تيخوس فان اليهود واصل ابايهم من اليهودية طردُهم منها لان حبهم لاورشليم حمل كثيرين منهم على ان يتخذوا مثاويء في رسومها العافية . وهاك مسيحًا اخر دجالاً ياتي وينم خرابهم لانه بعد ان مضى على افتتاح اورشليم خمسون سنة شرع برخوخيباس المرذول اللص المجرم يقول في الجيل نفسه الذي مات فيه مخلصنا انه كوكب يعقوب المذكور في سفر العدد لان معنى اسمه ابن كوكب وتقدم لليهود كانه المسيح فقفا اثره اكيباس اشهر الربانيين وكل الذين يدعوهم اليهود حكماءهم ودخلوا في حزب هذا الرجل دون ان يبيت لديهم علامة تدلُّ على بعثه . غير ان اكيباس كان يقول لهم ان المسيح لا يلبث الا ان يبدو وقام اليهود من كل الدولة الرومانية وانحازوا الى برخوخيباس الذي كان يعدهم بملك العالم فقتل ادريانوس منهم نحوًا من ستماية الف ووضع على عواتقهم نير العبودية ونفاهم من اليهودية نفيًا مويدًا ومن ذا الذي لا يدري ان روح الكذب قد استولى على قلوبهم فانهم لم يقبلوا محبة الحق

والخلاص ولذلك يبعث اليهم الله بعمل الضلال حتى يصدقوا الكذب فمهما كان الغش فانه كان كافيًا لخداعهم فقال في هذه الايام احد منافقي الشرق عن نفسه انه المسيح فاخذ اليهود يجتمعون حوله وشهدناهم في ايطاليا وهولاندا والمانيا وماس يتأهبون ليبيعوا امتعتهم ويتركوا كل شيءٍ ويتبعوه وفكروا حالاً انهم مزمعون ان يستولوا على العالم لما بلغهم ان مسيحهم أسلم وترك دين موسى

الفصل الثالث والعشرون

في ضلال اليهود التابع لما انفَ وكيفية تعبيرهم عن الانبياء

لا نعجب من سقوط اليهود في هذه الغرق ولا من تشعيثهم في هذه العاصفه بعد ان جنفوا عن طريقهم فهذهِ الطريق كانت قد رسمت لهم في النبوءات ولا سيا في النبوءات التي كانت توعز الى وقت ماتى المسيح فنبذوا هذا الان برُّ دون نتيجة ولهذا تراهم وقتئذ جانحين الى الافك مزورين عن الطريق

ايذن لي هنيهة كي ارفع لديك تسلسل غيرهم وكل كدحهم في ولوج العمق وان الطريق التي يضلُّ بها تتصل بالطريق العظمى واذا اعتبرنا ذلك من حيث ابتداء الضلال امكن لنا السعي في الطريق المستقيمة بكل تاكيد

فقد راينا ياسيدي ان قد يوجد نبوءتان تبينان لليهود وقت ماتى المسيح وهما نبوءة يعقوب ونبوءة دانيال وكلتاهما تشير الى آثار مملكة يهوذا في وقت جيئة المسيح الاّ ان دانيال يبين ان دثار هذه المملكة التام سوف يكون ناتجًا عن موت المسيح وقال يعقوب بنوع صريح ان المسيح الذي يكون رجاه للامم اي مخلصًا لهم ياتي في وقت سقوط ملك يهوذا ويقيم له مملكة جديدة لا تكون موءلفة من شعب واحد بل من كل شعوب الارض وان كلام هذه النبوءة لا يمكن ان يخرج لغير معنىً وينتج تعبيره من تقليد اليهود الثابت بهذا الخصوص

ومن ذلك ينجم الاعتقاد الذائع بين الربانيين الاقدمين والمذكور ايضًا في التلمود وهو انه في الوقت الذي ياتي فيه المسيح يبطل وجود القضاة اي انه لا شيء ام عندهم لمعرفة محيء المسيح من ملاحظة وقت سقوطهم في هذه الحالة التعيسة التي ذكرناها

وحقيقة الامران بداءتهم كانت حسنة. ولو لم تكن افكارهم منهمكة بالعظمة الدنوية لما كان امكن لهم ان يجهلوا المسيح الذي كانوا يخالونه بسلطة كهذه حتى يشتركوا بملكه فالركن الذي وضعوه كان مقررًا حالاً عندما جار هيرودس الاول وحدوث التغيير في حالة مملكة اليهود ابان لهم وقت سقوطهم المرسوم في النبوات فلم يكن عندهم من ريب في مجيء المسيح وفي ظهور هذه المملكة الجديدة لانه كان مزمعًا ان يتحد فيها كل الامم وما تقرر لديهم صريحًا ان قد نزع منهم كل سلطان بالموت والحيوة وهذا كان لديهم تغيرًا عظيمًا لانه قد كان محفوظًا لهم دائمًا الى غاية ذاك الحين مهما كان السلطان الذي رضخوا له حتى انهم في بابل في اثناء أسبائهم لم يبرحوا مستولين عليه وما يبين ذلك تاريخ سوسان. وهذا كان تقليدًا ثابتًا عندهم وقد نبذ ملوك فارس الذين اتوهم الى اوطانهم هذا السلطان بموجب اوامر خاصة قد لاحظناها في محلها وقد ذكرنا ايضًا ان الملوك السلوسيدين قد ضاعفوا هذا التمييز وما انقصوهُ ولا حاجة هنا لنذكر ثانيةً ملك المكابيين لان اليهود قد عتقوا واصبحوا اشداء ورهبةً في قلوب اعدائهم وقد اكتفى بومبايوس الذي اوهنهم كما ذكرنا آنفًا ان يفرض عليهم جزيةً ويجعلهم بحالةٍ تمكن الشعب الروماني ان يتصرف فيهم لدى الاقتضاء كما يشاء. ولذلك قد ترك لهم ملكهم وابقى له كل سلطته ومن البين ايضًا لدى الجميع ان الرومانيين كانوا يتصرفون هكذا وكانوا لا يمسّون الحكومة الداخلية في البلاد التي كانوا يتركون فيها ملوكها الوطنية

وغاية الامران اليهود انفسهم يذعنون انهم فقدوا هذا السلطان بالموت والحيوة اربعين عامًا فقط قبل دثار الهيكل الاخير ولا ريب ان هيرودس هو اول من اضرّ بحريتهم رجاء ان ينقم من مجلس السنداران لانه اضطرّ هو نفسه ان يتحاكم فيه قبل ان يصير ملكًا . ثم لكي يجمع اليهِ كل سلطة اخذ يقوض هذه الجمعية التي كانت كجمعية المشايخ المشيدة من موسى وكمجلس مشورة الشعب الدائم اذ كان يجري السلطان العالي. فمن ثمَّ فقد هذا المجلس رويدًا سلطانه حتى انه اضاعه تقريبًا عند مجيء المسيح الى العالم فصارت الاحوال سيئة جدًّا في عهد اولاد هيرودس لما صارت مملكة اركيلاوس التي كانت حاضرتها اورشليم تحت ولاية معتمدين من قبل ملوك رومية . وفي هذه الحال السيئة لم يبق لليهود ادنى سلطان في الموت والحيوة حتى انهم اضطروا الى ان يلتجئوا الى بيلاطوس ليميتوا يسوع المسيح الذي كانوا يرغبون في موته في اية حالة كانت ولما

اوعز اليهم هذا الوالي الواهن ان يقتلوهُ هم انفسهم اجابوهُ بصوت واحدٍ لا يسوغ ان نميت احدًا

ولهذا قتلوا يعقوب اخا يوحنا بوساطة هيرودوس والقوا ايضًا القديس بطرس في السجن . ولما ازمعوا على موت القديس بولس اسلموهُ للرومانيين كما صنعوا بيسوع المسيح . واما نذر ذوي الغيرة الكاذبة (اي الذين آلوا على نفوسهم ان لا يأكلوا ولا يشربوا حتى يقتلوا الرسول) فيدلُّ على انهم كانوا موقنين بهبوط سلطانهم ليقتلوه شرعًا وان يكونوا قد رجموا القديس اسطفانوس بالحجارة فذلك كان ناجمًا عن ثورةٍ لم يمكن للرومانيين التمكن من ردعها لان الموجهين تلك الثورات كانوا من المدعوين بذوي الغيرة

وبناءً عليهِ اصبح من الشوءون المثبتة من المورخين ومن اقرار اليهود واحوالهم ان نحو وقت مأتى المسيح ولاسيما لما شرع يبشر بانجيلهِ كان اليهود قد فقدوا السلطة الزمنية وما امكن لهم ان يشاهدوا فقد هذا السلطان الا يتذكرون نبوة يعقوب التي كانت تنذرهم ان في زمان المسيح لا يبقى بينهم سلطةٌ ولا قضاة ولا سلطان . وقد لاحظ احد مورخيهم الاقدمين هذا الامر واقرَّ ان الصولجان قد خرج من يهوذا ولم تبق السلطة بايدي مشايخ الشعب لان السلطان العام نزع منهم وهبط مجلس السنداران ولم يستمر اعضاوه يعتبرون كقضاة بل كمعلمين وهكذا قد حان الان حسب اعتقادهم لمجيء المسيح . وبما انهم كانوا يشاهدون هذه العلامات المقررة لمأتى المسيح الملك الجديد الذي يتدوّل ملكه فوق سائر الامم فكروا بالحقيقة انه مزمعٌ ان يأتي فشاع النبأ عنه في البلدان الدانية واكدوا في الشرق كله ان سوف يخرج من اليهودية من يملك الارض عن قريب . وذكرتا سيت وسياتون هذه الاشاعة المستندة على آراء مقررة ونبوة قديمة في كتب اليهود المقدسة وذكر يوسيفوس هذه النبوة بالحرف الواحد وقال ايضًا مثلهم انها في الكتب المقدسة ولا ريب ان اعتبار هذه الكتب كان عظيمًا جدًّا في الشرق لان قد شوهد مرارًا عديدة ان ما تنبأوا به كان قد تم بانواعٍ مختلفة وظروف متباينة وان اليهود كانوا متيقظين اكثر من غيرهم ليراعوا هذه الحوادث التي كتبت لتعليمهم ولهذا قد عرفوا زمان مأتى المسيح الذي اوعز اليهِ يعقوب وحدده بسقوطهم وهكذا ملاحظاتهم بشان حالتهم كانت موقعة ولم يزهقوا بزمان مأتى المسيح بل

عرفوا انه مزمع ان ياتي في الوقت الذي اتى به بالحقيقة . ولكن بالعجب من ضعف البشر وتكبرهم اللذين سببا جهلهم الفظيع . فاخفى تواضع المخلص عن هؤلاء المتكبرين العظمة الحقة التي كان يلزمهم ان يجدوها في المسيح بل انهم كانوا يرغبون في ان يكون ملكًا كملوك الارض ولهذا قال مداهنوا هيرودس الاول انه هو نفسه الملك الموعود به لليهود لانهم كانوا في دهشة من عظمة هذا الملك وفخره لانه اغنى اليهودية ولو كان جائرًا وهذا ايضًا ما سبب بدعة الهيروديين المذكورة في الانجيل مرارًا وعند الوثنيين انفسهم لان الشاعر برسس وشارح اشعاره يخبراننا ان الاناس كانوا يحتفلون في اليهودية بميلاد هيرودس الملك كما كانوا يحتفلون نهار السبت وذلك كان في زمان نيرون ايضًا

وقد سقط في هذا الخطاء عينه ايضًا يوسيفوس المورخ فان هذا الرجل العالم بالنبوات كما يقول عن نفسه اذ كان كاهنًا ومن اخلاف الكهنة انه درى بمجيء هذا الملك الموعود به بيعقوب وان ذاك المجي كان يقارن لوقت هيرودس لانه يبين لنا بكل اعتناء دثار اليهود البين ولكن بما انه لم يرَ في امتهِ شيئًا يوافق افكارهُ ذات المطامع كما ظنَّ في المسيح اخروقت النبوة وناها لويسبازيانوس موكدًا ان هذه النبوة تدل على هذا الملك الذي صار امبراطورًا في اليهودية .

وعلى ذلك كان يعاكس معنى الكتاب الاقدس ليوطد دهانة فياله من اعمه البصيرة فقد ودَّ ان ينقل امل يعقوب ويهوذا الى الامم ويطلب يوسبازيانوس ابن ابراهيم وداود وبني لملك وثني من هو مزمع ان ينير العالم وينقذهم من الاصنام

وكانت ظروف الزمان تقوم بناصره ولكن بينما كان يبني يوسبازيانوس ما قاله يعقوب عن المسيح كان ذوو الغيرة الذائبون عن اورشليم ينسبون ذلك اليهم وبالتوكوء على هذا المبدأ وحده كانوا يعدون نفوسهم بملك العالم ويوءيد ذلك يوسيفوس وبهذا كانوا ارصن منه لانهم كانوا لم يجالوا امتهم قصد ان يطلبوا تتميم المواعيد التي اعطي آباءَهم اياها

فلماذا لم يفتحوا عيونهم عند سماعهم هذه الاشاعة العظمى التي كانت تقرع اذانهم لما شرع الرسل ينذرون الامم بالانجيل ويشيدون ملك المسيح في كل الارض وايةُ مملكةٍ اعزُّ من هذه المملكة فانها تقبض على زمام التقوى وينتصر بها الحق

على الاصنام ويبشر بها بالحيوة الازلية للامم الضليلة وان مملكة القياصرة لم تكن سوى زهاءِ باطل بالنسبة لهذه المملكة الحقيقية . بيد انهم لم يكن لهذا الملك الزهو الكافي لدى اعين العالم .

فيجب على المرء ان يقصي عنهُ الافتخار البشري ليعرف المسيح . ومن الثابت ان اليهود كانوا يعرفون الزمن ويرون الشعوب المدعوين لاله ابراهيم بيسوع المسيح وتلاميذهِ حسب نبوة يعقوب ومع ذلك لم يعرفوا هذا المسيح المعلن لهم بجميع الادلة ولوانه ثبت ارساليته في مدة حياتهِ وبعد موتهِ بكل انواع العجائب فجحده هؤلاء العميان لانهُ لم يبدُ بهِ الا العظمة العارية عن كل الظواهر التي توثر في الحواس ولانه كان آتيًا لقمع مطامعهم لا للقيام بناصرها .

ومع ذلك كانت الظروف والحوادث تقسرهم على ان يجالوا احيانًا اوهامهم قسرًا عن عمه قلوبهم . وكانت الاشياء تعد بظهور المسيح في وقت السيد له العزة حتى انهم فكروا ان يوحنا المعمدان يكون هو المسيح لانه ادهشهم بعيشتهِ القشفة والخارقة العادة والعجيبة وبدا انهم اكتفوا بزهو هذه الحيوة العجيبة لانهم لم يجدوا عظمة العالم كلما كانوا يطلبون واما حيوة المسيح البسيطة والاعتيادية فكانت تجعل هذه العقول الساذجة والمتزاهية تانف منهُ لانهم لم يكونوا يتاثرون الا ما يوثر في حواسهم . وخلا ذلك فبما انهم كانوا قاصين عن كل ما يوول الى ارتدادهم الحقيقي لم يشاؤوا ان يعتبروا الا ما يعتبرونه امرًا لا يقتدى بهِ . وبناءً عليه لم يثقوا بيوحنا المعمدان الذي فكروا ان يكون مستاهلاً ان يكون المسيح لما هداهم الى المسيح الحقيقي . واما المسيح الحق الذي كان يقسرهم على اقتفاء اثره عند وثوقهم به بدا لديهم دنيئًا جدًّا لدن تسنتهم به

وبناءً على ذاك التصور الذي قام باعبائهِ اليهود لدى بدو المسيح في تلك الاثناء كان عزيزًا جدًّا حتى ان ذلك استمر فيما بينهم اكثر من عصر فخالوا ان ثمة النبوات لابدَّ لها من سعة . ولا يقتضي ان تكون محصورة في معنىً مقرر ولذلك لم يكن يفوه بينهم مدة نحو من ماية سنة الا عن المسيحيين الافاكين الذين كان القوم يقفونهم او عن الانبياء الافاكة الذين كانوا ينذرونهم . ولم يرَ شيءٌ يضاهي ذلك في الاجيال الماضية ولم يغالي اليهود باستعمال اسم المسيح الى وقت أن كان يهوذا المكابي يفوز بالظالم بظفرٍ عظيم او وقت كان اخوه سمعان يعتقهم من نير عبودية الامم او وقت أن كان

هيركان الاول بفتح البلاد مقدارًا عظيمًا لان الوقت وهذه الادلة لم تكن بموافقة واخذوا في وقت المسيح يتكلمون عن كل هولاء المسحاء واما السامريون الذين كانوا يطالعون في خمسة اسفار موسى نبوءة يعقوب تخذوا لم كاليهود مسحاء لانه بعد ان تقادم على ماتى المسيح زمنٌ قصير اقتفوا اثر المبتدع دوزيته

وسيمون الساحر الذي هو من تلك البلاد كان يزعم ايضًا انه ابن الله وكان يدعي تلميذه مناندر انه مخلص العالم وكانت الامرأة السامرية تعتقد منذ ايام يسوع المسيح انهُ سوف ياتي لانه كان مقررًا لدى الشعب وكل من يقرأ نبوءة يعقوب ان المسيح مزمعٌ ان يبدو لدى احوالٍ كتلك

ولما مضى الزمن وشقَّ عليهم ان ينتظروا امرًا عرف اليهود بالاختبار ان المسحاء طرًا الذين تباينوا لم يكن منهم ألاَّ ينقذوهم فقط من مشاقهم بل انهم ثقلوا عليهم فطال عليهم الزمن حينئذٍ دون ان يبدو بينهم مسحاء حديثًا . واما برخوخيباس فهو آخر من اقروا بارساليتو في بداءة الاعصار المسيحية الأ ان التاثير القديم لم يبرح تمامًا وبدلاً من ان يعتقدوا بظهور المسيح كما فعلوا في ايام الملك ادريانوس اخذوا يتفوهون في عهد خلفائهِ الانطونيين ان المسيح بارزٌ في العالم لكنهُ لم يبدُ للعيان لانه منتظرٌ اليا النبي ليكرسه وذاك التقول كان ذائعًا بينهم في ايام جوستنيانوس . وقد نرى في التلمود تعليمًا آخر اقترحهُ اقدم علمائهم فانه يقول ان المسيح قد اتى حسبما قال الانبيا لكنهُ متوارٍ في رومية بين المتكدين ذوي المسكنة

بيد ان هذا الوهم لم يجز لدى العقول قبولاً وقد التزم اليهود ان يقروا ان المسيح لم ياتِ في الوقت الذي كان يحق لهم ان ينتظروهُ فيهِ حسب النبوات القديمة فبطلوا الى لجة اخرى واوشكوا ان يقنطوا من ماتاه لتقادم الزمن على وقتهِ وقد اقتفى الكثير منهم قول احد الربانيين المشهورين المحفوظ في التلمود فانه لما راى انَّ الوقت قد مضى قضى على ان الاسرائيليين لم يعد لهم ان ينتظروا المسيح لانه قد بعث اليهم بمثال حزقيال الملك وحقيقة الامر ان هذا الراي لم يكن لدى اليهود سديدًا بل كان عندهم مكروهًا لكن . لما تعسر عليهم ان يعرفوا الاوقات التي عينتها الانبياء ولم يمكن لهم ان يتملصوا من حبالة تلك الورطة اعتمدوا تلك الالفاظ التي في التلمود وتخذوها كقاعدة لاعتقادهم وهي : ان كل اجلٍ معينٍ لماتي المسيح قد اصبح فارطًا وبناء عليهِ ان كل

من يعين زمن مجيئهِ يصبح ملعونًا ومثل ذلك مثل سفينةٍ ماخرة في اليم اجتفتها الريح عن تسيارها المستقيم فقنط الربان من سلامتها فيترك حينئذٍ الامور تجري في اعنتها ويدع التقادير تسري حسب هواها

ومنذ ذاك الحين امتطوا غارب الجهد ليلغوا النبوات التي تعين وقت مجيء المسيح ولذلك لم تصفق وجوههم من ملاشاة تقليدات ابائهم وكل ذلك من دأبهم اذا استمروا على نزع هذه النبوات من ايدي المسيحيين

وقد افضى بهم الامر الى ان قالوا ان مغزى نبوءة يعقوب ليس منوطًا بالمسيح واما كتبهم القديمة فتقيم على قولهم هذا نكيرًا فان التلمود يعزو هذه النبوءة للمسيح وشرحنا لمغزاها يطابق شرحهم الذي حاز لديهم اكثر اعتبارًا وذلك اننا نرى في تلك الكتب هذه الالفاظ نفسها وهي ان اخلاف يعقوب وكل شعب اسرائيل سوف ينحصر في بيت يهوذا ومملكة يهوذا ويخرج من هذا البيت قضاة ورؤساء الى ان ياتي المسيح ويصير مملكة جديدة مولفة من كل الشعوب

وذلك ما كان يشهد بهِ امام اليهود في بداءة الاجيال المسيحية اعلامهم الذين ذهب صيتهم بالشهرة والاعتبار فيما بينهم وعسر عليهم ان يلغوا بغتةً هذه التقليدات المقررة ولهذا لم يجترئ اليهود على ان ينكروا ان نبوة يعقوب منوطة بالمسيح ولو كانوا قد انكروا انها تطابق لماتاه ولم يركبوا متن تلك الجراءة الا بعد ان مضى على ماتى المسيح زمنٌ طويل يوم كان المسيحيون يضيقون عليهم بالجدال وكانوا قد رأوا ان تقليداتهم نفسها تحدق بهم شزرًا

واما نبوءة دانيال فكانت تحصر مجي المسيح في حيز اربعماية وتسعين سنة منذ السنة العشرين لحكم ارتحشستا ذي اليد الطويلة

ولما كان هذا الحيز ينتهي في سنة اربعة الاف للعالم كان لليهود تقليد قديم وهو ان المسيح سوف يبدو نحو آخر سنة اربعة الآلاف للعالم ونحو الفين سنة بعد ابراهيم ودليل ذلك ان رجلاً عظيمًا شهيرًا لدى اليهود يدعى اليا غير اليا النبي علم ذلك قبل ميلاد المسيح ولم يبرح تعليمه محفوظًا في التلمود .

فقد رأيت ياسيدي ان هذا الاجل قد تم بمجيء مخلصنا لانه بدا بالحقيقة نحو الفين عامًا بعد ابراهيم واربعة الاف عامًا للعالم ومع هذا كله فلم يعرف به اليهود . ولما حبطت

آمالهم زعموا ان آثامهم قد اخرت مجي المسيح الذي كان مزمعًا ان ياتي ومنطوق التاريخ مقرر بنفس اقرارهم فما اصفق اوجههم واجهلهم فانهم قد علقوا بارادة البشر حلول اجل عينهُ الرب صريحًا في نبوة دانيال

ومن المشاكل التي تعرقل اليهود ان دانيال يرتئي ان وقت مجيء المسيح يكون قبل دثار اورشليم وبناء عليهِ فلما تم هذا الحادث الاخير اقتضى ان يكون الحادث المزمع ان يتقدمه قد تم ايضًا

فجنف يوسيفوس عن جادة الصواب وذلك قد حسب جيدًا الاسابيع التي يتأتى بعدها دثار اورشليم ولما رأى حلول هذا الحين اذ اقام تيخوس الحصار حول اورشليم ذهب عنهُ الريب في حلول الوقت لدثار هذه المدينة بيد انه لم يعتبر ان هذا الدثار اقتضى ان يتقدمهُ مجيء المسيح وموته وبناء عليهِ لم يتهم الا نصف النبوة

واما اليهود الذين عقبوه فارادوا ان يصلحوا هذا الخطا فاعتمدوا رجلاً من نسل هيرودس يدعى اغريبا كان الرومانيون قد اماتوه قبل دثار اورشليم بقليل من الزمن وزعموا انه المسيح ولما علموا انه ملك ايقنوا انه المسيح المذكور في نبوة دانيال النبي لكنَّ ذلك دليل عمه بصائرهم اذ من المحال ان يكون اغريبا هو الصديق وقديس القديسين وانتهاء النبوات كما كان مزمعًا ان يكون المسيح الذين تنبأ عنهُ دانيال وخلا ذلك فان موت اغريبا الذي كان اليهود ابرياء منه لا يمكن ان يكون موت المسيح المذكور في دانيال. فبناء عليه ان ما يزعمون ليس سوى اقاصيص فارغة. فان اغريبا الذي هو من ذرية هيرودس لم يبرح ان يكون من حزب الرومانيين وقد نظر اليهِ ملوكهم بعين الرعاية والرفق ولذلك قد تولى الامر زمنًا مديدًا في احدى مقاطعات اليهودية بعد افتتاح اورشليم كما يشهد بذلك يوسيفوس ومعاصروه

وعلى هذا ان كل ما يقترحهُ اليهود لبطلان هذه النبوة مجول لخزيهم وهم انفسهم لا يثقون بهذه التخيلات السمجة وان امتن مجنٍّ لدفعهم هو في المبدأ الذي اعتمدوه ان لا يحسبوا ايام المسيح وبهذا تعمش عيونهم عن الحق اختياريًا . وينكرون النبوات حيث الروح القدس نفسه قد حسب السنين ولكن في اثناء ما هم ينكرونها اصبحوا يتممونها ويبينون حقيقة منطوق هذه النبوات عن عمه قلوبهم وهبوطهم

فليجيبنَّ على النبوات كل ما يشاؤون وقصارى الكلام ان دثارهم

الذي اوعزت اليهِ قد تمَّ في الوقت المعين والحوادث اقوى من كل تنبؤهم فانهُ لولم يأتِ المسيح في هذه الاحوال السيئة لكان الانبياء الذين يثقون بهم قد خانوهم وخادعوهم

الفصل الرابع والعشرون

في ظروفٍ ذات بال تمَّت وقت سقوط اليهود وفي تفاسيرهم الفاسدة

يقتضي ياسيدي ان تلاحظ امرين طرءا وقت هبوط اليهود ووقت مجيء المسيح وذلك لتتميم انحطاطهم . الامر الاول ان وراثة الكهنوت التي استمرَّت لاينةً منذ هارون قد انتهت وقتئذٍ والثاني ان التمييز في الاسباط والعيال المرعي الى ذاك الحين قد بطل حينئذٍ كما يقرون انفسهم .

وذلك لان هذا التمييز كان امرًا ضروريًا الى وقت مأتى المسيح اذ كان يقتضي ان يخرج من نسل لاوي خدمة للاواني المقدسة ومن نسل هارون الكهنة والاحبار ومن نسل يهوذا المسيح نفسهُ فلو كان هذا التمييز لم يلبث الى وقت دثار اورشليم ومأتى المسيح لكانت ذبائح اليهود الغيت قبل حينها وحبطت آمال داود وانحطَّ مجدهُ بان يدعى بابي المسيح لكن لما بدا المسيح شرع به الكهنوت الحديث حسب رتبة ملكيصادق وبدا الملك الجديد الذي ليس من هذا العالم فلم يكن حينئذٍ يفتقر الى هارون ولا الى لاوي ويهوذا وداود واخلافهم . ومن الثابت ان هارون لم يكن مقتضيًا في الوقت الذي تلغى فيه الذبائح حسب دانيال وكان داود وبيتهُ انما ما فرض عليها لما خرج منها المسيح ابن الله وكان اليهود انفسهم جحدوا املهم مشوا في هذا الوقت عينهِ ارث العيال الذي دعوه الى غاية ذاك الابان بكل عناية واحترام ديني .

وليس من دأبنا ان نضرب هنا صفحًا عن احد ادلة مجيء المسيح الذي هو اهم واخص لو ادركنا ذلك وان كان لدى اليهود موضوع العثرة والكراهية وهو مغفرة الآثام باسم مخلص متألم منخفض الجناح راضخ الى الموت وكان دانيال قد أوعز في الاسابيع الى هذه السبة السرية التي راعيناها حيث كان المسيح مزمعًا ان يقتل ويقرر الميعاد بموته وتفقد قوة الذبائح القديمة وان احرزنا نبوة دانيال الى النبوة اشعيا نرى ذاك المعنى نفسه لاننا سنرى انه رجل الاوجاع وحامل خطايا الشعب وقدم حياته لاجل الخطايا

وشفينا نحن بقرحتهِ . فافتح عينيك ايها الجاحد وانظر اليس باسم يسوع المسيح المصلوب لشَّروك بمغفرة خطاياك ومن ذا الذي فكر ابدًا بهذا السر ومن ذا غير المسيح من يزعم بمحو الخطايا بدمهِ ان كان متقدمًا عليهِ او متاخرًا هل اسلم ذاته عنوةً للصلب ليحصل على فخرٍ باطل ويتم هذه النبوءة الهائلة فلذلك يلزمك الصمت وان تخرَّ متعبدًا لهذا التعليم السامي الذي هو في الانجيل اذ لا يمكن ان يخطر في فكر انسان لو لم يكن حقًا .

فارتباك اليهود من هذا القبيل عظيم جدًا لانهم يرون في كتبهم آياتٍ كثيرة توعز الى آلام المسيح ولكن كيف يتعبر عن الايات التي تشفُ عن مجده وانتصاره

فحل هذا المشكل هو ان يتصل الى الانتصار بالامتحان وينال المجد بالآلام لكن ما لا يتصدق هو ان اليهود لبثوا يعتقدون بسماحه وذلك لاننا نرى التلمود وكتبًا اخرى قديمة تضاهيهِ انهم ينتظرون مسيحًا معذَّبًا ومسيحًا ممجدًا الاول مات وقام من الموت والثاني لايزال سعيدًا مغبوطًا مظفرًا الاول توافقه كل الآيات التي توعز الى الوهن والضعف والثاني تليق بهِ الايات التي تشير الى الفخر والعظمة الاول ابن يوسف اذ لم يمكن لهم ان ينكروا صفات يسوع المسيح والثاني ابن داود بيدَ انهم لم يشاؤوا ان يتفهموا ان المسيح ابن داود يقتضي لهُ ان يجرع من الوادي قبل ان ينهض راسهُ اي يقتضي ان يتالم قبل ان يتظفر كما يقول هو نفسه : ياقليلي الفهم وبطيئي القلب في الايمان بكل ما نطقت بهِ الانبياء اما كان ينبغي للمسيح ان يتألم هذه الآلام ثم يدخل الى مجده

وفضلاً عن ذلك فاننا لو عزونا للمسيح هذه الاية حيث اشعيا يعرب لنا عن رجل الاوجاع مضروبًا كالابرص بخطايانا لكان ذلك باستنادنا على تقليد اليهود القديم والتقليدات الحديثة لانه قسرًا عن اوهامهم يرى في التلمود فصل يبين لنا ان هذا الابرص المثقل بخطايا الشعب هو المسيح نفسه لان اوجاع المسيح المسببة عن خطايانا مذكورة في الفصل هذا او في اسفار اليهود الاخرى ويذكر ايضًا مرارًا دخوله المجيد والمتواضع الى اورشليم راكبًا اتانًا وتنسب اليه نبوة زكريا المشهورة . فلاي امرٍ يتشكى منه اليهود فان كل شيء كان قد تصرح لديهم جليًا بانبيائهم لان تقليداتهم القديمة قد رعت الشرح الطبيعي لهذه النبوءات المشهورة ولاشيء احق من هذا التثريب الذي كان يونبهم به المخلص قائلاً . اذا كان المساء قلتم صحوٌ لان السماء محمرة كالحةٌ . افتعلمون ان تميزوا وجه السماء وعلامات الازمنة لاتستطيعون ان تعرفوها

فينجم من ذلك ان اليهود قد قضوا صوابًا اذ قالوا ان وقت ماتى المسيح قد عبر لان يهوذا لم تلبث مملكةً ولا شعبًا وان الشعوب الاخرى اذعنوا بالمسيح المزمع ان يرسل وان يسوع المسيح قد بدا لدى الامم وبهذه العلامة تقاطروا الى ال ابراهيم وامتدت بركة هذا الاب في كل الارض وانه بشر برجل الاوجاع وغفران الخطايا المعد بموته ومضت كل الاسابيع وتم خراب الهيكل والشعب عقابًا لموت يسوع الصديق ونهاية الامر ان قد ظهر المسيح بكل الصفات المعزوة اليهِ بتقليدات اليهود واحاديثهم ولم يبق لهم عذرٌ على عدم ايمانهم .

ولهذا نرى منذ ذلك الحين كل ادلة رذلهم التي لاريب فيها لانهم استمروا منذ زمان المسيح على ان يهبطوا من يومٍ الى اخر خائضين في لجة الجهل والشقا لايخرجهم من تلك الورطة الأشدة مشاقهم وروعهم بتكاثر سقوطهم في الضلال وبالاحرى تنقذهم جودة الرب وحدها لما ياتي الوقت المعد بحكمته تعالى ليعاقبهم على جحدهم ويقمع تكبرهم ومع ذلك لم يزالوا سخرية لدى الامم وكراهيةً عندهم دون ان هذا الاسر الطويل يحملهم على ان يثوبوا الى نفوسهم ويتبصروا في حالتهم ولو كانت هذه الحالة كافيةً لان تقنعهم .

لانه قد يمكن لنا ان نخاطبهم بما فاه بهِ القديس ايرونيموس وهو ماذا تنتظر يا ايها اليهوديُّ الضليل قد اقترفت من الجرائر كثيرًا في عهد القضاة وصيرتك عبادتك للاصنام عبدًا للامم المجاورة لكنما الرب رأفك ولم يبطؤْ من ان يبعث اليك بمنقذيك فضاعفت للاوثان عبادتك في عهد الملوك واما الاثم الذي هويت بهِ في ايام احاز ومنسى فلم يعاقبك الرب عليهِ الاَّ بالسباءَ سبعين عامًا فاتى حينئذٍ قورش واعاد اليك وطنك وهيكلك وذبائحك ثم بهظلك في زمان ويسبازيانوس وتيخوس ثم شعث شملك ادريانوس خمسين عامًا بعد ذلك ولقد مضى عليك اربعماية سنة وانت رازحٌ تحت اوقار العبودية . فذلك ما كان يقوله ايرونيموس فقد تعزز هذا البرهان لانه اضاف اليهِ الف وخمسماية سنة على دثار اليهود فلنقل له اذًا بدلاً من الاربعماية عام ان من تسعة عشر جيلاً لم يبرح دثارهم وسباؤهم دون ان يتزحزح عن عواتقهم نير الاسترقاق . فماذا صنعت يا ايها الشعب الجاحد المتعبد لكل الشعوب وكل الملوك دون ان تؤدي للالهة الغريبة خدمة فكيف نسيك الرب الذي اصطفاك والى اين ذهبت رحمته

القديمة فاي اثم واية جريرة اعظم من عبادة الاوثان التي تنزل عليك عقابًا لايمكن لها ان نملصك منه اتصمت لايمكن لك ان تدرك ما هي الجريرة التي تقصي عنك شفقة بارئك تذكر كلام ابائك القائلين فليكن دمه علينا وعلى اولادنا وايضًا ليس لنا ملك سوى قيصر. نعم ان المسيح لايصير لك ملكًا ارعَ جيدًا ما اصطفيته امكث عبدًا للقيصر وسائر الملوك حتى يدخل ملء الامم وبذلك يخلص كل اسرائيل

الفصل الخامس والعشرون

في بعض ملاحظات منوطة بارتداد الامم وعمق مقاصد الرب الذي اراد ان يردهم اليهِ بصليب يسوع المسيح وبرهانات مار بولس في كيفيّة ارتدادهم على هذا النمط

ان ارتداد الامم كان امرًا ثانويًا يقتضي حدوثه في وقت مجيء المسيح ودليلاً صريحًا على ماتاه فقد نوهنا كيف تنبأ الانبياء عن ذلك وباية صراحةٍ كان ذلك وقد تحققت كل مواعيدهم في زمان المخلص ومن المقرر ان ذلك قد تم في حينهِ لاقبلاً ولا بعدًا وايضاحهُ ان اثني عشر صيادًا بعث بهم يسوع المسيح بعد ان شاهدوا نهوضهُ من الموت ليهدوا الامم وهذا العمل المأثور لم يستطعهُ الفلاسفة ولا الانبياء ولا الشعب اليهودي الذي كان تحت اكناف حماية الرب ومعتصما بناموسهِ وذلك لان ارتداد الامم لم يكن معرضًا لعمل الفلاسفة والانبياء بل كان منوطًا بالمسيح وهو ثمرة صليبهِ

وقصارى الامر ان المسيح ورسله اقتضى ان يخرجوا من اليهود وان بداءة انتشار الانجيل تكون من اورشليم وكما قال اشعيا. يكون في اخر الايام جبل بيت الرب مستعدًا في رؤوس الجبال وهذا هو البيعة المسيحية وتجتمع اليه شعوب كثيرة ويغالى الرب وحده في ذلك اليوم والاصنام تنسحق البتة

واما اشعياء الذى رأى كل تلك الامور فقد راى في الوقت نفسهِ ان الناموس الذي يقضي على الامم يخرج من صهيون وكلمة الرب المزمعة ان تصلح الشعوب تخرج من اورشليم وهذا مما بعث المخلص على ان يقول ان الخلاص من اليهود وقد كان من الموافق

ان النور الجديد المزمع ان ينير الامم الخائضة في عباب الجهالة يمتد في كل الامصار من المكان حيث كان لايبرح فيه الى غاية ذاك الحين. وقد كانت الامم مزمعةً ان تتبارك وتتقدس بيسوع المسيح ابن داود وابراهيم وقد لاحظنا ذلك مرارًا جمةً بيدَ اننا لم نلاحظ العلة التي بها كان يسوع متكبدًا غوائل الصلب والعذاب وحده منقذًا للامم وظاهرًا على الاصنام. ففسر لنا القديس بولس هذا السر العظيم في الفصل الاول من رسالتهِ الى اهل قورنثية فمن الشؤون الخطيرة ان نتفهم هذا الكلام من اوله لانه قال لان المسيح لم يرسلني لاعمد بل لابشر لابحكمة الكلام لئلاَّ يبطل صليب المسيح فان كلمة الهالكين جهالة واما عندنا نحن المخلَّصين فهي قوة الله لانه قد كتب سابيد حكمة الحكماء وارذل عقل العلاء فاين الحاكم واين الكاتب واين فاحص هذا الدهر اليس الله قد جهَّل حكمة هذا العالم. فلا ريبة في ذلك اذ لم يمكن للانسان ان يتملص من احبولة غرته فاذا كان العالم وهو في حكمة الله لم يعرف الله بالبرهان فقد يحسن لدى الله ان ينقذ الحكمة اي سر الصليب حث الحكمة البشرية لايمكن لها ان تدرك شيئًا الا بهِ ومن مآرب الحكمة الالهية العجيبة ان الله جعل الانسان في العالم حيث حكمة الخالق تبدو لديه كيف امال بصره بكل عظمتها وغناها ونظامها الكامل ومع ذلك لم يعرفه الانسان لان الخلائق التي كان يقتضي ان تستنهض افكارنا الى العلاء قد اوقفتها واصبح الانسان الاعمى عبدها بكل جهالةٍ وخشونة ولم يكتفوا ان يعبد عمل الرب بل افضى بهِ الامر الى ان عبد عمل يديه وقد كان دينهُ متوقفًا على اقاصيص ذات هزء وسخرية كالاقاصيص التي تتداولها الصبية الاحداث فجنف عن الجادة القويمة وجعله الرب يمساه بوجه اخر لان العمل الذي يؤول الى حكمته لم يؤثر فيه تاثيرًا

فعرض عليهِ عملٌ اخر حيث عقله لايحيط علمًا وتجاريهِ الفكر وليس ذلك الا صليب يسوع المسيح ولايمكنه ان يدرك هذا السر بالبرهان بل باسر العقل تحت طاعة الايمان وهي قادرة على هدم الحصون فيهدم الآراء وكل علوٍّ يرتفع من معرفة الله

فماذا نفهم في هذا السر حيث الله المجد حاملٌ العار والحكمة الالهية تعامل معاملة الجنون وحيث ذاك الثابت بعظمتهِ الطبيعية لكنه اخلى ذاته اخذًا صورة عبدٍ صائرًا في شبه البشر وموجودًا كبشر في الهيئة فوضع نفسه وصار يطيع حتى الموت موت الصليب. فمن ذلك تتبلبل افكارنا وحسب قول القديس بولس لاشيء اجهل من هذا الذى من لم

يكن منيرًا من العلاء

فهاك الدواء الذي اعده الرب لشفاء داء عبادة الاصنام لانه كان يعرف عقل الانسان ويعلم انه لا يلاشي بالبرهان الضلال الذي لم يكن البرهان وضعهُ واضاليل نسقط بها مبرهنين لان الانسان يرتبك احيانًا بقياسهِ وبرهانه. اما عبادة الاوثان فقد تأتت من علّة مناقضة لتلك لانها طرأت لدى ضعف الحكمة والقياس وتسلط الحواس التي كانت تودّ لو تجعل كل شيء من الصفات المتائرة بها وبهذا قد اصبحت الالهة محسوسة مادية فكساها البشر هيئتهم واخجل من كل ذلك عيوبهم واهواءهم ولم يكن القياس له دخل في هذا الضلال المبين بل كان ذلك انقلاب الحكمة والصواب وتسلط الجنون والحمق فان داولت رجلاً معتوهًا بالقياس او امالته الحكمة عن خطة الصواب ثار هائجًا واستولى عليهِ الداء العياء فما عليك الان تعزز مزاجهُ وتكظم حنقهُ والخلق الذي يثير ذاك الثوران . وبناء على ذلك لا يتبرأ جنون عبادة الاصنام بما الذي ناله الفلاسفة بخطبهم الفصيحة وانفاسهم السامية وبراهينهم السديدة فهل قوض افلاطون بفصاحتهِ المدعوة سماوية مذبحًا واحدًا من مذابح هؤلاء الالهة الغريبة التي كانوا يعبدونها بل كان ذلك بعكس الامر فانه اقام هو وتلامذته وكل حكماء الجيل مذابح للافك وزاغت عن المحجة افكارهم واظلمت قلوبهم التي لا تفتة انهم اصبحوا جهالاً بعد القول عنهم انهم حكماء لانهم عبدوا الخلائق قسرًا عن انوار عقولهم الطبيعية

افلا يحق لبولس الرسول ان يهتف بابة اخرى قائلاً : اين الحكماء واين المكاتب وابن فاحص هذا الدهر اليس الله هو الذي جهّل حكمة هذا العالم .

وهل امكن لهم ان يلغوا خرافات الوثنيين وهل فكروا ان قد ترتب عليهم ان يعارضوا علنًا كل التجديف وقصارى الامر ان يجشموا الاعنات بل على الاقل الاهانة لتثبيت الحق ومع هذا فلم يقوموا بعبءِ ذلك بل انهم كتموا حق الله وتخذوه مبدأً يقتنونه وذلك انهم يقتدون بالشعب بالاشياء الدينية . ومن المقرران هذا الشعب الذي كانوا يانفون منهُ اصبح متقدمًا عليهم في امور خطيرة هي مسائل الدين اذ كان يبدي غاية الافتقار لكل نورهم.

فما اجدى بك ايتها الفلسفة الم يقل الرسول ان الله يظهر جهالة حكمة هذا العالم ويبيد حكمة الحكماء و يرذل فهم الفهماء

وعلى هذا قد ابان الرب بالاختبار ان انقضاء عبادة الاصنام لا يتم بالبرهان البشري ولم يستند عليه بشفاء هذا الداء بل انه قد اتم ترذيله بسر الصليب وقد عالج في الوقت نفسه الداء فنجع به الدواء فاستأصل علته .

فلو سرحنا طرف الطرف في عبادة الاوثان لرأيناها ناجمة عن تعلقنا بذواتنا وذلك ما بعثنا على ان تخبرلنا الهة تضاهينا ليست سوى بشر قد تعرضوا للشهوات والوهن والمعائب وقد كان الامم يعبدون افكارهم ولذائذهم واهواءهم بهيئة الالهة الافاكة

اما يسوع المسيح فقد اولجنا في طريقٍ جديد لان فاقته وعاره وصليبه تجعله طرًا مكروهًا لدى حواسنا وان افضى بنا الامر الى اتباعه اقتضى ان نجالي نفوسنا وننبذ كل امرٍ ظهريًا ونصلب لاجلهِ كل شيء ومتى تعرى المرء من كل ما يميلهُ اليهِ فساده يصير اهلاً لان يعبد الرب وحقيقتهُ الازلية المزمع حينئذٍ ان يقفو كل فروضها

فلدن ذلك تباد كل الاصنام والاوثان التي كانوا يتعبدونها على المذابح والتي كانوا يسرونها في خزائن القلوب لان هذه قد اقامت تلك

ولقد كانوا يودون العبادة للزهراء لان غرام الحواس كان مستوليًا على الانسان الذي كان يود سلطانهُ

واقيم لباخوس مذابح لانه اله السرور وكان الانسان يطوح نفسه الى ملذات الحواس ويقدم لها الذبائح لانها كانت لديه لذيذة اكثر من معاقرة الخمر . فاني المسيح بسر صليبه يرسخ في القلوب محبة الآلام بدلاً من محبة اللذائذ فتبددت حينئذٍ الاصنام التي كانوا يتعبدونها خارجًا لان التي كانوا يودون لها العبادة داخلاً لم يبق لها من وجود لان ذوي القلوب النقية يعاينون الله كما يقول المسيح نفسه .

ولم يبق الله يكدح في ان يجعل الالهة تضاهيهِ بل قد اصبح يجهد نفسه في ان يكون مضاهيًا لله بمقدار ما يسمح له الضعف البشري

ان سر يسوع المسيح قد ابان لنا كيف يمكن للالوهية ان تلبس ضعفنا وتحدّ بطبعنا دون ان تنحط لان الكلمة قد تجسدت والذي كانت بهِ صورة الله وطبيعته قد تلبس بصورة العبد دون ان يفقد ما كان له لانه غير قابل التغير في ذاته فاتحد بطبعٍ آخر اناطه بهِ

فيا ايها الانسان قد رغبت في ان الالهة تكون مثلك بشرًا مفسودًا فما انت

بذلك الاَّ ذو عمىً مبين فالان تعرض لديك عبادة جديدة هي عبادة الهٍ وانسان معًا . وبالاحرى انسان لايفقد شيئًا مما كان له باتخاذه ماهو لنا فالالوهية لايعروها تغيير ولاتميل عن جلالتها وليس بوسعها الاَّ ان ترفع ما اتحد بها

لكن ماذا الذي يكون الرب قد اخذ منا اعيوبنا ووصماتنا جل شانه عن ذلك فانه لم ياخذ من الانسان سوى ما صنعهُ . ومن المقرر انه لم يصنع فيه الوصات او العيوب بل صنع فيه الطبع فهاك ما اخذهُ ويمكن لنا ان نفوه قائلين ان صنع الميتوتة وما يصحبها من الوهن احق عقاب على الخطيئة وان لم يكن ذلك في البدء من مآرب العلي . وبناءً عليهِ تحسب اعمال الله العادلة ولذلك لم يتأَخر عزَّ شأْنه عن اخذها وبما انه تخذ عقاب الخطيئة لاالخطيئة ابدى انه الصديق الذي يفي سواه وصمانهِ لاالجرم الذي يستحق القصاص

وبناءً عليهِ بدت كل الفضائل في الهٍ موءنسٍ بدلاً من الرذائل التى كان البشر يعزونها الى الهتهم ولكي يبدو ذلك في الامتحان الاخير بدت فيه العذابات المبرحة فلا نطلب اذاً الهًا اخر محسوسًا سواه لانه وحده قادرٌ ان يبيد كل الاصنام وعلى صليبهِ بلوح الظفر للزمع ان يتدرج اليهِ

ومغزى ذلك ان الانتصار معلق على جهلٍ بادرٍ لان اليهود كما يقول القديس بولس : اليهود يطلبون الايات التي بها يزعزع الله بشدة كل الطبيعة كما صنع لدى خروجهم من مصر ليجعلهم بنوعٍ بادرٍ ظاهرين على كل اعدائهم واليونانيون يطلبون الحكمة اي خطبًا منظمة على نسق خطب افلاطون وسوقراط فاما نحن فنكرز بالمسيح مصلوبًا شكًا لليهود وجهالة عند الامم لاايات وحكمة واما للمدعوين من اليهود واليونانيين فالمسيح قوة الله وحكمة الله لان مستجهل الله احكم من الناس ومستضعف الله اقوى من الناس .

فهاك الضربة الاخيرة التي كان يقتضي ان يصوبها علينا عقابًا لتكبرنا وجهلنا الفظيع لان الحكمة التى نقاد بها قد عزَّت سموًا حتى انها اصبحت تبدو لدينا غواية وجهالة لدى حكمتنا ونظامها سامٍ حتى انه اصبح يبدو لدينا ضلالاً

لكن وان كانت هذه الحكمة الالهية لاندركها بصائرنا تبدو لدينا مفاعيلها لان الصليب قد خرجت منهُ قوةٌ بددت كل الاصنام وقد شاهدنا هبوط ذلك على

الارض قسرًا عن السلطة الرومانية التي كانت تقوم بناصرها ولم يقم باعباء هذه الآيات العظيمة حكماء او شرفاء او اعزاء هذا العالم

بل ان عمل الرب قد سرى حسب مجراه لان ما كان قد بدا بعار المسيح قد تم بذل تلاميذه وعارهم وهاك ما قاله القديس بولس في رسالته الى اهل كورنتية انظروا دعوتكم ايها الاخوة انه ليس كثيرون حكماء بحسب الجسد ولا كثيرون اقوياء ولا كثيرون شرفاء بل اختار الله الجاهل من العالم ليخزي الحكماء واختار الله الضعيف من العالم ليخزي القوي واختار الله الخسيس من العالم والحقير وغير الموجود ليعدم الموجود لكي لا يفتخر ذو جسدٍ امامهُ

ان الرسل والتلاميذ كانوا من احقر العالم وانهم كانوا كانهم ليسوا بموجودين ان نظرنا اليهم باعينٍ بشرية بيد انهم كانوا يظهرون على الملوك والمملكة الرومانية وكان البشر قد نسوا تكوين الخليقة فجدده الله لما ابرز من هذا العدم بيعة التي اتاح لها قوةً عظيمة ضد كل ضلال ورذل مع الاصنام عظمة البشر التي كانت محبًا بدافع عنها وصنع هذا العمل العظيم بقوة كلمته كما صنع العالم كله

الفصل السادس والعشرون

في انواع عبادة الاصنام المتنوعة وفي ان الحواس والصوالح والجهل واحترام الآثار القديمة الباطل والسياسة والفلسفة والبدع اخذت بناصرها فظهرت البيعة على كل ذلك

ان عبادة الاوثان تبدو لدينا واهنة بذاتها ومع ذلك يتعسر علينا ادراك القوة التي اقتضت لسقوطها وحماقتها عينها تبين ما كان من الصعوبة في ردعها لان هذا الانقلاب العظيم الذي طرأَ على الحس العام يدل على الفساد العميق الذي صار في اصل الفطرة والعالم قد شاخ في عبادة الاوثان وبما انه كان مسبيًا باصنامهِ اصبح كاصم لايسمع لصوت الطبيعة الهاتفة ضد هذه العبادة فكم من القوة كان يقتضي لتهبَّ بهم ذكرى معرفة الله الحق الذي كانوا قد ضربوا عليهِ حجاب النسيان وتنتشل النوع البشري

من وهدة الفساد التي يهور بها

فان الحواس والشهوات طرًّا والاغراض النفسية تذب عن عبادة الاوثان لان هذه العبادة كان جل نشأتها للملذات فان الطارب والملاهي واطلاق عنان الفساد كانت جزءًا من الفرائض الدينية ولم تكن الاعياد الا ملاعب دنسة كما لم تكن الفة بشرية اصبح الاحتشام فيها منفيًا باكثر اعتناء مما كان في الاسرار الدينية فكيف يمكن ان تعتاد هذه العقول المنسودة على نظام الدين الحقيقي الطاهر المناقض للحواس والذي لا تعلق له الا بالخيرات غير المنظورة ولما كان بولس الرسول يناجي فيلكس والي اليهودية في البر والعفاف والدينونة المقبلة استولت عليه الرعدة جزعًا وقال اما الان فاذهب ومتى سنحت لي الفرصة دعوتك لان هذا الخطاب كان عسرًا على رجل يود لو يتمتع بالملذات دون وسوسة وباي وجه كان

اتريد ان تنظر الان فاعلية المنافع والمصلحة في الامور البشرية فاصغ الان فان النعلة الذين كانوا عائشين ببناء هيا كل من فضة للالاهة ارطاميس في افسوس وقت سقوط عبادة الاوثان التي سببها وعظ القديس بولس في اسيا ونهض اعظمهم وابان لرفقائه ان مكسبهم لا يلبث ان يزاولهم وليس هذا فقط بل ان هيكل ارطاميس العظيم يمسي محتقرًا ويتلاشى شيئًا فشيئًا هذه العظمة المعبود لها في اسيا وكل المسكونة (كما في اعمال الرسل فصل ١٩)

فما اعظم قوة المنافع وما اقوى جسارتها متى تحجبت بنقاب الغيرة على الدين فان اولئك النعلة لم يفتقروا الى غير براهين تهيجهم فلما سمعوا ذلك امتلأوا غيظًا وطفقوا يصيحون ويقولون عظيمة ارطاميس الافسوسية واخذوا يجرون رفقاء القديس بولس الى المشهد حيث اجتماع الشعب وحينئذٍ ضوعف الصياح واستمروا ساعتين يهتفون قائلين عظيمة ارطاميس الافسوسية واصبح القديس بولس ورفقاوه يكادون لا ينجون من ايدي الشعب لولا مداركة الوالي انقاذهم خشية ان يحدث سجس اعظم من ذلك وزد فائدة الكهنة المزمعين ان يسقطوا هم والهتهم على فائدة اولائك الذين هم مصالح خاصة وعلى هذه زد مصالح المدن التي كان الدين الافاك يجعلها شهيرة كمدينة افسوس التي نالت امتيازًا عظيمًا بواسطة هيكلها واغناها تقاطر الغرباء اليها وبناء عليه كانت الزوبعة التي ثارت على البيعة الجديدة عظيمة جدًا . ومن ذا الذي يتعجب

بعد هذا بان يرى الرسل مضروبين ومرجومين بالحجارة ومتروكين كالموتى وسط الشعب لكنما فائدة اعظم من تلك ازمعت ان تهيج اعظم واسطة هي فائدة الدولة التي تثير مجلس شيوخ الرومانيين والشعب والملوك ضد البيعة .

وكان يرى في زمان قديم اوامر في مجلس المشايخ تمنع الاديان الغريبة في الدولة والملوك ادخلوا في هذه السياسة عينها المداولة العظيمة .

لان الموضوع كان لتصليح المعائب التي دخلت في الحكم فمن القوانين الاساسية التي عرضها مساناس على اوغسطوس ان يمنع الاديان الحديثة التي كانت تسبب في الدولة بلابل فان هذا المبدا هو حقيقي لانه لا يوجد شيء يهيج العقول باكثر شدة ويحملهم على ارتكاب الكبائر اكثر من المذاهب واما الله فقد شاء ان يبين ان تشييد الدين الحقيقي لا يسبب هذه البلابل وذلك من المعجزات التي تبين ان الله هو الفاعل ذاك الصنيع لان الكل يتعجبون اذ يلاحظون انه في برهة ثلاثماية سنة كاملة احتملت بها البيعة كل ما اقترحه غضب المضطهدين لعذابها لم يكن احد من المسيحيين ابرارًا واشرارًا متعزبًا ضد الملوك ولا منحازًا الى الثورات العديدة والحروب المدنية التي طرأت وتنتذر ويطالب المسيحيون من الدّ اعدائهم ان يسموا رجلاً واحدًا ولم يقم قط منهم احدٌ الى هذه الحروب لان التعليم المسيحي كان يوهل تابعيه الاحترام نحو السلطة الدينية لان كلمة المسيح كانت اثرت في العقول تاثيرًا عظيمًا بقولهم اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله

وهذا القول اتاح للعقول نورًا ساطعًا . ولهذا لم يبرح المسيحيون يحترمون صورة الرب في الملوك المضطهدين الحق وصنعة هذا الخضوع تبدي في كل ما كتب لمدافعتهم محبة النظام العام ويلوح ايضًا ان المسيحيين لم يتنظروا تشييد الدين المسيحي الا من الله وهولاء البشر الذين هم على اهبة الموت ومنتشرون في كل انحاء المملكة والعساكر لم ينسوا نفوسهم ويثبوا مرة واحدة في كل هذه الاجيال التي تعذبوا فيها ولم يكونوا فقط يمنعون نفوسهم من التمرد والعصيان بل عن التذمر ايضًا لان يد الرب كانت في هذا العمل وليس سوى يده يمكن له ان يحبس البشر الذين حملهم الجور واهاجهم على ان يتصلوا الى هذا الحد !

وبالحقيقة ان قد كان يشق عليهم ان يعاملوا كاعداء الدولة والملوك طالما لا يتمنون الا الخضوع ولا يطلبون الا انقاذ الملوك وسعادة الدولة ولكن كانت السياسة الرومانية

تظن ان اركانها تزعزعت لما كانت تشاهد انهم يحتقرون الهتها لان رومية تفتخر بانها مدينة مقدسة منذ تشيدها ومكرسة منذ البدء للعناية الالهية ومكرسة من موسسها لاله الحرب وكانت تخال ان المشتري يستمر حاضرًا في الكابيتول اكثر من الاولمبيك وكانت تعزو انتصاراتها الى الدين لانها بواسطة عبادتها قد ظهرت على الامم والهتها لانهم كانوا يفكرون هكذا وقتئذٍ حتى ان الالهة الرومانية كانت مزمعة ان تتسلط على سائر الالهة كما ان الرومانيين كانوا مستولين على سائر الامم . ولما قمعت رومية بلاد اليهودية حسبت اله اليهود بين الالهة المقموعة وبناء عليهِ فمن يشاء ان يوليه يكون يشاء هدم اركان الدولة ويانف من انتصارات الرومانيين وشوكة الشعب . وعلى هذا ان المسيحيين الذين كانوا اعداء الالهة كانوا يعدونهم في الوقت نفسه اعداء الدولة ولذلك كان الملوك يتهمكون في استئصالهم اكثر من البرتيين والمركومانيين والداسيين وكانوا يذكرون في تواريخهم دثار الدين المسيحي باكثر افتخار من قهر السرماتيين بيد ان افتخارهم باستئصال دين ذهب ادراج الرياح فانه كان ينمو من يومٍ الى اخر في ظلال السيف والنار وقد تالبت عليهِ النميمة والجور فكان ذلك عبثًا فانهم كانوا يتهمون اناسًا يفلحون بالفضيلة الفائقة بارتكاب رذائل تانف منها الطبيعة لانهم كانوا يتهمون بارتكاب الفحشاء مع الاقارب اولائك الذين لا يلتذون الا بالعفة . وكانوا يتهمون المسيحيين باكل اولادهم وانهم هم الذين كانوا يحسنون الى مبغضيهم ولكن قسرًا عن هذا البغض العام كانت قوة الحقيقة تلزم اعداءهم ان يودوا لهم شهادة حسنة وليس احدٌ يجهل ما كتبهُ بلينوس الشاب الى تراجان الملك عن فضائل المسيحيين وبهذا بدت براءتهم ولكن لم يعفهم من العذاب والموت اذ كان يلزمهم بهذه المعاملة الاخيرة لتكملة صورة يسوع المصلوب فيهم لانهم كانوا مزمعين ان يذهبوا الى حيث يصلبون بموجب حكم جلي يقرر براءتهم

ان عبدة الاوثان لم تكن مصوبة كل قوتها بالعسف والجور بل كانت ترغب في بعض ادلة وان كان ركنها الجهالة وفساد الحس المشترك لانه كم من مرة جهدت في ان تخفي نفسها وكم قد تقنصت وتنقلت لتخفي عارها فاحيانًا كانت تتظاهر بالاحترام نحو الالوهية لانها كانت تقول ان كل ما هو الهي غير معروف ولا احد يعرف اللاهوت الا اللاهوت وليس لنا سوا غية ان تتفوه باموره سامية كهذه وبناء عليه يقتضي ان كلًا يقفو آثار الاندمين بالدين الذي في وطنهِ وبهذه الاقاويل اصبح الضلال ذو الكفر

المستولي على الارض عماء وانحبس صوت الطبيعة الذي كان يبشر بالهٍ حقيقي منقطعًا ولقد كانوا يحسبون ان وهن العقل الرابع عن قويم الحجة يحتاج الى سلطة تنبهه الى الاصل وبناء عليه يقتضي ان يتعلموا الدين الحق من الاجيال الدابرة ولهذا قد ابنت لك باسيدي تسلسلها القويم من ابتداء العالم اما الوثنيون فبأية قدمية يفتخرون ومن منهم كان يطالع تاريخ وطنهِ ولا يرى فيه ابتداء الدين والالهة . فقد ابان فارون وشيشرون هذا الاصل دون ان نذكر سواهما من المولفين او اننا نعتمد هذا العدد الذي لا يحصى من السنين مفعمًا من خرافات المصريين واقاصيصهم السفيهة ولقد كانوا يعتمدونهُ ليلوحوا على ان قدميتهم هي موضوع فخارهم . وعلى كل كانت الهتهم تتولد وتلاشى وعسر على هذا الشعب ان يثبت قدميته دون ان يبين بداءة الهتهِ

وهناك هيئة اخرى لعبادة الاصنام وهي انهم كانوا يودون لو يودون العبادة لكل ما كان يعتبر الهيًا فقد كانت السياسة الرومانية تكره قسرًا عن ممارسة الاديان الاجنبية وتاذن بعبادة الهة البرابرة بشرط ان تكون تلك الالهة تحت حيازتها وعليه فقد كانت ترغب في ان تتظاهر بالعدل نحو كل الالهة كما كانت نحو كل بني الانسان . ولقد كانت آونة تقدم كباء البخور لاله اليهود مع سائر الالهة ودليل ذلك اننا قد عثرنا على كتابة من جوليانوس الجاحد فيها اباحةٌ منه لليهود بان يوطدوا اركان المدينة المقدسة لينتظم فيهم لتقدمة الذبائح للاله الحق ولقد اسلفنا ان الوثنين كان في عزيهم ان يودوا العبادة لله لكن مشركًا . ولم يتوقف على الملوك بان يسوع المسيح نفسهُ الذي كانوا يضهدون تلاميذه ان يكون له مذابح لدى الرومانيين ولم يروموا ان يعتبروا اعتبار الهٍ ذاك الذي حكم عليه قضاتهم بالعذاب والقى عليه اعباء العار كثيرٌ من مولفيهم فلا نعجب من هذا الامر الذي لم تخامر قط ريبة ولكن يقتضي ان تميز في بادىء الامر ما يتوهمه المرء لدى بغضائه الشعواء من الحوادث المقررة التي يخال انها مبرهنةٌ لديهِ . ومن اليقين ان الرومانيين لم يكونوا يعزون الى يسوع المسيح جريرةً خاصة ولو كانوا اصدروا عليهِ حكمًا ولذلك قضى عليه بيلاطوس دون طيبة خاطر بل قد قسره على ذلك الحاح اليهود وتوعدهم . ومن الامور التي تبعث على الحيرة والاعجاب ان اليهود انفسهم الذين كانوا علة لصلب المسيح لم يثبتوا في كتبهم القديمة اقل عمل له يلم حياته ولم يكن من وسعهم ان يجدوا فيهِ جريرةً تغريهم بالاجحاف بهِ الا قوله ان المسيح ابن الله وما تراه في الانجيل

يصدق على ذلك

وحقيقة الامر ان تاسهنوس ينبئنا عن عذاب يسوع المسيح في عهد بيلاطوس والملك طباريوس لكنه لم ينوه لنا عن اقل جريرة اوجبت له الموت الاَّ انه موسس بدعة تكشح للجنس البشري بالبغضاء او انها ممقوتة لديه فما هو ذا اثم المسيح وتلاميذه ولم يكن لالد اعدائهم ان يتهموهم الاَّ بالفاظ مبهمة دون ان يبينوا اقل حادثٍ مقررٍ لما كانوا يتهمونهم به

ولاريب ان الوثنيين الذين لم يروا لهم من جريرة يتهمون بها المسيح وتلاميذه اذاعوا في اثناء الاضطهاد الاخير و بعد يسوع المسيح بثلاثمائة سنة اخطارات بيلاطوس الكاذبة التي بها حاولوا ان يختلقوا للمسيح ذنوبًا قضت عليه بالصلب ولما كانت هذه الاخطارات لم يسمع بها في الاعصار الغابرة لا في عهد دوميثيانوس ولا في عهد نيرون اللذين قبضا على زمام الملك في بداءة الدين المسيحي وهما من الاعداء المكاشحين للدين اصبح من متقرر الامر انها اختلقت فيما بعد افتراحًا ولم يكن لدى الرومانيين ادلة قاطعه ضد المسيح حتى ان اعداءه قد ابتدعوها اعتباطًا

فهناك قضيةٌ اولى هي براءة يسوع المسيح غير المدنس وزد عليها قضيةً اخرى هي قداسة حياته وتعليمه المعروف وان احد ملوك رومية العظام اي اسكندر سفاريوس كان مندهشًا من يسوع ولطالما كتبت بامره بعض آيات من الانجيل في التواريخ المرقوشة على الابنية العامة حتى على قصره وانه قد كان يثني على المسيحيين الذين كانوا يظبون على الاحتياطات التي من شأنها انتخاب خدمةٍ للاواني المقدسه ولقد كان يعرض بها لتكون انموذجًا ولم يكتف بذلك كله بل كان في قصره بيعة صغيرة كان يقدم فيها قرابين كل يومٍ صباحًا واضعًا فيها تماثيل الارواح المقدسة يتخللها صورة يسوع وابراهيم بقربة من صورة اورفيوس . وكان له بيعة اخرى اصغر من الاولى اقام فيها صور اشيل وبعض الانام المشاهير اما يسوع فقد كانت له المثابة الاولى بين تلك التماثيل فذلك ما نصه احد الوثنيين ويؤيد كلامهُ بشهادة احد المولفين المعاصرين لاسكندر الملك الموما اليه فقد شهد لهذا الحادث اثنان . وهاك حادثًا اخر يحمل على العجب كالاول وهو ان بورفيروس وان يكن قد جاهر لدن بجحد الدين المسيحي انه عدوٌ له فيقر في كتابه المدعو الفلسفة بالنبوءات بان قد يوجد نبوءات توافق قداسة يسوع المسيح . بيدَ انَّ مجد ابن

الله يحل ان تكون النبوءات الكاذبة طرائق من شأنها ايقافنا على كبهِ فقد جعلها لدن مجيئه معقودة اللسان فان هذه النبوءات التي ذكرها بورفيروس لم تكن سوى اختراع بحت لكنها يهمنا امرٌ فردٌ وهو ما ذا كان الوثنيون يزعمون بكلام الهتهم في يسوع المسيح . فيحقق بورفيروس انه كان يوجد نبيٌ يدعى يسوع المسيح وهو رجل برٌ اهل لان يكون خالدًا . واما المسيحيون فانهم بعكس الامر اناس يخامرهم الفساد والغرور ثم يذكرنا نبوءات الالاهة هكات بانها تنوه عن المسيح انه رجلٌ تعاظمت تقواه وان جسده المت به العذابات المبرحة وصعدت نفسه الى العلا بين الارواح الطوباوية وقد كانت تقول الهة بورفيروس ان هذه النفس لاتحيط بها ادراك وقد اغرقت في لجة الضلال النفوس التي لم يقررها الحظ مواهب الالهة ومعرفة المشتري العظيم ولهذا اصبحت ذوابهام من الداعداء الالهة فلا تندد وا في المسيح بل تاسفوا على ضلال اولائك الذين انبأتكم عن سوء حظهم فلاريب ان هذه الكلمات المفخمة تعتزل عنها المعاني لكنها تدل بكل صراحة ان مجد مخلصنا قد ارغم اعداءه ان يجاهروا بمدحه

وقد يرى في يسوع المسيح امرٌ ثالث خطيرٌ عدا بره وقداسته وهو معجزاته التي قد تقرر ان اليهود لم يشدوا عليها نكيرًا فاننا نرى في تلمودهم التنويه عن بعض العجائب التي قام بها تلاميذه باسمه لكنهم اذاعوا املًا ان تستمر تحت غشاء الخفاء انه كان يصنعها بالسحر الذي تعلمه في مصر او باسم الله غير المعروف الذي لاتدرك اوصافه والذي يصنع كل شيءٍ بقوته حسب اليهود وانه حظيَ به في قدس الاقداس بامرٍ لايحيط به ادراك اولان المسيح هو احد الانبياء الذين تنبأ عنهم موسى وهم مزمعون ان يغروا الشعب بعبادة الاصنام بمعجزاتهم الخاتلة . واما يسوع الظافر بالاصنام الذي يبثُّ انجيله في كل الارض ان لايوجد الاَّ اله واحد ليس يعوزه ان يتبرأ من هذه التهمة وان الانبياء الحقيقيين لم يبشروا بالوهية اقل من الوهيته وبناء عليه ان ما ينجم من شهادة اليهود هو ان المسيح قام باعباء المعجزات ليثبت ارساليتهُ

ودخلية الامر ان اتهامهم ليسوع بانهُ صنع العجائب بالسحر رُشق به موسى نفسه فكان الاحرى بهم ان يعبروا ذلك طرفًا من نظر الفكر وقد كان ذلك اعتقاد المصريين القديم الذين اخذتهم الدهشة من المعجزات التي اتاحها الرب في بلادهم ليد موسى ولذلك كانوا يحكمون عليه بانه من اكبر السحرة . ويمكن لك ان تقف على كنه ذلك في بلينوس

وايلوس حيث يذكر موسى مع الساحرين المصريين ينيس وممبره المذكورين في رسالة مار بولس اللذين رذلهما موسى بعجائبهِ واما جواب اليهود فلم يكن بصعبٍ فانهم قالوا ان غرور السحرة لم يكن له مفعول ثابتٌ ولا يكون له غاية ليغرر عبادة الله الحقيقي كما صنع موسى وفضلاً عن ذلك ان الله يقبض على ازمة الامور ويصنع ما يستحيل ان يقتدي بهِ العدو وهذه الحجج نفسها تبرىء يسوع المسيح من هذه التهمات الباطلة ولذلك لا تفيد كما قد لاحظنا الآن تثبت ان عجائب المسيح غير منكورة

والحق يقال ان هذه العجائب مقررة تقريرًا محضًا حتى ان الوثنيين يتعسر عليهم كاليهود انكارها فان سالس الد اعداء المسيحيين الذي اوسعهم طعنًا مفرغًا لذلك كل ضروب الحذاقة من البداءة لم يمكن له ان ينكر كل عجائب المسيح ولو انه طلب بكل اعتناء كل ما يناقض الدين المسيحي لكنه كان يقول في سبيل المدافعة كاليهود ان المسيح تخذ هذا السر من المصريين اي بالسحر وانه رام ان يعزو الى نفسه القوة الالهية بالمعجزات التي كان يتوخاها بهذا النوع الذريع ولهذا السبب نفسه كانوا يعتبرون المسيحيين كالسحرة ولم تزل عبارة من يوليانوس الجاحد يوخذ منها انه يانف من عجائب المسيح لكنه لا ينكرها ويقول فوليتريانوس مثله برسالتهِ الى القديس اوغسطينوس وهذا القول كان ذائعًا لدى الوثنيين كلهم

فبناء عليه لا تستغرب انَّ الوثنيين اقاموا المسيح بين الهتهم اذ انهم معتادون ان يعتبروا البشر الذين يصنعون امورًا خارقة الهةً واوعز طباريوس الى مجلس الشيوخ ان يوءدوا ليسوع المسيح اكرامًا الهيًا اذ انتهى الانبياء عنه من اليهودية وذلك لا ريبة فيه فان ترتوليانوس يذكره كامرٍ شائع في المدافعة التي ابرزها باسم البيعة الى مجلس الشيوخ ولم يشأ ان يضعف دعواه البادي حقها باستناده على اشياء منكورة يسهل دحضها وان رغبت في شهادة المورخين الوثنيين يقل له لمبريديوس ان ادريانوس اقام ليسوع المسيح هياكل كانت لا تزال في حيز الوجود في عصرهِ وان اسكندر سفاريوس اراد بعد ان ادى له ما ثر الاكرام خصوصًا ان يشيد له مذابح عامةً ويقيمهُ في عديد الالهة

ومن المقرر ان توقف ايماننا بالمسيح على ما نقله اولئك الذين لم ينضموا الى لفيف تلاميذه امرٌ خارجٌ عن خطة العدل فان ذلك يكون وسيلة لطلب الايمان من غير اهلهِ والوقوف على كنه الدين بواسطة الذين لا يعتبرونه امرًا خطيرًا لانهم يعكفون على كل

شيء سواه ومن اليقين ان مجد يسوع المسيح اصبح ذا سطيع زاهر حتى ان العالم لم يتمكن من ان لا يوءدي له بعض شهادات وليس من سعتي ان اورد لديك شهادةً لله احق من شهادة اولائك الملوك

ومع ذلك فاني اثق ان قد كان لهم بذلك مقصدٌ خارجي لانَّ بعض امورٍ سياسية كانت تبعث على اكرام المسيح فانهم كانوا يزعمون ان الاديان طرًّا تتحد في النهاية وان كل الالهة البدعية تغدو شايعةً لدى الجميع . اما المسيحيون فلم يكونوا يسلمون بهذه العبادة الممتزجة ولم يكونوا يحتقرون مراعاة السياسة الرومانية اقلَّ مما كانوا يحتقرون ما فيها من الجور والقسوة لكنما الرب اراد ان مبدأ اخر يحمل الوثنيين على ان يتركوا الهياكل التي اعدَّها الملوك ليسوع المسيح لان كهنة الاصنام اعلنوا للملك ادريانوس حسب قول المورخ المذكور انفًا انه اذا كرَّس الهياكل المشيدة للمسيحيين تهجر كل الهياكل عداها وان الجميع يعكفون على الولوج في دائرة الدين المسيحي لان عبادة الاوثان نفسها كانت تشعر ان فيه قوةً ظافرة لا يمكن للالهة الكاذبة مقاواتها وتثبت حقيقه ما قاله الرسول واية موافقة بين المسيح وباعال واية الفة لهيكل الله مع الاصنام وعلى هذا اصبحت عبادة الاوثان حليفة الدثار بقوة الصليب ومرذولة بذاتها وان وحدة الله اخذت بتقرر حتى ان عبادة الاوثان لم تكن في نهاية الامر قاصيةً عن هذا الاعتقاد فكانت تجهر ان الطبع الالهي متناهٍ في العظمة والسعة حتى انه لا يمكن ان يعبر عنهُ بلفظة واحدة او صورة واحدة وان المشتري ومرس وجينوس والهة اخرون ليسوا الا الهًا واحدًا تضح قوته غير المتناهية وتتمثل باسماء متباينة لكنهم كانوا يحيلون الدين الى رمزٍ لما كانوا يتصلون الى هذه التواريخ المدنسة بالالهة وتوليدهم المرذول وعشقهم الفاحش واعيادهم واسرارهم التي لم يكن لها اساس الا هذه الخرافات الغريبة. واما هذا الاله الوحيد فكان العالم او الشمس او النجوم او الهواء والنار والماء والتراب واجزائها المختلفة المستورة تحت اسماء الالهة او العشق فيا لهُ من ملجإٍ واهنٍ ذريعٍ فانه فضلاً عن ان هذه الخرافات كانت عثرةً للجميع وكل هذه الرموز متجاوزة الحد وثقيلة قد كان لا يرى وراءها الا اله واحدٌ هو العالم باجزائهِ حتى صار ركن هذا الدين الطبيعة نفسها وعليهِ اصبحت عبادة الخلائق موضوع الخالق .

ان الاعتذارات الواهنة عن عبادة الاوثان لم تقع لدى الفلاسفة موقع القبول وان

يكن ما اخذها من فلسفة الستوسيين اما سالس وبورفيروس فقد طلب عضداً آخر في تعليم افلاطون وفيثاغوروس . وهاك كيفية موافقتها لوحدة الله مع تكاثر الالهة الدائمة فكانا يقولان ليس الاّ الهٌ عظيمٌ وانهُ متناه في المقدرة حتى انه لا يتنازل ان يهتم بالاشياء الدنيئة بل انه اكتفى ان يصنع السماء والكواكب ولم يتنازل ان يصنع بيده على هذا العالم الحقير بل خوّل امره للذين تحت يده وليس الانسان صنعة يديه وان يكن قد خلق ليعرفه حيث انهُ عرضة للموت ولهذا يستحيل الوصول اليهِ لانه ثاوٍ في العلا وقاصٍ جدًّا عنا واما الارواح السماوية التي صنعتنا فهي كوساطة بيننا وبينهُ ولذلك يقتضي ان نؤدي لها العبادة

وليس علينا ان ندحض تخيلات الافلاطونيين التي كانت ايضًا توهي من تلقاء ذاتها لان سر المسيح كان يلاشيها من اساسها فكان هذا السر يعلم البشر ان الله الذي صنعهم على مثالهِ لا يانف منهم البتة وان كانوا يفتقرون الى وسيط فليس ذلك بسبب طبعهم الذي برأهُ الرب كما برأ كل الاشياء بل بسبب جرائرهم التي هم انفسهم اقترفوها وفضلاً عن ذلك فان اطباعهم لاتقصيهم عن الله لانه يتنازل ويتحد معهم فيصير انسانًا ويهبهم وسيطًا ليس الارواح السماوية التي يدعوها الفلاسفة ابالسة والكتاب المقدس ملائكة بل رجلاً تلتئم بهِ القوة الالهية والطبع الانساني الضعيف ويصبح دواءً شافيًا لدائنا

ولو كان تكبر الافلاطونيين لا يستطيع ان يتنازل الى ذل الكلمة المتجسدة ولكن الم يكن يجب عليهم ان يدركوا على الاقل ان الانسان قادرٌ ان يملك الله كالملائكة ولو كان احقر منهم قليلاً وبناء عليه فان الانسان مواخٍ للملائكة اكثر مما هو خاضع لهم ولذلك لا يقتضي ان يتعبدهم بل يعبد معهم بالاشتراك الذي صنعهم جميعًا على مثالهِ وان تقدمة الانسان الذبائح لغير الله لم تكن من الدناءة فقط من تكران جميلهِ ولاشيء يوازي غرق الوثنيين بهذا الشان فانهم بدلاً من ان لا يعبدوا الاّ الله كانوا يعبدون الابالسة

ولاسيما في الاحوال التي ابدت عبادة الاوثان ضعفها لما كانت في الورطة الشديدة وفي انتهاء الاضطهادات لما لمح المسيحيون على بورفيروس التجأ ان يقول ان الذبائح ليست من العبادة السامية فانظر الى اية درجة من الغباوة قد اتصل فانه كان يقول ان

الاله السامي له المجد لا يقبل ذبائح لان كل ما هو مادي مدنسٌ لديهِ فلا يجب ان يبرز لهُ وان الكلام نفسه لا يجب ان يستعمل في عبادته لان الصوت هو كشيءٍ مادي بل يقتضي ان يعبد سكوتًا بافكارٍ بسيطة وان اية عبادة اديت لهُ على خلاف هذا النمط غير لائقة بجلالته السامية

وعلى ذلك يتأتى ان الله كلي العظمة لا يحيط بجلالته وصف ومن اكبر الجرائر ان نغالي في مدحهِ ودخيلة الامر ان الذبيحة ليست لله وان كانت اقرارًا بخضوعنا له المتناهي وبسلطانه المطلق علينا ويقر بذلك صريحًا بروفوروس نفسه . اليس هذا الرأي يبطل الدين ويجعل ذاك الذى يعترف بهِ انهُ الله الالهة عريًا عن العبادة

فان كان هذا الامر على ذاك النمط فما هي الذبائح التي كان يقدمها الوثنيون في هياكلهم فكشف هذا السر بورفيروس نفسه لانه قال يوجد ارواح مدنسة مخاتلة ومضرة وانها بسبب كبرياءها العمياء تود لو تكون كالالهة وتبعث النوع الانساني على خدمتها فيجب تسكينها لئلا تضرّ بهِ فمنها من هو هاشٌ مسرورٌ يسكن المراسح والملاعب ومنها من هو مقطب الوجه يحب روائح الدهن ويغتذي من الذبائح الدموية فما يفيد دحض هذه القضايا المستحيلة واخيرًا قد كسب المسيحيون دعوام لانه تقرر ان الالهة برمتها التي كان الوثنيون يقدمون لها الذبائح هي ارواحٌ شريرة كانت تنمي الى ذاتها الالوهية بسبب تكبرها وبناء عليه فان عبادة الاوثان لو اعتبرت من حيث هي هي تبدوانها ناتجة عن الجهل السمج لكنما لو اعتبرت من مصدرها بدت كعمل منقاد من بعيد دفعتهُ الارواح الشريرة الى اقصى درجة من الغلو . وذلك ما كان يزعمهُ المسيحيون وما كان يعلمه الانجيل وينشده صاحب المزامير بقولهِ . ان كل الهة الامم شياطين اما الرب فصنع السموات

فيالهُ من جهلٍ وعمىً غريبين قام بهما الجنس البشري فان عبادة الاوثان التي سقطت الى دركات الضيقة وصنفت حياءً بذاتها لم تبرح في حيز الوجود ولم يكن من مقتضياتها الاّ ان تلبس بعض بوادي وتتفسر بالفاظٍ رشيقة لما وقع في الاذان لكي تدخل في العقول وحقيقة الامر انهم كانوا يعجبون من كلام بورفيروس وكان يعد جبليك تلميذه كرجل الهيٍّ لانهُ كان يستر مشاعر معلمهِ بالفاظ خفية وان كانت عرية عن المعنى حقيقةً

وقد خدع جوليانوس الجاحد بهذه البوادي وان يكن عريقًا بالمهارة وانبأنا بذلك الوثنيون انفسهم لان اولائك الفلاسفة كانوا يخدعون العالم بحرمهم الذي كانوا يفخرون بها حقيقيًا او كاذبًا وبزهدهم الباطل وبعَفلاتهم في قشافة المعيشة حتى انهم كانوا يعدون اكل الحيوان من الجرائر الكبيرة وبتطهيرهم المدقق وبتاملاتهم التي كانت تنتهي بتخيلات باطلة وبكلامهم المموه بالالفاظ الرشيقة الخالية من المعاني لكنني لم انطلق الى الان بركن هذه العلة ولا ريب ان قداسة العوائد المسيحية وكراهية الملذات والتواضع الذي هو ركن الدين المسيحي كانت تكدر النوع الانساني وان وصلنا الى معرفة الحقيقة بان لدينا ان الكبرياء واللذائذ والفساد متفردة بالدفاع عن عبادة الاوثان

ولقد كانت البيعة تستأصلها بتعليمها وطول اناتها . واما هذه الارواح الشريرة التي لم تبرح قط تخدع البشر وتحملهم يتلطخون بعبادة الاوثان لم تنس ما لها من الشهرة بل انها سببت في البيعة هذه البدع التي اوعزنا اليها فان بعضًا من محبي التنفير وبعبارة اخرى محبي الاباطيل والشغب ارادوا ان يذيعوا فيها بين المومنين فلم يكتفوا بهذه الحكمة المعتدلة التي اوصى المسيحيين بها الرسول بل ارادوا ان يلجوا عمق الاسرار وزعموا ان يقيسوها على افكارهم الواهنة . واخذ هولاء الفلاسفة الحديثون يمزجون القياسات البشرية بالايمان وشرعوا يقلون مصاعب الدين المسيحي لانهم كانوا يضيفون ذرعًا عن احمال الجنون الذي كان العالم يراه في الانجيل ولهذا قد ندد وا استطرادًا في كل قواعد الدين اي انهم نكروا التكوين وشريعة موسى التي هي الاس الضروري لشريعتنا والوهية يسوع المسيح وتجسده ونعمته واسراره واصبحت كل الحقائق عرضةً للانقسامات المشكلة فان سلس وغيره يوبخوننا على هذا الانقسام . وكانت تبدو عبادة الاوثان مظفرةً لانها كانت تعتبر الدين المسيحي كمذهبٍ حديث فلسفي سوف يحدث له ما حدث لغيره من المذاهب لانه كان يجتزيء كغيره الى بدع كثيرة وكانت البيعة تبدو لديهم كعمل بشري مزمع ان يوهي بذاته وكان يستنتج من ذلك ان لا نتوغل في التنفير في الدين اكثر من آبائنا ولان نشرع في تغيير العالم

ان الله لم يتغافل عن بيعته لدن بلبلة هذه البدع التي كانت تدعى انها مسيحية لانه قد اراد ان يحفظ فيها قوة السلطة التي لم تكن للمبتدعين فانها كانت كاثوليكية عامة وكانت مشتمل على كل الازمنة وتمتد الى كل الانحاء وكانت رسولية لان تواتر الايام والخلافة

ومنبر الوحدة واصل السلطة لم تقتصر الا عليها فكل اولائك الذين كانوا يغادرونها كانوا قد اقروا اولاً ولم يكن يمكن لهم ان يمحوا علامة تجديدهم وسمة تمردهم وكان الوثنيون انفسهم يعتبرونها كالغصن اوكالمجموع من حيث تفرعت الاجزاء اوالجذع الحي الذي كانت الفروع المنفصلة تتركه على اصله واما سالس الذي كان يونب المسيحيين على انقسامهم فقد كان يرى بيعةً واحدةً ممتازةً عن غيرها تستمر اقوى من غيرها بين الكنائس المنفصلة ولهذا كان يدعوها البيعة العظيمة لانه كان يقول ان بين المسيحيين من لا يسلم بالخالق ولا التقليدات اليهودية وبهذا كان يشير الى المارسيونيت وما كان يقول انهم يحوزون لدى البيعة الكبيرة قبولاً . ولم يتعسر على الملك اوريلانوس ان يعرف في غضون البلبلة التي سببها بولس السموزاتي الكنيسة الحقيقية التي يناط بها بيت البيعة سوى ان هذا هو محل الصلوة او بيت الاسقف فحكم بها للذين كانوا مشتركين مع اساقفة ايطالية واسقف رومية لانه كان يرى ان لفيف المسيحيين مستمر كل حين في هذا الاشتراك . ولما كان الملك قونسطانس يبلبل كل البيعة كان الاضطراب الذي القاه بسبب دفاعه عن الاريوسيين لم يمنع اميانو مرسيلينون الوثني من ان يدري ان هذا الملك كان جانفًا عن المحجة القويمة المهدة للدين المسيحي البسيط والمقرر بقواعد ايمانه وتهذيبه وذلك لان الكنيسة الحقيقية هي ذات جلاله واستقامة لا يمكن للمبتدعين ان يقتدوا بها او ينكسوها بل انهم كانوا بعكس الامر يشهدون لها قسرًا عن ارادتهم . فان قنسطانس الذي كان يضطهد القديس اثناسيوس المدافع عن الدين القديم كان يرغب حسب قول كيليوس في ان يحكم عليه بسلطة اسقف رومية الفائقة كل ما سواها وكان يبين بطلبه الاستناد على هذه السلطة للوثنيين انفسهم ما كان ينقص بدعته وبهذا يكرم الكنيسة التي كان الاريوسيون قد انفصلوا منها وعلى هذا كان الوثنيون يعرفون ان يميزوا الكنيسة الكاثوليكية ولو اقتضى الامر ان يطرح احد لديهم سوالاً قائلاً اين مجالسها وما هم اساقفتها فلا يخطئون بجوابهم اما البدع فلم يكن يمكن لها مهما افرغت من الجهد ان تتملص من اسم مشيدها فكان السباليون والبوليانيست والاريوسيون والبلاجيانيون وغيرهم يلتظون غيظًا من الالقاب التي تعطى لهم وكل ذلك كان عبثًا . اما العالم فكان ينطق بالصواب رغما عن ارادتهم ويسمي كل بدعة باسم مبتدعها لكن نظرًا الى البيعة الكبيرة اي الكنيسة الكاثوليكية الرسولية قد كان من المستحيل ان تعطى اسمًا غير اسم مشيدها يسوع المسيح . وعلى هذا فرغنا

عن كل ما افرغ المبتدعون من السعي لم يمكن لهم ان يواروا هذا البيعة عن الوثنيين ولذلك كانت تبسط اليهم حجرها في كل انحاء البسيطة وكانوا يتقاطرون اليها سرابات. ومن الامكان ان البعض كانوا يزورون في بعض مسالك منحرفة لكنما البيعة كانت تمهد الطريق الشاسعة حيث كان اكثر الذين كانوا يطلبون المسيح يجوبها وتبين ايضًا من الاخبار انه قد من عليها بان تجتمع اليها كل الامم وهي وحدها كانت هدفًا لطعن الملوك الملحدين فان اوريجانوس ينبئنا ان ليس في المبتدعين الا نزر قد اضطهدوا حبًا بالايمان ويلاحظ القديس جوستينيانوس الذي كان قبله ان الاضطهاد لم يلتحق بالمرسيونيت والمبتدعين الآخرين لان الوثنيين لم يضطهدوا الا البيعة التي كانوا يرونها ممتدة في كل اصقاع الارض ولم يكونوا يعترفون بكنيسة ليسوع المسيح سواها فاذا افترقت عنها بعض فروع فليس ذلك امرًا خطيرًا فانها لا تفقد اذ ذاك نضارتها بل انها تتجه الى جهة اخرى وان ما نزع عنها من الافنان طيب ثمارها وحقيقة الامر اننا اذا نقرنا في تاريخ البيعة تقرر لدينا ان كل بدعة اخذت تناصبها لتضعف قواها عوضت عن خسائرها من جهة اخرى بامتدادها خارجًا وتضاعف النور والتقوى فيها داخلاً اثناء ما كانت ترى الفروع المنفصلة عنها تذوي في محل منفصل لان اعمال البشر اضمحلت رغمًا عن الجحيم الذي كان ياخذ بايديهم فدام عمل الرب وظهرت الكنيسة على الاصنام والضلالة

الفصل السابع والعشرون

في ملاحظات عامة تناط بتسلسل الدين وانطباق بعض الكتب المقدسة على البعض

ان هذه الكنيسة التي تعرض دائمًا للقدح غير مدحورة هي كاعجوبة مستمرة وشهادة ساطعة لاحكام الرب غير المتغيرة لانها لا تزال ثاوية وسط البلابل البشرية بقوة غريبة نقضي باننا نراها متصلة بيسوع المسيح بتسلسل متواصل منذ الف وسبعمائة سنة اذا اخذت الخلافة عن الشعب القديم وتحد مع الانبياء والآباء وعليه تؤول كل هذه العجائب المدهشة التي شاهدها العبرانيون عيانًا الى تثبيت ايماننا حتى الان وان الله الذي صنعها

لتثبيت وحدته وقدرته فاي امر كان يقتضي له لحفظها اكثر من ذلك والسندات التي تبينها احرى من ان يسلمها بين ايدي شعب برمته والتي صار نصها حسب تسلسل الاوقاف وهاك ما نجده الى الان في اسفار العهد القديم اي الكتب المتناهية في القدمية في العالم التي حفظت لنا من الآثار القديمة معرفة الله الحقيقي ونظام عبادته في هذه الكتب التي رعاها اليهود باحترام ديني ولم يبرحوا يحافظون عليها الى الان في كل اصقاع البسيطة

افيجوز لنا بعد هذه ان نثق بخرافات مؤلفي الامم الاوغاد في اصل هذا الشعب الخطير على قدر قدميته وقد لاحظنا ان تاريخ نشأته وملكه ينتهي حيث يبتدي تاريخ اليونان حتى انه لا امل لنا برؤية امر يعضدنا على ايضاح حوادث العبرانيين. ومن المقرر ان اليونان لم يعرفوا اليهود ولا دينهم الا بعد ان ترجموا اسفارهم الى لغتهم واخذوا يقطنون المدائن اليونانية اي نحو مايتين او ثلاثمائة سنة قبل المسيح وان جهالة الالوهة كانت عظيمة جدًا لدى الوثنيين حتى ان اعظم مؤلفيهم لم يكونوا يعرفون من هو اله اليهود ولقد كانوا يعزون الى المتناهين في العدل بينهم وبين الوهة السماء والعلاء حيث كان اليهود يشخصون بابصارهم الى المحل الذي كانت تبدو فيه قوة الله العلية وفيه مثابة عرشه وعدا ذلك فان دين اليهود كان غريبًا جدًا ومناقضًا لسائر الاديان وان سننهم وسبتهم واعيادهم وكل اخلاقهم كانت ممتازة فجذبوا اليهم حسد الامم القاطنين بينهم وبغضاءهم وكانوا يعتبرونهم امة تانف من كل الامم وان ما فرض عليهم من المحارم التي يشتركون بها مع الامم صوبت عليهم الكراهية مقدار ما يحتقرهم الجميع ان الاتحاد الذي كان متصلاً بينهم ومراعاتهم باحترام ديني لصلاتهم بروساء ملتهم اي باورشليم والهيكل والاحبار والهبات التي كانوا يبعثون بها من كل نحو وصوب كانا يجعلان فيهم ريبة للامم فضلاً عن بغضة المصريين القديمة فان هذا الشعب قد عامله ملوك مصر معاملة سيئة ولم يتملص من ايديهم الا بمعجزات شتى وتبين لديك من ذلك العلة التي لاجلها عكفوا على خرافات بشان اصله. فان كلاً يذهب كما يشا وفي هذا الامر وفي تفسير احتفالاتهم التي كانت تدهش من لم يكن يعرف لها اسًا ومصدرًا. وليس بخاف ان اليونان كانوا ذوي مهارة في خداع نفوسهم وقد كانوا يتلهون بالمشاشة وذلك اصل الخرافات التي في جوستان وتاسيت وديودور الصقلوي وغيرها من مولفات المعاصرين الذين تكلموا عن اليهود. وان يكن من الامور الجلية انهم كتبوا بالاستناد على اشاعات

غير مفررة بعد مرّ اجيال شتى دون ان يعرفوا شرائعهم ودينهم وفلسفتهم ودون ان ينظروا كتبهم ولربما دون ان يتصفحوها

ومع ذلك فرغمًا عن الجهالة والوثني فكان من الثابت ان شعب اليهود وحده قد عرف من بداءة اصلو الله الفاطر السماء والارض وفيما بعد كان وحده مستودع الاسرار الالهية ورعاها باحترام واهمية دينية زائدين لان الكتب التي كان المصريون والشعوب غيرهم يدعونها مقدسة كانت قد فقدت من زمن مديد وكانت بعض آثار لاتكاد تكون مبهمة في التواريخ القديمة وان كتب الرومانيين المقدسة التي كتب اسرارها مشيد دينهم نيما اتلفها الرومانيون انفسهم وامر بها مجلس الشيوخ ان تحرق خشية ان تكون عائقة على نقض الدين . وغادر هولاء الرومانيون السبيبل تهمل وان تكن تعد عندهم منذ ايام قديمة ككتب محترمة تشتمل على نبوات لانهم كانوا يودون ان الناس يعتقدون ان في دولتهم مآرب الالهة ومع ذلك فلم يبينوا للشعب نسخة ولا آيات بهذا الشان بل ان اليهود وحدهم رعوا كتبهم التي كانت معروفة وقد انبطت بهم رعاية اثار ديانتهم الاصلية دون سائر الشعوب القديمة وان تكن هذه الآثار منعمة من ذكرى مجدهم وخيانتهم وخيانة آبائهم ايضًا واستمر هذا الشعب على وجه البسيطة لياتي سائر الامم حيث تشعث بتسلسل دينه والعجائب والنبوات التي تجعله غير مزعزع

فلما اتى يسوع المسيح وبعث به ابوه بتم مواعيد السنة ثبت ارساليته وارسالية تلاميذه بمعجزات جديدة نقيدت بهذا التدقيق عينه لان هذه الاعمال ذاعت في كل الارض . ومقتضيات الزمان والاشخاص والحال قضت بان يكون البحث عنها سهلاً على كل من اهتم بنجاة نفسه لان العالم قد فحص وامن وكل من تحرّى الامور ونقر في اثار البيعة ولو قليلاً اذعن انه لم يحكم قط على قضية باكثر تمعن واكثر معرفة

لكنما يوجد في الاتصال الذي بين العهدين فرق يقتضي ملاحظته وهو ان الكتب القديمة قد كتبت في ازمان متباينة ودليل ذلك ان اسفار موسى تختلف عن اسفار يشوع والقضاة وعن اسفار الملوك ايضًا لان الاسفار التي تنبيء عن فتوحهم الارض المقدسة ومكثهم فيها بمعجزات بادية . ولكي يظهر الرب على خيانة شعب عاكف على الحواس تناول عددًا من الاجيال حيث وزع معجزاته ونبوءاته ليجدّد مرارًا الشهادات البادية التي كان بها يثبت حقائقه المقدسة . اما في العهد الجديد فقد اتبع طريقة اخرى لانه لم يكن

نريد ان يوحي بشيء جديد الى البيعة بعد يسوع المسيح لان فيه الكمال والتمام ولهذا كتبت في ايام الرسل كل الكتب المقدسة التي الفت في العهد الجديد

اي ان شهادة يسوع المسيح واولائك الذين اراد ان يصطفيهم كشهود انبعاثه من الموت كافية لدى الكنيسة المسيحية وكل امر طرأ بعد ذلك كان آيلاً لتشييدها لكنها لم تعتبر كوحيٍ من الله الا ما كتبه الرسل او ما اثبتوه بسلطانهم . اما في الفرق نفسه القايم بين كتب العهدين فقد راعى الرب دائمًا هذا النظام وهو ان تكتب الحوادث في وقت حدوثها في الان الذي يذيع فيه ذكرها . وعلى ذلك فكل اولئك الذين كانوا يعرفونها كتبوها والذين لم يكونوا يعرفونها اعتمدوا الكتب التي تتضمنها وتشهد بها وسلموها طرًّا لاخلافهم معتبرينها حوادث ثمينة فراعت الاخلاف حرمتها كل الرعاية

وبذلك تألف مجموع الكتب المقدسة في العهدين الجديد والقديم واعتبرت هذه الكتب من البدء كحقيقة لكل امر معطاة من لدن الله نفسه ولهذا استحقت كل ذاك الاعتناء واعتُقد ان من غير منها او حرّف كان كافرًا فظيعًا وعليه اتصلت الينا وهي لاتزال محترمة غير متغيرة او بتقليدات اليهود الثابتة او بتقليدات المسيحيين الصحيحة والوثوق بها مقرر لانها ثبتت بدماء الذين كتبوها وباشهادهم واشهاد الذين قبلوها

ان القديس اوغسطينوس وغيره من الانبياء يسألون عن المسند الذي به تنسب الكتب الدنوية لازمنة مقررة ومولفين محققين فكل يجيب على الفور ان الكتب تمتاز بالمناسبات المختلفة بالشرايع والعوائد وتواريخ بعض الازمنة الخاصة والمولفين الخصوصيين وفضلاً عن ذلك بالاستناد على الشهادة العامة والتقليدات الثابتة فكل هذه الوسائل تتحد لتقرر حقيقة الكتب المقدسة وتميز اوقاتها وتبين مولفيها وان ما بذلوا من الجهد لحفظها على كيانها هو مقدار ما يكون التقليد الذي ابقاها لنا دون ريبة وبناء عليه لم يكن ذلك معروفًا فقط لدى الكاثوليك بل ايضًا لدى المبتدعين انفسهم ولدى غير المومنين لان موسى لم ينفكّ يعتبر في كل الشرق ثم في العالم قاطبة انه مشترع اليهود ومولف الكتب التي تعزى اليه وان السمرة الذين اخذوها من عشرة الاسباط المنفصلة رعوها بكل احترام ديني كاليهود انفسهم وان تقليداتهم وتاريخهم في غاية التقرير بذلك الشان وان شئت تحقيق كل التسلسل فعليك بمراجعة بعض فقرات من الجزء الاول

وان هذين الشعبين المتناقضين لم يختلق احدٌ منهما الكتب الالهية بل انهما كليهما

اتخذاها من اصل واحدٍ اي منذ ايام سليمان وداود وان الاحرف العبرانية القديمة التي حفظها السمرة الى الان تدل على انهم لم يتبعوا عزرا الذي غيرها وبناء عليه فخمسة اسفار السمرة وخمسة اسفار اليهود هي نسخ اصلية كاملة لايتعلق البعض منها بالبعض الاخر والمطابقة الكلية التي تبدو في جوهر المتن تبين استقامة الشعبين اللذين اصبحا شاهدين عادلين متفقين بالشهادة دون ارتباط او بالاحرى انهما يتفقان قسرًا عن عداوتهما وان التقليد الوثيق وحده غير المتغير يوفق بينهما بفكرٍ واحد وان الذين شاؤوا ان يقولوا وان لم يكن لقولهم من سند ان هذه الكتب قد فقدت اولم توجد قط او صححت اوتلفت حديثًا او غيرها عزرا فنفضلاً عن ان عزرا نفسه يكذبهم فتدحض دعواهم ايضًا خمسة اسفار موسى التي لم تزل الى الان بين ايدي السمرة واطلع عليها في بداءة اجيال الكنيسة اوسابيوس القيصري والقديس ايرونيموس ومولفوا البيعة الاخرون وهي لم تزل على ما كانت عليهِ في بداءة الامر. ويبدو انَّ هذه الشيعة الحقيرة لم تكن زمنًا مديدًا على هذا المنوال الأَلتودي شهادةً لقدمية موسى

وان المولفين الذين كتبوا الاناجيل الاربعة لم يحصلوا على شهادة اقل من رضى المومنين وغير المومنين والمبتدعين بالاتفاق لان هولاء الامم الكثيري العدد والمختلفي الاجناس ترجموا هذه الكتب الالهية حالاً بعد ان سطرت فجميعهم يتفقون على ما يناط بتاريخها ومولفيها وان الوثنيين لم يناقضوا هذا التقليد لاسلس الذي ندد فيها نحو بداءة الدين المسيحي ولاجوليانوس الجاحد وان لم يكن يجهل شيئًا ما يشينهم كما انه لم يجهل شيئًا من ذلك الامر ولم يرتب احدٌ من الوثنيين في حقيقة هذه الكتب بل انهم نسبوا اليها المولفين الذي نسبهم المسيحيون ولم يجتريء المبتدعون انفسهم ان يزعموا انها ليست من تلامذة المسيح وان كانت سلطتها تثقل عليهم . ودخيلة الامر ان قد كان يوجد عديدٌ وافرٌ من هولاء المتشيعين وقت بداءة البيعة وقد سطرت الكتب المقدسة ازاء اعينهم وبناء عليهِ فلو كان يرى خداع بهذا الشان لكان انكشف عن مقربة وما كان نال نجاحًا.

ولا ريب ان قد اجترأ ماريبوس وماسس اوتح المبتدعين طرًا ان يقولوا بعد مجيء الرسل حين كانت البيعة تمتد في كل اطراف الارض ان ثلاثة الاناجيل مصنوعة دون صحة وان انجيل القديس لوقا الذي كانا يوثرانهِ على غيرهِ دون ابراز علة لذلك مزوَّر

وهذا الراي مناقض لتقليد الرسل الذي قفاه تلاميذهم والاساقفة الذين خلفوهم في مناصبهم ولعمل الشعوب وقد قبلت البيعة كلها هذا التقليد مجمعة عليه

ولكن على اي راي كانا يستندان فلا ريبة ان استنادهم كان على روى وهبية لا على حوادث مفررة فكلما كانا يقولان ان كل ما هو مناقض لرايهما لابد ان يكون مختلقًا اختلاقًا من غير الرسل وكانا يوردان لحجة قاطعة لزعمها نفس اراهما المنكرة عليهما هذه الاراء نفسها كانت مناقضة للصواب حتى انه لم يعلم كيف انها وجدت عقولاً بشرية .

ولكي يمكن الريب في امانة البيعة كان يقتضي عرض نسخ اصلية تخالف نسخ الكنيسة او ايراد ادلة قاطعة يعتمد عليها ولما سئل هذان الارتيكيان وتلاميذهما ان يقدموا مثل هذه البراهين افحموا جوابًا وادوا سكوتًا ومن نفس سكوتهم تبين صريحًا ان لم يكن يوجد في القرن الثاني الكنيسة اذ كانا يكتبان اقل دليل على كذب الاسفار المقدسة او تزويرها ولا اضعف قرينة تخالف تقليد البيعة

وماذا الذي نقوله في اتفاق الكتب المقدسة والشهادة العجيبة القاطعة التي تؤديها ازمنة شعب الرب بعضها لبعض فان اوقات الهيكل الثاني تفترض اوقات الهيكل الاول وتقودنا الى سليمان وتنبئنا ان السلم لم تأتِ الا بعد احتدام الحرب وبوصلنا فتوح شعب الرب الى القضاة ويشوع والخروج من مصر وعندما نلاحظ كيفية خروج شعب برمته من بلاد كان فيها غريبًا نتذكر كيفية دخوله اليها ثم نتذكر الاثني عشر ابًا وتصورنا ان هذا الشعب الذي لم يكن يعتبر نفسهُ الا كعائلة واحدة يقودنا الى ابراهيم الذي كان اصل هذه الامة طرًا . ليت شعري هل يهافت هذا الشعب على الهداية ولم يعكف على عبادة الاوثان بعد ابائه من بابل فذاك مفعول العقاب الذي صوبته عليه جرائرهُ وان كان يفتخر بانه راى في غضون اجيال شتى معجزات شتى لم يكن لشعب سواه ان ينظرها فيمكن له ايضًا ان يفتخر انه كان منفردًا بمعرفة الله .

فعلى ماذا تدل الختانة وعيد المظال والفصح وغيره من الاعياد التي كان الشعب يحتفلها منذ الزمان القديم اليس على ما هو منوهٌ عنهُ في كتاب موسى وهل يمكن ان يكون شعب ممتاز عن غيره من الشعوب بدينهِ وسجاياه الخاصة وقد رعى منذ البدء تمامًا سابقًا ومتتابعًا وذكرًا حيًا في تسلسل الحوادث المرتبطة طبعًا وفي الاحتفالات المنظمة

والعوائد العامة مستندًا بذلك على مبادىء التكوين والايمان بالعناية الربانية فهل يمكن شعب مثل هذا ان يكون دون تاريخ ينبيء عن اصل نشاته ودون سنة تقيد عاداته مدة الف سنة مكث فيها في مملكة واحدة وهل يحتمل ان عزرا شرع على الفور بفرض عليه باسم موسى تاريخ اثاره القديمة والسنة التي دمثت اخلاقه وذلك بعد ان اصبح اسيرًا وشاهد استئصال مملكته فليت شعري اية حكاية تنأى عن الصواب اكثر من هذه في هذا الافتراض ومن يمكن له ان يعتقد بذلك دون ان يكون جاهلاً جاحدًا فلكي يمكن فقد هذه الشريعة بعد ان اعطيها هذا الشعب كان من المقتضي استئصال هذه الامة او ان يكون طرأ عليها تغيرات عديدة ومختلفة حتى تشوش معرفتها باصلها ودينها وعوائدها

فان كانت هذه البلوى قد حلت في شعب اليهود وان سنتهم المعروفة صريحًا على عهد صدقيا قد فقدت ستين عامًا بعد هذا الملك رغمًا عن اعتناء حزقيال وارميا وباروخ ودانيال الذين كانوا دائمًا يستندون عليها بمنزلة ركن قوي للدين وسياسة شعبهم فاذا فرضنا ان هذه السنة قد فقدت قسرًا عن هولاء الصديقين وغيرهم وفي الوقت نفسه الذي كان كثيرون فيه ينالون اكليل الشهادة حبًا بهذه الشريعة كما تبين ذلك من الاضطهادات التي المت بدانيال والفتية الثلاثة فان كانت فقدت بوقت وجيز كهذا رغمًا عن كل من ذكر واصبحت هكذا مضروبًا عليها بحجاف النسيان وان عزرا تصرف بها حسب ميله وهواه فيكون قد التزم ان لا يولف سفرًا واحدًا فقط بل كان يلزمه ان يولف في الوقت نفسه كل كتب الانبياء الاقدمين والحديثين اي الذين كتبوا قبل السبي وبعده وفي مدته وكتب الذين قد شاهدهم الشعب يكتبون واسفار الذين كان الشعب يعي ذكرهم وليس كتب الانبياء فقط بل كتب سليمان ومزامير داود وكل اسفار التاريخ لانه لا يكاد يوجد في كل هذا التاريخ حادث خطير او فصل واحد من الكتب يمكن ثبوته اذا فصلناه عن اسفار موسى فان كل الاسفار تتكلم عن موسى وكل ما فيها موسس على ما كتبه موسى ولا يمكن ان يكون بخلاف ذلك لان موسى وشريعته والتاريخ الذي كتبه هو الاساس والعماد في اعمال شعب اليهود ونظامه العام والخاص . فيكون على عزرا مشروع غريب وحديث في العالم بان يورد اشخاصًا كثيرين يتكلمون باساليب وانواع مختلفة . وكل منهم يتكلم بما يكون مطابقًا للاخر ويبعث شعبًا برمته على ان يعتقد على الفور ان هذه الاسفار

هي الاسفار القديمة التي كان يودي لها احترامًا والحديثة التي شاهد من نصها وذلك كانه لم يكن قط بسامع شيئًا وان معرفة الازمنة الحالية والغابرة انبعثت فجاة . فهذه هي المعجزات التي يندب ان يسلم بها من لا يسلم بعجائب الرب ولا يقبل الشهادة التي تقرر بها انه قد قيل عن شعب برمته انه قد نظرها بعينيه .

ولكن فان كان هذا الشعب لدن ايابه من بابل الى ارض آبائه جديدًا بمقدار كهذا وجاهلاً حتى انه كان لا يكاد يتذكر وجوده لانه قبل دون فحص كل ما شاء عزرا ان يسنه له فكيف نرى في الكتاب الذي توخى عزرا كتابته كلها وفي كتاب نحميا معاصره كل ما يقوله في الكتب المقدسة . ومن ذا الذي كان يمكن له ان يسمعهما يتكلمان عن شريعة موسى في محال متباينة علانية كأن ذلك امر معروف لدى الجميع . وكان الكل يتداولون هذه الاسفار ولقد كان في وسعهما ان يرتبا الاعياد والذبائح والاحتفالات وصورة المشهد ثانية والذبيحة والنظام وقصارى الامر ان كل شيء كان تم لدن قولهما حسبما نص في شريعة موسى عبد الرب

واما عزرا فيدعى في الكتاب كمعلم في الشريعة حبا الرب اسرئيل بو بوساطة موسى وذلك بموجب هذه الشريعة والقوانين التي كانت على يده وامره ارتحشستا ان يزور الشعب ويرتبه ويصلح اموره ومن ذلك يتأتى ان الامم انفسهم كانوا يعرفون شريعة موسى بانها شريعة لكل الشعب وكان كل علمائه يعتبرون هذه الشريعة كل آن انها قاعدة لاعمالهم ودستور لمهامهم لان الكهنة واللاويين مبددون في المدائن وترتيب وظائفهم ومراتبهم آنفًا حسبما نص في شريعة موسى وان كل الشعب يندم تائبًا فذلك لسبب انه مبدع الشريعة وان كان يجدد العهد مع الرب بتوقيع خاص من قبيل كل الاشخاص فذلك بالتوكؤ على الشريعة عينها التي كانت تتلى لهذا السبب علانية بكل صراحة صباحًا ومساء مدة ايام جمة امام كل الشعب الذي كان يلتزم بتصحيح لمنطوقها وهو يعتبرها كشريعة آبائه . وكان العديد الاوفر من الرجال والنساء يسمعون القراءة ويعرفون القوانين التي تعلموها منذ نعومة اظفارهم فاذًا كيف امكن لعزرا ان يتلو امام كل شعب كتابًا معروفًا وهو نفسه الفه ورتبه حسب هواه ولم يعترض احد على ادنى وصمة او تحريف او تصحيف فانهم كانوا يتلون تاريخ كل الاجيال الماضية مبتدئًا من سفر التكوين ومنتهيًا في عصرهم وكان الشعب الذي ازاح عن عاتقه مرارًا جمة نير هذه

الشريعة بتحمل هذا العبء الثقيل دون معارضة لانه سبر الامور وايقن ان احتقاره لهذه الشريعة جذب اليه كل اصناف المشاق التي كان يتكبدها لانه منع الرباء حسب نص الشريعة وذكر الفاظها وحلّ ما كان قد عقد للزيجة ولم يبدِ احدٌ نحوه مقاومةً فلو قدِّر ان هذه الشريعة لم تكن في حيز الوجود او كانت منسية لما رأيت شعبًا من الفطرة الانسانية يسعى بموجبها من مجرَّد طبعهِ

ولقد كان هذا الشعب برمتهِ يصيخ لكلام حجي وزكريا وملخيا الذين كانوا وقتئذٍ يتنبئون واقتداء بالانبياء سلفهم لم يكونوا ينذرون الا بموسى وشريعة الرب التي اعطاه اياها على جبل حوريب وذلك امرٌ معروف في كل الازمنة وتبعة الامة . وان لم يكن ذلك كذلك فماذا يقال في هذا الزمن عينهِ لدن انتباه هذا الشعب بانه قد اعجب من تتميم نبوءة ارميا في مدة السبي سبعين عامًا فكيف اصبح سفر ارميا الذي صنفه عزرا او غيره من الانبياء يوخذ بغتةً بعين التصديق. فباية خديعة امكن له ان يقنع شعبًا برمتهِ والشيوخ الذين كانوا قد نظروا وهم لا يزالون منتظرين انفاذهم العجيب الذي انذرهم عنه في كتبهِ او نقدِّر ايضًا ان عزرا ونحميا لم يكتبا تاريخ عصرهما بل كتبه باسمهما مولفٌ اخر وان اللذين قد صنفا كل اسفار العهد العتيق وما تلا من الاجيال عضد لهما حتى ان مزورين آخرين قد قدَّروا لهما تاريخًا ليقرروا ما اختلقوه من التزوير

وما تلك الأحماقةٌ تبعث على الخجل قبدلاً من ان نقول ان عزرا ابرز الى الوجود فورًا كل هذه الاسفار المتباينة عن بعضها نفاسًا وزمانًا يقولون انه ادخل اليها العجائب والنبوات التي تغري الناس بان تعتبرها الاهية فتكون هذه الضلالة اشرُّ من الاولى لان هذه العجائب والنبوات هي منتشرة بمقدار كهذا في كل الاسفار ومكررة ومنمقة بعبارات مختلفة كثيرة الاستعارات عظيمة الوقع وبايجاز القول انها داخلةٌ ضمن الاسفار هكذا معتبرين ان يقتضي ان لا يكونوا قد تصفحوها اذ لا يسهل عليهم ان ياتوا بما يضاهيها بان يضمنوها امورًا لا يود الملحدون ان يروها فيها ولو مُنحوا كل ما يطلبونه . فكل ما فيها عجيب والّا فهي ركن الكتب المقدسة حتى انها تبدو قسرًا عن كل اجتهاد . ولو قدرنا ان عزرا اضاف بعد الحادث النبوات الى ما كان قد حدث في زمانهِ فمن يكون اذ ذاك قد اضاف الحوادث التي تمت فيما بعد على عهد انتيوخوس والمكابيين وغيرهم وهل من الممكن ان يكون الله قد منَّ على عزرا بروح النبوءة حتى يظهر خداعه مضاهيًا للحق

وعلى ذلك يوثرون ان يكون ذلك تزويرًا على ان يكون قام بهِ اشعيا او ارميا او دانيال او ان كل جيل كان منطويًا على مزوّرٍ ذي سعادةٍ يصيخ له كل الشعب ومزوِّرين حديثين يكونون قد انحازوا الى الكتب المقدسة محبة في الدين حتى انه بعد ان يكون القانون قد تم وتكون الكتب قد انتشرت في كل الارض بين اليهود وترجمت الى كل اللغات الاجنبية يكون ذلك لدثار الدين في سبيل الغيرة على تشييده . فهل من الممكن ان شعبًا برمته يسمح دون عناء بكل ما يعتقد الهيًا سواء كان اعتقاده بذلك خطأ او صوابًا وهل يتأتى ان احدًا يمكن له ان يقنع المسيحيين او المسلمين ان يضيفوا الى الانجيل او القرآن فصلاً واحدًا ولربما ان اليهود كانوا يتساهلون بمثل ذلك اكثر من غيرهم او انهم كانوا لا يحترمون كتبهم المقدسة كغيرهم . فيا لها من آراءٍ خاملة تتشبث بها لما نشاء ان نلقي عن عواتقنا نير السلطة الالهية ولا ترتاب حواسنا واخلاقنا الا بعقلنا الضال

الفصل الثامن والعشرون

في ان المصاعب التي يتخيلونها للكتاب المقدس ينسهل دحضها لدى ذوي العقول الثاقبة

ليس من دأبك ان نقول ان البحث في هذه الامور صعبٌ لانه لو كان صعبًا لاقتضى ان نسلم اما بسلطة الكنيسة او بالتقليد المتواتر منذ اجيالٍ عديدة او ننكب فاحصين الى النهاية ولا ننكر اننا نتملص من هذا التنفير لدى قولنا ان يستلزم وقتٌ نكرسهُ اكثر مما نريد لخلاص نفوسنا ودخيلة الامر انه بدون ان نقلب بعباءٍ عظيمٍ كتب العهدين يقتضي ان نرى رسائل القديس بولس الحية البديعة الحاوية سائر حوادث الوقت والاشغال والحركات التي تمت وقتئذٍ والتي لها صفات خاصة ولا ريب ان هذه الرسائل التي كانت مقبولة في الكنائس التي ارسلت اليها قد انبثت في غيرها من الكنائس فهذه وحدها تكفي لتقنع العقول المستفيضة ان كل شيءٍ حقٌ فيها الكتب المقدسة التي سلمها الينا الرسل .

وعلى هذا نرى ان بعض هذه الكتب يقوم بناصر البعض منها لان اعمال الرسل

عمداً بشان هيكلهم على جبل غريزايم والذي يستنتجونه من ذلك هو ان اليهود او عزرا يكونون قد زوروا خمسة اسفار موسى بعد الاياب من السبي فكان من المقتضى ان تكون النتيجة عكس ذلك لان الاختلاف الذي في النسخة السامرية يفيد تثبيت ما قد قررناه وهو ان نسختهم لا علاقة لها بنسخة اليهود ولا يمكننا ان نتصور ان هولاء المنفصلين قد تخذوا شيئاً عن اليهود وعزرا اذ نراهم بالعكس لم يختلقوا الا بغضةً لليهود وعزرا وانفةً من الهيكل الاول والثاني روايتهم بشان غريزيم ومن ذا الذي لا يرى انه لو صح زعم الملحدين لكان هولاء المنفصلون اتهموا اليهود باختلاق الكتب ولم يتبعوهم لكن هولاء المتمردين الذين رفضوا عزرا وكل الانبياء وهيكل اليهود الذي شاده سليمان واعده داود وعين محله فماذا يحترمون في خمسة اسفار موسى الا قدميتها السابقة عزرا والانبيا وسليمان وداود القدمية المجتمعة عليها الامتان اليهودية والسامرية فما اعز سلطة موسى وما اقوى حقيقة اسفاره الخمسة التي بدلاً من ان تزعزعها الاعتراضات تثبتها بقوة عظيمة

لكنك تقول من اين هذا التباين في النصوص والترجمات المتنوعة لعمري انه لا ينافي الامن قدمية الكتاب نفسه وكيف انصلت سلامة الذي تداولته ايادي الناسخين منذ اجيال جمة واللغة الذي كتب بها بطلت ان تكون مستعملةً ولتدع هذه المنازعات الباطلة ونبت الجدال بكلمة واحدة وهي فليقل لي اي شيء ماذا ينتج من كل هذه الترجمات ومن كل المتن الا الشرايع نفسها والمعجزات عينها والنبوات نفسها وتسلسل تاريخ نفسه وتعليم واحد بعينه وقصارى الامر جوهر واحد نفسه . وبناء عليه فما هو الضرر الناجم من اختلاف النصوص وما الذي يهمنا سوى ثبات هذه الكتب المقدسة وما ذا الذي يمكن لنا ان نطلبه من الحكمة والعناية الصمدانية اكثر من ذلك

واما من قبيل الترجمات فهل من سمات التزوير والحدوثية كون لغة الكتاب المقدس قديمة بهذا المقدار حتى اننا لا نستجلي دقايقها ولا يمكن لنا ان نعبر عنها بفصاحة او بلاغة او بكل القوة او التدقيق الواجب لا لعمري بل ان كل ذلك بينة وضيحة على قدمية الكتاب ومن شاء ان ينقر في الامور الحقيرة فليقل لنا هل يمكن له ان يثبت بالبرهان او بالتقدير احد المشاكل التي يراها في بعض فقرات فالاعتداد بذلك على صحة النسخ وبما ان التقليد لم يدع التعليم الوثيق يتعرض للفساد فان وجدت اغلاط اخرى فتفيد للبرهان على انه لم يكن احد يجدد شيئاً بهذه الكتب بروحه الخاص

تابعة للانجيل ونقدّره طبعاً رسالاتهم ولكن فلكي يكون كل شيء بالمطابقة تستلزم اعمال الرسل والرسائل والانجيل في كل مصر كتب اليهود القديمة لان القديس بولس وغيره من الرسل يستشهدون دائماً بقول موسى وما كتبه وما قاله الانبياء او كتبوه بعده لان يسوع المسيح يستشهد بموسى والانبياء والمزامير معتبراً انها شهاداتٌ للحقيقة عينها. ومتى اراد ان يفسر اسراره يبتدئ بموسى والانبياء واذ يقول لليهود ان موسى كتب عنه يجعل ما هو اكثر تحقيقاً لديهم لساً وبذلك يقودهم الى جرثومة تقليداتهم . ومع هذا كله فلننتبه الان لنقف على ما يعترضون هذه الشهادة المعروفة وما هو مقبولٌ لدى كل الاجيال اذ لا يجب ان نوهن اقوالهم بجحد قدمية هذه الاسفار لانهم اجترئوا في ايامنا ان ينشروا تعاليم في كل اللغات ضد الكتب المقدسة . فماذا الذي يعتمدونه ليثبتوا ابتداع الاسفار الخمسة وما ذا الذي يعترضون به هذا التقليد الذي مضى عليه ثلاثة آلاف من الاعوام وليس له من عضد سوى قوته الخاصة . و يوخذ من تواتر الامور ان لا شيء من اقوالهم متتابعٌ ولا شيء لديهم محققٌ ولا خطيرٌ بل ما يتفوهون به بشان التعداد والحال والاسماء كلهٌ اوهام وان هذه الملاحظات التي لا تعتبر في اي موضوع كان كمداخلات باطلة ليس لها قوةٌ تثبت بها جوهر الامور فانها تلمع الينا ببراهين قاطعة ضد اشياء متناهية في الاهمية . يزعمون ان قد يوجد صعوبات عظيمة في تاريخ الكتب المقدسة صعوبات لا تبرز الى الوجود لو كان الكتاب غير قديم او قام باعبائه رجلٌ ماهرٌ حصيفٌ كما يقولون وكذلك ان هذه الصعوبات لم تكن لو كان الشعب الذي نقله الينا غير مدقق في رعايته على كيانه ولو كانت له الحرية في تذليل صعابه وعدا ذلك فيه الصعوبات التي تنجم من طول الزمان اذ تتغير الحال بالنظر الى اسمائها واحوالها والتواريخ تكون قد تناست ولم تعد تواريخ العيال تعرف ولم تصحح الاغلاط المتأتاة من النسخ المهملة لوان بعض حوادث نسيها النوع الانساني بقي بعدها الابهام في جزء من التاريخ ولكن هذا الابهام هو في تسلسل الامور وفي ركنها فكلاً فكل الحوادث متناسقة وان ما هو مبهم يفيد قدمية الكتب المقدسة و وجوب تأدية الاحترام لها

يقولون ان قد يوجد تغيير في النص لان الترجمات القديمة لا تنطبق على بعضها وان النسخة العبرانية عينها فيها مناقضة بين بعض فقراتها في محال شتى وان نسخة السمرة تختلف ايضاً في مواضع عديدة عن نسخة اليهود عدا الكلمة التي يتهمونهم بتغييرها

وعليـه فاليك قوة الاعتراض الم يضعف شيء الى ما نصه موسى فمن ابن يتاتى ان نرى قصة موته في آخر السفر الذي يعزى اليه والجواب اي عجب من ان الذين اتموا تاريخه اضافوا قصة موته السعيد الى كل اعماله لكي يحرزوا من الكل مجموعًا واحدًا

ولننظر في الاضافات الاخرى فاحصين أهي سنة جديدة ام طقس حديث ام قاعدة للايمان ام اعجوبة ام نبوة فما من احد افتكر بزيادة شيء من ذلك ولا يوجد شيء يحملنا على الظن به ولا شيء بدلنا البتة لان هذه الاضافة تكون قد ضمت الى عمل الرب والشريعة حرمت ذلك ومن يكن قد صنع ذلك فلا ريبة ان يكون صبب عثرة رائعة فماذا تقول اذًا فيمكن ان يكونوا قد اتموا تاريخ نسبة باشروه او ابهم اوضحوا اسم مدينة حرف لتواتر الزمان ومن ذلك انهم قرروا الوقت الذي به بطل المن السماوي بعد ان اقتات منه الشعب اربعين عامًا لان هذا الحادث أثبت في سفر آخر هو سفر يشوع فعلنت عليه الملاحظة في سفر موسى فمكث حادثًا مقررًا ومشهورًا لدى كل الشعب . ويوجد اربع او خمس ملاحظات او حواشي على هذا النمط ماخوذة عن سفر يشوع او صموئيل او بعض الانبياء الاقدمين وبما ان هذه الملاحظات او الحواشي لا تشير الا الى حوادث معروفة لدى العامة وليس بالتسليم بها من صعوبة فلا عجب من ان تكون قد اثبتت في المتن ووصلت الينا بالتقليد مع غيرها فلا يبقى اعتراض ومع ذلك لا ينفكون عن ابهام عزرا وان تكن النسخة السامرية تبين لنا ان هذه الملاحظات ذات قدمية تفوق قدميته وقدمية انشقاق الاسباط العشرة فلا يعبأون بذلك بل يعزون في اية حالة كانت كل امر اليه

وان كانت هذه الملاحظات علنت في جيل اقدم فاسفار موسى الخمسة تكون اكثر قدمية وتزداد رعاية الحرمة لهذا الكتاب المقر للملاحظات نفسها بقدمية متناهية ثم على هذا يكون عزرا قد كتب كل شيء ولكن ذهب من فاكرته ان قصده ان يجعل موسى يتكلم ويكون جعله يكتب بكل خشونة امورًا لم تتم الا بعده وعلى ذلك ايضًا يعود لازمًا ان نقول ان كل التاليف مختلق ومزور بسبب زيادة عبارة عليه وان شهادة كل الاجيال والتسليم العام به لا تجديه شيئًا من المنفعة . والامر بالعكس فان هذه الملاحظات التي يستندون عليها هي براهين جديدة على حقيقة الاسفار واصدق اولئك الذين

قاموا بها وللذين نقلوها وهل حكم بذلك على تحقيق كتاب كان بالاستناد على براهين ضعيفة ولم يكن ذلك الا لان هذا الكتاب هو عدو الجنس البشري لانه يقسر البشر على ان يرضخوا لمقاصد الرب ويقمع ايضًا شهواتهم غير المنظمة فبناء عليه يقتضي محوه في اي وجه كان ويلزم تضحيته لراحة الفساد البشري

ولا نخالنّ ان الكفر يتأتى دون عوز في كل هذه الامور المستحيلة التي شاهدته قد خامرها وانها تنكر على موسى والانبياء المعروفين اسفارهم رغمًا عما يثبته النوع الانساني وكل قواعد العقل السليم ونجحد تاريخهم لان له مفعولاً عظيمًا في هذه المادة لامرين وهما ان هذه الاسفار ممتلئة من كل هذه الحوادث العجيبة المزدانة بكل ظروفها الخاصة والمعروفة بانها حوادث ذائعة وحاضرة فاذا امكن تكذيبها سهل نكرانها والحكم باضمحلالها ولو لم تنوكأ على ذاتها لكانت وهت من زمان مديد بذاتها . ثم بعد ان يثبت تاريخها لا يبقى امكان لانقضاء العلامة الثابتة التي تدل على الوحي الالهي الذي آثاره في اكثرها ولا ينكر تسلسل النبوات الشهيرة التي تكاثرت فيها

ولكي يجتنبوا هذه الاعاجيب وهذه النبوات عكف الكفار على الامور المستحيلة التي يعتنهم على الدهشة ولكن لا يجب ان يخالوا انهم بذلك تملصوا من ايدي الرب لانه ابقى لاسفاره المقدسة دلالة الهية ليس من الممكن ازالتها وهي العلاقة بين العهدين . ولا ريب ان ليس من احد ينكر ان كل العهد القديم كتب قبل الجديد وانه ليس هنا عزرا اخر يحمل اليهود على ان يخترعوا او يزوّروا كتبهم المقدسة لفائدة المسيحيين الذين يضطهدونهم ولسنا نحتاج الى حجة اخرى . ويتبين من تواصل العهدين ان كليهما من الوحي الالهي لان لهما مقصدًا واحدًا وتسلسلاً واحدًا فان احدها يعد الطريق والكمال والاخر يظهرها ويوضحها واحدها يشيد الاساس والاخر يتم البناء وقصارى الامر ان احدهما يتنبأ عما يبديه الآخر كاملاً ومصنوعًا وبذلك نرى كل الازمنة مرتبطة ببعضها ويتبين لنا من هذا التسلسل مأرب الهي وان تقليد اليهود والمسيحيين لا يتأتى منها الا دين واحد وان اسفار العهدين ليسا الا مجموعًا واحدًا وكتابًا واحدًا

الفصل التاسع والعشرون

في وسيلةٍ سهلة للترقي الى اصل الدين والوقوف على كنهه

ان هذا كله يتضح لدى كل من يعبرها جانبًا من الانتباه ولكن بما ان كل العقول ليست بقادرة ان تتتري هذا القياس فلنقد العقول الواهنة قيادةً بدوية لتوصلها رويدًا رويدًا الى الاصل

فليعتبر الناس الشرائع المسيحية من جهة والشرائع اليهودية من اخرى ويتطلبوا اسمها ويباشروا ما آلفوا عليهِ من الشرائع المسيحية وينظروا بالتدقيق الى القوانين التي تترتب عليها اخلاقنا وبلاحظوا كتبنا المقدسة اي الاناجيل الاربعة واعمال الرسل والرسائل الكاثوليكية ورويا القديس يوحنا والاسرار والذبيحة والعبادة ومن الاسرار سر العماد حيث يرى تكريس الانسان باسم الثالوث الاقدس والافخارستيا اي السر الموضوع لحفظ تذكار موت المسيح ومغفرة الخطايا المتعلق بها وتدبير البيعة المسيحية عمومًا والبيع خصوصًا والاساقفة والكهنة والشمامسة الذين دعي بهم للقيام باعباء سياستها . وكل هذه الامور الحديثة المفردة العامة لابدَّ لها من اصل ولكن ما هو اصلها وابتداؤها ايكون ذلك غير يسوع المسيح وتلاميذه لاننا اذا تدرجنا من جيل الى اخر رأينا ذلك فيه لا في جيلٍ قبله وتكون هذه الامور قد ابتدأت مشفوعة ببداءة الاسم المسيحي فاذا تقرر ان لنا معمودية والافخارستيا وكل ما ذكر فالواضع لذلك لابدَّ من ان يكون المسيح وهو الذي منَّ على تلاميذه بارتقاء الدرجات وذكر اعماله وواسطة نعمتهِ . وان كل الاسفار المقدسة كتبت برمتها من عهد الرسل لا قبل ولا بعد وتتفرع منها اصول السلطة الاسقفية وليس لها مصدر سوى ذلك. ولا غرو ان كان في اساقفتنا راس فذلك كان بين الرسل فمن هو الراس والاول بيننا فهو معروف هكذا من بدء الدين المسيحي كخليفة من كان الاول والراس في عهد يسوع المسيح نفسه اي بطرس

انني اجترئ على ان اثبت هذه كلها واما الامر الاخير فهو كامر مقرر لا يمكن ان يلم به نزاع او يخامره ريب لدى سليم النية ويستحيل ان يرتاب في الاحوال الاخرى ويسهل بيانها من كلام الذين غالوا في اقامة الجدل فيها ولا فرق في ذلك ان كان بسبب

الجهول او بسبب محبة المناقضة

فتلك هي مبادىء الشرائع المسيحية ونظام المذهب فلنتدرجنَّ الان في هذا الطريق عينهِ لنصل الى مبدأ الشرائع اليهودية واصلها وبما اننا وجدنا بتلك المسيح دون ان نتطال الى ما وراء ذلك نلتجىء ان نتصل بموسى بالطريق نفسها والبراهين عينها او ان نتصل بالاصل الذي وضعه

ان لليهود ولنا شرائع وعوائد واسرارًا وكتبًا مقدسةً واحبارًا وكهنة وعبادةً في الهيكل وان اكثر هذه لم تزل مرعية عندهم . وان الكهنوت كان قد ترتب في عائلة هرون اخي موسى وباقي الفرق بين الطغمة الكهنوتية من هرون واولاده اذ كلٌ يتعلق بقصبتهِ وكلهم يصدرون من هرون دون امكان ان يعزوا الى من قبله . وان الفصح والاعياد الباقية ليست باقل قدمية وفي هذا الفصح كل شيء يذكر تلك الليلة حيث شعب الرب قد تملص من نير عبودية مصر . وان عدد الايام نفسه يفصل هذين العيدين ثم عيد المظال المقامة بغصونٍ خضراء التي كان الشعب يقطن فيها من زمنٍ مديد كل عامٍ سبعة ايام وسبع ليالٍ تذكارا لمكثهم في البرية اربعين سنة . وقصارى الامر انهُ لا يوجد عند اليهود عيد ولا سرٌّ ولا احتفالٌ الّا وضعهُ موسى او قرّرهُ . او ان يكون موسومًا بنوعٍ ما بيد هذا الشارع العظيم

ولكن كل هذه الشرائع الدينية ليست من زمانٍ واحدٍ لان الختانة وحظر اكل الدم ورعاية السبت هي قبل موسى وقبل السنّة المكتتبة كما يتضح ذلك من سفر الخروج. واما الشعب فكان حافظًا هذه التواريخ وموسى نفسه نقلها الى كتابه لان الختانة تاتي من ابراهيم ابي الامة ومن المعاهدة وحظر اكل الدم متصل بنوح والطوفان . وتواتر السبت يوصلنا الى تكوين العالم والى اليوم السابع الذي باركه الرب وحينئذٍ تم عمله العظيم . وبناء عليهِ فكل الحوادث الخطيرة التي تؤول الى تعليم المؤمنين وتثقيفهم كان ذكرها مرعيًا لدى اليهود وان هذه القواعد القديمة كانت تحرز في شعب الله بامتزاجها بالقواعد التي وضعها موسى قواعد دين الاجيال الماضية برمتها

وان قسمًا من هذه القوانين التي كان اليهود يودون رعايتها لم تبقَ مرعيةً بينهم في هذه الايام لان الهيكل قد دثر وبطلت بهِ الذبائح والقرابين والكهنوت القديم الشرعي لان اولاد هرون لم يبقوا معروفين بين اليهود اذ كل الاسباط اختلطت معًا ولكن

اما ان كل هذا كان لا يزال برمته لدن ماتي المسيح الذي كان دائمًا يعزوهذ كلها الى موسى لا نحتاج الى غيرها من البراهين ليتحقق لدينا ان كل هذه الامور تاتى من عهد قديم ومن اهل الامة نفسها

وان لم يكن ذلك كذلك فلننقر في الامور مدققين ونرنونّ الى كل التواريخ اذ يكن لنا الوقوف عليها ونقول قبل كل شيء لابدّ من ان نصل الى عزرا . لان المسيح قد اتى قبل اقامة الهيكل الثاني . ومن المقرران هذا الهيكل شيد في ايام عزرا . وان المسيح لم يذكر في انجيلهِ الّا اسفار اليهود القانونية ولكن حسب تقليد الامة الدائم ان هذا القانون قد تم وانتهى في ايام عزرا دون ان يضيف اليه اليهود ادنى شيء فيما بعد . وكل هذا مما لا ريبة فيهِ بل مسلم من الجميع فبناء عليهِ يكون هذا العصر كتاريخ مضاعف اومحط عظيم لهُ اهمية كبرى لتاريخ اليهود وخصوصًا لكتبهم المقدسة . الّا انهُ قد تقرّر لدينا بكل صراحة انهُ لا يقتضي التوقف هنا اذ في هذا العصر يعزى كل شيء الى مبدا اخر . اذ اسم موسى يبدو دائمًا كاسم رجلٍ يحترم الشعب اسفاره وكتبه وكل الانبياء الذين كانوا يعاصرونه اوكانوا قبلهُ واسفارهُ هذه هي اساس دين اليهود فلا نعتبر الان هولاء الانبياء موحيًا بهم من العلاء بل اناسًا بدوا ازمنة متباينة في عهد ملوك مختلفين . وان الشعب اصاخ لكلامهم معتبرًا انهم مفسرون للدين فيجمهم من ذلك ان خلافتهم وخلافة الملوك الذين يتصل تاريخهم بتاريخهم تقودنا بصراحة الى اصل موسى الذي تنتمي اليهِ . لان ملاخي وحجي وعزرا وذكريّا الذين يعتبرون شريعة موسى انها موضوعة في كل آن يتصلون بزمان دانيال حيث يبدو صريحًا ان هذه الشريعة كانت معروفة لدى الجميع ويتصل دانيال نفسه بارميا وحزقيا اذ لا يبدو الّا موسى والعهد الذي عقده مع الرب والانذارات والعقابات المعدة لمن لا يدين لها . وان الجميع يتحدثون بهذه الشريعة كانهم يعرفونها منذ صباهم . ولا يذكرونها فقط كانها امرٌ مقبول في حيز الكيان بل تراهم لا يتهافتون على عمل ولا يفوهون بكلمة الّا يكون لذلك علاقة مكنونة بهذه السنة

ان ارميا يوصلنا الى يوشيا حيث اخذ يتنبأ وكانت شريعة موسى متعارفة ومتنذ ومشتهرة لدى الجميع بانها من تاليف ذلك النبي الذي كان الشعب يتصفحها بمقلتيه ونبواتهِ التي كان يسمعها باذنيه . وقصارى الامر اي شيء جعل تقوى ذلك الملك

مشتهرة في التاريخ اليس عكوفه من صغر سنهِ على هدم كل هياكل الاصنام التي اقامت عليها شريعة موسى نكيرًا ولقد احتفل باهتمام خاصٍ بالاعياد التي ابرمتها . منها عيد الفصح وكل العبادات التي لم تزل مكتوبة في شريعة حزقيا وارتعد هو وشعبه اذ شعر انهم خالفوها غير عابئين بالرب الذي سنها ولكن لا يجب ان نتوقف هنا . فان حزقيا قد احتفل احد اجداده بعيد الفصح بكل اعتبار لائق قاضيًا الارب بان يتبع شريعة موسى . ولم يفتأ اشعيا النبي يوعز اليها وقد اقتفاه بذلك غيره من الانبياء ولم يكن ذلك في عهد حزقيا فقط بل احقابًا طويلة في ايام سلفهِ . ولما اصيب احد اجداده يوشيا بالبرص طرده الشعب من الهيكل تطبيقًا لنص الشريعة وفصلوه عن الشعب بكل الاحتياطات التي قامت بها

فان هذا المثل المشهور في شخص ملكٍ عظيم ينبئنا ان الشريعة كانت دائمًا متخصصة لدى ابصار الشعب ومعروفة عندهم كي لا تاتي من جرثومة اقدم منه وليس يشق علينا لنرتقي من امازياس و يوشافاط وآزا وابيا ورحبعام الى سليمان ابيه الذي يغري برعاية شريعة ابائهِ بكلامه في سفر الامثال وهو : ارعَ يابنيّ وصية ابيك ولا ترفض شريعة امك اعتقدها في قلبك في كل حين واعصبها في عنقك وهي تهديك في سيرك وتحافظ عليك في رقادك واذا استيقظت فهي تحدثك لان الوصية مصباح والشريعة نور وتوبيخ التاديب طريق الحياة وفي قولهِ هذا لم يصنع شيئًا سوى انه كرّر ما كان قد قاله ابوهُ داود : شريعة الرب كاملة ترد النفوس وشهادة الرب صادقة تحكم الغبيّ . امر الرب مستقيم يفرح القلب ووصية الرب نقية تنير العيون وكل هذه ليست سوى تكرار ما تفوه بهِ هذه الشريعة نفسها واجراوها وهاك ما تقوله . ولتكن هذه الكلمات التي انا آمرك بها اليوم في قلبك وكررها على بنيك وكلمهم بها اذا جلست في بيتك واذا مشيت في الطريق واذا نمت واذا قمت واعتقدها علامة على يدك . ولتكن عصائب بين عينيك واكتبها على عضايد ابواب بيتك وعلى ابوابك ومن ثم قد ارتأوا ان تاتى هذه الشريعة بوسائل خفية او ان في الامكان مزاياها للفكر بعد ان كان من المحتم ان تكون مالوفة ومتناقلة بين ايدي الجميع . ومن مفاعيل الخديعة انهم طغوا لكل الشعب والجئوهُ ان يذعن بان هذه الشريعة هي شريعة ابائهِ دون ان يرى في كل الازمنة آثارًا لا ريبة فيها فذاك رايٌ محاليٌ

واما الان فبما ان كلامنا مقصور على داود وسليمان نقول ان صنيعهما العظيم الذي لم يبحَ ذكره من بين الشعب هو الهيكل . ولكن ماذا الذي صنعه هذان الملكان عندما اعدّا الهيكل وشيدا هذا البناء الذي لاضريب له فانهما لم يضعا شيئًا سوى ما نصته شريعة موسى التي كانت قد اوعزت ان يتخيروا مكانًا يحتفل فيه عبادة كل الامة وتقدم فيه كل الذبائح التي انذر بها موسى . ويقام فيه تابوت العهد الذي اقامه في البرية وبنوعٍ لائق قبة العهد التي شادها موسى لتكون رسمًا للهيكل الآتي وعلى ذلك لم تكن ساعة الأكان فيها موسى وشريعته حيبن . وان تذكار هذا المشترع الشهير يتدرج من ملكٍ الى آخر ومن سنة الى اخرى حتى يتصل اليه

فلنذعنّ اذًا ان تقليدات موسى في اجلى بيان وانها تبعث على ان تكون متبوعة وانها عرية من طائلة التزوير دون ريبة ومراء وان الزمان الذي نتاتى منه هذه الخلافة يتصل بعضه بالبعض الاخر كي لايبقى فيه ادنى فاصل اوخللٍ يتكفلان بالتزوير فليت شعري علامَ نفوه باسم التزوير فانه لا يسوغ ان نتخيل وجوده لو كنا نتهافت على شيء من الصواب . لان كل شيء ممتلىء من شريعة موسى ومنقادٌ بها ومستمد نوره منها ومن اسفاره ويستحيل ان تكون قد تناست في برهة وجيزة . وقد اقيمت حجج راهنة على ان النسخة التي اقامها في الهيكل حلقيا الكاهل العظيم في السنة الثامنة عشر للملك يوشيا وتقدمت له كانت وحدها باقيةً وقتئذٍ وذلك لان ماذا الذي يكون قد قضى على باقي النسخ بالفناء . وما يكون قد طرأ على اسفار هوشع واشعياء وعاموس وميخا وغيرهم من الذين كتبوا فورًا قبل هذا الحين واسفار كل الذين اقتفوهم بالعمل والتقوى . فبناء عليهِ اين يكون ارميا قد تعلم الكتب المقدسة وهو الذي كان قد شرع يتنبا قبل هذا الاكتشاف ومنذ السنة الثالثة عشر للملك يوشيا لان الانبياء كانوا يتشكون من ان الشعب كانوا يخالفون شريعة موسى . ولم يكن افضى بهم الامر الى ان فقدوها ولا نقرأ ايضًا في الكتب ان احاز ومنسى وعمون او احد الملوك الكفرة الذين كانوا قبل يوشيا حاولوا اتلاف هذه الاسفار لان شروعًا كهذا كان يبعث علي الجنون والمحال لمقدار ما كان فيه من الكفر . وان ذكر هذا العمل لايمكن ان يكون قد زال مطلقًا ولوانهم راموا محو هذه الاسفار في مملكة يهوذا . بيدَ ان سلطتهم لم تكن تمتد الى اراضي مملكة اسرائيل حيث تكون قد رُعيت هذه الكتب . ويتضح من ذلك ان السفر الذي اتى بهِ الكاهن

العظيم للملك يوشيا الاَّ نسخة مدققة ومحققة اكثر من غيرها بكون قد نص على عهد سلفهِ ووضعه في الهيكل او بالاحرى ان هذه النسخة انما هي النسخة الاصلية التي امر بها هذا الشارع الحكيم ان تقام جانب تابوت عهد الحرب لتكون ثمَّ عليهم شاهدًا : وهذا ما يشير اليهِ كلام الكتاب المقدم وهو : وجد حلقيا الكاهن سفر توراة الرب بخط موسى . ومهما كان المعنى الذي تؤول اليهِ هذه الكلمات فمن البين ان لم يكن شيء اقدر من هذا يتيقظ بهِ الشعب الغبي وتحيى غيرته بتلاوة الشريعة التي كانت كما ظنَّ مهملةً ومن اكبر الوسائل التي تتلى بها النسخة الاصلية المهمة الموضوعة في الهيكل باهتمام موسى واوامرهِ كشاهدٍ على تمرد الشعب ومخالفة الوصايا دون ان نلجأ الى ان نتخيل الامر غير الممكن اي ان شريعة الرب اصبحت منسية او لم يوجد منها الاَّ نسخة واحدة . لكنَّ ذلك بعكس الامر فقد يتضح ان اكتشاف هذه النسخة لم يفد الشعب شيئًا جديدًا بل يحمله على ان يصيخ لصوتٍ معروفٍ لديه وهذا الامر حمل الملك على ان يقول : اذهبوا فاسئلوا الرب لي وللباقين في اسرائيل ويهوذا من جهة كلام السفر الذي وجد لانهُ عظيم غضب الرب الذي انصبَّ علينا لاجل ان آباءنا لم يحفظوا كلامهُ ليعملوا بكل ما كتب في هذا السفر

وبعد كل هذا لايقتضي ان نُعنى بان نفحص بنوعٍ خاصٍ كل ما خاله عديمو الايمان والعلماء الدجالون والمتنقدون الزاهقون بشان تزوير اسفار موسى لان هذه الاشياء الخيالية يعثر عليها في كل مكان وكل زمان لاسيما في عهد عزرا فترى في الشعب نفورًا لا يمكن قمعه فيتخذ كشيء قديم ما لم يكن سمع بهِ البتة وكشيء اتى من موسى معروفًا مقررًا ما يكون قد وضع حديثًا بين اياديهم

ويلزم ايضًا ان لا نزايل الفكرة ما ينوط بالعشرة الاسباط وهو الامر الذي لايكثر تعداده لان هذا التاريخ هو من اهم الحوادث المنوطة بتاريخ الامة فان مملكة اسرائيل الجديدة تكونت حينئذٍ وانقسمت شطرين وهما مملكة داود ومملكة سليمان . وعليهِ فاذا كانت اسفار موسى مكثت في الامتين كارثٍ عامٍ فلا ريبة انها اتت من اباء الفيئتين قبل الانشقاق وبناء عليهِ فانها اتت من سليمان وداود وصموئيل الذي كرسهُ ملكًا وعالي الذي تعلم صموئيل في ايامه وهو طفلٌ عبادة الرب وحفظ الشريعة التي كان داود ينشدها في مزاميره التي كانت عرضة لغناء الجميع وسليمان في احكامهِ التي تداولتها

ايادي كل الشعب وقصارى الامر انك كلما تاخرت في الاجيال ترى دائمًا شريعة موسى مقرَّرة ومعروفة لدى الجميع ولا يمكن ان ترى مقرًّا الاّ في سفر موسى نفسه وفي الاسفار المسيحية . ولا مقرّ الا في زمان المسيح والرسل

ولكن ماذا الذي نراه في هذا المقر او ماذا الذي نراه في هذين المقرين اللذين لا يحولان وهما زمان موسى والمسيح . فاننا لا نرى اذ ذاك سوى الاعاجيب الساطعة والمعجزات الراهنة التي تبين كما سبق القول ارسالية هذا وذاك . فمن جهة ترى ضربات مصر وعبور البحر الاحمر والشريعة التي منَّ بها الرب على جبل سيناء وافتتاح الارض وكل المعجزات الاخرى التي كانوا يقولون عنها للشعب انه شاهدها باعينهِ . ومن اخرى ترى شفاء الامراض العديدة وانبعاث الموتى ويسوع المسيح نفسه الذي اثبت انبعاثه الذين شاهدوهُ وحققوه حتى الموت اي كل ما نتمناهُ لتقرير حقيقة حادثٍ لان الله نفسه (ولا اخشى ان اجترئ على ان اقول ذلك) لا يمكنه ان يصنع شيئًا اكثر وضوحًا لتثبيت حقيقة حادثٍ الاّ بان يعرضه على شهادة الحواس ولا ان يبرز برهانًا لتصديق الشهود اقوى من برهان موتٍ في معمعة العذاب

ولكن بعد ان تصعَّدنا من الفيئتين اليهود والمسيحيين وصلنا الى جرثومة متناهية في الالوهة والغرابة حتى لم يبق علينا شيء لتكملة صنيعنا الاّ تبين ان رابط هاتين الشريعتين اثبات من لدن الباري تعالى ولا ريب انهُ يقتضي ان يكون رابطٌ بين افعالهِ وان كل شيء يكون صادرًا من مقصدٍ واحدٍ وان الشريعة المسيحية التي اتت اخر الامر يجب ان تكون متصلة بالاولى وذلك امرٌ لا يمكن لاحد نكرانه . ولا ينكر احدٌ ايضًا ان اليهود كانوا ينتظرون المسيح ولم يزالوا ينتظرونه وان النبوات التي عندهم لا تسوّغ ان نرتاب بان المسيح الذي وُعدَ به اليهود هو نفسه الذي نعتقد بهِ

الفصل الثلاثون

في ان النبوات تنحصر في ثلاثة حوادث بيّنةٍ

وان مثل ابن الله يقرب ارتباطها

بما ان البحث في النبوات الخاصة يناط بحوادث كثيرة لا يستسهل الجميع ادراكها

وان تكون ذات انوارٍ باهرة قد اصطفى الرب بعضًا منها جعلها محسوسةً لدى الذين توغلوا كثيرًا في عباب الجهالة والهمجية فهذه الحوادث الساطعة التي شاهدها العالم كافةً هي التي قد بذلتُ غاية الجهد في ان اسلسلها لديك . وجلها دثار شعب اليهود وارتداد الامم وكلاها حدثا معًا في الوقت الذي انتشر فيه الانجيل وبدا يسوع المسيح

فهذه الامور الثلاثة المتحدة في تسلسل الزمان كانت اكثر اتحادًا في تسلسل احكام الرب فقد شاهدتها جاريةً معًا في النبوات القديمة . واما يسوع المسيح المفسر للنبوات وارادة الرب ابيهِ فقد ابان لنا هذا الاتحاد باجلى بيان في انجيلهِ لانهُ قد صرَّح ذلك في مثل الكرمة ذات الالوان لدى الانبياء قائلاً ان سيد بيتٍ غرس هذه الكرمة اي الدين الحق الموطد على عهدهِ ووكل بها عملة يحرسونها اي اليهود ويجنون ثمرته وارسل عبيدهُ مرارًا وهم الانبياء . واما العملة الجاحدون فقد اغوتهم نفوسهم بان تعدوا قتل عبيدهِ . ولكثرة حوادثهِ بعث اليهم ابنهُ فامتهنوه اكثر من العبيد فلذلك التجأ الرب ان ينزع من ايديهم الكرم ويكل بهِ عملةً غيرهم اي ينزع عنهم نعمة ميثاقهِ فيسلمها الى الامم فاقتضى اذ ذاك ان تحدث هذه الامور الثلاثة معًا وهي ماتى ابن الله ورذل اليهود ودعوة الامم ولم يحوجه مثل لزيادة الايضاح بل ان واقعي الامر يتكفل ببيانهِ .

قد وضح لديك ياسيدي ان اليهود بذعنون بان مملكتهم اخذت تندحر في ايام هيرودوس لدن ماتى المسيح الى العالم واما اذا كانت مخالفتهم لشريعة الرب تلقي بهم الى ورطةٍ ينغمر في السلطة فدثارهم الاخير الذي لم يبرح في حيز الكتمان لابد ان يكون عقابًا على اعظم جريرةٍ . فهذه الجريرة زائد بيانها وهي جحدهم المسيح الذي كان قد اتى ليعلمهم ويخلصهم من نير الاسترقاق فلذلك قد القى على عواتقهم نير عبوديةٍ باهظ لا يطيقون الرزوح تحته ولولا ان الرب يرعى وجودهم ليخدموا المسيح الذي اذاقوه مرارة الصلب لبادوا

وهاك حادثًا ثبتًا عامًا هو دثار مملكة شعب اليهود طرًّا في زمان يسوع المسيح وارتداد الامم فقد كان ذلك يقتضي له ان يتم في الوقت عينهِ ايام كانت العبادة القديمة تتلاشى في اورشليم واندثر الهيكل فاخذت اذ ذاك عبادة الاوثان تتناقص في كل الجهات وهبَّ الشعوب الذين كانوا قد نسوا خالقهم منذ الوف سنين من ثبات رقادهم المستمر

ورجاء ان كل الاحوال تنطبق على بعضها طفقت المواعيد الروحية تنتشر بانتشار

الانجيل ايام كان شعب اليهود المنتهر والاسير في اقاصي البسيطة فقد المواعيد الزمنية وحبطت آماله بالحصول على العظمة الجسدية . ومن ثم انذر بالسماء كل الذين يتاسون بحمل الاجتهاد في سبيل العدل واخذوا يكشفون اسرار الحبوة الاتية موقنين ان السعادة الحنيفية قاصية في هذه الارض عن مثوى الموت حيث تتكاثر الخطايا والشرور والمشقات

ومن لا يرى ها هنا رايًا سرمديًا متبعًا وتسلسل احكام الرب الذي اعدَّ منذ بدء العالم ما يتممهُ في اخر نهايتهِ ويقرر امام اعين البشر العصابة المقدسة حيث يشاء ان يؤدّوا له العبادة في الممالك المتباينة بخلافةٍ سرمديةٍ ثابتة فمن لا يرى هذا لا يستحق ان يرى شيئًا بل يتطوح الى عمه القلب كأنَّ ذلك اعدل العقاب واصرمه

وامل ان يكون تسلسل شعب الله ساطعًا امام قليلي البصيرة انفسهم قبضةً بان يكون محوسًا وبينًا بحوادث لا يمكن لاحدٍ ان يقيم عليها نكيرًا الاّ اذا غمض مقلتيهِ اختياريًا كي لا يرى الحق لان العبرانيين كانوا منتظرين المسيح فاتى ودعا الامم كما قد تنبئ عنه والشعب الذي وثق بمجيئهِ انحاز الى الذي كان يستنظره بدون ان تحسن الاتصالات ساعة واحدة واصبح هذا الشعب ممتدًا في كل البسيطة ولم تبرح الامم تحاز اليهِ وهذه البيعة التي شادها المسيح على وجه الارض رغمًا عن الجحيم لم تتزعزع البتة

الفصل الحادي والثلاثون

تابعٌ لما انف بشأن البيعة الكاثوليكية وبانتصارها على كل البدع

يا لها من تعزية عظمى لبني الرب ويا له من تأكيد عظيم بوطد الحنيفة وذلك اذ يرون انهم مستطيعون ان يرتقوا استمرارًا منذ انوشنسيوس التاسع المثنوي وفتئذٍ بكل فخر على اول كرسي البيعة الى بطرس الذي اقامه السيد المسيح رئيسًا على الرسل ومن ثم اخذ الكهنة الذين كانوا في عهد الشريعة الموسوية يتصلون الى هرون وموسى وبعد ذلك الى الاباء وابتداء العالم . فيا له من استقراء عظيم ويا له من تقليد جميل ويا له من تسلسلٍ عجيب فان كانت عقولنا بالطبيعة في ريب واضحت بسبب ترددها العويصة تجهها الخاصة تحتج ان تتقرر وتثبت بسلطة محققة في المشاكل المختصة بالخلاص . افيوجد سلطان اعظم من سلطان البيعة الكاثوليكية التي تحرز في ذاتها كل سلطان الاجيال

الآنفة وكل تقليدات النوع الانساني الى ابتداء تكوينهِ

وبناء عليهِ ان الجمعية التي وطدها المسيح المنتظر في كل الاعصار الغابرة على الصخرة حيث القديس بطرس وخلفاؤه مزمعون ان يجلسوا بامرهِ تثبت بتسلسلها وهي حاملة بثباتها المستمر سمة يد الرب

وهذه الخلافة عينها ليس بامكان هرطقة او بدعة او الفة اجتماعية ان تستاثر بها بل ذلك منوط ببيعة الرب ولا ريب ان الاديان الافاكة امكن لها ان تنتفي آثار البيعة في امور شتى وارباها يزعمون ان الله وحده شيدهم ولم يكن هذا الكلام الا فارغًا لان الله اذا كان فطر الجنس البشري وخلقه على مثالهِ فكيف يجدهُ ويكرمه . وبناء عليهِ فكل شيعةٍ لا توضح خلافتها من ابتداء العالم ليست من الرب ولذلك تخرّ امام البيعة المقدسة كل الجمعيات وكل الشيع التي شيدها بنو الانسان في النصرانية وغيرها

والمبتدعون الذين قاموا باعباء شيع جديدة بين المسيحيين امكن لهم ان يسهلوا الايمان باقل رضوخٍ بجحدهم للاسرار التي تفوق الحس وامكن لهم ان يختلوا البشر بظواهر التقوى وان يثيروهم بفصاحتهم واهوائهم ويجذبوهم بحداثة المذهب والفساد سواء كان عقليًا ام خلقيًا . وقصارى الامر امكن لهم ان يختلوا نفوسهم او الغير اذ لاشيء ينطبق على الطبع البشري اكثر من هذا ولكن فضلاً من انهم لم يتمكنوا من ان يفتخروا بصنيع معجزاتٍ مشهورة او بحصر مذهبهم في حوادث مقررة يشهد لها اصحابهم بوجد ابدًا امر يشق عليهم ليس في وسعهم ان يستروه وهو امر حداثتهم . وهذا يبدي لدى كل بني الانسان ان قد انفصل مذهبهم وتابعوه والشيعة التي وطدوها عن هذا الجسم العظيم وعن البيعة القديمة التي اسسها يسوع المسيح حيث بطرس وخلفاؤه استولوا دائمًا على اول مركزٍ وجدهم كل المشيعين جالسين فيهِ . ولم يفتأ وقت الانفصال مقررًا حتى ان المبتدعين انفسهم لا يمكن لهم ان ينكروه ولا يجترئون ان يحاولوا الخروج من الجرثومة عينها بتسلسل لم يكن قد انقطع البتة . وبهذا يقوم وهن كل البدع التي ارتكبها الانسان . وما من احدٍ يمكن له ان يغير الاجيال الغابرة او يقيم له سلفًا او يزعم انهُ وجدهم اقتناء ان البيعة الكاثوليكية تستولي وحدها على كل الاعصار الفارطة باستقراء لا ينكر عليها لان الشريعة سبقت الانجيل ولم تكن خلافة موسى والاباء الا سلسلةً واحدة متصلة بخلافة المسيح . ومن جل صفاته التي تثق بها غاية الوثوق هي ان يكون ماناه مترصدًا .

وتعترف به ذرية تمكث الى انتهاء الاجيال لان يسوع المسيح هو امس واليوم والى مدى الدهر

وفضلاً عن ان البيعة المسيحية موطنة وحدها على اعاجيب الهية كتبت علانية غير مخشيٍّ عليه من ان تكذب في الوقت الذي حدثت فيه. فهناك اعجوبة اخرى تستمر في سبيل تعزيز اولئك الذين لم يكونوا في ذلك العصر. وهذه الاعجوبة تقرّر ما سواها من الاعاجيب وهي قائمة بتتابع الدين الذي لم ينفأ يفوز بالضلال الذي حاول ازالته وزد عليه نتيجةً اخرى هي نتيجة عقاب اليهود البادي المستمر لانهم لم يقبلوا المسيح الذي وعد به آباؤهم. ومع ذلك كله فلم يزالوا يترقبونه وانتظارهم الباطل جزء من عذابهم ويبدون بارتقابهم اياهُ انهُ كان دائمًا مستنظرًا ويفررون حنيفة الدين كانهم حاملون كل تسلسل الدين مرقوشةً على جباههم. وترى بلحظة كل من كان آنفًا فلماذا صاروا كما تراهم. والى اي شيء هم معدّون. وعليه فان اربع او خمس حوادث مقرّرة تفوق نور الشمس وضوحًا ابانت ان ديننا قديم كالعالم ويبدي تالي الزمان ان لا نشأة لها بغير خالق العالم القابض على كل شيء بيده وهو وحده وامكن له ان يباشر هذا المارب ويقيه الى الغاية في كل الاجيال

وبناء عليه لا يقتضي ان ياخذنا العجب كما يحدث اعتياديًا من ان الله يعرض على اعتقادنا مقدارًا كهذا من الاشياء اللائقة بشانه وهي تفوق قوة العقل البشري ويقضي علينا بان تاخذنا الدهشة من وجود اناس في العالم يعمون قلوبهم كي لا يامنوا بعد العلم ان الباري وطد الايمان على اسّ يتناهى في الوطود والراحة. فعلة هذا كله اهواؤنا المتمردة واستمساكنا بالحوادث وكبرياؤنا الشامخة ولهذا نؤثر ان نخاطر في كل شيء على ان نقسر نفوسنا على الرضوخ ونؤثر ان نغالي في الجهل على اقرارنا بالحق ونؤثر ان نرضي رغبتنا الفاحشة ونرعى في عقلنا المتمرد حرية الافكار في كل ما نشا على ان نرزح تحت اثقال السلطة الالهية

ومن ذلك ينجم ان قد يوجد عديد وافر من الذين لا يثقون والله يسمح بذلك لتعليم يانبه لانه لولا عمى القلوب والغائصون في لجة التوحش وغير المومنين الذين في حجر البيعة لما كنا نعرف صريحًا فساد طبعنا العظيم ولا الوهدة التي نشلنا منها المسيح. فلو كانوا لم يعارضوا حقيقته المقدسة لما كانت ابصارنا وقعت على هذه الاعجوبة التي

رعاها قسرًا عن كل المناقضات ولكنا نسينا اخيرًا اننا فزنا بالنعمة فالان عدم امانة البعض يحمل البعض الاخر على الضعة ويبدي المتمردون الذين يقاومون مارب الرب القدرة التي بها يتم مواعيده للبيعة غاضًا الطرف عن كل امر آخر

فما الذي نرتقب لنرضخ انترصد من الله معجزات جديدة يجعلها عديمة الافادة بتكرارها وان يحيط بها ابصارنا كما اعتادت على مسير الشمس وكل عجائب الطبيعة. فاننا ننتظر صمت الكفرة والعتاة. وان الصلاح والطلاح يعزيان معًا الرضوخ للحق. ويوشم بنو الانسان قاطبةً على اهوائهم واوطارهم. وان العلوم الفاسدة التي تطغي البشر بقوة حداثتها لا تستمر تداهيهم. الا يكفينا ان نرى البشر غير قادرين ان يقاوموا الدين الا باظهارهم بضلالهم المبين بطلان احكامهم. وان دفاعهم لا مسند لها الا الجهل والتكبر فالبيعة التي فازت بالاعصار والضلالة ليس في امكانها ان تظهر في عنفوانها على الحجج الزاهقة التي تستظهر بها على مقاوليها. ولا يمكن للمواعيد الالهية التي نرى تتميمها كل يوم ان تُصعدنا فوق المشاعر

ولا ينتقد الناس علينا بقولهم ان هذه المواعيد يتوقف تتميمها ولا يمكن لنا ان نفتخر بتتميمها الا بانتهاء العالم اذ انها تمتد الى نهايته. وعكس ذلك ان ما قد تم ينبئنا عما هو مزمع ان يتم وكل النبوات القديمة التي تمت بكل صراحة تبين لنا ان كل شيء سوف يتم وان البيعة التي لا يقوى عليها الجحيم حسب مواعيد ابن الله تمكث الى الابد والى انتهاء العالم لان المسيح الذي صدق بكل شيء لم يضع نهاية لكيانها

وهذه المواعيد عينها توكد لنا الحيوة المستقبلة لان الله الذي صدق بتتميم ما يناط في الزمان الحاضر لا يكون اقل صدقًا بتتميم كل ما يناط بالزمان المستقبل فكل ما نشاهده ليس سوى استعداد له وان البيعة سوف تكون على البسيطة غير مقموعة ومزعزعة حتى ان كل بنيها يجتمعون وتنتقل بهم برمتها الى السماء مثواها الحق

وقد اعد للذين هم خارج هذه المدينة السموية تبريح سرمديٌّ ولن يبقى لهم الا عذاب ابديٌّ اذ انهم فقدوا بجريرتهم سعادة ابدية وبناء عليه سوف تتم احكام الرب ومواعيده بحال لا يعتورها تغير وان وعوده صادقة وحقيقية وكل ما يتممه في الوقت يقرر ما يامرنا بامله او بالخشية منهُ في الابدية

فهاك ياسيدي ما بينتنا عنهُ تسلسل الحوادث الدينية كما رفع لديك بوجيز العبارة.

وبواسطة الزمان بقودنا الى الابدية فعثرت على نظام محكم في مآرب الرب وسمة سلطته البينة في استمرار شعبه وعلمت منه ان البيعة لها عضو دائم الوجود لا يمكن الانفصال عنه الا بهلاكنا وان الذين معتقلون بهذا العضو وقائمون باعمال لائقة بامانتهم يقررون لنفوسهم حيوة ازلية

فتحرَّ تسلسل حوادث البيعة التي توطد لديك كل مواعيد الرب واحكم على ان كل ما ينفصل عن هذه السلسلة ويزايل هذا الاستقرار وكل ما يرتفع بذاته ولا ياتي حسب المواعيد الممنوحة البيعة منذ ابتداء العالم مكروه . وافرغ ما عندك من الجهد لتجرَّ الى هذه الوحدة كل من يكون قد زايلها اغرِ الجميع بان يرضخوا للبيعة التي بها ينطق الروح القدس بنبواته

وان سوَّدد اجدادك ليس قائم بعدم تركهم اياها فقط بل بانهم قاموا بناصرها ايضًا واستأهلوا بذلك ان يدعوا بنيها الابكار . فهذا من اعظم القابهم المجيدة . وليس لي حاجة ان احدثك عن كلوفيس وكارلوس العظيم والقديس لويس بل اعتبر العصر الذي انت فيه ومن هو الاب الذي اراد الله ان تولد منهُ . وقد امتاز هذا الملك العظيم في كل امر بامانته اكثر من سائر صفاته الحميدة فتراه بدرأ عن الدين داخل المملكة وخارجها وفي اطراف العالم . والشرائع التي سنها هي من اعظم مترسات البيعة ولاتبان سلطتة الموقرة بسبب صفاته الشخصية وجلالة صولجان ملكه موطدةٌ باكثر احترام الاّ ادن مدافعتها عن حقوق الرب فذلك حجز عن سماعنا صوت التجديف واخذ الكفر يفرق خوفًا ولا ريب انه الملك الذي اوعز اليه سليمان مبدّد الشر بنظره وان كان نجم البدعة بكل هذه الوسائل اكثر ما صنع اسلافه . لا بما انه يخشى منها على عرشه لان السكينة احاطت الكل وطأطأ الجميع امام سلاحه غيرانه يحب شعبه ويعرف ان يد الرب اجلسته على عرشٍ ليس فوقه عرش . فيفهم من ذلك ان احسن وسائلٍ يقوم بها هو ان يستقدم سلطته ليشفي قروحات البيعة

فاقتفِ ياسيدي هذا المثل الصالح واستبقهِ لذريتك وانذرهم بالبيعة اكثر من هذه المملكة العظيمة التي حكمها اجدادك منذ اجيالٍ عديدة وان سراتك التي هي اجل ما يكون في العالم تكون اول مدافعة عن حقوق صمد يتهِ وتبسط في العالم اجمع ملك يسوع المسيح الذي يقيض لك ملكًا مجيدًا

الجزء الثالث

في الممالك

الفصل الاول

في ان تقلبات الممالك رتبها الباري عز وجل لتقمع تكبر الملوك

ان لم يكن شيء يضاهي تسلسل البيعة الحقيقية الذي اوقفتك عليه فمع ذلك ان تسلسل الممالك الذي قد عهد بي بسطها لديك لا تجدي منفعة لمن هو نظير جلالتكم من الملوك او للافراد الذين ينظرون في هذه المواضيع العظيمة اسرار العناية الصمدية

اولاً — ان هذه الممالك لها شديد الوثاق بتاريخ شعب الله لانهُ تعالى اتخذ الاشوريين والبابليين آلة للانتقام منه والفرس لنجاته وعوده الى اراضيه والاسكندر وخلفاءه الاولين للدفاع عنه وانتيوخوس ايبفان وخلفاءهُ لتعويده على احتمال الشدائد ثم الرومانيين ليدرأوا ملوك سوريا الذين لم يكونوا يفكرون الا باستئصاله لان بذلك رعاية حريتهم . ومكث اليهود حتى مجيء المسيح تحت شوكة الرومانيين . وبعد ان جحدوه وصلبوه اعانه الرومانيون على الانتقام الالهي دون ان يفكروا بذلك وجعلوا ذاك الشعب العتوق هباء منثورًا واذ ازمع الله ان يولف شعبًا جديدًا من كل الامم ضمَّ ملك الارض والبحر الى هذه المملكة واتخذ كل تلك الاتصالات المتباينة التي لم يكن لها رابط الى ذاك الحين وسيلة لنشر انجيله . فاذا كانت الدولة الرومانية قاست في هذا الشعب الجديد مدة ثلاثمائة سنة اضطهادات عظيمة فوطد هذا الجور اركان البيعة المقدسة وادى مجدها وايمانها وصبرها . وهكذا اقرت المملكة الرومانية بالرضوخ اذ وجدت ما فاقها ظفرًا وخضعت لهذه الكنيسة التي طالما كانت عرضةً للاضطهاد الشديد وكما ان القياصرة صرفوا اقصى جهدهم في اخضاع البيعة كذلك اصبحت رومية عاصمة المملكة الروحية التي اراد المسيح ان ينشرها في كل المسكونة

وبعد ان تزعزعت السلطة الرومانية واعتراها رغمًا عن وعدها لنفسها بالخلود ما

اعترى الممالك السابقة من الدثار اذ اصبحت فريسة للبرابرة لم تزل رومية على عظمتها ترعاينها للدين المسيحي لان الامم التي اغارت على المملكة الرومانية واستولت عليها اقتبست منها رويدًا رويدًا الدين المسيحي الذي الان عرائك رجالها ولم يجد ملوكها الذين خلفوا القياصرة ما يوليهم اكثر مجدًا من ان يدعوا محامين للدين المسيحي

وعلينا ان نطلع على غوامض الاحكام الالهية بالنظر الى المملكة الرومانية ورومية نفسها. وقد اوضح هذه الاسرار الروح القدس ليوحنا وهذا الرسول المنعم من روح النبوة والانجيل فسرها في رؤياهم فكان يعز على رومية ان تنبذ عبادة الاوثان جانبًا اذ شاخت وهي مستمسكة بها . وزيادة على ذلك فان مجلس الندوة كان يحسب محاماة آلهة رومالوس التي كان ينسب اليها انتصارات المشيخة القديمة مجدًا وفخرًا وقد سئم القياصرة من طلب هذا المجلس على ايدي مبعوثيه الغاء النصرانية وتشييد اصنامها لانه كان يحال ان درّ رومية عمَّا كانت عليه من الخزعبلات عارٌ يلحق بالاسم الروماني . ومن ثم لم يكن انذار الانجيل وغيره من النبوات الصادقة وارتداد المملكة قاطبةً الى النصرانية مع ملوكها الذين مهدوا الطريق الى هذا الدين كفوًا لردع هذه العصبة الشهيرة المنضوية على اعظم رجال رومية واشهرها خاصةً وعامةً عن غيها . ولم يكتفوا من ان يلحقوا بها عارًا ويبنوا اليها كل ما ألمَّ بها من الخطوب والرزايا . ولو كانت القياصرة تعتمد قمعهم لكانوا جدّدوا الاضطهادات القديمة . وكانت الامور دائرةً على محورها في الجيل الرابع اي السنة المائة بعد قسطنطين اذ تذكر الله الاحكام الدموية التي طرأت على المسيحيين . وفي الوقت نفسه هتف الشعب الروماني الرائع في مراسحهم عند مشاهدتهم دم المسيحيين فسلم هذه المدينة الظمأى لدم المسيحيين حسب قول يوحنا الحبيب الى البرابرة وانزل بها البلايا الذريعة التي اهبطها ببابل قصاصًا لها . ولذلك دعوا رومية بهذا الاسم . وهكذا سقطت بابل الجديدة كالقديمة وكان سقوطها عظيمًا لانها تسنت بالقديمة بازدهائها لدى الفوز وبافتخارها بالاموال والملاذ وتدنست مثلها بعبادة الاوثان وضهدت مثلها شعب الله . وانبأ يوحنا الحبيب عن دمارها مترنمًا فعريت اذ ذاك من المجد الذي نالته بفتوحاتها المنتمية الى آلهتها وامست مضغةً في وسكانها في افواه البرابرة الذين تبوئوها اربع سنوات بعد ان نهبوها وذهبوا برسومها ولم يعف البرارة الا عن المسيحيين ولم يتم انتصار المسيح الا بعد هجوم البرابرة فبرزت مدينة

مسيحية من دمار رومية القديمة وامست معابد الاوثان مضروبًا عليها سرادق النسيان بعد عفو رسومها

وعلى هذا فتسلسل الممالك عائد على الدين بالنفع وعلى شعب الله بالرعاية. وقد ابدى عز جلاله لانبيائه تسلسل هذه الممالك كما ابدى لهم حالة شعبه المختلفة . ورايت من هذه النبوات ما يشعر بقدوم بختنصر كانهُ رجل معد للانتقام من الشعوب المتناهية في الازدهاء ولاسيما الشعب اليهودي العاق وقبل ان ولد فوروش بثنتي سنة اشير اليه باسمه انه يكون ملكًا معدًا لارجاع شعب الله وقصاص كبرياء بابل . ومنها دثار نينوى المخبر عنه بنوع صريح وربما النبي دانيال اذ يبسط لدينا بوجيز الكلام كل ما يحدث لمملكة بابل والماديين والفرس والاسكندر واليونان ويوعز الى عتو انتيوخس ابيفان وقباحته والى ظهور شعب الله العجيب على هذا المضطهد اللئيم . ونتشوق فيها ايضًا الى هبوط هذه الممالك بالتتابع اما الملك الروحي الذي كان المسيح مزمعًا ان يشيده فاشار اليه بصفاته الخاصة كي لا يستطيع احد ان يشد عليه نكيرًا وهو ملك قدسهُ الله يثبت وحده خالدًا وان طرأ الدثار على باقي الممالك لانهُ ملك ابنه

وقد عرفنا من قول يوحنا احكام الله التي لم تخفَ عنا على اعظم مملكة هي مملكة الرومانيين وامست رومية كغيرها من المدن الشهيرة انموذجًا للعدل الالهي اذا هبط عليها نوائب مدلهمة الا انها لم يلحق بها ما الحق بغيرها اذ لم تفنَ الى الابد لان البلايا التي الم بها نقتها من بقايا الاوثان وهي الان قائمة بالدين المسيحي الذي تبشر به في العالم كله وعلى هذا النمط ترى ان كل الممالك التي مر ذكرها قد آلت الى نفع الدين ومجد الله كما اعلن ذلك تعالى الى انبيائهِ

وعندما ترى في تآليفهم ان الملوك يلجون الى حجر البيعة ويصيرون لها عضدًا يتبين لك من ذلك دليلٌ على انهُ تلمح الى القياصرة والملوك المسيحيين وبما ان اجدادك اشتهروا بالذب عن الكنيسة وبغيرتهم في نشر تعاليمها فلا يشق عليَّ بان اخصهم صريحًا بهذه النبوات

ولما كان في قصد الله اتخاذ هذه الممالك ذريعة يتذرع بها الى قصاص شعبه او هدايته او انتشاره او حمايته اراد ان يوضح انه مبدأ لهذه التدابير العجيبة اذ اعلن هذا السر لدى الانبياء. ولذلك مكنهم من ان يشيروا الى ما كان في عزمه ان يبرمه وقد

تنباوا عن مصير هذه المالك كما تنباوا عن تسلسل شعب الله الخاص اذ لها ارتباط سديد معهم لما هو في قصده

وليكن لديك بقيناً انه كلما اعتدت على استقراء هذه الحوادث العظيمة واعادتها الى مبدءها ياخذ بك العجب كل ماخذ لدى اطلاعك على هاته الاحكام من لدن العناية الالهية ويقتضي ان نقتبس منذ حداثتك هذه المعارف التي تنجلي رويداً في عقلك وتتعلم ان تعيد الى نظام الحكمة الالهية الامور الدنيوية المتعلقة بها

ثم انه تعالى برينا بهذه الامثال الشهيرة ما يصنع بغيرها رجاء ان يعلن لنا دائماً مشيئتة على ايدي انبيائهِ في ما يناط بالملوك والمالك التي يوطدها او يدمرها كما صنع بالمالك التي تكلمنا عنها ويعلم الملوك حقيقتين جوهريتين وهما انه منشأ المالك ومتيها لمن يشاء وانه مستخدمها لمقاصده في ما يناط بشعبهِ في الزمان والنظام المعينين وهذا ما يلزم الملوك ان يعتبروا انفسهم تحت سلطان مطلق ويجعلهم متنبهين لاوامر الله لكي يكونوا في كل فرصة تسنح لهم مضافرين ما يوول لمجده

اما تسلسل المالك وان اعتبرناه بنوع عاليٍ فيجدي نفعاً عظيماً المالك خاصة لان الكبرياء الملازمة لهذه المثابات السامية تسقط لدى هذا المشهد واذ كان مشهد موت الملوك يبعث النوع الانساني على ردع اهاليهم فكم بالاحرى يجب ان يوثر فيهم سقوط المالك عينها وهل في الامكان ان يبدي اباطيل العالم اكثر من هذه

وعندما ترى القياصرة والملوك والمالك التي مادت لها الارض تمر كلمح البصر وترى الاشوريين قديمين وحديثين والماديين والفرس واليونان والرومانيين يتساقطون بالتتابع ترى دوي سقوطهم يوضح ان لاشيء ثابت بين البشر وان التقلبات والاضطرابات هي من خصائص الامور الدنيوية

الفصل الثاني

• ان تقلبات المالك لها خصائص يجب على الملوك النظر فيها

ان تعقّل ما يناط بارتفاع المالك وهبوطها واسباب نجاحها وانحطاطها يبين لك ان هذا المشهد ازيد جداء واكمل عظمة . لان الذي هو مبرم ارتباط العالم ودائمٌ مع

عظم قدرتهِ ان يشيد النظام بان تتعلق بعض اجزاء هذا المجموع ببعضها . اراد هو نفسه ان يكون لمجرى الامور العالمية تسلسلاً وتناسباً وذلك انه اقتضى ان يكون مناسبة بين صفات الشعوب والامم والمثابات السامية التي اعدّت لهم . وهكذا لايحدث تغير عظيم دون علة انفت في الاجيال الفارطة عدا تلك الضربات الخارقة العادة والنظام الطبيعي اذ يريد الله ان برينا عمل يده وحدها

وبما ان لكل الامور ما يقوم بابرازها ويبعث على اجرائها ويعود عليها بالنفع والجداء فمعرفة التاريخ قائمةٌ بامعان النظر في النظامات المكنونة التي هيّأت الانقلابات العظيمة وفي الحوادث الخطيرة التي كانت سبباً لحدوثها

ولا يكفينا ان نرنو الى الامام اي ان نتمعن في هذه العوارض التي تنبي بغتةً امر المالك بل ينبغي للمرء ان يتوخّى الامور ويتشوّف الى الشوون العالمية ان رام كمال معرفتها وعليه ان يتفحص الاميال والعوائد ولاسيما خصائص الشعوب المالكة عموماً والملوك خصوصاً وكل مشاهير الرجال الذين كانوا سبباً لانقلاب المالك والهيئة الاجتماعية بارتفاع مقاماتهم في العالم الى ذرى المجد والسيادة

وقد افرغت من الجهد كثيراً رجاء ان استدرجك من هذه الافكار المهمة المدرجة في اول جزء من هذا الخطاب . وقد امكن لك ان تطلع على اخلاق الشعوب والرجال العظام الذين تولوا امورهم . وقد ابنت لك الحوادث التي كانت ذات مفعول في المستقبل اهملت ملاحظات خاصة ذات نتائج قليلة الاهمية وذلك لانبه افكارك الى النظر في تسلسل الامور العالمية العظيمة التي وددت لو افهمك اياها خاصةً

وبما انّا مررنا بسرعة على حوادث شتى لم نعرها من الفكر جانباً حسب مقتضاها لتعلقنا بتسلسل الامور فعليك الان بان تنتبه خصوصاً الى هذه الحوادث وتعوّد عقلك ان يبحث عن المفاعيل في عللها القاصية . وهكذا تقتبس ما هو ضروري المعرفة حتى انه اذا لم تنظر الا في هذه الاتفاقات الخاصة بان ان المقادير وحدها ابهت تشييد المالك وخرابها واما اذا توخينا الامور عموماً فنرى انه يحدث غالباً ما يحدث بلعب الميسر اذ يستظهر اللاعب الماهر على خصمهِ بطول المدة . وواقعيّ الامر ان ذاك هو الذي استدرك الامور عن بعدٍ واهتم اكثر من غيره وادمن زماناً طويلاً على اشغاله العظيمة وقصارى الكلام انه القى بنفسه الى اشد الورطات والمخاطر . وان رعاية ذاته

في هذا اللعب الدموي الذي حدثت به الشحناء بين الملوك على الملك والسلطة هي مربحة في النهاية حتى انه استقدم الاقدار لتتميم مقاصده

فلا يعلق بك فتورٌ ان تبحث عن علات الانقلابات العظيمة حيث لا شيء يؤول الى تثقيفك مثل ذلك ولكن ابحث عنها خاصة في تسلسل الممالك العظام التي توضحها كثيرًا الحوادث العظيمة

الفصل الثالث

في السيثيين والحبش والمصريين

اني لا اعدّ هنا بين الممالك العظيمة مملكتي باخوس وهرقل اللذين افتتحا الهند والشرق فليس بتاريخها شيء يسيرٌ من الثقة ولا بافتتاحها تتابع واننا نكل امر مدحها الى الشعراء الذين جعلوها موضوعًا حملوا عليه حكاياتهم . واني لا اتعرض لذكر مملكة ماد المذكورة في تاريخ هيرودوت وهي تضاهي بامور كثيرة مملكة هنداتيروس المذكورة في تاريخ ميغستان ومملكة تيناوس الموما اليها في تاريخ يوستينوس وقد شادها هذا الملك زمانًا وجيزًا في اسيا الكبرى . فالسيثيون الذين تولى عليهم هذا الملك قيادة الحرب قد طووا من الارضين شيئًا كثيرًا ومع ذلك فلم يقوموا بفتوحات تستلفت اليها نظرًا ولم يكن ولوجهم مملكة الماديين وقمعهم اهلها واستيلاؤهم على هذا القسم الذي عليه توطدت احكامهم الا بما قدرلهم الزمان من ملاقاة السياريين . ولم يملك هولاء الفاتحون الا ثماني وعشرين سنة . وقد قضى عليهم طمعهم وكفرهم وتوحشهم بفقدان اسيا فبعد ان نزعوها من ايدي سياكسار بن فاراهرات ظهر عليهم وطردهم . وكان ذلك مبنيًا على الخداع اكثر منه على القوة فانه لاذ باحد اطراف مملكته التي اهملها الظافرون او بالاحرى لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها وتربص هنالك صابرًا مرتقبًا الزمان الذي به يثير هولاء الفاتحون قبسة البغضاء العامة ويلقون بايديهم الى التهلكة بسبب عدم نظام حكمهم . ويوجد في تاريخ استرابون اسم ملك الحبش المدعو تياركون فقد نقله هذا المولف عن ميغستان ويدعوه الكتاب المقدس طارق وهو الذي القى رعبة اسلحته في العالم كله في زمان سنشاريب ملك اثور ووصل بفتوحاته

الى عواميد هرقل التي على شواطىء افريقية واجتاز من ثمة الى اوربا ولكن ماذا الذي افوه به عن ملك لا يذكر عنه المورخون الا ببعض الفاظ ولم يكن اتساقٌ لتسلطه. واما الحبشيون الذين تولوا زمان الامر وقتئذٍ فينبئنا عنهم هيردروت انهم كانوا ذوي باسٍ وهيا كل اجسادهم كبيرة وعقولهم ثاقبة لكنهم لم يعتنوا كثيرًا بتثقيفها بل كانوا يثقفون كثيرًا بقوى اجسادهم وبشدة اذرعهم وكانوا يتخيرون ملوكًا بالاقتراع ويجلسون على العرش الملوكي من كان اكبر جسمًا واعظم قدرةً . ويتمكن كلٌ من معرفة سجاياهم والحكم عليها بحادثٍ رواه لنا المورخ هيرودوت وهو انه لما بعث اليهم ملك الفرس كامبيز سفراء يتجسسون عندهم ويخدعونهم واصحبهم بهدايا يتهادى بها الفرس وهي امتعة من ارجوان واسورة من ذهب وروائح عطرية هزئوا كل الهزء اذ لم يجدوا فيها شيئًا يعود على الحيوة بالجداء والمنفعة وابهوا السفراء اذ اتخذوهم جواسيس كما كانوا حقًا . غير ان ملكهم رام ان يسدي الى ملك الفرس هديةً حسب مرغوبه فاخذ بيده قوسًا كان احد الفرس يكاد لا يستطيع حملها ولا يستمكن من ان يوترها فاوترها هو نفسه بحضور السفراء وقال لهم : هذه هي النصيحة التي ينصح بها ملك الحبش لملك الفرس . فمتى استطاع الفرس ان يستعمل قوسي التي هي كبيرة وصلبة هكذا بسهولة قمت بها انا فليأتوا الى مناصبة الحبش ويجرّون عساكر ازيد من عساكر الملك كامبيس ومتى نالوا هذه البغية فليودوا الشكر للالهة التي لم تخول الحبش الرغبة في امتداد شوكتهم خارج امصارهم

واذ قال ذلك حل القوس وطرح بها الى السفرا . ولا يمكن لنا ان نقف على نتيجة هذه الحرب الا ان كمبيس غضب من ذلك وهرول الى بلاد الحبش كانه معتوه دون نظام او تروي في العواقب فهلك عسكره جوعًا في البادية قبل ان يدنو من العدو . ومع ذلك فلم تكن شعوب الحبش عادلة كما كانوا يتباهون ولم يكونوا محصورين في بلادهم فان المصريين المجاورين لهم قد اختبروا مرارًا قوة اسلحتهم وعرفوها . ولم يكن اتساق في امور هذه الامة الوعرية . وان تكن الطبيعة قد ابدت فيها بداءة بدء شعائر حسنة فمع ذلك لم تنجز قطُّ ما بدأت به . وبناء عليه لا نرى بين اولئك الشعوب الا اشياء قليلة يمكن لنا ان نستخدمها ونجري على مثالها فلنقتصر عن التكلم عنها ونلمع قليلاً عن الشعوب المهذبة

فان المصريين هم اول من وجدت عندهم اصول الاحكام فان هذه الامة الرصينة قد عرفت غاية السياسة الراهنة التي من مبادئها ان تجعل المعيشة غضة والشعوب سعيدة . وان حالة هواء البلاد غير المتغيرة قد جعلت العقول ثابتة لا يعتريها اضطراب وبما ان الفضيلة هي الركن لكل هيئة اجتماعية فقد اتقنوها بكل اعتناء وكان مصدر فضائلهم معرفة الجميل وان الموَدّد الذي اناله الناس اياه لمغالاتهم في معرفة الجميل اكثر من جميع البشر يوخذ منه انهم يودون الالفة . فالجميل وثاق يرتبط به الاتفاق الخاص والعام . وان من يعرف الاحسان يود ان يوليه احدًا فاذا ساد النفل استمرت الملاذ بعمل الحسنى خالصة حتى انا لا نرى ذريعة تصدنا عن الشعور بها . فشرائع المصريين كانت ساذجة منعمة عدلاً وهي الوسيلة التي تجعل الاتحاد سائدًا بين الوطنيين . فمن جل مبادئها ان رجلاً استطاع انقاذ غيره من مخالب الهجمات ولم يفعل ذلك عوقب موتًا بصرامة يجازى بها القاتل الجاني . واذا لم يستطع انقاذ الصعلوك من ورطة فعليه ان يبذل الجهد في البحث عن فاعل الجريرة معه وقد عينوا حدودًا لمن لا يتم هذه الفرائض فلذلك كان الوطنيون يتراعون . وكانت كل المملكة متالبة القلوب على الاشقياء وكل من بنيها مقسورًا عليه ان ياتي بامر يعود عليها بالمنفعة والشريعة تعين لكل مهنة التي تثبت له وراثة من الاب الى الابن ولم يكن في وسع احدٍ ان يتقلد بمهنتين ولا ان يغير حرفته . وكانت الحرف كلها ذات حرمة وكرامة . وقد اقتضى الامر ان يوجد مصالح ومخاص متفاوتة كما انه اقتضى ان يكون في الجسمان عيون لا يكون ضياؤها علة لانتهان الارجل واعضاء الجسم الفعلي فهكذا كان للكهنة والعساكر بين المصريين سمات اكرام خاصة . وكانت الحرف كلها خطيرة وحقيرة منظورًا اليها بعين الاعتبار والناس يخالون انهم لا يستطيعون ان يحتقروا وطنيًا ان لم يكن اقترف جريمة مهما كانت اعماله بشرط ان تؤول الى النفع العام . وبهذه الوسيلة كانت كل الفنون زاهرة حائزة كال الاتقان وان الشرف الذي كانوا يتطوقون به كان ممتزجًا بكل شيء . وكانوا يصنعون احسن ما كانوا يترصدون صنيعة فعاودوا ذلك كثيرًا وتمرنوا عليه منذ الصغر . ولكن كان لهم شغل عام وهو درس الشرائع والحكمة . وان من كان يجهل الديانة ونظام البلاد لم يكن معذورًا من العذل مهما كانت احواله . ومع ذلك فكانت كل مقاطعة لها مهنة منوطة بها . ولم يكن يحدث

ادنى انزعاج في بلد سعتها ليست كبيرة وكان النكسالى لا يمكن لهم ان يعثروا على قطعة من الارضين يتوارون بها اذ يرون هذا النظام الحسن . وكان كل شخص يتعود على رعاية اعظم هذه الشرائع الحسنة وكلما بدت عادة جديدة كانت كانها اعجوبة في مصر لانهم كانوا دائمًا يصنعون الشيء نفسه وكانوا يحتفظون الاشياء الكبيرة بسبب الدقة التي يقومون باحتفاظهم الاشياء الحقيرة ولهذا ليس قطر كمصر ثبت شعبه على رعاية عوائده وشرائعه زمانًا طويلاً . وان نظام الاحكام كان يضافر على تخليد هذا المبدا ووقع الاقتراع على ثلاثين قاضيًا من المدن الاصلية التاموا جمعية تسود على المملكة وتقضي عليها . واعتاد الشعب الا يرى على هذا المنصب الا اعدل اهل البلاد واكملهم وكان الملك يعين لهم دخلاً كافيًا حتى اذا عتقوا من ارتباكات امر المعيشة قضوا اوقاتهم كلها في ان يجعلوا الشرائع مرعية . ولم يكونوا يخصون انفسهم بشيء من الدعاوى اذ لم يخطر لهم ان يجعلوا العدل حرفة لكسب المال . وحذرًا من الخديعة كانت الاعمال مسجلة ومدونة في هذه الجمعية وكانوا يقلعون عن الفصاحة الافكة التي تعمي القلوب وتثير الشهوات ولم يكن من الممكن ايضاح الحقيقة الا بنوع خالٍ من الزخرفة . وكان رئيس المجلس يتزين بطوق من ذهب وحجارة كريمة يتدلى منه على صدره صورة تدعى الحق وكان تقلده بذلك دليلاً على ابتداء المجلس ومن كسب دعواه لدن المرافعة كان يضع عليه الرئيس الصورة علامة لاصدار الحكم ومن وسائل المصريين لحفظ قواعدهم القديمة انهم كانوا يصنعون لها بعض احتفالات بكل تروٍ ورضوخ . ولم تسع لهم اخلاقهم الرضية ان تضحي كاحتفالات ساذجين لم يكن لها اعمال وكان سلوكه حسنًا كان المجلس يغض الطرف عن فحصه عنه فحصه الصارم ولكن كان في مصر نوع من الحكم غير اعتيادي لم ينج احد منه . فمن قضي عليه بشرب كاس المنون واسمه معتبر عند قومه كانت له بذلك تعزية كبيرة . فذلك امر وحيد من الامور الدنيوية لا يستطيع الموت سلبه ولم يكن متاحًا في مصر ان يرثى الموتى سواه فيقضي ابراز حكم عام ليتأتى الحصول على هذه المأثرة الخطيرة . وعند القضاء على رجل بالموت كانوا ياتون به للمحاكمة فثمة كان المدعي العمومي يصدر الدعوى فاذا كان في امكانه ان يبرز دالة بينة على ان مسراه كان سيئًا عوقب ذكره والى اولاة الامر ان يدفنوه وحظروا ان يقام له ضريح . وكان الشعب يتعجب من سلطة الشرائع التي لا تزايل المرء حيًا او ميتًا وكان

كلٌّ بفرَقٍ من ذلك يروعه هتك ذكره وعائلته واذا لم تثبت على الميت جريرة كانوا يدفنونه بكل تكرمةٍ واحترام وكانوا ينظمون له رثاءً لايذكرون فيه شيئاً من مولدهِ وكانت كلُّ مصر شريفة ولم يكن فيها احدٌ ينال اطراءً من المدح ان لم يكن اهلاً لذلك

وكلٌّ يعلم كم كان المصريون يحتفظون اجساد موتاهم فنرى الى الان اجسامهم المحنطة . وكانت معرفة الجميل نحو اقاربهم غير زائلة وكان الابناء اذا نظروا اجساد جدودهم يتذكرون فضائلهم التي اقر بها الشعب العام ويستفزُّون لمحبة الشرائع التي يتركونها لهم . ولمنع العارية التي منها يتولد الكسل والخداع وانتزاع امر الملك اشيس بان لايتاح لاحدٍ ان يستعير حاجةً الابشرط ان يرهن المستعير جسد ابيه عند المستعار منهُ ومن لم يسترجع هذا الرهن الثمين سريعاً يقضى عليهِ بان يكون ارتكب عاراً وكفراً وكان كل من تزهق روحه قبل ان يقضي هذا الغرض المهم يحرم من الجنازة والدفن

وكانت المملكة تنتقل بالارث والملوك مقضياً عليهم ان يسيروا حسب الشرائع اكثر من غيرهم وكان بعض الشرائع خاصة سنها احد الملوك وهي قسمٌ من الكتب المكرسة ولم يكونوا يشاحنون الملوك اولهم الحقُّ بان يقسروهم ويضيقوا عليهم . بل كان الشعب يحترمهم ويكرمهم كالالهة فان العيشة القديمة نظَّمت الامور كلها فلم يكن يخطر للرعية ان يعيشوا مخالفين اجدادهم وكانوا يحتملون بلا مشقة تعيين كمية اللحم ومقدار الاكل والشرب اذ كان من الامور الاعتيادية في مصران يكون الجميع متقشفين . والمناخ يحملهم على القناعة وكانت كل ساعاتهم معدَّة لاشياء يصنعونها فاذا هبوا من النوم بكرةً قرأوا التحاريرهم اذ العقل يكون وقتئذٍ صافياً والافكار رائقة صريحة فيتأتى لهم اذ ذاك تصوُّرٌ جليٌّ احقُّ في اشغالهم التي ينهمكون فيها

ولدن ارتدائهم البستهم كانوا يذهبون الى الهيكل لتقدمة الضحية وهناك اذ كانوا يحاطون بخدمهم والذبائح على المذبح كانوا يحضرون الصلوة المتلوة حكمة فيطلب ثمة الكاهن من الالهة ان تهب الملك الفضائل الملوكية اعني ان يكون متعبداً للالهة لطيفاً نحو الصالحين خطير النفس صادقاً صافياً مبتعداً عن الكذب حراً ضابطاً ذاته معاقباً اقلَّ من الذنب ومجازياً اكثر من الاستحقاق وبعد ذلك يتكلم الحبر عن الزلات التي يمكن ان يسقط بها الملك ولكنهُ كان يفترض ان الملوك لاتقع بها الابالخديعة اوالجهل ويلعن الوزراء الذين كانوا يقدمون لهم النصائح السيئة ويخفون عنهم الحق . وهكذا كانت طريقة تعليم الملوك وكان الاناس يخالون ان التثريب يغيظهم وان الوسيلة التي لها الفاعلية في

تلقينهم الفضيلة هي ابانة ما يتوجب عليهم بمدائح تنطبق على الشرائع يتلفظ بها بكل احترام امام الالهة فبعد الصلوة والتضحية كانوا يتلون امام الملك في الكتب المقدسة نصائح الرجال العظام وافعالهم ليحكم مملكتهُ حسب قواعدهم ويحفظ الشرائع التي جعلت اسلافه ورعاياهم سعداء

والدليل على ان هذه النصائح كانت تصنع وتسمع بكل احترام هو لانها كانت ذات مفاعيل راهنة . فبين التيابيين اي بيت السلالة الملوكية الاصلية حيث الشرائع كانت مرعية بكل دقة وكانت متسلطة على الكل كان الملوك اذ ذاك اثبت الناس واعظمهم برعايتها والمركيريان اللذان اخترعا العلوم والترتيبات المصرية كانا من ملوك تيا وكان احدها قريباً من زمان الطوفان والاخر المدعو (ترسيماجيست او عظيماً ثلاث مرار) كان معاصراً لموسى وقد استفادت كلُّ مصر من تعاليمهما وهما اللذان كانا بافادتهما سبباً لان تحصل تيبا على ملوك اتقياء قليلين وكان الناس يعفون عن الملوك الاردياء مدة حياتهم لابقاء الراحة العامة ولكنهم لم يكونوا يتقاعدون عن اصدار الحكم عليهم بعد موتهم وكان بعضهم يحظر دفنهُ غير ان من كان يقتدي بهم قليلٌ . ومع ذلك فان اغلب الملوك كان الشعب يودهم كثيراً حتى ان كلاً كان يذرف الدموع على فقدانهم كانه يبكي على ابيه اواولاده وكانت عادة الحكم عليهم تبدو كانها مقدسة لدى شعب الله بنوع انه قد استمرَّ على ممارستها . واننا نرى في الكتاب المقدس ان الملوك الاشقياء كانوا يمنعون من الدفن في لحود اجدادهم . وينبئنا يوسيفوس ان هذه العادة استمرت الى زمان المكابيين وكانت تعلم الملوك انه اذا كانت السلطة رفعتهم عن الحكم البشري مدة حياتهم فانهم يجازون به لدن مساواة الموت اياهم بسائر الناس

وكانت عقول المصريين جانحةً الى الاختراع غير انهم كانوا يستخدمونه للشؤون المفيدة وكان المركيريان اللذان حكماها قد ملاء مصر من الاختراعات العجيبة ولم يتركا الناس يجهلون شيئاً مما يجعل الحيوة سهلةً . اما انا فلا اترك للمصريين وحدهم المجد الذي اولوه اوزيريس بكونه اخترع الفلاحة لان هذا الفن قد وجد في كل الازمنة في البلاد الكلدانية من الارض التي انتشر الجنس البشري ويظن انه اخترع منذ انشاء العالم وان المصريين يجعلون زمن اوزيريس في الاجيال الخالية اذ يبدو جلياً انهم قد خلطوا زمانه بابتداء العالم وقد راموا ان ينموا الى ذاك الزمان اموراً كان اجلها قبل كل الازمنة المعروفة

بتاريخهم لكن ولو كان المصريون لم يخترعوا الفلاحة وسائر الفنون التي نراها قبل الطوفان فقد اتقنوها غاية الاتقان وافرغوا الجهد في سبيل تجديدها بين الشعوب الذين قد انساهم اياها توحشهم وليس مجدهم بذلك أقل مما لو كانوا اخترعوها . واخترعوا فنونا كثيرة الاهمية ليس في امكاننا ان ننكرها عليهم . وبما ان بلدهم لم تكن متشعبة وسماؤهم كانت صافية لا تتخللها غيوم كانوا اول من راقب سير الكواكب ونظم حساب السنين وهذه الملاحظات قد اوصلتهم الى علم الحساب . واذا كان ما يقوله افلاطون صحيحًا من ان الشمس والقمر علما البشر معرفة الاعداد اعني انه بدىء بالحسابات المرتبة بحساب الايام والاشهر والسنين . فان المصريين هم اول من صنع ذلك وقد عرفوا ايضًا السيارات وغيرها من النجوم ووجدوا هذه السنة التي جلبت السماء الى جدبها والجئوا الى معرفة علم مسح الارض رجاء ان يعرفوا اراضيهم التي كانت مياه النيل تغشيها واتصلوا بذلك الى الهندسة وكانوا يراقبون الطبيعة مراقبةً حسنة وكانت قوية وغزيرة بينهم بسبب الهواء الجيد والشمس الحارّة وهذا ما جعلهم ان يخترعوا الطب ويتقنوه فبذلك كانت كل العلوم لديهم خطيرةً جدًّا . وان مخترعي الاشياء المفيدة كانوا يحصلون قبل موتهم وبعده على جزاء تستحقه اعمالهم . وهذا الذي جعلهم ان يعتبروا كتب المركريين مقدسةً وجعلوها كانها كتب الهية . فاول شعبٍ حاز المكاتب هو الشعب المصري وان ما تقلدوه من الالقاب بعث الناس قاطبةً على المسارعة الى ولوج الامصار المصرية والبحث عن مكنوناتها وكانوا يدعونهم كنوز ادوية النفس فان النفس كانت تشفي بها الجهل الذي كان فيها مرضًا عياء وجرثومة كل الادواء . وان الامور التي كان لها المقام الاول في عقول المصريين هي اعتبار الوطن والجنوح اليهِ وكانوا يقولون ان الوطن هو مسكن الالهة التي حكمت فيهِ احقابًا كثيرة غير معينة وكان الوطن انشأ ارهاطًا كثيرة وحيواناتٍ متباينة ترويهنّ مياه النيل مع ان سائر الارضين كانت عقيمة . واما الكهنة الذين كانوا يكتبون تاريخ مصر مع توالي الاجيال غير المحدودة ويلتونها حكاياتٍ وانسابًا الى الهتهم فكان قصدهم من ذلك ان يرسخوا في عقول الشعب قدمية بلادهم وشرفها ومع هذا فان تاريخهم الحق كان متضمنًا حدودًا راهنة ولكنهم ارتأوا ان يغالوا في فسحات شاسعة من الزمان الذي يدينهم من الازلية ولذلك كانت محبتهم للوطن لها الاس الوطيد وكانت مصر اجمل بلاد العالم واخصبها

ارضًا واتقنها بلدًا بفنونها واغناها شعبًا واغضرها معيشةً واحسنها محلاً واعظمها ملوكًا

وكان كل امر من اعمالهم ومقاصدهم عظيمًا ويعسر تصديق ما قاموا به في نهر النيل فان المطر لا يهطل في مصر كغيرها من البلدان ولكن هذا النهر الذي يسقيها بفيضانه المنظم يقوم مقام الامطار والثلوج التي تتساقط في غيرها من البلدان

وقد ادخلوه مصر باقنية لا تحصى طويلة عريضة جدًّا . وكان يبني قوى الارض بمياهه النافعة ويوصل المدن ببعضها ويقرن البحر الكبير بالبحر الاحمر ويرعى التجارة داخل المملكة وخارجها ويقوّيها على مكافحة العدو وكان مقيتًا للبلدان ومحاميًا لها . وكان الناس يغادرونه يسغ في البوادي غير ان المدن كانت مترفعةً عنه باعمالها الغريبة كأنها جزائر في وسط المياه ترى وهي رفيعة كل الحقول مغمورة بمياه منه تحييها . ولما كان يفيض بنوع خارق العادة كانت البحيرات العظيمة التي انشأها الملوك تمد افواهها الى ان تزدرد مياهه المنتشرة وكان قد هيىء مصرفٌ لهذه البحيرات التي كانت تفتحها وتقفلها سدودٌ لدن اقتضاء الحاجة . ولم تكن المياه تستمر على الارض الّا ريثما تجعلها مخصبة . وهكذا كان استعمال البحيرة العظيمة التي تدعى بحيرة ميريس اوموريس وهو اسمٌ للملك الذي امر بانشائها . وتعتري الدهشة كلًّا من الناس عند شعوره ان قد كان لهذه البحيرة مائة وثمانون فرسخًا امتدت من ناحية ليبية لئلا تلم بالارض الجيدة خسارة لدن حفرها . وكان الملك يكتسب من الصيد شيئًا كثيرًا . ولما كانت الارض تنبت شيئًا كان الناس يتخذونه كنوزًا يغمرون عليها المياه وكان ثمة هرمان على كل منهما عرشٌ عليه شخص عظيم الجثة احدهما تمثال ميريس والاخر تمثال امرائه وكلاهما يرتفع ثلاثمائة قدم فوق ماء البحيرة ولها الطول نفسه تحت غمرات مياهها وذلك من الادلة على انهما انشئا قبل ان يمتلىء جوف البحيرة . وان الناس انشئوها رحيبة في عهد ملكٍ واحدٍ . ومن لا يعرف الى اي حدٍ يمكن تدبير الاراضي وتوفيرها يحسب ان ما يقال عن تعداد مدائن مصر اقاصيص وحكايات . ولا يمكن ان يصدق ما هي عليه من الغنى ولم يكن وقتئذٍ مدينة غير مفعمة من الهيا كل العظيمة والقصور الشامخة . وكان فنّ البناء يبدو في كل ابنٍ سموّ شرفه البسيط والعظمة التي تملأ العقول وتدربها وكانوا يبسطون في سرادقات كبيرة التماثيل والنقوش التي كان اليونان يتخذونها قواعد وكانت تيبه تباهي اجل مدن العالم . وان

ابوابها المئة التي انشدها اوميروس الشاعر كان الجميع يعرفونها وكانت كثيرة السكان مقدار ما كانت رحيبة . وقد قيل ان عشرة الاف محارب يخرجون اسواء من كل باب لها . وان يكن في هذا القول مغالاة فان شعبها كان عسر الاحصاء وامتدح اليونان عظمتها وكبرها لما رأوا دثارها لعظمة الاثار التي كانت فيها

ولا مراء ان سواح عصرنا لو وصلوا الى ذاك المكان حيث كانت تلك المدينة موطنة لكانوا عثروا على اثار لا ضريب لها بين طلولها لان اعمال المصريين من شانها ان تقاوي الزمان والخطوب المدلهمة. فكانت تماثيلهم تضاهي الاجرام الجسيمة وعواميدهم شتى شاهقة .وكانت المملكة المصرية تدأب في البهاء والعظمة وترغب في ان تدهش عن بعدٍ الابصار مع انها كانت تقر بروية هندامها وقياساتها المحكمة

واكتشف الناس في الصعيد هياكل وقصورًا لم تزل الى الان في حيز الوجود بها عواميد وتماثيل لا تحصى ومما يبعث على الحيرة والدهشة قصر لم تستمر طلوله الى الان الا لازالة مجد الاعمال العظيمة كافة

فاربعة من الاروقة الشاهقة المزينة على كلا الحدين بابي الهول المولف من مادة نادرة بعظمة جرمها هي كمعابر لاربعة ابواب تحير الافكار بسموها ، فيا ما ارحبها واعظمها . وان الذين وصفوا لنا هذا البناء العجيب لم يقبض لهم الزمان آنًا يجولون فيه حوله وليسوا على اثبات من روية جانب منه ولكن كل ما رأوا منه مذهل وغريب. فاحدى القاعات المشيدة في وسط هذا القصر الباذخ كانت مركزة على ستة وعشرين عمودًا يحيط بثخن الواحد منها اثنى عشر ذراعًا ومنتسبة الكبر الا انها ممتزجة بـ..الات صادمت الدهر ولم يستطع اهباطها وما زالت الالوان قائمة بين اثار هذا البناء الغريب وحافظة الى هذا الان حدتها وجمالها الاول طالما كانت مملكة مصر تطبع ا..ا الها سمة الخلود . وبما ان الان قد ذهب في العالم اسم الملك لويس الرابع عشر وذاع في كل الاقطار البسيطة وهو يعد بعيدًا المباحث التي يتخذ منها اجمل اعمال الطبيعة ....ن امسى من متبادر الامران يكون ذلك موضوعًا يليق بهذه الرغبة السامية اي ان نكتشف المحاسن المطمورة طي قفار بلاد الصعيد وان تزيد في هندسة ابنيتنا باختراعات المصريين . فما الشوكة او ما هو الفن الذي استطاع ان يصيّر هذه البلاد اعجوبة العالم . واذا رأينا هذه الامور الغريبة في البلدان القاصية فماذا الذي عسانا ان نراه في العاصمة

وانما على مملكة مصر وحدها ان نقيم مآثر فاخرة مخلدة فلم تزل مسلاتها الى هذا اليوم اجمل زينة في مدينة رومية سواء كان بزهائها او بارتفاعها . وقد آيست السلطنة الرومانية من مضاهاة المصريين وحسبت انها تزيد فخرًا على فخرهم اذا تسنت بمآثر ملوكهم . ولم تكن مملكة مصر قد شاهدت من الابنية الشاهقة سوى برج بابل اذ ابتدعت الاهرام التي نالت بهيئتها وعظمها راية الظفر بالاجيال والبرابئ . وان ذوق المصريين السليم حداهم منذ ذاك الزمان الى مجرّد ود المكانة والنظام في الفن. اليست الطبيعة تووب من تلقاء نفسها الى هذه الهيئة البسيطة التي يشق على البشر جدًا العود اليها اذا ما افسد الذوق حب الطرق الجديدة والاقدام الغريب ومهما كان من الامر فان المصريين لم يبودوا سوى اقدام مرتب لانهم لم يطلبوا اختراعًا ولا طريقًا الا في هيئة الطبيعة المتنوعة وتفننها غير المحدود وطالما افتخروا انهم وحدهم هم الذين ابدعوا كالالهة اعمالاً خالدة . ولم تكن الكتابات التي على الاهرام اقل اعتبارًا من هذا الصنيع نفسه . وكانت كانها تناجي الناظرين اليها واحدهن المبني من الآجر كان يحذر الجميع من مقايسته على غيره وانه بسمو علوًا على سائرهن كما ان المشتري يتعالى على جميع الالهة الا انه مهما اجهد البشر نفوسهم فلا يلبث ان يبان وهن قواهم وعدمهم في كل ابن . وكانت هذه الاهرام رموسًا غير ان الملوك الذين شادوها لم يكن من سلطانهم ان يلحدوا فيها وهكذا لم يتمتعوا بالحصول على لحودهم

ولم يكن من دأبي ان اتكلم عن القصر البهي المدعو لابيرنتلو لم يثبت لنا هيرودوت انه يفوق الاهرام جدًا . فانه شيد على ضفة بحيرة ميريس ومنح منظرًا موافقًا لعظمه وعدا ذلك لم يكن قصرًا واحدًا بل لفيفًا من القصور البهية تعدادها اثنا عشر قصرًا متصلة بعضها على غاية النظام.وكان يكتنف ذلك الف وخمسماية قاعة ممتزجة بالسطوح منتظمة حول اثنتي عشرة حجرة لا تبقي مخرجًا لمن رام دخولها قصد الزيارة وكان بقدر ذلك ابنية تحت الارض مهيأة لان تكون رموسًا للملوك ومكانًا لعبالة التماسيح المقدسة التي قد سجدت لها هذه الامة الفائقة بنور الحكمة الطبيعية .ومن يمكن له ان يرى ذلك ولا يعتريه خجل بل يتوكأ على عمه العقل الانساني .

فلربما تاخذك الدهشة ياسيدي عندما ترى كذا عظمة في رموس المصريين. ففضلا على انهم شادوها بان تكون آثارًا مقدسة لتري الاجيال المستقبلة ذكر الملوك العظام

وبجدهم يحسبونها ايضاً كثاوي سرمدية . فمن الحق ان الديار غدت فنادق يقطنها المسافرون ابدًا يقضون بها حبوةً وجيزة لاتتيح لهم بنوال جميع مرغوباتهم وانما الديار الحقيقية هي الرموس التي ازمعنا نحن ان نقطنها مدة احقاب شتى

ومن المقرر ان كدح المملكة المصرية لم يكن مقصورًا على الجامدات بل كان جل اهتمامها متوقفًا على تثقيف البشر . وقد ايقن اليونان كثيرًا ان رجالهم الشهيرين كهوميروس وفيثاغوروس وافلاطون وليكوركوس نفسه وسولون المشترعان الشهيران وكثيرون غيرهم ليس هنا موضع بسط الكلام عنهم ذهبوا فاكبوا على تعلم الحكمة في مصر ورام الله ان يتروى ويتثقف على حكمة المصريين لانه شرع بذلك يكون قديرًا قولاً وعملاً لان الحكمة الحقيقية تتقدم كل شيء والله لايرغب في ان الذين يوحي اليهم يهملون الوسائل الانسانية الناشئة عنه تعالى على وجهٍ آخر

وقد درس حكماء مصر السياسة التي تجعل العقول ثاقبةً مكينة والاجسام قوية البنية متينة والنساء كثيرات النسل والاولاد اقوياء اشداء وبهذا كان الشعب ينمو وتزيد قوته وعدده

ولا ريب ان البلاد سليمة طبعًا الاَّ ان الفلسفة علمت اهلها ان المرء لابدَّ له من ان يضافر الطبيعة ويكون مظهرًا لها . ومن البين ان قد يوجد فن تثقيف الاجسام كما وجد تثقيف العقول وقد عرف الاقدمون جيدًا هذا الفن الذي اسدل لنا عليه جلباب التواني بعد ان اتصل اليه المصريون . ولقد طالما مارسوا القناعة ولاسيما الاشغال في سبيل هذه الغاية المأثورة . ففي احد مضامير المعارك العظيمة التي شاهدها هيرودوت عيانًا تبين ان جماجم الفرس كانت سهلة الثقب وجماجم المصريين صلبة جدًّا تحاكي الصخور التي حولها فذلك يدل على رخاوة جيش الفرس وقوة المصريين وبطشهم اللذين يتأتيان عن القناعة والاشغال الشاقة . وقد أُجري في مصر بجارةٍ عجيبة السير على الارجل والخيول والعجلات ولم يكن في البسيطة كلها اناسٌ جديرون بامتطاء الخيول كالمصريين . واما إشعار ديودوروس ايانا بانهم ابوا الكفاح بان يكون غريبًا يجلب قوةً مخطرة سريعة الزوال فيوعز به الى كفاح المصريين المتجاوز الحد الذي عابه اليونان وتخذوه غير لائق بالاحرار مع انهم توّجوا في ملاعبهم الفائزين مرارًا . الاَّ انه يليق باهل المكرمة اذا اجري بعدالة . واشعرنا ايضًا ديودوروس نفسه ان مركور اله المصريين

ابتدع اصوله مع فن تثقيف الاجسام . فعلينا ان نصيخ ايضًا لما يقوله هذا المؤلف نفسه فيما يناط بفن الموسيقى فقد امتهن المصريون كثيرًا الموسيقى المؤدية الى الرخاوة واحسبوها ذريعةً لنزع الشجاعة من الابطال وقالوا ذلك يؤدي بهم الى التخنث والرخاوة وحقيقة الامر ان هذا الفن العظيم يرفع قوى العقل ويطرب الفؤاد بالحانه المتسقه وليس من الحق والصواب ان يانف منه المصريون . فقد روى العلامة ديودوروس نفسه ان قد اوجده الههم مركور وقد ابدع ايضًا رهم آلات الطرب . وفي احتفالاتهم وهم حاملون اسفار تريسماجيست كان يسير المرتل في مقدمتهم وبيده رمزٌ الى الموسيقى (لا علم لي به) وكتاب التسابيح . وخلاصة الامر فان المصريين لم يجاحوا افكارهم شيئًا من شانه ان يهذب العقل ويرفع شان القوا دو يقوي الجسم وكانوا يقومون برواتب اربعماية الف جندي رعاية لابناء وطنهم الذين طالما تعوّدوا التمرينات الحربية وقد كانوا يحفظون شرائع الجندية بكل سهولة او بالاحرى كانت الطبيعة تخولهم ذلك فان الآباء كانوا يلقونها على بنيهم علمًا بانهم مزمعون ان يخلفوهم بالمهن الحربية كما يخلف الابن اباهُ في سائر الوظائف وكان القوم المتشحون برداء الجندية منظورًا اليهم بعين الاحترام والكرامة بعد ذرية الاحبار وكانوا يسمون شرفًا على سائر المخلوقين كما في بلادنا . وليس من دابي الحكم على المصريين انهم كانوا في غابر الزمان امةً حربية فجمعهم الجنود المنظمة كان امرًا زهوقًا وكانت ممارستهم الاعمال الحربية ومعاودتهم صورة الحروب عبثًا . انما لا يصير الناس جنودًا ممتحنين بالمواقع الاَّ في المعارك الحقيقية وطالما ودّ المصريون السلام لانهم كانوا يودون الانصاف ولم يكن لهم حاجة للجنود الاَّ للمدافعة عن انفسهم فلذلك لم يفكروا قط في ان يؤججوا نيران الوغى قصد الافتتاحات بل كانوا يكتفون بما هو لهم وبما يخصب علالهم . وقد امتدت مملكة مصر من جهةٍ أُخرى وبعثت نحلات الى جميع الامصار انتشرت بهم الشرائع والآداب وتوافدت سكان المدائن الشهيرة على مصر ليتفقهوا فيها ويتعلموا عوائد اهلها القديمة ويجرعوا من ينابيع ادابهم الحميدة واستشاروهم كثيرًا في اصول الحكمة وذلك لما عزم سكان اليديا على تشييد ملاعب الالومبياك التي هي اشهر ملاعب اليونان بعثوا بارسالية حافلة يطلبون بها تصديق المصريين عليها معهم وتلقفوا منهم وسائط حديثة لالقاء البسالة في افئدة المحاربين . وقد استولى المصريون بحكمتهم زمانًا وبانت الشوكة لديهم اعظم من مملكة توطدت اركانها بصليل الاسلحة

وقوى الجنود واما ملوك تاب وان كانوا اقوى من ملوك مصر كافة فانهم لم يحملوا قط على الممالك الدانية . ومن سواغية الامر ان يقال انهم سلبوها من ايدي الاجانب لانهم استولوا عليها قسرًا عن ارادة قاطنيها والحال انهم فاقوا سموًا على جميع الفاتحين بما اخذوا يفخون . ولست دائبًا في كلامي الى اوزيرس هازم الهنود فمن المقرر انه باخوس نفسه او احد الابطال المنوه بهم في الاقاصيص المروية فابوسزوستريس سواء كان علمه بميل غريزي او بحث خلق او بسلطان هاتف كما يزعم المصريون قد ازمع على ان يصير ابنه من اشهر الفاتحين فشرع كعادة المصريين اي بالافكار السامية وامر ان ياتوه الى القصر الملوكي بجميع الصبية الذين ولدوا في اليوم الذي ولد فيه سزوستريس فاعتنى بتثقيفهم وتدريبهم كاولاده وكان يقيتهم على مائدة واحدة بجانب سزوستريس فاشربهم الصفات الحميدة ولهذا لم يكن له وزراء امينون ذوو حمية لدن اخطار القتال نظيرهم . ولما طعن في السن حنكهم بفن الحرب اذ اضرم على العرب نار الوغى فالتجأ هذا الشاب حينئذٍ ان يكابد شدة الجوع والظماء وارزح تحت نير شوكته هذه الامة المتوغلة في العصيان الى ذاك الحين وبعد ان عاود الاشغال الحربية باقدامه على هذه الفتوحات وجه ابوه افكاره نحو غربي بلاد مصر فهجم على اقليم ليبية وارضخ تحت نيره قسمًا عظيمًا من هذه البلاد الشاسعة . وفي ذلك الوقت عبثت به براثن الردى وتركه اهلاً لمباشرة كل ما يرغب فيه فصمم في فكره ان يفتح العالم باسره الأ انه قبل ان يزايل مملكته استدرك الامان داخلها وملك افئدة شعوبه بسخائه وعدله وجعل الاحكام في نظام تام بحصافته العظيمة ومع ذلك فقد كان يتأهب لمصادمة الاعداء فجيش الجيوش واقام عليهم قادةً الشبان الذين رباهم والله معهُ على مائدة واحدة وكان عددهم ينوف على الف وبعماية كلهم جديرون بان يلقوا الحماسة والبسالة وروح النظام ومحبة الملك في قلوب الجيش كله . ولما اتمَّ ذلك على هذا الاسلوب دخل بلاد الحبش واغرى الحبشيين بان يودوا له الجزية وهكذا ادمن على الفوز في اسيا . واورشليم هي المدينة الاولى التي شعرت بدءاة بدء بباس جنوده ولم يستطع رحبعام الجري الى مقاواته بل سلب منه سزوستريس خيرات ابيه سليمان وامواله فهكذا قضت العناية الالهية للملك الشرير عقابًا اليمًا ثم اقتفى سزوستريس بلاد الهند اكثر من هرقل وباخوس ووصل الى اكثر ما وصل اليه فيما بعدُ الاسكندر العظيم لانهُ البلاد فمع التي وراء نهر الكنج ومن ذلك يمكن لك ان تستنتج

هل قاومت البلاد الدانية عزه . فتغلب على السيتيين حتى نهر التنايس لان بلاد ارمينية وكبادوقيه رضخنا لاوامره ونواهيه فترك نحلة في مملكة كولكوس القديمة حيث عوائد المصريين لم تزل ثابتة ومستمرة الى هذا الحين . وقد راى هيرودوت في اسيا الصغرى اثار ظفره من بحر الى آخر مع كتابات فاخرة بشان سزوستريس ملك الملوك وسيد السادات

وقد وجد منها في اقليم تراسا ايضًا . وامتدَّت مملكة سزوستريس من نهر الكانج الى نهر الطونة وانما صعوبة المعيشة صدت عن اقتراء بلاد اوربا فعاد بعد تسع سنوات من سفره يثقله جميع الشعوب الذين ارهقهم بالغنائم والانعام فمنهم من دافع ببسالة عن استقلالهم وحريتهم واخرون سلموا دون ادنى مقاومة وقد صرف العناية سزوستريس بان يوعز في اثاره وتواريخه الى البون بين هولاء الشعوب باحرف رمزية تدعى (ابروغليف) حسب عادة المصريين وقد اخترع الرسوم الجغرافية برسم عليها مملكته واقام ماية هيكل شهيرة توطدت في سبيل تسبيح الالهة الذائدة عن المدائن وجعل جلَّ ذلك مقصورًا على تذكار فوزه واعلنت بكتبات ان هذه الاعمال العظيمة قد نجزت دون ان تعنَّي رعاياها وكان يعد من سودده ان براعيهم وان لا يهمك في آثار فوزه سوى الاسرى . وقد اقتفى بذلك انموزج الملك سليمان فلم يستخدم هذا الملك الحكيم في الاعمال العظيمة التي خلدت اسمهُ وذكرى ملكه سوى الشعوب المستعبدين والمودين الجزية لحكومته . على ان الرعية أُعدت لاعمال اخرى اعظم واشرف فكانوا يتعلمون فن الحرب واصدار الاوامر للجندية ولم يستطع سزوستريس ان يقتني اثارًا اعظم من ذلك فتربع في دست احكام مصر ثلاثة وثلاثين حولاً وتنعم بانتصاره زمنًا طويلاً . ولو لم تعثهُ الكبرياء على ان يجعل الملوك الذين قمعهم يجرون مركبتهُ لكان اهلاً لكل مجد وفخر . ومن البين انه انف من ان يموت كسائر الناس . ولما امسى لدن شيخوخته اعمى انتحر وغادر المملكة المصرية لثروة وفيرة ومع ذلك فلم تبلغ مملكته بعد موته النسل الرابع الا انه بقي منها الى عصر طباريوس قيصر اثار مفتخرة تدل على عظمتها وسعة دائرتها ان المملكة المصرية عادت فورًا الى ما كانت عليه من طبعها وهو الرغبة في السكينة حتى انهُ كتب ان سزوستريس كان اول من اوهن عزائم المصريين بعد فتوحاته خشية من وقوع العصيان وبناء عليه لم يتخذ هذه الوسيلة الا كاحتياط على خلفائهِ . فانهُ

لم يكن يخشى من شعوبه باسًا فانهم كانوا يودونه ويخرون امام عظمته سجدًا نظرًا لما انطوت عليه سجاياه الحميدة من الحكمة والحلم ولذلك لم يكن هذا الفكر لائقًا بملك اخذت منه العظمة والمهابة كل ماخذ ولو لم يكن كذلك لكانت مغادرته بسالة رعاياه في حيز الوهن ضربًا من عدم استدراك الوسائل الكبرى لتوطيد اركان فتوحاته . ومن المقرر ايضًا ان هذه المملكة العظيمة لم تثبت مطلقًا . ولامندوحة للانقراض في اي وجه كان لان روح الانقسام والتشعب اخذا يتمددان في بلاد مصر . وقد اغار ساباكون الحبشي على هذه المملكة في عهد الملك انيزيس الاعمى فعامل الشعب بالرفق والمودة وقام بشئون خطيرة لم يبلغ اليها احدٌ من الملوك الوطنيين فلم يرَ ابدًا اعتدالٌ كاعتداله لانه بعد ان مضى خمسون عامًا من حكمه السعيد عاد بالميمن الى بلاد الحبش انقيادًا لاوامر بعض الناصحين له فذلك امرٌ خالة الهامًا من لدن الالهة . ومنذ ذاك الحين هبطت المملكة بايدي سائون كاهن فولكان المعروف بالبرُ والتقى الا انه قليل المعرفة عديم الخبرة في الامور الحربية . وقد اهمل قوى الجندية اذ عامل الجيوش واهل الحرب معاملة سيئة ومنذ ذاك الحين لم يعضد المملكة المصرية سوى جنود اجانب ومن ثم امتدت في مصر بلايا عظيمة فان المصريين تخيروا لهم اثني عشر ملكًا يقتسمون بينهم الحكم وهم الذين بنوا الاثني عشر صرحًا التي تتالف منها اللابيرنت وان تكن المملكة المصرية لم تدل على عظمتها القديمة ذيل النسيان فقد امست واهنة القوى وتشعبت في عهد هؤلاء الملوك الاثني عشر واصبح احدهم المدعو بساماتيك ملكًا باعانة الاجانب له فقامت به المملكة واستمرت عزيزة قديرة مدة خمسة او ستة احكام ملوك . وقصارى الامر ان هذه المملكة القديمة بعدان مكثت نحوًا من سمّاية عام اضعف ملوك بابل وملوك الفرس قواها وامست فريسة لكمبيز الذي هواغبى من الملوك طرًا

ان الذين عرفوا جيدًا اخلاق المصريين استدلوا انهم لم يكونوا امةً حربية . وقد اوعزوا انقًا الى علة ذلك لانهم قد عاشوا في الطمانينة نحوًا من الف وثلاثماية سنة لدن بروز الملك الفاتح الشهير اعني به سزوستريس فهكذا قسرًا عن ارادة جنودهم المرعبين بعناية جزيلة راينا اخيرًا ان قومهم كانت قائمة بالجيوش الاجانب وهذا من اعظم الاوهام والمعائب التي يمكن للمالك اقترانها . لكنما الامور البشرية ليست ابدًا على كمال

ومن الامور العسيرة الوصول الى ذروة الكمال في فنون السلام والفوائد الناجمة عن الحرب ولكن ليس من الجد الطفيف استمرار هذه المملكة ستة عشر جيلاً وقد حكم في مدينة تاب بهذه الفترة بعض الحبشيين ومنهم ساباكون وتاراكا حسب ظن الاكثرين الا ان المملكة المصرية تخذت هذه الافادة من تقويم حالتها المنظمة وقوانينها المرتبة غير ان الاجانب الذين افتحوها غادروا عوائدهم جانبًا وتسننوا بعوائدهم . وعلى هذا لم يكن المصريون يفتقدون حكومتهم بتغير ملوكهم وحكامهم . وقد شق على مصر احتمال الفرس وابوا الرضوخ لنيرهم الثقيل الا ان المملكة لم تكن ذات بطش وصولة كما انفنا لمناواة هذه السلطة القديرة بقوة جيوشها . وقد التجأ اليونان ان يهلوها لانها كهم في امر آخر. وطالما امدوها بالاغاثة سلفًا وذادوا عنها وكانت تسقط دائمًا في عهد ولاة ملوكها الاولين الا انها استمرت مستمسكة بعوائدها القديمة وامست غير جديرة بان تسلو احكام ملوكها الاقدمين وشرائعهم ومع انها تمسكت بامور كثيرة على عهد تيولماوس وخلفائه فان اختلاط عوائد اليونان والشرقيين كان عظيمًا جدًا حتى انه لم يبق امتياز بين عوائدهما وعوائد المصريين القديمة

فلا نسلونّ اذًا ان ازمنة ملوك مصر القدماء غير محققة حتى في تاريخ المصريين انفسهم لانه يشق علينا ان نجد محلاً للملك اوزيمندياس الذي نرى منه آثارًا عظيمة ينبئنا ديودوروس عنها وادلة ساطعة على حروبه ويلوح ان المصريين لم يكونوا يعرفون اباسزوستريس الذي لم يذكره هيرودوت وديودوروس وان شوكته تبان من الاثار التي في العالم اكثر من تواريخ وطنه وهذه الحجج وغيرها تبين لنا انه لا يقتضي ان نصدق كلما روته لنا المملكة المصرية بشان قدميها كما كان يخال البعض مع انها هي نفسها لا تعرف ازمنة ملوكها الذين ملكوا ناصية الشهرة اكثر من غيرهم

الفصل الرابع

في الاشوريين القدماء والحديثين والماديين وقورش •

ان مملكة المصريين العظيمة تعتبر كانها منفرزة عن غيرها وليس لها استقرار متصل كما ترى وما بقي علينا ذكره هو اكثر تحقيقًا وتواريخه اشد يقينًا •

ومع ذلك فلم يبقَ علينا الا اشياء وجيزة محققة تناط بمملكة الاشوريين الاولى وبوجيز الكلام نقول : في ابي اين شاوءوا ان يعينوا مبدأها اتباعًا لآراء المؤرخين المتباينة جاء نينوس لما كان العالم مجتزئًا الى ممالك شتى حقيرة امراؤها ينهمكون في ان ينظروا الى ذواتهم اكثر من ان يزيدوا قوة واذ كان يفوق من يدانونه في القوة والجراءة اضنكهم قومًا بعد قوم واقصى انتصاراته جدًا في ناحية المشرق . ثم ان امرأته سامراميس التي احرزت في المطامع المنوطة بها غالبًا بجنسها مما لا يوجد اعتياديًا بهنّ ثبتت افكار بعلها الرحيبة واتمت توطيد هذه المملكة

فلا ريب انها كانت عظيمة . وكبر نينوا الذي يفوق كبر بابل كما يزعم البعض يوضح ذلك جليًا . ولكن بما ان المؤرخين المدققين لا يذهبون الى ان هذه المدينة قديمة كما يبديها لنا غيرهم لا يحكمون انها عظيمة بمقدار كهذا . فلو كانت قديمة ورحيبة تطبيقًا لقول المؤرخ الافّاك كتازياس ومن له الثقة بكلامه يعلم ان الممالك الصغيرة التي يقتضي لنا ان نقايسها عليها تستمر زمنًا طويلاً . ومن المحقق ان افلاطون الراغب في البحث عن الاشياء القديمة والنظر اليها يضع مملكة ترواده على زمان بريام تحت ولاية سلطنة الاشوريين لكنه لا يرى شيئًا من هذا في مؤلفات اوميروس الذي كان عليه ان لا يهمل حادثة كهذه لما في قصده ان يسمي مجد بلاد اليونان ، ويمكن الوثوق بان الاشوريين كانوا معروفين قليلاً في جهة المغرب لان شاعرًا كهذا عالمًا محبًا للبحث عن الشؤون ليزين اشعاره من كل ما من شانه ان يناط بموضوعه لم يذكرهم فيها ابدًا

ومع ذلك فحسب التعداد الذي رايناه اكثر موافقة للصواب نقول ان زمان حصار ترواده كان اعظم عصر الاشوريين اذ تمت فيه فتوحات سميراميس التي لم تنتشر الا في جهة المشرق فان الذين يصانعونها كثيرًا جعلوها تحصر اسلحتها في هذه الارجاء فانها شاركت نينوس في مقاصده وانتصاراته ثمة لان جوستين الذي يغالي في مديحه يجعله ينهي فتوحاته من جهات الغرب على حدود لبيه

ولا علم لي في ايّ آن اتصلت نينوا بفتوحاتها الى ترواده اذ يُرى ان نينوس وسميراميس قاما بشيء مثل ذلك . وجميع خلفائها عاشوا في وهن عظيم منذ ولدها نينياس ولم يقوموا الاّ باعمال نادرة جدًا حتى ان اسماءهم كادت لا تصل الينا . ومن العجب ان مملكتهم امكن لها القرار مع اننا لا نثق بسعتها . ولا ريب ان فتوحات

سزوستريس انقصتها كثيرًا . ولما كانت هذه الفتوحات قصيرة وليس لها من خلفائه مسندٌ آل بنا الامر الى ان البلدان التي ملّصوها من ايدي الاشوريين وهي معتادة على احتمال سلطتهم تكون قد آبت اليهم طبعًا حتى ان هذه المملكة استمرت ذات شوكة عظيمة متمتعةً بالراحة والسكينة الى آن ابدى فيه ارباس رخاوة ملوكها المدمنين على التواري في زوايا قصورهم ولم يفض الامر بسرداناپال الى ان يكون محتقرًا فقط لدى الرعية بل قضى عليه الامران يكون غير مطاق .

ولقد شاهدت الممالك التي خرجت من دثار مملكة الاشوريين وهي التي منها مملكتا نينوا وبابل . فملوك نينوا استمسكوا بلقب ملوك اشور وكانوا يزيدون غيرهم قوة وباسًا لكنّ كبرياءهم كانت متجاوزة كل حدٍّ لانهم افتتحوا مملكة اسرائيل او السامرة ولم يدرأهم عن ان يقمعوا مملكة يهوذا في ايام حزقيا الملك الاّ يد الرب ومعجزاته ولم يعد يعلم في اي حيّز يمكن ان تحصر شوكتهم اذ فازوا عما قليل بمدينة بابل التي تدانيهم وهي التي كلت فيها قوى السلالة الملوكية

واما بابل فكان بدوانها لم تبرز الا لتستولي على اقطار البسيطة طرًا والدليل على ذلك ان شعوبها كانوا على جانب عظيم من سداد الراي والبسالة وكانت الفلسفة والعلوم بينهم رياضًا دانية القطوف ولم يكن في الشرق كله جنود تحاكي جنود الكلدانيين وكان الناس يعجبون في الاعصار القديمة من نضارة هذه البلاد التي جدبت باهال قاطنيها حراثتها . وحداها خصبها الى ان تكون في ايام ملوك فارس القدماء قسمًا ثالثًا للمملكة وبناء عليه فملوك اشور افتخروا وتعظموا من زيادة مملكتهم بانضمام هذه المدينة المثرية اليها فباشروا اذ ذاك مقاصد جديدة . وفكر بختنصر الاول ان مملكته لا تكون جديرة به ان لم يؤل اليه العالم قاطبةً . ورام بختنصر الثاني الذي فاق سلفه سموًا بعد ان فاز فوزًا غريبًا وفتح فتوحات مدهشة ان الرعية تؤدي له عبادة الواحرى من ان يحكم كملك . فاية صنعة لم يقم باعبائها في بابل واي اسوار واي ابراج واي ابواب واي صيانة لم يباشرها . وقد لاح ان برج بابل القديم اوشك ان يتجدد بعلو هيكل باعال وان بختنصر اراد ان يتهدد ثانيةً السماء وان تكن يد الرب اهبطت كبرياءه فمع ذلك خامرت رؤوس خلفائه فانهم لم يتأسوا على احتمال سلطة من يدانونهم فعولوا على ان يرضخوا العديد الاوفر تحت نير عبوديتهم ولذلك انف

منهم المجاورون واصبحوا يضيقون عن احتمالهم ذرعًا فألّب عليهم الحسد ملوك ماد والفرس وقسمًا عظيمًا من شعوب المشرق لكنما الكبرياء تحوّلت بسهولة الى القسوة . وبما ان ملوك بابل كانوا لا يحسنون معاملة الرعية غادرهم السواد الاعظم منها وسادات عظام وانحازوا الى قورش والماديين لكنما بابل المعتادة على التسلط وقمع الاعداء لم تبال بتألب هولاء الاعداء المكاشحين لها . بيدَ انها بعد ان كانت تخال ان لا تعمل بها ايدي القهر والغلبة امست اسيرة بايدي الماديين الذين كانت تزعم انها تنكلهم اي تنكيل ثم التفت بها كبرياؤها الى وهدة الهلاك

واما نصيب هذه المدينة فكان غريبًا فقد دثرت بعملها فان نهر الفرات كان يبدي في سهولها الشاسعة ما كان يبديه نهر النيل في سهول مصر . ولكي يجعله الناس سهل الاستخدام اقتضى الامر ان يفرغ في شأنه شغل وعناء اكثر مما استعملته مصر في سبيل النيل فانه كان يجري على خط مستقيم ولم يكن له كالنيل فيضان فلذلك اقتضى ان يصنعوا في البلاد كلها اقنية جمة ليتمكنوا من ان يسقوا منه الارضين التي زادت في نشأتها هذه الوسيلة فاصبحت غضرة نضرة . ورجاء ان يخففوا زئير مياهه الهائجة لجؤوا ان يقيدوا مجراه باقنية متفاوتة وينشؤوا له بحيرات كبيرة زانتها ملكة حكيمة بهاء غريب فان نيتوكريس والدة لابنيت الملقب بنابونيد او بلشصر ملك بابل الاخير هي التي قامت باعباء هذه الشوون الخطيرة . غيرانها همت بان تبدي امورًا اعظم من ذلك فانها رفعت على نهر الفرات جسرًا حجريًا لتضم طرفي المدينة اللذين كان يفصلهما عرض النهر المتزايد فاقتضى الامر ان تنضب مياه نهر كبير كهذا بتحويلها الى البحيرة العظيمة التي كانت تلك الملكة قد حفرتها ولدن ذلك اقامت الجسر المهيأة مواده المتينة وكست ضفتي النهر خزفًا من اسفل الى حدٍ متناهٍ من العلو وغادرت له درجات مكتسية خزفًا ايضًا ومزينة بشغل حسن يضاهي شغل اسوار المدينة . فالجهد في هذا الصنيع كان يضارع عظمته عجبًا الا ان هذه الملكة الحكيمة لم يطرق ذهنها انها كانت بهذه الوساطة تعلم اعداءها كيف يمكنهم الاستيلاء على المدينة فان البحيرة التي حفرتها تخذها قورش وسيلة لان يحول اليها ماء النهر لما ايس من ان يخرب بابل بقوته او بالاجاعة ففتح من جهتي المدينة سبيلاً اشارت اليه الانبياء

فلم تعتقد قط بابل انها زائلة كسائر الاشياء العالمية ولو لم تستأثر بذاتها استيثارًا

تبعث على الضلال لما رماها الله في حيز التعالي ولما عسر عليها استدراك ما فعله قورش . لان عملاً كهذا كان على وشك الحدوث وكادت توقع بالفرس برعايتها جميع المخدرات غير انهم لم ينهمكوا بسوى الولائم والملاذ ولم يكن فيهم نظام او رئاسة صدّق عليها وبذلك تدثر الاستحكامات والقلاع والممالك القوية فامتدّ الخوف في كل اين وزهقت روح الملك الشرير واراد كزينوفون الملقب بملك بابل الاخير ان يوعز بتولو الى بلشصر الذي اراناه اياهُ دانيال معاقبًا بسقطة تبعث الرائين على العجب العجاب

واما الماديون الذين قوّضوا مملكة الاشوريين الاولى فقوّضوا الثانية ايضًا لكن هذه الامة اقتضى لها ان تكون دائمًا مناقضة لعظمتهم الان قبيلة الفرس الراضخة لاحكامهم نالت ببسالة قورش الكبير فوزًا عظيمًا في هذه المرة الاخيرة

وحقيقة الامر ان الفضل في ذلك لهذا البطل الذي قد ربي بالصرامة والنظام حسب عادة الفرس وهم الشعوب الذين اخذوا وقتئذ يكبّون على التنعم والفساد وقد اعتاد قورش منذ لدونة الحداثة على معيشة قشفة وحربية . ولقد كان الماديون ينهمكون بداءة بدءٍ في الاشغال والعكوف على اصلاء نيران القتال فاعتراهم الوهن لكثرة تنعمهم واصبحوا مفتقرين جدًا للحصول على قائد كهذا فتخذ قورش غنامًا ويهيب اسمهم في المشرق مظهرًا له وعنادًا الا انه كان يبني امل نجاحه على الجنود الذين قادهم من بلاد فارس فنتل في اول موقعة ملك بابل وكسر الاشوريين فطلب الظافر مبارزة الملك الجديد واذ ابان شدة باسو ابدى انه ملك حكيم شديد الحرص على دماء رعيته واقرن السياسة بالشجاعة . لانه خشية من ان تدثر تلك البلاد الخصيبة التي كان يعدها غنيمة باردة بعث الفريقين على ان يعفوا عن الحراثة ثم انه اثار حسد الشعوب الدانية على دولة بابل المتكبرة التي اوشكت ان تفترس الممالك طرًا وقصارى الامر انه احرز تحت اعلامه الفخر الذي اقتبسه بحلمه وعدله وقوة السحر وبهذه الامور الخطيرة اخضع لسلطته هذه الامصار الشاسعة من الارض التي فرّع منها مملكته

وبذلك ارتفعت هذه المملكة فصيرها قورش قوية جدًا حتى اصبح من الامور الواجبة ان تزيد في ايام خلفائه ولكن اذا شئت ان تفهم علة دثارها وجب عليك ان تقابل الفرس وخلفاء قورش باليونان ولا سيما الاسكندر

الفصل الخامس

في الكلام عن الفرس واليونان والاسكندر

ان الذي افسد عوائد الفرس كامبيز بن قورش فابوه الذي نشأ وقت اصطلاء الفتن والحروب لم يهتم في تهذيب خليفته الذي كان مزمعًا ان يخلفهُ على ولاء مملكة عظيمة كما هذب هو نفسهُ . ومن المقدر على الامور البشرية ان ارتفاعًا عظيمًا يضر بالفضيلة اما داريوس بن استاب الذي تدرج الى العرش الملوكي من الحالة العامة فابدى خصالاً حميدة في ممارسة السلطة واهتم في اصلاح البلابل الاان الفساد كان قد صار عامًا وان النظارة كانت قد افسدت في العوائد كثيرًا ولم يرعَ داريوس لذاته كفوءًا من القوة ليتمكن من اصلاح غيره فاخذ الفساد ينمو في عهد خلفائهِ وتخلَّل الفرس فات كل الحدود

ولم يبرح الفرس على بعض انواع العظمة والشرف وان يكونوا قد فقدوا كثيرًا من فضائلهم القديمة بتهمكهم في الملاذ بل حافظوا على شيء عظيم ذي بال . وهل يمكن ان يرى اشرف من الالفة التي كانوا يصوبونها على النفاق الذي كان لديهم تثريبًا وعيبًا مشينًا . ومن الامور الممتهنة عندهم بعد الكذب ان يكون الانسان ذا دينٍ فعيشة ذياك المرء كانت تبدو لديهم باعثةً على الوصمات والمعائب ممتهنةً بمقدار ما كانت تبعث على الكذب ثم انهم كانوا يعاملون الملوك المدحورة بالتوءدة والوقار وذلك كرمٌ مغروس في سجايا سراتهم ولقد كانوا يغادرون بني هوءلاء الملوك يقضون في بلادهم بكل خصائص عظمتهم اذا كانوا قادرين ان يواطئوا الفائزين

وكانوا على جانبٍ عظيم من الرزانة كرامًا على الغريبين لهم الخبرة في استخدامهم يعتبرون اهل الاستحقاق ولا يتقاعدون عن استخدام الوسائل في سبيل امالتهم اياهم اليهم . لكن من الثابت انهم لم يصلوا الى غاية معرفة الحكمة التي تعلم كيف يحكمون فان دولتهم العظيمة لم تنفتأ مضطربةً طول ايام حكمهم ولذلك لم يستطيعوا ان يجدوا ذلك الفن العظيم الذي قد استخدمهُ منذ ذاك الوقت الرومانيون وهو ان يحرزوا جميع اجزاء المملكة ويصيروها مجموعًا كاملاً

ولهذا لم يمكثوا زمنًا مديدًا دون خصام وان كان فيهم شيءٌ كثيرٌ من النظام فانهم كانوا يعرفون قواعد الانصاف والعدالة . ومن ملوكهم من اجتهد في رعاية الشرائع بكل دقة فكانوا شديدي العقاب على الوصمات والجرائم ولفرط عدالتهم تراهم اذا غفروا لاحدٍ ذنبًا ثم آب اليه بعد المغفرة ارهقوه عنابًا اليمًا فكان لهم قوانين شتى حسنة اكثرها نص قورش وداريوس بن استاسب وقواعد يتوكئون عليها في الحكم ومشورات مرتبة يستظهر وبها وترتيب عظيمٌ في الوظائف جمةً . ولما كانوا يقولون انَّ العظام الذين بالفنون المشورة هم اعين الملك واذانه كانوا يوعزون بذلك اليهم اي ان وزراء الملك تضاهي اعضاء الجسد فكما ان الاعضاء لاتبدي امرًا لذاتها بل اعمالها مصروفة في سبيل خدمة الجسد هكذا الوزراء فانها لاتقوم بامرٍ غير مقصور على خدمة الملك الذي هو راسها وخدمة كل المملكة فهوءلاء الوزراء يقتضي ان تكون لهم الخبرة بجميع قوانين الحكومة القديمة . والسجل الذي كانوا يحفظون به الحوادث الخالية كان دستورًا الذريتهم يقيدون فيه كل الخدامات التي قام بها كل فردٍ خيفة ان يبقى دون مجازاة لان ذلك تثريب على الملك وعار على الدولة وكان من عوائدهم المأثورة انهم يبعثون الافراد على صنع الخير العام اذ يعلمونهم ان من فرائضهم ان لايضحوا نفوسهم لنفوسهم بل للملك والمملكة فكان الملك يصرف عنايته في سبيل نجاح الحراثة ولذلك فان من كان في عهدته ذلك الفن وكانت ولايته متقونة بهِ اكثر من غيرها كان الملك يوثره على غيره بالمنة والانعام الباهظة . وكما كان لسياسة الجنود وظائف معينة كذلك كان مثلها للحراثة فكان الملك مقيمًا لهذا الفن وظيفتين احدهما لحفظ البلاد والاخرى لحراثتها وكان يذود عنها سيبين بنشاط ورغبة حبًا بالخير العام . وان الذين كانت تقلدهم الكرامة والحسنى بعد الذين فازوا في مضمار الوغى هم الذين انتجوا اولادًا كثارًا وكانوا يغالون في اجلاء الفرس الى الرضوخ للسلطة الملوكية فان ذلك كان يفضي بهم الى العبادة الوثنية وكانوا يبدون انهم عبدٌى ليسوا كرعايا راضخين بالعقول لسلطة شرعية فذلك كان من مآرب الشرقيين وربما كانت طبيعة هوءلاء الشعوب الحادة يقضى عليها ان تكون مطلقةً وشديدة القوى

وقد اخذ العجب افلاطون من كيفية ترتيبهم لاولاد الملوك ولا سيما اعطاءهم اياها لليونان دستورًا للتربية الكاملة . فلقد كانوا ياخذونهم من ايدي الخصية لدن بلوغهم السنة السابعة من اجالهم ليعلموهم ركوب الخيل وممارسة الصيد ولدن ارهاقهم اي وصولهم

الى السنة الرابعة عشرة كانوا يعينون لتعليمهم اربعة رجال من افضل اهل المملكة واحكمهم فقال افلاطون ان اولهم كان يعلمهم السحر في لغتهم اي عبادة الآلهة حسب القوانين القديمة وشرائع زورواست بن اورومازو والثاني كان يحملهم على ان يعتادوا على النطق بالحقيقة والحكم بالعدل والثالث كان يعلمهم ان لا يغادروا الشهوات تفوز بهم ليكونوا دائمًا احرارًا وملوكًا بالحقيقة ويملكوا ذواتهم وارادتهم والرابع كان يعزز شجاعتهم على الرهب الذي يجعلهم ارقاء ويسلب منهم الثقة اللازمة جدًا للحكم. وان السادات الحدثين كانوا يتربون في دار الملك مع اولاده وكان اولئك المهذبون يصرفون في خدمتهم كامل العناية لا يدعونهم يسمعون او ينظرون امورًا غير لائقة وكانوا يودون للملك حسابًا عن سلوكهم وكان اذ ذاك يعاقب كلًا او يجازيه حسبما يستحق فالشبان الذين كانوا يشاهدونهم كانوا يتعلمون بهم الفضيلة ومعرفة الطاعة والامر

فما كان يرجى من ملوك الفرس وكبرائهم بسبب هذا النظام لو اجتهدوا ان يرشدوهم في كبرهم كما اجتهدوا في تعليمهم وقت صغرهم لكن عوائد الامة المفسودة كانت تقود بهم الملاذ التي في وسع حسن التهذيب مقاواتها ومع ذلك فنظرًا عن رخاوة الفرس واعتنائهم في المحاسن والزينة يقتضي ان تقر انهم لم يكونوا خالين من البسالة لانهم لم يبرحوا يتباهون بالبسالة ويبدون بها ادلة عظيمة لان فن الحرب كان مقدمًا عندهم كما يحق له لانه فن يمارس في ظلاله سائر الفنون ولكنهم لم يتوصلوا ابدًا الى حقيقة هذا الفن ولم يعلموا اي مفعول في الجندية للصرامة والنظام وترتيب الجيوش وقوانين المسير والمعسكر والوسائل التي تتخذ لتسيير هذه الجيوش العظيمة دون اختلاط في وقت مناسب وكانوا يخالون انهم اتموا المقصد لدن احرازهم شعبًا كبيرًا كان يذهب الى الحرب بعزم كافٍ لكن بلا نظام وكانوا يرتبكون بعديد وافر من الاشخاص الذين لا فائدة بهم فان الملك كان ياتي بهم غير مثقل عليهم وكانوا على جانب عظيم من الرخاوة والوهن. ولكم ارادوا ان يعكفوا بين الجنود في المعسكر على الترفه والملاذ كما يعكف عليهم عادة الملوك حتى ان هولاء الملوك كانوا ياتون الى ساحة القتال ومعهم نساؤهم وسراريهم وخصيهم وسائر ما يستخدمونه في سبيل ملذاتهم وكانوا ياتون معهم بالاواني الذهبية والفضية وكل الامتعة الثمينة وكل مايلزم للقوت وقصارى الامر كل ما تحتاج اليه النفوس المترفهة. فالجندية التي كانت مولفة على هذا النمط

ومرتبكة بعديد وافر من العساكر كانت مثقلة بكثرة عدد الذين لا يحاربون فبهذه المخامرة لم يكن من امكانهم ان يثيروا باتفاق ولم تكن الامور تصدر في وقتها بل كانت تجري في المواقع حسب التقادير دون ان يتمكن احد من اصلاح هذه الانقلابات وفضلاً عن ذلك فقد اقتضى لهم ان يتمموا ذلك حالاً ويترعوا الى مقاطعة اخرى لان هذا الجمع الغفير المطاع لم يكن له من القوت الضروري شيء يسير ولا ما يبعث على الملة ولذلك قضي عليه ان يباد في وقت وجيز اذ لم يكن له من ذريعة تمكنه من الحصول على الذخائر

ومع كل هذا الموكب العظيم كان الفرس يدهشون الشعوب الذين لم يكونوا اشدّ منهم في الحرب واما الذين يحسنون معرفتها فكانوا يعدون ضعفاء لسبب انقسامهم او مدحورين بكثرة اعدائهم. ولهذا اصبحت مصر راضخة لشوكة الفرس وان تكن عظيمة قديمة ذات نظام وطيد وفتح ملكها سزوستريس مدائن كثيرة. ولم يكن خارجًا عن استطاعتهم ان يفوزوا باسيا الصغرى والعمارات اليونانية التي افسدها الوهن لكنهم لما بلغوا الى بلاد اليونان راوا ثمة مقاومة لم يكونوا من قبل يفكرون بها وهي جندية مرتبة وقادة ماهرون وعساكر قد اعتادت على قشافة المعيشة واجساد الفها العناء فدانت لدى ذويها المخاصات والممارسات العادية. ولا ريب انهم راوا جنودًا قليلين لكنهم يشبهون هولاء الاجسام القوية اذ بيان انها منضوية على اعصاب قوية وعقول ثابتة وفضلاً على ذلك فان هولاء الجنود القليلون كانوا على جانب كبير من النظام يرضخون لاوامر قادتهم ونواهيهم حتى انهم كانوا يظن بهم انهم روح واحدة اذ كانت حركاتهم واحدة

اما اليونان فكان عدهم امرٌ اعظم من هذا وهو سياسة ثابتة تستدرك الامور ويمكن لهم ان يسلموا بها لم ويخاطروا ويدافعوا لدن الاقتضاء. وما يزيد على ذلك كانوا قد كان فيهم شجاعة جعلها حب الحرية والوطن غير مقموعة. ولقد كانت الالمعية والبسالة سجيتين مغروستين فيهم ودمثت اخلاقهم من قبلُ ملوكٌ ونحلٌ اتوا من مصر ونشروا بسبب توطنهم منذ زمان قديم في ارجاء هذه البلاد المتباينة نظام المصريين الحسن في كل اين. ومن ذلك تعلموا الممارسات الجسدية والقتال والتسيار وامتطاء الخيل وركوب العجلات وسائر الممارسات التي ملكوا ناصيتها بسبب تيجان الاولمپياك الفاخرة. وعلمهم المصريون

امرًا هو الرضوخ والتسليم للشريعة حبًا بالخير العام لانهم لم يكونوا كمن لا يفتكرون بسوى اشغالهم الخاصة ولا يشعرون بخطوب المملكة الَّا متى لحقهم منها شيء او متى قامت بها راحة عيالهم . بل اليونان كانوا قد تعلموا ان يتخذوا ذواتهم انهم هم وعيالهم عضوٌ لجسد واحد اي المملكة فكان الاباء يرسخون في عقول بنيهم هذا المبدأ وكان الاولاد يتعلمون وهم موثوقون بقماط المهد انهم مترصدون الوطن ان يكون لهم امًّا تحرص عليهم في حجرها اكثر من الابهات . فان كلمة التمدن لم يكن مغزاها محصورًا لدى اليونانيين في الانسانية واللطف والامتثال المتبادل الذي يرشّح الناس للالفة الاجتماعية بل كان الرجل المتمدن من يود الوطن ويعتبر نفسه كاحد اعضاء المملكة يسلك بحسب الشرائع ويتحد معها حبًا بالخير العام غير معتدٍ على احد . واما الملوك الذين نالتهم بلاد اليونان في بلدان متباينة فهم مينوس وسيكروبس وتامان وكرسفونت واريستين وباتروكل ومضارعون لهم غيرهم اذاعوا هذا المبدا في الطائفة قاطبةً وكان الشعب يودهم طرًّا لانهم صنعوا له خيرًا وملكوا السنة لالانهم كانوا يصانعونهُ .

فاذا الذي انوله عن صرامة احكامهم واي مجلس كان احفل من مجلس الاورباج الذي كانت البلاد اليونانية تودي له الكرامة برمتها حتى افضى الامر بالناس ثمة الى ان يتقولوا ان الالهة قد بدت فيه فكان مشتهرًا منذ الايام القديمة وقداسةُ سيكروبس على نمط مجالس مصر . فلم يكن من جمعية حفظت زمانًا مديدًا كهذا شهرة صرامتها المنيفة وقد كانت الفصاحة الخدّاعة قاصيةً عنها

فلما تثقف اليونان خالوا ان في امكانهم ان يسوسوا نفوسهم فاصبحت حكومة اكثر المدائن جمهوريات الَّا ان الشارعين الحكماء الذين برزوا في بلدان متباينة وهم ثالس وبيثاغوروس ولوكيركوس وسولون وفيلولاس وكثيرون غيرهم من الذين يذكرهم التاريخ ثبّطوا قدم الحرية عن ان تحول الى الفساد لان السنن المسنونة بكل مداجة حرضت الشعوب على تتميم الواجبات وحدتهم الى صنع خير البلاد العام . واما تصور الحرية الذي اوله هذا السعي فكان غريبًا لان الحرية التي كان اليونان يتمتعون بها هي حرية راضخة للشرائع اي الحق نفسه الذي يعرفه الشعب طرًّا لانهم لم يكونوا يشاؤون ان الاشخاص يتسلطون بينهم فان القضاة الراهبين منه تتميم واجباتهم

كانوا يصبحون كالافراد الذين ليس لهم سلطة الا بمقدار ما يتخذونه من الخبرة والعلم وكانوا يتخذون الشريعة كسلطان فهي التي كانت ترتب القضاة وتحدد سلطتهم وتعاقبهم على تصرفاتهم السيئة

وليس من دابنا ان نبحث هنا عن هذه الافكار هل هي راهنة او زاهقة بل نقول ان بلاد اليونان كانت راضيةً عن ذلك وكانت تؤثر بواعث الحرية على بواعث الرضوخ الشرعي وان تكن هذه بحقيقة الامر اخف من تلك . فبما ان كل الفة اجتماعية لها فوائد منوطة بها فالفائدة التي كانت بلاد اليونان تنالها بهيئة حكومتها هي ان الرعية كانت تود كثيرًا الوطن حتى ان كل فردٍ من ابنائها كان في استطاعته ان يتدرج الى اسمى المراتب

ان ما ابدته الفلسفة لرعاية بلاد اليونان غير قابل للتصديق . وطالما كانت هذه البلاد حرّة اقتضى ان يترتب عليها بحقائق راهنة قوانين العوائد الحسنة وقواعد الالفة الاجتماعية فان فيثاغوروس وتابس وانا كزاغوراس وسقراط وارشيتاس وافلاطون وكزينوفون واريسطو وغيرهم ملئوا بلاد اليونان كثيرًا من هذه المبادىء الحسنة . ولاريب ان قد وجد عديدٌ وافر من المجانين تلقبوا باسماء فلاسفة لكنما الذين كانوا يقتفون آثارهم هم الذي كانوا يعلمون الناس ان يضحّوا صوالحهم الخاصة وحياتهم ايضًا للصالح العام وانقاذ المملكة . ومن احكامهم المتداولة ان يقتضي ان يتجرد الانسان عن الوظائف العامة او لا يلاحظ الَّا الخير العام

فليت شعري علامَ نقصر كلامنا على الفلاسفة مغادرين الشعراء جانبًا فانهم هم الذين كانت ابادي الشعب تسابق لمداولة اشعارهم وكانوا يتعلمونها فترسخ في ادمغتهم وان اسكندر اشهر الفاتحين كان يعتبر اوميروس انه معلم يثق به وان من دابه ان يغري بالرضوخ وحب الوطن فهو وكثيرون غيره الذين كانت تاليفهم جزيلة الجداء والقبول لم يضمّنوا منظوماتهم سوى الفنون النافعة للحيوة البشرية ولم يقصدوا سوى الخير العام والوطن والالفة الاجتماعية وذاك التمدن والتهذيب العجيب اللذين تكلمنا عنهما آنفًا

ولما وصلت بلاد اليونان الى هذه الحالة كانت ترنو الى اهل آسيا ذوي الاجسام النحيفة والمتوشحين بالحبَر الباطلة والزينات المخنثة بعيون الامتهان

واما كيفية حكومتهم التي لم يكن لها حدٌّ سوى ارادة الملك السائدة على جميع الشرائع

حتى على الشرائع المقدسة كانت تبعث اليونان على ان ينكصوا منها فانهم كانوا يأنفون من البربر كل الانفة

وولجت هذه البغضاء قلوبهم منذ ايام قديمة وصارت فيهم سجية . وما كان يشوق الناس الى استظهار شعر اوميروس هو انشاده ظهور اليونان على اسيا . فكانت الزهرة تنحنح الى اسيا ويعنى بالزهرة الملاذ والعشق والرخاوة . وينحنح الى اليونان جينون اي الرزانة والود الافتراني والمريخ اي الفصاحة والمشتري اي الحكمة السياسية . وكان في عهدة اسيا ايضاً مارس المتوحش ذو الاخلاق الوعرية اي الحرب المحتدمة بكل شراسة . وفي عهدة اليونان باللاس اي الحرب المضطرمة بنظام وباس يقيدها العقل ومنذ ذاك الحين ايقنوا ان الفهم والشجاعة قسماها الطبيعيان

وقد كانت البلاد اليونانية تضيق ذرعاً عن ان ترى اسيا تفوز بها ولو حملت على عاتقها هذا النير مرة لكانت اعتقدت انها اخضعت الفضيلة للذة والعقل للجسد والشجاعة الحقيقية لقوة وحشية قائمة بكثرة الجموع وقد كانت مفعمة من هذه الاعتقادات لما حمل عليها داريوس بن هيستاب وكسرسيس بجيوش لا يصدق العقل عديدها الوافر . فتاهب لدن ذلك كلٌّ من الثينيين ليذود عن حريته . وقد كانت اذ ذاك اكثر المدن اليونانية جمهورية . ومع ذلك فقد تألبت برمتها تحت لواء الصالح العام . فغادر اهل اثينا مدينتهم بكل طيبة خاطر معرّضينها للنهب والحريق بعد ان انقذوا الاولاد والشيوخ والنساء وجعلوا كل الذين كانوا اهلاً للقتال يركبون البحر . ثم ان شرذمة قليلة العدد من اللاسيديمونيين قصدت توقيف عسكر الفرس عن التسيار قرب مضيق صعب المسلك . ولكي يتبين للفرس ما هم اليونانيون حملوا هم وملكهم دفعةً واحدةً راغبين في ان يموتوا موتاً لا مندوحة لهم عنه ليضحّوا لوطنهم من هؤلاء البرابرة جمعاً لا يحصى عديدهُ ويغادروا لوطنيهم مثال جراءة لم يسمع بها من قبلُ . وقد راى الفرس وهنهم لدى مقاومتهم هذه العساكر وذاك النظام وشعرت مراراً جمة لدى خسرانها بفضل النظام على العدد وعدم الترتيب بفضل الشجاعة التي تخامرها الفنون على شراسة ليس فيها تروٍ

ولم يبقَ حيلةٌ للفرس المقهورين مراراً سوى ان يلقوا الشقاق بين اليونانيين . وكانت الحالة التي وُجدوا بها بسبب انتصاراتهم تسهل لهم هذا المشروع . فكما ان الخوف

كان قد جمعهم كذلك النصر والامان قطعا حبال الاتحاد . وبما انهم اعتادوا على الحرب والنوز اججوا بينهم نيران القتال بعد ان زال خوفهم من الفرس . لكن ينبغي ان نبين هنا باسهاب العبارة حالة اليونان واسرار السياسية فنقول

ان اثينا ولاسيديمونيا كانتا جمهوريتين لهما الاهمية الكبرى بين الجمهوريات التي كانت بلاد اليونان متألفة منها ولم يكن ذكاء اكثر مما كان في اثينا ولا قدرة اكثر مما كان في لاسيديمونيا . فاثينا كانت جانحة الى الملاهي ولاسيديمونيا الى قشافة المعيشة والاشغال وكلتاهما كانت تحبُّ الحرية والمجد . اما في اثينا فكانت الحرية متجهة نحو الفساد واما في لاسيديمونيا فكانت الشرائع الصارمة تشدد عليها . وبما كانوا يضيقون عليها في الداخل كانت تحاول ان تمد بملكها خارجاً وكانت اثينا ترغب في ان تملك ولكن على غير مبدأ لان صالحها كان مختلطاً بالمجد وكان قاطنوها يبرعون في فن سلك البحار واصبحت مثرية بسبب البحر الذي كانت عليه سائدةً وكانت تود ان يكون كل شيء لها راضخاً لكي تستمر وحدها مالكةً التجارة وقدَّمت لها الوسائط للحصول عليها اموالها التي القت بها هذه الرغبة

اما لاسيديمون فكان فيها خلاف ذلك فان الاموال كانت ممتهنة لديها وكما ان شرائعها كانت ابلةً لصنعها مشيخةً حربية كذلك كانت اللذة الوحيدة الآخذة بالباب اهاليها منصورةً على السلاح . ولاجل ذلك كانت منهمكةً في الطمع وثابتةً على حكمها ورايات تسبب عيشتها المرتبة . وكانت اثينا تفوقها بحدة الطمع وكان الشعب متوغلاً في زمام الحكم . ولا ريب ان قد كان للفلسفة والشرائع في هذه العقول الذكية مفاعيل حسنة الآن الرشد وحده لم يكن كفؤاً لهديهم . وقد افادنا احد عقلائهم المختبر اخلاق بلاده ان الخوف كان واجباً لهذه العقول الحادة المتوغلة في عباب الحرية ولم يعد وسيلة لمباسئتهم عند ما ظهور سالامين ازال خوفهم من الفرس وحينئذٍ افسدهم شيئان وهما مجد افعالهم البهية وظنهم انهم في طمانية ولم يعودوا يصغون لكلام الحكام . واذ كان الفرس تحت سلطةٍ شديدةٍ جداً كانت اثينا (حسب قول افلاطون) مصابةً بحرية خارقة الحدود

وهاتان الجمهوريتان المختلفتان بعوائدها وسلوكهما كان البعض منهما معرقلاً بالبعض الاخر قصد ان تخضعا كل اليونان وكانت كلتاهما عدوتين بسبب اختلاف مصالحهما لا بعدم مؤالفة طبائعهما

ولم تكن مدن اليونان تقبل سلطة احداها لانه فضلاً عن ان كل مدينة كانت تود ان تحافظ على حريتها كنّ جميعهنّ يجدنَ سلطة هاتين الجمهوريتين شديدةً عليهنّ فان سلطة لاسيديمون كانت شاقة وصارمة وكانت عوائد شعبها تتراءى لدى العيان انها قريبةً من التوحّش ثم ان حكمًا معنفًا كان يجعل العقول مكبرة ومتجبرة جدًّا حتى ان الناس كانوا عازمين دائمًا على مواصلة الحرب بلا انقطاع

فكان اللاسيديمونيون يودون او يحكمون والناس يرهبون لهم احكامًا . اما اهل اثينا فكانوا يفوقونهم لطفًا وحسنًا ولم تكن لذة تقارن لذة النظر الى مدينتهم اذ كانت فيها الاعياد والملاعب مستمرة . وان يكن الذكاء والحرية والشهوات تحدث بينهم مشاهد جديدة فان سلوكهم المتقلب لم يكن يرضي مواخيهم وكانت الرعية تتجشم المشاق فاذا قضي عليهم ان يحتملوا غرابة سلوك شعب مصانع فاي شيء اكثر خطرًا من غرائب ملك مفسود بالمصانعة

ولم تكن هاتان المدينتان تبيحان لليونان ان تستمر متمتعةً بالسكينة . وقد شاهدت ياسيدي ان حرب البلابونيز وغيرها كانت من اسبابها حسد اثينا ولاسيديمونيا وهذا الحسد نفسه الذي كان يعكر راحة اليونان كان عنادًا لما يضافرها على السقوط تحت سلطة احدى هاتين المشيختين

ونظر الفرس الى حالة اليونان فكان سر سياستهم قائمًا برعاية هذا الحسد بين اعدائهم واثارة الشقاق بينهم . وبما ان لاسيديمونيا كانت مطماعًا فانها كانت اول من جرهم الى خصام اليونان وكان قصدهم بهذه المداخلة ان يستولوا على كل الامة ولهذا بذلوا ما عندهم من الجهد ليوهنوا اليونان ببعضهم مرتقبين زمانًا يجعلونهم به تحت الكون وابتدأت حينئذٍ مدن اليونان ان تلقي نظرها على ملك الفرس الذي كانت تدعوه الملك الكبير او الملك بالذات كانها اخذت تعد نفسها من رعاياه . ولم يكن في امكان روح اليونان القديم ان يهبوا من غفلتهم اذ اشرفوا على السقوط تحت نير العبودية وبين ايدي البرابرة . واخذ ملوك صغار من اليونان يقاوون هذا الملك الكبير ويخربون ملكه . فلذلك ارهب اجزيلاس ملك لاسيديمونيا هو وقليل يعرف نظامًا وجيزًا قلوب الفرس وابان انهم يستطيعون ان يغلبوا ولم يضع لافتتاحاته حدًّا الا انشقاق اليونان . وفي هذا الوقت حدثت ثورة قورش الصغير على اخيه ارتحشستا وكان معه عشرة

الاف من اليونان لم يمكن تفريقهم بهزيمة عسكر العامة وقيل انه قتل بيد اخيه واصبح اليونان لانصير لهم بين الفرس في نواحي بابل ولم يقدر ارتحشستا على ان يغريهم بالتسليم اختيارًا او ارغامًا فازمعوا طرًّا بقلوب صلدة على ان يخرقوا بلاده منثنين الى بلادهم فنالوا بذلك اوطارهم . فكتب هذا التاريخ كسينوفون في كتابه المدعو بعودة عشرة الآلاف او بغزوة قورش الشاب . وقد شعرت اكثر من قبلُ ان اليونان يربون جنودًا لا يقهرون ولا يُدحرون ولا يرضخهم لعدوٍ ضعيف يقاومهم لدن الاتحاد سوى انشقاق يطرا بينهم

وقد احتفظ فيلبس المكدوني الباسل الحصيف على ما تأتى له من مملكته الصغيرة المتحدة من التقدم على المدائن والجمهوريات وذلك لان السلطة الملوكية لم تكن وتنتفع مفيدة . وقد اصبحت حصافته وبسالته مظهرًا لانه اقدر ملك في بلاد اليونان . وتيسر اليونانيين على ان يسيروا تحت لوائه لمحاربة العدو العام الا انه قتل في اثناء هذه الحوادث وخلفه ابنه الاسكندر بملكه واوطاره فراى المكدونيين اقوامًا حنكتهم الايام وعلمتهم خوض المعامع يسودون على سائر اليونانيين بالشهامة والنظام ويشهد لذلك فوزهم مرارًا فصاروا اليونانيين يفوزهم بالفرس ونظرائهم وكان داريوس القابض على زمام الملك عادلاً في زمانه شجاعًا كريمًا توده الرعية ولم يكن خائضًا عليه لتتميم مآرب عقلٌ ولا عزمٌ لكنها اذا اردت ان تقابله بالاسكندر فترى في هذا عقلاً ثاقبًا ساميًا وشجاعة غير معهودة من قبل ورغبةً شديدة في اذاعة الاسم التي صيرته يفضل التهافت على المخاطر والاتعاب والموت على اضاعة ادنى درجة من المجد . ولقد كانت له ثقةٌ بان كل شيء يرضخ له كانه رجل مفردٌ اصطنعته المقادير ان يكون رجلاً في سائر الناس وكان يلقي هذه الثقة في قلوب قادته حتى في قلب ادنى جنديٍّ من جنوده الذين كانوا يظفرون بهذه الذريعة . وان قاست مشاق فبذلك يمكن لك الحكم لاي من الفئتين يكون الفوز معدًا واذا زدت على ما ذكرناه فضل اليونان والمكدونيين على اعدائهم لأيقنت ان الفرس لابد لهم من تغير ملك اذا حمل عليهم بطل كهذا بهذه الجنود فلدن ذلك ترى الاسباب التي آلت الى دثار الفرس ونجاح الاسكندر . ومما سهل فوزه موت ممنون الرودي القائد الوحيد الذي كان الفرس قادرين ان يقاوموه به . ولقد كان يحق للاسكندر ان يجر ثوب الفخار لفوزه بهذا القائد الشهير لدن مبارزته وذلك لان ممنون كان يوثر على

المخاطرة بمعركة عامة ضد اليونان ان ينازعهم كل المسالك ويمنع عنهم الزاد ويحاربهم في بلادهم ويقسرهم بشدة عزمهِ على الاياب اليها ليدافعوا عنها فاستدرك الاسكندر ذلك وغادر في مدينة انتيباطرا جنودًا كافية لرعاية اليونان ولصه بجنه من هذه الحبالة فان ممنون مات لدن اغارته التي تفسر الاسكندر على الرجوع وتخيف اليونانيين فارتفع اذ ذاك الاسكندر كل شيء

ودخل هذا الملك العظيم بابل بسطوة وفخر لم يرَ العالم لها من مثيل . وبعد ان ثأر اليونان واخضع بسرعة عجيبة كل المال التي تحت سلطة الفرس اغار على الهند . وذلك اما ليوطد مملكته من كل ناحيةٍ او ليجعل اسمهُ اشهر من اسم باخوس وتتقدم بافتتاحاتهِ اكثر من هذا الفتح العظيم الآن ذاك الذي لم تكن الانهار والجبال قادرةً على ان تثبط قدميهِ اضطرَّ ان يخضع لعساكره العانية الطالبة للراحة ويكتفي بالاثار الفاخرة التي غادرها على ضفة نهر اراسب عندما ارجع عساكرهُ على غير الطريق التي داسها وقمع كل البلاد التي وجدها في طريقهِ

وعاد الى بابل مهابًا محترمًا لا كمفتتح بل كاله الا ان هذا الملك العظيم لم يبقَ الذي شادهُ اكثر من حياتهِ التي كانت قصيرة فمات في اجل الثلاث والثلاثين سنة وقت ان كان عازمًا على تتميم مآرب تعدَّاها انسانٌ واعدًا نفسه بآمال الفوز والنجاح . ولم يكن في استطاعتهِ ان يرتب اشغالهُ تاركًا من بعدهِ اخًا ابله واولادًا صغارًا ليسوا اهلاً لان يقوموا بهذا العبء العظيم الآن انعس شيء على مملكته ان قد غادر لها قادةً علم ان لا يجنحوا الا الى المطامع والحرب وعلم ان يقدموا على التعديات عندما يغادر الدنيا ورجاءان يدرأهم عنها وخشية من ان يناقضوهُ لم يجسران يتيم له خليفة او وصيًّا لاولادهِ بل تنبأ ان اخدانهُ يحتفلون جنازته بمعارك دموية وهكذا مات في لدونة الحداثة متنفيًا بالرزايا الوبيلة . ودليل ذلك انك قد شعرت بشطر ملكهِ وخراب بيتهِ الرائع فاغاروا على مكدونية التي حكمها اجداده منذ ازمنةٍ مديدةٍ كانها ارث ليس لهُ من وريث . وبعد ان اصبحت فريسة اقوامٍ استولت عليها عائلة اخرى فبذلك ترى ان هذا الفاتح الذي كان اول من اقلق البسيطة اصبح آخرُ ملك من نسلهِ . ولو كان لم يخطَّ بلادهُ لما دبت المطامع في قلوب قادتهِ . ولقد كان في امكانهِ ان يغادر لاولاده ملك ابيه . بيدَ انهُ لما كان مقتدرًا جدًّا اصبح علةً لدثار اهلهِ وهذه هي ثمرة هذه الفتوحات

وكان موتهُ السبب الوحيد لهذا الانقلاب العظيم لكنما يجب ان نذعن بما يعود على مجدهِ وهو انه لو وجد على كامل الارض انسانٌ اهلٌ للقيام بهذا الملك الفسيح والمفتتح حديثًا لما كان سوى الاسكندر لان عقلهُ لم يكن في ادنى درجةٍ من بسالتهِ ولا ينبغي ان نعزو ذلك كله الى الخطأ منهُ ولو كانت عائلتهُ قد سقطت به مرارًا جمة لكننا نعزو ذلك الى الموت . الا اذا شاء الناس ان يقولوا ان رجلاً حمله طمعه على ان يقدم على الشوءون كهذا ليس في امكانهِ ان يقوم بامر تدبيرها

ومهما يكن من الامر فاننا نرى في نموذجه ان يوجد عدا الغلط الذي يقترفه الانسان بغباوتهِ ويمكن له اصلاحه جهةٌ واهنة لا تصطلح تمكث ملاصقة للمقاصد البشرية وهي الموت لان كل شيء يتأتى له الهبوط فورًا من هذه الجهة وهذا مما يلجئنا ان نقول : كما ان الاشياء المشيئة الملاصقة للامور البشرية علةٌ للهبوط كذلك من يقدر على ان يوطد مملكة ويرعاها نوثرهُ بالمجد على من يفتح مملكةً ويفوز فوزًا في المعامع

وليس حاجة ان انبئك مسهبًا عن فناء الممالك المتفرعة من مملكة الاسكندر اي ملك سوريا ومكدونيا ومصر والعلة العامة هي ان الاهلين الجئوا ان يرضخوا لسلطة اقوى من سلطتهم وهي شوكة الرومانيين ومع ذلك فاذا اردنا ان نبحث عن حالة هذه الممالك الاخيرة نرى حالاً علل هبوطها المتواترة وان اقواها وهي مملكة سوريا نزلت بها الضربة الاخيرة بسبب انشقاق ملوكها بعد ان تزعزعت بسبب رخاوة الامة

الفصل السادس

في الكلام عن دولة الرومانيين واستطراد لدولة قرطجنة واحكامها السيئة

قد وصلنا الى هذه المملكة العظيمة التي طوت تحت جناحيها سائر ممالك العالم فمنها خرجت الممالك العظيمة في البسيطة التي نحن قاطنوها ولم نزل الى الان نرعى شرائعها التي يجب علينا ان نعرفها اكثر من غيرها . فلقد قرأت تاريخها المسهب الشهير بكل استقراءاته . تأمل بعوائد الرومانيين والازمنة التي بها يناط تقلب هذه المملكة الفسيحة تفهم اسباب ارتقاء رومية وعلل الانقلابات العظيمة التي طرأت في

ممـلكها . فكان الشعب الروماني اشد كبرياء من كل قبائل الارض . اجرأ من الكل لدن الشدائد اكثر نظاماً في مشوراته واثبت في تعاليمه وازيد كدحًا واجتهادًا ليس مجزاعًا في وقت الرزايا بل اجلد من الشعوب طرًا واذكى عقلاً من كل من داس اديم الارض . فمن اناس كمن ذكرنا ألفت الجندية التي كانت مبنية على السداد والنظام بسياسةٍ مملوءة من الحكمة . ولانخشى لومة لائم اذا قلنا ان كل رومانيٍ كان حب حريته ووطنه مجبنًا في فؤادهِ فهذان الامران كانا يغريانهِ بمحبة غيرهِ لانهُ ان كان يحبُّ حريته قضي عليهِ ان يحب وطنه بمثابة ام تشبع قلبه من الاحساسات المؤثرة وكان الرومانيون واليونانيون يتصورون تحت اسم الحرية مملكةً لايكون فيها احدٌ عبدًا للشريعة والشريعة فيها اقوى من كل شيء . ومع ذلك وان كانت رومية منذ بروزها تحت لواء ملوكي فكانت لها ايام تحكم فيها ملوكها بحرية لا تليق بمملكةٍ ذات نظام .

وقد كان الشعب يتخير فيها الملوك ويقرّر هو نفسه الشرائع ويبت احتدام نار الوغى او نشر الوية السلام ويشهد بذلك تيلوس هو ستيليس الذي لم تكن له الجرأة ان يقضي على اوراس او ببدره . فان اوراس ارتدى برداء المجد لاستظهاره على كورياس واخوته لكنها لحته العار العظيم بقتلهِ اخته . فلذلك غادر الملك امر القضاء للشعب . ولم يكن اذ ذاك للملوك الاّ الولاء على الجيوش والسلطة في الجمعيات الشرعية قاطبةً وعرض الاشغال عليها ورعاية الشرائع واجراء الاوامر العامة . ولما فكر سرفيوس تيلوس ان يجعل لرومية مشيخة زاد في افئدة الشعب الذي كان قد امسى حرًّا محبة الحرية بكاملها في ايام القناصل . ونفرق خوفًا اذ نقرأ في التاريخ ثبات بروتوس الكثيب اذ امات امام عينيه اولاده الذين واطئوا التركينيين على الدسائس التي قاموا بها في رومية رجاء ان تتوطد بذلك سلطتهم . وزاد الشعب بالحرية ثباتًا بعد ان راى قنصله يضحي في سبيل الحرية عائلته الخاصة . ولا يقتضي ان نتعجب من ان كل الشعب يتهن في رومية اجتهادات الشعوب الدانية الذين حاربوا امل ان يرجعوا التركينين الذين كانوا قد نفوا من رومية وجعلهم الملك بورسينا تحت كنف حمايته عبثًا . وقد تاتى ان الرومانيين يودون بثباتهم لو يموتون احرارًا وكان الشعب اشد ثباتًا من المجلس فتواقد الشعب على الملك رافعين اليهِ ان يتقاعد عن الاخذ بناصر التركينيين لان رومية ازمعت ان تخاطر بكل شيء لرعاية حريتها . وانها تؤثر قبول اعدائها داخلاً

على قبول ظالميها فلما اعجب بورسينا من صلف هذا الشعب وجرأة بعض اهلهِ غير العادية عزم ان يترك الرومانيين يتمتعون بالحرية التي كانوا يعرفون ان يدافعوا عنها حسنًا وقد كانت مفضلةً لديهم على كل كنوز ثروات الارض

قد شعرت ان الفقر لم يكن شينًا لدى هذا الشعب منذ ابتدائهِ وبعد ان نجح في اموره بل انهم كانوا يعتقدون ان الفقر وسيلةً للاستمساك بحريتهم الكاملة . فما من رجلٍ اشدّ حرية من الرجل الذي يكتفي بيسيرٍ من العيش ولا يتوكأ على احدٍ باخذ يدهِ . وليس له من عناد او نصير على كسب معاشهِ سوى تعبه وعملهِ . فهذا الامر كان الرومانيون يتخذونه ديدنًا فانهم كانوا يغتذون من المواشي يحرثون الارض ويمتنعون عن كل ما كانوا يستطيعونه يعيشون بالاقتصاد والعمل . فهذه كانت حياتهم فلذلك كانوا يقومون باود عائلاتهم ويعودونهم على اعمالٍ كهذه

وقد حقق تيت ليف المؤرخ بقولهِ . انه لم يرَ قط شعبًا استمرت فيه القناعة والامساك والفقر بشرفٍ وافتخار . وان اعظم ارباب المجلس وان كنّا لم نلاحظ سوى ظواهرهم كانوا يختلفون قليلاً عن الفلاّحين ولم يكن لهم سلطة او بهجة الاّ بين العموم والمجلس ومع ذلك فكانوا ينهمكون في امور الفلاحة وسائر متعلقاتها اذ كانوا يتداعون الى قيادة الجيوش . وهذه الامثال كثيرة في التاريخ الروماني فان كيريوس وفابريسيوس القائدين العظيمين اللذين ظهرا على الملك بيروس الغني لم يكونا يملكان سوى آنية من فخار واذ قدم السمنيتيون النضار والجين لكيريوس اجابهم ان لذتهم ليست قائمة بالحصول على النضار انما بالاستيلاء على من عنده ذلك . وبعد ان ظفرا واغنيا الجمهورية من غنيمة الاعداء لم يكن عندهما ما يصرف في سبيل دفنهما . فاستمرت هذه القناعة في غضون حرب القرطجنيين ايضًا ففي اثناء الحرب الاولى طلب ريغولوس قائد الجيوش الرومانية الاذن من المجلس للتروح الى دسكرتهِ ليحرث ارضها لانها هجرت اثناء غيبتهِ . ونرى بعد دثار قرطجنة امثالاً عظيمه تدل على السذاجة الاولى فان اميليوس بولوس الذي زاد الخزينة العامة بكنوز ملوك مكدونيا القديمة كان يعيش بالقناعة القديمة ومات فقيرًا . واذ خرب موميوس قورنتية ضحّى خيراتها الوفيرة لمنفعة الناس طرًّا . ومن ذلك ينجم ان الاموال كانت محتقرةً وان قناعة القادة الرومانيين وعفتهم كانتا تلقيان العجب في قلوب الشعوب المدحورة . ومع كل هذه المحبة المفرطة للفقر لم يوفر

الرومانيون شيئًا لعظمة مدينتهم وجمالها . وكانت الاعمال العامة هكذا منذ ابتدائها . ولم تخجل رومية منها ولولاها اصبحت ملكة البسيطة . والكابيتول الذي اقامه تركوين المتكبر والهيكل الذي اقامه للمشتري في هذه القلعة كانا اذ ذاك جديرين بعظمة اكبر الالهة وبمجد الشعب الروماني وكل ما هو عدا ذلك ينطبق على هذه العظمة . وان الهياكل المعتبرة والاسواق والحمّامات والاماكن العامة والشوارع العظيمة والاقنية ومجاري الماء واخاديد المدينة كان لها عظمة كبيرة جدًّا لا يمكن الوثوق بها لولا ان يثبتها المورخون كلهم وتحققها الآثار التي نراها الان . وماذا الذي اقوله لك عن احتفال الانتصارات وطقوس الديانة والالعاب والمناظر التي كانوا يقومون بها في سبيل اللعب فمن المقرر انهم كانوا يبذلون كل ما يسمح لهم الزمان باسرافه في سبيل افراح القوم عمومًا وحملهم على التصوُّر العظيم بوطنهم العام . ولم يكن التقتير الاّ في العائلات الخاصة فكل من كان يزيد في دخلهِ ويجعل اراضيهِ اكثر خصبًا بصنعتهِ وشغلهِ ولا يسرف ماله بل يعيش بقناعة كان يعدّ نفسه يفوق الجميع بالحرية والقوة وحسن الحظ ولا شيء اقصى من الرخاوة في هذه الحيوة . ولقد كانوا يجنحون الى الصرامة او القشافة وكل ما يتاتى عنه التوحش والهمجية لكنهم لم يتغافلوا عن ان يقيدوا انفسهم بشرائع حسنة . وهذا الشعب الذي كانت فيه الحرية فاضلةً على مثلها في الشعوب كلها كان اذ ذاك ارضخ شعب لاوليائهِ والسلطة الشرعية . فلا غرو ان ترتيب جنود شعب كهذا يقتضي ان يكون عجيبًا لان الطاعة المليّة والمنظمة كانت في اجسام جنوده الاقوياء البنية والذائعي الصيت بالبسالة وكانت شرائع الجندية قاسيةً جدًّا لكنها كانت لازمةً لان النصرة كانت خطرة وغالبًا مميتة الذين كانوا يقبضون عليها وهم خارقون سبيل النظام . وكان كل من يولي الادبار او يلقي اسلحته او يتجاوز صفهُ يلقى قتيلاً بايدي قومهِ حتى كل من يتحرك او يستل سيفه دون امر قائده كانوا يجدّلونه على الارض مقتولاً وكانوا يقضون ايضًا ان كل من يضع سلاحه امام عدوهِ او يسلم نفسه اليه اسيرًا بدلاً من ان يموت لاجل وطنهِ شريفًا لا يوخذ بيدهِ ولا تصرف في سبيل انقاذه مصاريف . فكانوا يغادرونهم للاعداء حاكمين انهم اعضاء قطعت من الجمهورية . ولقد تصفحت في تاريخي فلوروس وشيشرون قصة ريغلوس الذي اوعز للمجلس ان يترك الاسرى لاهل قرطجنة مخاطرًا في حياتهِ . وفي الحرب التي اضرمت ضد انيبال وبعد غلبة الرومانيين اي في الزمان

الذي فيه رومية كانت قد وهنت لكثرة الخسائر ولم يكن لها عساكر كافية رغب المجلس في ان يدجج ثمانية الاف عبدٍ بالسلاح مخالفًا عادته احرى من ان يشري من الرومانيين المأسورين مقدارًا من الرجال يقابل ذلك مع ان ذلك يكلفه لا بقدر ما كلفته اقامة هذه الجندية الجديدة وقد سنوا ان لابدّ من ان كل جنديٍّ رومانيٍّ يكون قائدًا وتخذوا ذلك سنة لا يباح لهم ان يخالفوها وبذلك كنت ترى الجيوش الرومانية ولو لعبت بها ايادي التفريق كانت تحارب بكل بسالةٍ منضمةً اطرافها تظلّ تستميت في المعمعة مادام فيها رمقٌ من الحيوة . وقد المع المورخ سالست ان قد كان بين الرومانيين جنودٌ كثيرون يعاقبون اذا حاربوا دون نظام اشدَّ معاقبة من الذين يغادرون مواضعهم ويهربون وذلك لان القادة كانوا يشددون في تهذيب شجاعتهم اكثر من اشارة رخاوتهم . وكانوا يزيدون على البسالة جودة العقل وفن الاختراع وعدا انهم كانوا نبهاء كانوا يقتبسون من كل ما كانوا ينظرونه في سائر الشعوب من الترتيب والنظام في الحروب . وقصارى الامر من كل ما يسهل المحاربة والمدافعة . وقد قرأت في مورخات سالست وغيره كل ما تعلمه الرومانيون من جيرانهم واعدائهم . ومن ذا الذي لا يشعر انهم تعلموا من اهل قرطاجنة اختراع القوارب التي ظهروا عليهم بها . وغاية الامر انهم اقتبسوا من كل الشعوب الذين عرفوهم كل ما يحتاجون اليهِ للانتصار عليهم . ومن الامور المقررة لديهم ان الغوليين كانوا يفوقونهم بقوى الجسم ولم يكونوا اقل بسالة منهم . وانبأنا المورخ بوليب بان الغوليين الذين كانوا اكثر عددًا من الرومانيين اظهروا في معمعة احيرة جراءة عظيمة . بيد انهم وان كانت عزائمهم قوية قد ظفر بهم الرومانيون لانهم كانوا يعرفون ان يتخيروا لهم اسلحة اقوى من اسلحتهم ويراعوا النظام ويترصدوا فرصة الهجوم في المعمعة وفرصة ملاقاة الصفوف ويويد ذلك المورخ بوليب وقد شعرت ياسيدي بوقوفك على تاريخ قيصر ان الرومانيين الذين كانوا تحت قيادة هذا القرم العظيم فتحوا غالبًا بسبب مهارتهم في فن الحرب لا بشجاعتهم وكان اذ ذاك المكدونيون الذين لهم الاهتمام الكبير في رعاية نظام الجندية الذي قام بهِ فيلبوس والاسكندر يظنون ان جنديتهم لم تكن تغلب ولم يكونوا يخالون ان العقل البشري يمكن له ان يرى شيئًا اثبت من ذلك ومع هذا كله فان بوليب نفسه وتيت ليف قررا بانه اذا لاحظنا فقط كيفية الجيوش الرومانية والجيوش المكدونية فلا بد لنا من ان نحكم بالانتصار للجيوش

المكدونية الذين لم يكونوا الافرقة واحدة مربعة مكشوفة من الانحاء كلها غير متحركة كانها قطعة واحدة وبما ان الجيوش الرومانيين كانوا منقسمين الى فرق متباينة وكثيرة كانوا اسرع كثيرًا ومتأهبين لكل نوع من انواع الحركات الجندية فلا يخلو ان يكون الرومانيون قد تعلموا سريعًا تقسيم العساكر الى فرق كثيرة او عرفوا ذلك من تلقاء انفسهم . وان يبقوا كتائب من العسكر متربصة في بحبوحة الاستنظار رجاء ان تدافع او تاخذ بايدي المتفرقين والمتزعزعين من اية جهة كانت من الجيش . وفرران هذا الجرم الثقيل الضخم يكون بالحقيقة هائلاً جدًا اذا سقط على جيش غيره دفعةً واحدة . لكنما قال عنه بوليب انه لم يمكن له ان يستمر على حاله زمانًا طويلاً بخاصية الطبيعة اي بالمتانة والثبات اذ يلزمه محال خاصة اقيمت لشأن ذلك فان لم يكن له من ذلك شيء تعرقل او بالاحرى تشعث بحركته الخاصة فحينئذٍ يتعسر عليه الالتئام مرة اخرى . اما الجيوش الرومانية المجتزئة الى كتائب صغيرة فترى جداه ومنفعةً في كل المحال وتنظم بها فانهم يجدونها ويفترقون اليها حسب اراداتهم دون صعوبة ويجتمعون بلا مشقة . تراهم اهلاً لكل نوع من الانقلاب او الحركات العسكرية . وغاية الامر ان لهم حركات متباينة ولما عمل وقوة اكثر من القوة المتجمعة ونجم من ذلك حسب قول المورخ بوليب ان الجيوش المتجمعة يلزم لها ان تخضع لهم وان مكدونيا لابدّ لها من الاندحار . فاننا نرى لذة عظيمة لدن تكلمنا عن هذه الامور التي رفعها اليك امهر المعلمين وتراها مستعملةً بامرلوبس الكبير بكل عجب حتى اني لا اعرف هل الجندية الرومانية تأتي لها نظام احسن من ذلك . لكن من قطع النظر عن تشبيه الجندية الرومانية بالجندية الافرنسية اكتفي بالقول انك رايت الجنود الرومانية سواء كان بالنظر الى معرفتها باستيلائها على المحال الموافقة او الى حفظها الصارم كل اوامر الحرب فاقت كل الذين بدوا في الاعصار الخالية

ولا حاجة الى التكلم عن اليونان بعد مكدونيا فانك شعرت بان المكدونيين كانوا يتوفون اليونانيين بامور كثيرة ومن ذلك يمكنك ان تحكم على الامور كلها فلم تبدِ اثينا منذ زمان الاسكندر شيئًا فان التوليين الذين فازوا بحروب كثيرة كانوا يوثرون الطاعة على الحرية متوغلين في الهمجية يوثرونها على الباس والبسالة وقد بذلت لاسيديمونيا جهدها في اضرام الحرب بعد نشأة كليومين ونشأ فيليومين بحزب الاكايين فان رومية

لم تثر الحرب على هذين القائدين العظيمين غير ان فيليبومين الذي كان في زمان انيبال وسيبيون حكم بعد نظره الى صنع الرومانيين ان حربة اليونانيين ستنتهي وان الرومانيين انتصروا على شجاعة الغوليين واليونان فان الشعوب الذين كانوا يتهافتون على اضرام الحرب كانوا يطاطئون الرؤوس امام الرومانيين فضافرتهم على الفوز الادارة المنتظمة وقيادة انيبال الذي استظهروا عليه فلم يرَ شيئًا يساوي فخر جنديتهم ولم يكن لهم شيء في حكمهم يفتخرون به نظير افتخارهم بنظام الجندية فاعتقدوا ان ذلك لابد ان يكون اسًا لملكهم وانه اول شيء بدا فيها واخر شيء فقدوه لانه كان منوطًا بتاسيس جمهوريتهم احسن امر في الجندية الرومانية ان لا يثنوا على البسالة الزاهقة ولم تكن مبادىء الفخر الباطل التي اودت بكثير من بنيا معروفةً بين شعب ممتلىء من المجد وان نرى سيبيون وقيصر اللذين كانا اعظم رجال الحرب واشجع الرومانيين انهما لم يتعرضا للخطر الا وقت الحاجة بل كانا دائمًا في الحذر المبين ولم يكونا ينتظران شيئًا من قائدٍ لم يتمكن من امتلاك نفسه . وكانوا يبقون للخدامة الحقيقية افعال الجراءة غير العادية ولم يكن الرومانيون يرغبون في اقتحام المعارك التي تؤدي بهم الى ارتكاب المخاطر ولا في الانتصارات التي يتاتى منها اهراق دماء كثيرة حتى انه لم يكن اجرأ من الجيوش الرومانية ولا اكثر تحفظًا منها وبما انه لا يسوغ اضرام حرب اذا لم تكن قوة كافية لذلك يقتضي ان نلاحظ سياسة المجلس الروماني القاصية فاذا بحثنا عن هذا المجلس في ايام الجمهورية نرى انه لم يكن وقتئذ جمعيات توخت الاعمال حق التوخي فاحصةً اياها بتروٍ سرًا وعلنًا ناظرة في عواقب الامور راغبةً في الخير العام

ولم يانف الروح القدس من ان يثبت ذلك في سفر المكابيين ويمدح كثيرًا سمو حصافة هذه الجمعية المغتذية من لبان الحكمة وما من احد يتخذ لنفسه السلطة الا بنور العقل . وكان جميع اعضائها الملتئمين تحت راسٍ واحد ينهمكون في ما من شانهم خير العموم غير متغرضين او حاسدين

واما بالنظر الى رعاية السر فيذكر لنا تيت ليف بشان ذلك مثلاً ساميًا وهو انه بينما كان الناس هنالك يفكرون في ان يوجهوا على الملك برسي حربًا واتى الى رومية عدوه ملك برغام المدعو اومانس وانحاز الحزب الذي يكاشح له بالبغضاء اشهر

مناصح امام الجمعية وتم الامر منقضيًا باتفاق اراء جمعية مؤلفة من ثلاثمائة رجل ، فمن ذا الذي يخال ان هذا السر يبقى معلومًا ولا يقف عليه احدٌ الّا بعد مضي اربع سنوات اي انجاز الحرب وما يبعثنا على العجب والدهشة وجود سفرا برسي في رومية لمراقبة الملك اومانس . وبعثت جميع مدائن اليونان واسيا التي كانت تخشى ان تتداخل في هذه المعركة سفراءها وبذل الجميع جهدهم في ان يكتشفوا على عمل خطير ينشأ عنه امرٌ عظيم غير انه لم يمكن لاحد من السفراء قاطبة ان يكتشف على ما جرى في المجلس ولم تحدث حاجة لكتم السر بان تجرى المعاقبات او تمنع اتصالات التجارة مع الاجانب او الوعيد الشديد على من تعدّى هذه الشريعة بل ذلك كان مكتومًا اختياريًا لزيادته في الاهمية .

واما رومية فاحوالها مدهشةٌ جدًا فان الشعب هنالك يحدق دائمًا في المجلس بعيون الحسد ويمتثل مع ذلك لكل ما يامره به ويعلم اليه في الفرص التي يراها موافقة وليس لدن روءيته التهلكات العظيمة التي يعلم ان سوف يقدم عليها فكنت ترى حينئذٍ الشعب يحدق بنظره في هذه الجمعية الملتئمة بالحكماء وينتظر مراسيمها كانها هواتف الهية وقد طالما علم الاخيار الرومانيين بان قد نشات عن هذه النصائح سبب انقاذ المملكة . وكان من العادة ان ترعى الشرائع القديمة وروح الجمهورية في مجلس الندوة وهنالك تتم المقاصد التي يراها الجمهور طبقًا للمبادىء . واعظم شيءٍ وجد في الندوة هو ان الاعضاء لم يتعمدوا مآرب شديدة في سوى البلايا العظيمة وفي الحالة التعيسة التي عبرت فيها الجمهورية اي انها تضايقت في بدء نموها ونشاتها داخلاً بسبب وكلاء الشعب وضيق عليها خارجًا الفولسكيون الذين فازوا بالنصر . فان رومية لم تياس ولم تكن مجزاعًا من ان تاخذ بثارها فكان في مقدمتهم اعظم رجال رومية واشهرهم في المعارك واكرمهم وابغضهم للعدوان واعدلهم الّا انهم اشرسهم طبعًا واغضبهم خلقًا فراموا ان يكونوا من ابناء الوطن رغمًا عن اهاليه وبعد ان تبوئوا مقاطعات عديدة واصبحوا مستولين على البرية باسرها تهددوا الرومانيين بالهلاك ان لم يرضخوا لما طلبوا منهم ولم يكن اذ ذاك في رومية جيوش او قادة ففي هذه الحالة التعيسة بينما كانت الاخطار تكتنف رومية من كل جانب برز امرٌ من مجلس الندوة مفاده تحريض الشعب على ان يلتقي الموت ولا يسلم لدى عدوٍ شاكي السلاح قصد ارغامهم . فاما ان يوطئوه على شروط عادلة بعد ان

يلقي عنه الاسلحة او ينصبون عليه ويثنونه الى الوراء . وقد بعث الشعب الى فورليان والدته لتصده عن عزمه . وهاك بعض ما فاهت به امامه . بنيّ انتبرأ من الرومانيين الا تعلم ان لا يمكن لك ان تحصل على شيء يسير بالقوة الّا بالتوسلات فسمع فورليان العاتي هذا الكلام ولو سامه ذلك ابادة حياته واختار الفولسيون قادة غير قادتهم الان رجال الندوة استمروا معرقلين بمبادئهم واصبح الامر الذي اعلنوه بان لا يمنحوا شيئًا بالقوة اسًا لشريعة السياسة الرومانية التي لم يحتفوا عنها في ايام الجمهورية

واما النصائح الآيلة الى اتخاذ ما لا يسوغ ابرامه لم يعبئوا قط بها وكان الرومانيون لبني العرائك زمان الانتصار لا الانكسار طالما كان مجلس الندوة يحافظ على مبادىء الجمهورية القديمة ويثبت فيها ما بقي من الرعية فنشأ من هذا الروح نفسه مآرب اتخذها مجلس الندوة مرارًا وهي ان يظفروا بالاعداء بالقوة الجبرية دون استخدام المكر والخديعة حتى الخدائع التي يسوغ استعمالها احيانًا اثناء الحرب لانه لم يكن يقوم بذلك حبًا بالشرف الكاذب ولا تجاهلاً عن الشرائع الحربية لكنه لم يقض قضاء ماضيًا في سبيل مصادمة عدو جبار الا ان يسلب عنه المشورة التي يستطيع ان يحصل عليها بقوته حتى اذا ما خارت قوة العدو وفرّ من امام وجهه مدبرًا لا يرى له ملاذًا الّا في حمى الظافر فذاع حينئذٍ هذا الراي السديد والفكر الثاقب في الامصار الشاسعة والدانية فاعتقد الجميع اذا ان لا قوة تقاوي قوتهم فلذا كانت الاعداء تطرح السلاح جانبًا لدن افتكارها في هذه المبادىء ومن كان يحاز اليهم لم يكن يخشى غائلة وبيلة .

واما الان فانك شعرت بما طرأ على اوربا من الهاجس المظيم اذ برّح بها الملك بوك الباسل وغزاها واذعن العالم طرًا ان لا احد سواه خليقٌ بان يضع الافتتاحاته حدًا

فان تصرّف مجلس رومية الشديد بالاعداء خارجًا اعجب منه داخلاً فان اربابه النواب الحكماء كانوا مرارًا جمة ينقادون لاميال الشعب حتى انهم كانوا في ايام الشدة والبلايا يخصون نفوسهم بالواجبات اكثر من سواهم . بل انهم كانوا يعفون عامة الشعب من كل فريضة مستندين على ان الفقراء يودون للجمهورية خراجًا مع انهم يكدون في سبيل اعالة ابنائهم فابدى مجلس الندوة انه عالمٌ بما يتوقف عليه غنى المملكة الحقيقي . فاثرت هذه الشعائر الحسنة تاثيرًا عظيمًا في قلوب الشعب حتى انهم اصبحوا قادرين

على ان ينقذوا وطنهم من مخالب العدو ويطردوهُ ببسالتهم وقت الشدائد الاّ انهُ لما كان الشعب يقوم بما يعود عليه بالعذل كان المجلس ينذره عذابًا بسلطته كما يقتضي لكل جمعية توفرت فيها اسباب الحكمة . وذلك كنزاعٍ حدث بين شعب أردي وسكان مدينة فاستحق ذلك النزاع ذكرًا في التاريخ خالدًا وهاك ملخصهُ وهو ان هذين الشعبين تنازعا في بادىء الامر على اراضٍ ادعاها كل منهما . وبعد ان كلاًّ من الصدام اتفقا على ان يبسطا دعواهما لدى مجلس رومية الذي كان وقتئذٍ ناشرًا في تلك الاقطار لواء العدل الذي يشهد لهُ بهِ الشعوب الدانية فبعد ان خاض المجلس في البحث عن ذلك تيقن بالبرهان ان هذه الاراضي التي يدعيها الفريقان هي ملك الشعب الروماني شرعًا وعدلاً . وان يكن مجلس الندوة متيقنًا ان الشعب قضى لنفسهِ بالعدل فلم يستطع ان يحتمل ان الرومانيين يتظاهرون بتكذيب كرم اخلاقهم الطبيعية ولاان يخيبوا رجاء جيرانهم الذين فوضوهم بهذه الدعوى . فافرغت الجمعية جهدها بان تلغي هذا الحكم العادل الذي حكم بهِ الشعب بالارض لنفسهِ علمًا ان قد يحدث من ذلك شيءٌ يلمُّ بها وهو ان القضاة يضعون ايديهم على ارض وقع النزاع عليها فبعد صدور هذا الحكم حنق شعب اردي حنقًا عظيمًا لعلمهِ انهُ صاحب الحق وتقلّد السلاح قصد الانتقام . فلم يلبث المجلس الاّ ابان لهم جهرًا ما أثرت بهِ هذه الاهانة التي تأتت عليهم ومن المقرّر انهُ لا يتمكن من الغاء حكم الشعب . الاّ انه بعد هذه الاساءة اذا رأموا ان يثقوا بمجلس الندوة لاصلاح ما ساءهم فلهم الحق بهذا الادعاء فحينئذٍ يعتني المجلس بارضائهم كثيرًا حتى لا يبقى لهم محلٌ للشكوى . فوطد الارديون رجاءهم على هذا الكلام فحدث لهم امرٌ من شانهِ تدمير مدينتهم فتوافدت عليهم النجدات بامر المجلس فجذلوا بذلك كثيرًا وعلموا ان قد عوّض عليهم اكثر من الاراضي التي سلبها الشعب منهم . ولم يكن اذ ذاك منهم الاّ ان يثنوا على اخلاقهم الامناء بما لا يمكن المبالغة في اطرائهِ غير ان مجلس الندوة لم يتمالك الاّ ان ارجع اليهم الارض التي بها قضى الشعب الروماني لنفسهِ والغى ذكر ذلك الحكم الثوري

وليس من دابي تعداد الافعال الحسنة التي قام بها رجال الندوة فكم من الاعداء الذين انقذوهم من ايدي رعايا منافقين لم يتكلموا صدقًا ولم يبرُّوا في اقسامهم . وكم قضى بالرذل على اراء كانت قد فازت بالنجاح فيما مضى . وانما قصدي ان ارفع لديك

ان هذه الجمعية المكرمة لم تجن في مخيلة الشعب الروماني سوى امور عظيمة وابدت في كل الاحوال تصورًا ساميًا باراءها متيقنة ان صونها كان سندًا وعنادًا للمالك كافةً . ومن المعلوم ان قد كان للعقاب والثواب اعتبارٌ عظيم لدى شعبٍ مغذّى بلبن الحكمة . عدا ان الخدمة والرغبة في نجاح المملكة كانتا الوساطة الوحيدة للتقدم في المناصب وكذلك كان للافعال الحربية مجازاةٌ حسنة لا تسوم الشعب شيئًا ولكنَّ لاحدٌ لثمنها عند العامة لان مجد هذا الشعب الحربي متعلقٌ بها ولم يكن الجنود يعتبرون من السمات البهية الاّ علامات الفضيلة طالما عزّ لديهم تاجٌ ذهبيٌ او اكليلٌ من اوراق السنديان او الغار او بعض نباتاتٍ مرذولة ولا امتياز افضل لديهم من امتياز يتأتى عن افعال عظيمة

وان مجلس الندوة الذي كان استحسانه يقوم بمثابة المجازاة كان يعرف ان يونب او يمدح لدى الاقتضاء ولدن نجاز المعركة كان يثني القناصل والقادة على الجنود او يلومونهم اذا كانت اعمالهم سيئة وهم انفسهم كانوا يترصدون بفروغ صبرٍ حكم الندوة الذي كان يقضي بثبات الجنان والراي السديد غير مندهش بعظم الحوادث . وكانت الامادح ثمينة لصدورها عن معرفة حقيقية . وكان التونيب يوثر كثيرًا في ذوي النفوس الكريمة ويقسر الضعفاء على نتميم واجباتهم . وطالما خشي الجنود عقابًا يلحق بالافعال المنكرة بيدَ ان الجزاء والمجد المعدّين لهم كانا يرفعان عقولهم الى درجات سامية . ومن كان يستطيع ان يلقي في قلوب الشعب الجد والجلد في الاشغال وتعظيم الامة وحب الوطن كان يحقُّ لهُ الافتخار لابتداعهِ قوانين جديدة لانشاء رجال توفرت لهم اسباب العظمة . ولا ريب ان رجالاً هذه صفاتهم هم اركان المملكة وقوتها . ولقد ابدع باريء الطبيعة في جميع البلدان رجالاً ذوي عقولٍ ذكية وبطشٍ عظيم الاّ انّ على البشر الاستنجاد بالطبيعة لتثقيفهم . ومما يثقفهم ويهذبهم قوة العواصف وسموّ الهمم التي تمتد الى عقول بني الانسان كافةً وتنتقل سريعًا من الواحد الى الآخر . فما الذي يقرن شرفنا بالبسالة العظيمة في المواقع والجراءة في اقتحام الاهوال اليس ذلك الاعتقاد الذي اقتبسناهُ منذ الصغر . وتقرّر باتفاق الشعب ان الرجل الشريف يكون عديم الحس والشهامة ان لم يكن ذا بسالة . وقد تشرب جميع الرومانيين هذه المآثر الحميدة . ولقد طالما كان الشعب يسابق الشرفاء ليسلك بموجب هذه المبادىء

السلمية . وفي ابتداء اجيال رومية الحميدة كان الولدان يثقفون في الاشياء منذ الحداثة ولم يكن القوم يحدثونهم الا بعظمة الاسم الروماني فكانوا يتداعون الى الحرب لدن صدور اوامر الجمهورية . وثمة يشتغلون دائمًا معسكرين صيفًا وشتاء خاضعين لاوامر قادتهم حتى الموت او الظفر . واما الاباء الذين لم يهذّبوا ابناءهم بمقتضى هذه المبادىء لجهلهم جديرين بخدمة المملكة فكانوا يشخصون امام الولاة والحكام لينفوا عليهم كمجرمين بالنظر الى الشعب الروماني . وبناء على ذلك كان الانام العظام يصيرون غيرهم عظامًا ويكسبونهم فخرًا واخلاقًا شريفة . وليس من الصدفة ان رومية كانت تتفوق سواها بالجد والعظمة بل ان المملكة الرومانية المؤلفة على النوع الذي ذكرناه كانت ذات رجال صيرهم الامر الانف ابطالاً

فالمملكة المنتظمة على هذا المنوال تشعر بقوة ليس لها من نظير ولا تلبث ساعة دون سند ونرى الرومانيين لم تحبط قط آمالهم بحسن احوالهم لاوقت ان جعلهم الملك بورسينا يتضوّرون جوعًا لدن حصاره مدينتهم ولا حينما احرقها الغوليون وردموا جميع بلدانهم وضيقوا عليهم كثيرًا في الكابيتول معبد المشتهم ولا عندما ارهبهم خوفًا بيروس ملك ابيروت وشعث شملهم بافيالو ولا اذ قتل منهم انيبال الظافر في معركة قانا ما ينوف عن خمسين الف مقاتل فهم اشجع جنودهم وابطالهم

فحينئذ دخل القنصل ترنتوس ڤارو المدينة ظانًا انه نال راية الظفر مع انه شط شططًا مبينًا وخسر هذه الموقعة العظيمة وذلك بسبب انه لم ييأس من الظفر في وسط هذه الاهوال التي كانت تكتنفه . فشكره رجال الندوة جهارًا . ومنذ ذاك الحين ازمعوا حسب العوائد القديمة ان لا يصغوا وهم في حالة مائلة كهذه لمن يحدثهم بعقد الصلح مها كانت ادلته راهنة . اما العدو فاخذ منه العجب كل ماخذ وعادت قوة الشعب اليه وتيقن بالحصول على وسائل النجاة يدركها رجال الندوة العظام . ومن المقرران ثبات المجلس المعظم ما بين الآفات العظيمة التي طرأت على عناه لم ينشأ فقط عن القصد الاكيد بعدم الرضوخ لطوارق الحدثان بل عن معرفة وثيقة بقوى الرومانيين وقوى اعدائهم . وقد عرفت رومية بمجرد تعداد نفوسها الامر الذي عاودته من عصر الملك سرفيوس توليوس فلا ريب انها علمت بما عندها من الرعايا الخليقين بحمل السلاح وبما هي على امل من الشبان الذين يتدرجون الى اعالي المجد يومًا فيومًا

ولذلك وفرت قواها ضد عدو ياتيها من شواطىء افريقية لان صروف الدهر وحدها تبيده في بلاد اجنبية حيث تأخرت النجدات عن البلوغ اليه ونصرانه التي كانت تسومه دماء مهراقة امست مشومة لديه ولهذا مهما حدث من التهلكات لم يكن على المجلس سوى ان يتهيل لعلمه ما بقي له من الجنود الاشداء ولم يكن قط ذا سآمة . ولما راى قوات الجمهورية تناقصه بمقدار كهذا لانهزام الرومانيين في معركة قانا والعصيان الذي ولي ذلك حتى انهم كادوا لا يستطيعون دفاعًا لو ضيق عليهم العدو واستمر ثابتًا في امره ببسالة غير محتشم. هلاكًا وشرع براقب مسير الظافر . واذ تبين لدى المجلس ان انيبال بدلاً من ان ينجز فوزه عكف على الملاذ ارتاحت الى ذلك نفسه وعلم ان عدوًا لا تاخذه الدهشة من نصرانه ولا يجبن وقتًا يضافر على اتمامها ليس من امكانه ان يفوز بالرومانيين

ومنذ ذاك الحين اخذت رومية تتقدم يومًا فيومًا بافتتاحاتها العظيمة. واما انيبال فرغمًا عن كل باسه وبطشه لم يلبث امامهم زمانًا طويلاً لكنا نقول ان انيبال بعد ان فاز مرارًا جمة شمخ بانفه وحسب الاستيلاء على رومية امرًا سهلاً فحبطت بذلك آماله .

اما رومية فلم تفقد بسالتها اثناء هذه النوائب بل اقدمت على امور لم يسبق لها مثيل في العظمة . ولم تلبث بعد معركة قانا المائلة الا حاصرت مدينتي سيراكوزا وكابوا فالاولى لعدم استمساكها بوثاق العهود والثانية لعدم رضوخها . فلم تستطع سيراكوزا بحصنها دفاعًا ولا باختراعات المهندس اركيادوس الشهير وكرّت جيوش انيبال الظافر ليضافروا مدينة كابوا فكان ذلك عبثًا فان الرومانيين قسروا هذا القائد ان يرفع الحصار عن مدينة نولا وبعد ذلك بزمان وجيز هزم القرطجيون سيبون وجيه في اسبانيا وقتلوها وفي كل هذه الحروب لم يحدث شيء على الرومانيين يعود عليهم بالحطيطة فان خسايرهم حملتهم على ابداء كل ما عندهم من القوة ولهذا لم يكتف سيبون الصغير ابن احد القائدين المقتولين بقيام مهام رومية في اسبانيا بل ذهب لمحاربة القرطجيين في مدينتهم وطمسها تطميسًا

فان حالة هذه المدينة لم تمكن سيبون ان يجد فيها المدافعة التي وجدها في رومية . وتوقن ذلك لدن نظرك الى نظام هاتين المدينتين فان رومية كانت في شدة قواها . اما قرطجنة فلم يكن لها سند ونصير الا انيبال ومجلس رومية كان على غاية عظيمة

من الاتحاد لانها كانت في الحين الذي ينشدها فيه الروح القدس في سفر المكابيين. واما مجلس ندوة قرطجنة فكان بسبب تحزبات قديمة منقسمًا الى شطرين لا يمكن اتفاقهما وكان هلاك انيبال بردًا وسلامًا على قلوب الاعيان والعظماء فيها. بيد ان رومية كانت فقيرة جدًا تطلبُ على الحراثة التي هي علة لاغاثة جندية باسلة لم تكن تفتخر الا بالمجد والاسم الروماني مع ان قرطجنة كانت مثرية بتجارتها وكان اهلوها منهمكون في الثروة والمال غير متمرنين على فن الحرب. وبينما ان رومية كان جنودها الكثيرون من قاطنيها كانت قرطجنة لاتبع لما سياستها ان تجند الاجنبيين وكانت الخشية تقع منهم احيانًا على الذين اتخذوهم لمهنتهم اكثر منها من الذين تثير الحرب عليهم. فكانت هذه الورطة متأتية من تاسيس قرطجنة الاول ومن تواتر الايام فانها لم تتقاعد عن محبتها للمال والغنى حتى ان اريسطو كان يونبها كثيرًا على ذلك قائلاً ان هذا الامر ذريعة لان يفضل سكانها النقود على الفضيلة. وقد قال هذا الفيلسوف ان هذه الجمهورية التي توطدت لاثارة الحرب قد اهملت قواعدها وممارستها لكنما لا يلوح انه يونبها اذ ليس عندها الا جنود اجنبية لكنما يؤخذ من هذه القرائن انها لم تسقط في هذه الورطة الا بعد ذلك. الا ان كثرة الغنى تسوق بالطبع الحكومة الجمهورية الى ارتكاب مثل ذلك لان كلاً يودّ ان يتمتع بخيراته وانعامه متفكرًا انه يعثر على كلّ امرٍ بفيضان ماله وعلى هذا كانت قرطجنة تعدّ نفسها قوية لانها كانت مالكة عديدًا وافرًا من الجنود. ولم نتعلم من الاخبار ومن عتو جنودها المتكاثر في الازمنة الاخيرة ان لا شيء يتكفل بهلاك دولة نظير استنادها على اجنبيٍ ليذود عنها مع انه يكون عاريًا من كل غيرة ورضوخ وامنية

ولا ينكر ان سمو عقل انيبال الثاقب اصلح ما في سياسة دولته من الخلل. ومن الامور التي تبعث على العجب ان لم يحدث في جيش انيبال المؤلف بجموعٍ مختلفة لم يكن البعض منهم يسمع للبعض الآخر بل انهم كانوا متحدي الكلمة راضخين لاوامر قائدهم مدة ست عشرة سنة في بلادٍ اجنبية الا ان مهارته لم تكن بقادرة ان تعضد قرطجنة وقت ان هجم على اسوارها القائد سيبون الحاذق واصبحت حينئذٍ دون قوة فاقضى الامر باهلها ان يستغيثوا بانيبال الذي لم يخدم الا بجنودٍ اضنكتهم انتصاراتهم اكثر مما اضنكهم فوز الرومانيين. وزاد على ضعفهم ضعفًا طول السفر في البرّ والبحر

ولهذا انكسر انيبال وتقهقرت قرطجنة التي استولت انفًا على افريقية والبحر المتوسط وكل تجارة العالم فالتزمت اذ ذاك ان ترضخ للنير الذي القاهُ الظافر سيبون على عاتقها. فهاك ما جناه من ثمر المجد والفخر جلد الرومانيين وصبرهم. لان الشعوب الذين يبسلون ويتجلدون في اثناء النوائب لا ييأسون من انهم يتملصون من حبائل المشاق المبرحة بشرط ان لا يفقدوا املاً. وقد عرف بوليب المورخ ان قرطجنة سوف ترضخ لرومية واستنتج ذلك من نظام الجمهوريتين

فاذا كان الرومانيون لم يتخذوا كل هذه الوسائل السياسية والجندية الا لكي يرعوا دولتهم في بحبوحة الراحة ويصدوا المعتدين على الذين يواخونهم وجب علينا ان نطري بالثناء على عدلهم كما اطرينا على بسالتهم وحكمتهم. الا انهم لما ذاقوا حلواء الظفر ارادوا ان يجعلوا كل شيء راضخًا لشوكتهم. وجل مقاصدهم كانت ان يستولوا على مجاريهم ثم على العالم باسره. واملاً بنوال مرغوبهم كانوا يعرفون ان يراعوا المتحابين معهم ويطفئوا على الاتفاق بينهم ويلقوا الفتنة والحسد بين اعدائهم ويتداخلوا في افكارهم فيكتشفوا على نواياهم ليستدركوا اعمالهم ولم يكونوا يسهرون فقط على تصرف اعدائهم بل كذلك على نجاح مجاوريهم لانهم كانوا يرغبون جدًا في ان يشعبوا الدول القوية والمانعة فوزهم فيستقدمون الوسائل لمقاواتهن من جهة اخرى حفظًا للموازنة وبذلك اخطأ اليونان في عصر بوليب المورخ عندما كانوا ينمون توسيع رومية الى التقادير لا لحكمة منصودة وذلك لانهم كانوا يودون مجد امتهم. وكانت تدب فيهم الغيرة اذ كانوا يرون اناسًا يتعالون عليهم مجدًا ولما كانوا يرون عن بعد المملكة الرومانية تتقدم وتنمو كانوا يعزون الى الصدفة حسب عوائد بني الانسان مفاعيل لم يكونوا يعرفون عللها. ولم يكونوا قد دخلوا في الاحكام التي كانت تحرك هذا الملك العظيم اما بوليب المورخ فبسبب عشرته للرومانيين كان واقفًا على سياستهم المكنونة وبسبب ملاحظته سلوكهم في الحروب مع قرطجنة حكم بعدلٍ على الرومانيين اكثر من غيره من اليونان ونسب فتوحاتهم لا للتقادير بل لمقاصد متواصلة مبنية على الحكمة لانه كان يشاهد الرومانيين من البحر المتوسط يسرحون ابصارهم الى كل الانحاء حتى اسيا واسبانيا ويراقبون كل ما كان يجري ويتدرجون خطوةً خطوةً ويوطدون شوكتهم قبل ان يتقدموا ولا يحملون نفوسهم احمالاً كثيرة ويكتمون برهةً مقاصدهم ثم يعلنونها لدن الاقتضاء فترصدوا غلبة انيبال لينهروا فيلبس المكدوني

مصافهم . ومتى شرعوا في امر لايتوانون ولا يفرحون الا لدن اتمامه ولا يتركون للمكدونيين فرصة يكون لهم فيها فرج وبعد ان ظهروا عليهم اعادوا الى اليونان من ازمنة مديدة تحت اثقال العبودية الحرية التي لم يكونوا فيها بمفتكرين وبذلك بثوا في الامصار الشاسعة هيبتهم وحرمة اسمهم وهذا ما يبين صريحًا ان الرومانيين لم يسارعوا لفتح العالم بالتقادير بل بحكمة مقصودة

هذا ما شاهده بوليب في اثناء نجاح رومية . واما دنيس اليكارناس الذي كتب بعد تشييد الدولة الرومانية اي في عهد اوغسطس يستنتج هذه النتيجة عينها بعد ان تكلم بداءة عن ترتيب الجمهورية القديمة الذي هو قادر ان يربي بذاته شعبًا اهلاً للتسلط ولا تعمل به ايدي الغلبة . وذلك كافٍ ليجعلك تنفي راي هولاء المورخين وتدحض راي بلوتارك المتحرش لليونان النامي الى التقادير عظمة رومية . واما عظمة الاسكندر فنسبها الى قوة حكمته وفضيلته

ولكن طالما يبين هولاء المورخون مقاصد رومية المعتمد عليها الافتتاح يوضحون ظلمهم لان هذا النقص لايتعزز عن المطامع بالتسلط ولهذا رذله الانجيل المقدس اما الفلسفة وحدها تكفي لان توضح ان القوة نالها بنو الانسان ليحافظوا على مالهم لا ليختلسوا مال غيرهم . وقد اقرّ بذلك شيشرون والقوانين التي سنها لتتميم الحروب ترذل الرومانيين جهارًا . ولا ريب انهم اخذوا يعدلون في بداءة الحكم الجمهوري لانهم كانوا يتظاهرون انهم شديدو الرغبة في اضرام الحرب التي حصروها في حيز العدالة والانصاف ولا شيء اودّ من جمعية الفاسيوكس اي السفراء سواء كان عقدها نوما تطبيقًا لما يتوه دنيس اليكارناس او انكوس مارسيوس تطبيقًا لما يقوله تيف فيف فهذه الجمعية قد عقدت لتبرز احكامًا سواء كانت الحرب عادلة ام لا . وقبل ان كان مجلس الندوة يتهمك في تاجيج الحرب او ان الشعب يتهافت عليها كان الفحص العادل مصروفًا في اسبابها ولما كان القيام بشان ذلك يعدُّ عدلاً كان مجلس الندوة يسارع الى تتميمه . اما كان المحاربون يطلبون قبلُ شرعًا كل شيء من المختلس ولم يكونوا يستخدمون الوسائل الجبرية الا بعد ان يفرغوا كل انواع المساهلات

ولا ريب ان هذا النظام كان امرًا مقدسًا . ومما يشين المسيحيين و يرذلهم ان قد هبط من السماء الهٌ ليلقي بينهم سلامًا فلم يمكن له ان يثبت في قلوبهم محبة . فما الفائدة

اذًا من القوانين الحسنة اذا اصبحت بحصر القول صورةً كاذبة . فان لذة الفوز والتحكم افسدت في الرومانيين ما كان عندهم طبعًا من الانصاف والاستقامة لان مداولة جمعية الفاسيوكس لم تبقِ عندهم الا صورة زاهقة وان يكن الرومانيون يعاملون آونةً اعداءهم بالرفق والمودة فان الطمع لم يستمر مبيحًا للعدل ان يفوز في ارائهم والتآماتهم وفضلاً عن ذلك فان ظلمهم كان يبعث على الخطر المبين لانهم لم يكونوا يستطيعون ان يواروه تحت ستار العدل . وكانوا يرزحون تحت اثقال رقهم الملوك والامم بحجة انهم يدافعون عنهم مع انهم كانوا ذوي قسوة بربرية نحو الذين كانوا يقومون عليهم نكيرًا . وذلك من دأب الفاتحين الذين يعلمون ان الرعبة قائمة باكثر الفتوحات . افيسوغ التحكم بامرٍ كهذا سوء . أالذةٌ فارطة في الاستيلاء فيتعداه بنو الانسان باعمال كهذه بربرية

واملَ ان يلقي الرومانيون الهول في كل اينٍ كانوا يغادرون في المدن المفتتحة مشاهد مرعبة تدل على قسوتهم وكانت سمات الارهاق والتذلل تبدو عليهم نحو الذين كان ينظر اليهم بعين القلى والشحناء . ولم يكونوا يعفون عن الملوك بل كانوا يبتونهم بقساوة غريبة عدا انهم كانوا يكبلونهم بالسلاسل لدن الفوز بهم ويجرّونهم بالعجلات كالعبيد

غير انهم كانوا مع كل هذه القسوة الفاحشة التي كانوا يستخدمونها في سبيل الافتتاح كانوا يحكمون بعد الفتح الامم الراضخة لشوكتهم لانهم كانوا يبذلون غاية جهدهم ليذيقوا الشعوب المقموعين لذة احكامهم ظانين ان ذلك من احسن الوسائل التي تتكفل بفوزهم . فكان مجلس الندوة يقيد الولاة ويحكم بالعدل للامم لان هذه اللجنة كانت ملاذًا للمظلومين ولهذا لم يطرأ سلبٌ او نهبٌ في الدولة الرومانية الا في اواخر الحكم الجمهوري والى ذاك الان كانت شهامة الولاة وقناعتهم ممدوحتين في كل البسيطة

وبناء عليه فلا تعدّنّ الرومانيين من زمرة هولاء الفاتحين المطاميع الذين لا ترتاح نفوسهم الا الى النهب او لا يتوطد استيلاؤهم الا على دثار البلاد المفتوحة . فلا ريب انهم كانوا يحسنون احوال المدحورين و يزيدونهم ارتياحًا اكثر مما كانوا يسوّدون بينهم العدل والحراثة والتجارة والفنون والعلوم بعد ما كانوا يعلمونهم ذوق اللذة

وذلك مما اولاهم هذه المملكة التي تفوق كل ممالك العالم بزهائها ونظامها وعظم اتساعها فان حدودها كانت تمتد من نهر الفرات والتنايس الى عواميد هرقل وبحر الاتلانتيك وكانت كل الامصار والبحار راضخةً لشوكتها . يجول ملاحوها في لجج البحر

المتوسط فيجوبون كل ساحاته منتشرفين على كل المالك التي حوله طولاً وعرضاً محافظين عليه من طرفيه ليقرروا الاتصالات في مملكتهم . اما الان فياخذنا العجب عند رويتنا الشعب الذين هم ممالك عظيمة اي غاليا برمتها واسبانيا كلها وغالب بريطانيا الكبرى والبريا حتى شواطىء الدانوب وجرمانيا حتى نهر الالب وافريقيا حتى قفارها المرعبة التي لايدخلها احدٌ وبلاد اليونان وتراسيا وسوريا ومصر وكل ممالك اسيا الصغرى والممالك التي بين البحر الاسود وبحر كاسبيان والممالك التي اوعزت عليها ولم اشاء ان اذكرها لم تكن منذ اجيال متوالية الا مقاطعات من المملكة الرومانية التي كانت كل شعوب العالم حتى البربر تحترم شوكتها وقد بسطت في كل الانحاء سلطتها وشرائعها وتمدنها

ومن الغرايب ان في مملكة كهذه رحيبة مكتنفة امماً شتى وممالك عظيمة شعوباً عظيمة كانت راضخة لها لايدب فيها تمردٌ الا قليلاً لان سياستها كانت قد جعلت بوسائل عديدة ارفع لديك محصّلها بوجيز العبارة ان النحل الرومانية التي نشأت في كل ارجاء المملكة يكون لها مفعولان عظيمان اولها انهم كانوا لايثقلون على المدن التي كان فيها عديدٌ كبير من ذوي المعسرة . والثاني انهم كانوا يحافظون على المحال المهمة ويعودون الشعوب الغربية على اخلاق الرومانيين وعوائدهم فهذه النحل التي كانت ترحل ومعها كل الامتيازات الخاصة كانت تمكث متعلقة بالحكم الجمهوري مغعمة المملكة من السكان الرومانية

وعدا ذلك كان قسمٌ كبيرٌ من المدائن كانت تنيل سكانها حقوق سكان رومية متحدة بها بصوالحها ساهرةً على المدن المجاورة لتغريبها برعاية واجبانها

فحدث في اخر الايام ان كل رعايا المملكة اعتبروا نفوسهم انهم رومانيون وان الشرط المنوط بالظافرين التحق فيما بعدُ بالمقهورين ففتح لهم مجلس الندوة ابوابهُ وبنوا امالهم على ان يركبوا مستقبلاً تخت الملك وعلى هذا اصبحت الامم بسبب حلم الشعب الروماني شعباً واحدًا وامست رومية وطنًا للجميع

فكم من ملاينةٍ جرّت هذا الاتحاد العجيب الى كل الشعوب العائشين في ظل سلطة واحدة للتجارة وسفر البحر فان الشوكة الرومانية كانت قد اكتنفت كل شيء . وعدا بعض مقاطعات على التخوم كان المجاورون يثيرون فيها قبسة القلاقل وكان العالم

برمته في السكينة والامن . ولا مراء ان بلاد اليونان واسيا الصغرى وسوريا ومصر واكثر مقاطعات غيرها لم تلبث دون حرب الا على عهد الرومانيين ومن هنا يوخذ ان هذا الاتصال بين الامم كان آيلاً الى حفظ الرضوخ والاتفاق في كل جهات المملكة

واما الجنود الذين كانت بهم رعاية التخوم فكانوا يثبتونها داخلاً بينما كانوا يدافعون عنها خارجًا ولم يكن من عوائد الرومانيين ان يشيدوا قلاعاً في امصارهم ولان يحصنوا تخومهم ولم يقوموا بهذا الشروع الا على عهد ڤالانتينيانوس الاول لانهم كانوا آنفًا يحصرون قوة المملكة ورعايتها في الجنود الذين كانوا يبعثونهم الى ارجائها حيث يكونون قادرين ان ياخذوا بايادي بعضهم المعتبين . وبما ان النظام كان يلزمهم ان يستمروا دائمًا في المعسكر لم تكن المدائن تتأذى بحضورهم . ولم يكن القانون العسكري يبيح للعساكر ان يتجوّلوا في الحقول وعلى هذا لم تكن الجنود الرومانية تبلبل التجارة او الحراثة . بل انهم كانوا يقيمون في معسكرهم اسواقًا لاتختلف عن سواها بالاشغال . بل كان النظام مرعيًا بكل صرامةٍ والامر بكل شدة . وكان هولاء الجنود مستعدين للعمل عندما تدعوهم الى ذلك ادنى حركة . وهذا امرٌ كافٍ ان يجعل الشعوب راضخين لتتميم واجباتهم لدن شعورهم ان جنودهم موهبون دائمًا للقيام باعمالهم

ولم يكن شيءٌ يسيد الراحة والامن في المملكة اكثر من نظام العدل والمجالس الذي سنه الحكم الجمهوري وفسره الامبراطورون والفقهاء فكان الشعوب كلهم حتى البرابرة ينظرون اليه بعيون التعجب والدهشة . وبهذه الشرائع وحدها كان الرومانيون جديرين بان يستولوا على العالم . وفضلاً على ذلك فاذا كانت الشرائع الرومانية بدت مقدسة وان عظمتها لم تزل الى الان رغمًا عن دثار المملكة فلا يكون الا لأنَّ التعقل يستقرُّ في كل اينٍ وأن لا شريعة تنطبق على مبادىء العدل الطبيعي نظيرها غيرانهُ قسرًا عن عظمة الاسم الروماني وهذه السياسة المكنونة وكل النظام السامي الذي نشأ في هذه الجمهورية المشهورة كانت رومية تتضمن في جوفها علة دثارها وهي ديمومة حسد الشعب لمجلس الندوة او بالاحرى حسدهم للشرفاء . فروميلوس كان قد وضع لذلك امتيازًا اذ اقتضى ان يكون للملوك انام ممتازون يناطون بشخصهم الملوكي بروابط خاصة ليحكموا في الشعب بواسطتهم . ولهذا اصطفى الشعب الشيوخ والف منهم مجلس الندوة وكانوا يدعون شيوخًا نظرًا الى سنهم ومناصبهم ومنهم نشأت

عائلات الشرفاء . ومع هذا فمهما كانت السلطة التي ابقاها روميلوس للشعب فانهُ اخضعهم تحت ولاء الشرفاء بوسائل استخدمها في سبيل ذلك . وهذا الرضوخ اللازم للحكم الملوكي حفظوهُ في ايام الملوك وحكم الجمهورية فانهم استمروا متخيرين من الشرفاء اعضاء مجلس الندوة وكانت الوظائف والولاء والرتب حتى الكهنوت منوطةً بهم . غير ان الشيوخ الذين عتقوا رومية لم يضربوا صفحًا عن امتيازاتهم فدبت اذ ذاك عقارب الحسد ولا حاجة لذكر الكافاليه اي الخيالة الرومانية الذين كانوا مرتبةً ثالثة ياخذون آونةً بايدي احد المتشاحنين وآونةً بايدي الآخر الا ان السبب الحقيقي الذي كانت بهِ رومية منتعشةً هو حبُّ الحرية

لان مبدأ الجمهورية الاساسي كان قائمًا بان تعتبر الحرية انهُ غير منفصل عن الاسم الروماني وان الشعب الذي يكون قد الف هذا المبدأ او بالاحرى خلق ليستولي على الشعوب كلها (ودعاه فرجيليوس الشعب الملك) لا بدَّ ان يرضخ لشريعة لم يكن سنها هو نفسه . وكانت سلطة مجلس الندوة امرًا واجبًا يعدل سلطة غيرهِ من المجالس ولو ذلك لكانت المجالس كلها ضجاجة الا انهُ كان بالشعب يناط تقليد الولاة الرياسة وبهِ تسنُّ الشرائع وتحتدم الحروب ويبرم الصلح وكان لهُ حقوق الملك الاساسي ويتخذ اهانة الملوك ولهذا كان يرغب في ان يوعز اليهِ ولكن لا يشاء ان مجلس الندوة يفسره على امرٍ . وعليهِ فكلُّ ما كان يبدو بهيئة التعظم والامر او يرتفع عن غيره اوكل ما كان يشين اويمسّ روح المساواة السائد في دولة حرة يانف منهُ هذا الشعب الحر كل الانفة . ولهذا حب الحرية والمجد والفتوحات كان يقضي عليه بعدم الانقياد . والجراءة التي كانت تبعثهم على ان يباشروا كل الاعمال الخارجية كانت تسبب لهم انقسامات داخلية . وعلى هذا فان رومية الحريصة على حربها شاهدت الشقاق ثائرًا بين كل مراتب الامر . ولدن ذلك سرى الحسد الرائع بين الشعب ومجلس الندوة والشرفاء لان منهم من كان يزعم ان الحرية المفرطة تبيد نفسها ومنهم من كان يخشى ان السلطة التي من دابها ان تكون دائمًا ممتدة ستصير جورًا وعدوانًا فلم يرَ الشعب ما بين هذين الطرفين حدًّا اوسط . والصوالح الذاتية لم تبح لهم بان يستمروا في حدود الاراء العادلة . وان ذوي المطامع والهيجان كانوا يثيرون روح الحسد ليتعينوا زمانًا ينالون بهِ اغراضهم . وهذا الحسد الذي كان تارةً متواريًا

وطورًا باديًا حسب مقتضيات الاحوال لم يبرح حيًّا في القلوب حتى سبب الانقلاب العظيم الذي طرأ في ايام قيصر ومن خلفوهُ

الفصل السابع

ايضاحٌ للانقلابات التي حدثت في رومية

يسهل عليك ياسيدي جدًّا ان نقف على بواعثها اذا كنت تبذل جهدك بهِ شعورك بسجايا الرومانيين وتاليف جمهوريتهم بالاطلاع على بعض التي لها ارتباطٌ وثيق . وان كانت طرأت في ازمنة قديمة جدًّا فجمعها زيادةً للايضاح وهي : ان روميلوس الذي حنكته الحروب وهو المدعو بابن مارس (اله الحرب) شاد رومية التي اسكنها من اناس مولفين من رعاة وعبيد ولصوص توافدوا عليها يتخذونها ملاذًا لان بابها مفتوح للواردين واتى اليها اناس غيرهم لهم سمة بالفضل والنسب الخطير . فلدن ذلك اشعرت هذا الشعب الهيج روح الاقدام على كل شيءٍ بالقوة التسربية حتى انهم اتخذوا نساءهم بهذه الواسطة . وبعد ان مضى على ذلك مدة اسس الانتظام والان عرائكهم بشرائع مقدسة . فباشر ابتداء الدين الذي كان يعتبرهُ اسًّا للمالك وجعلهُ ذا وقار وحظر دخول المذاهب الاجنبية والذبائح التي لم يعاودها الرومانيون ثم خولفت هذه الشريعة التي كان صارفًا جل العناية في حفظها الا انهم ابقوا منها شيئًا وتخيروا من الشعب اعظمهُ ليولف مجلسًا عامًّا دعاهُ مجلس الندوة والفهُ من ثلثماية من الاعيان الذين زادوا فيما بعدُ عددًا . ومنهم خرجت العائلات الشريفة وما بقي كان سوقةً اوشعبًا وكان على مجلس الندوة ان يبحث عن الاشغال ويعرضها لدى الشعب . وكان يبتُّ بعضها مع الملوك الا ان اهمها كان يبرزه لدى الشعب فيصدّق عليه . وبينما كان روميلوس في محفل طرأت ثورةٌ على عجل فتسابق اليهِ الشعب وقطعوهُ اربًا اربًا لانهم وجدوهُ ناهيًا باوامرهِ . ومن ذاك بدأ الاستقلال في تلك العصابة وشاع النبأ وقتئذٍ ان الالهة اختطفت روميلوس الى السماء قصد ان تخمد نيران غضب الشعب الذي كان يحب ملكه وان يكون لذكرهِ في المدينة مقامًا ساميًا . فشاد الرومانيون لهُ مذابح . ثم ان نوما بومبيلوس اكمل تثقيف عوائدهم وسجاياهم وتنظيم الدين غير مغيرٍ شيئًا من

الاساس الذي اقامه روميلوس وذلك بعد ان خمدت نار الفتنة واستتبَّ السلام. وسنَّ توليوس هوستيليوس شرائع ثقيلة للنظامات العسكرية والحربية واضاف اليهِ خلفه انكيس مارتيس احتفالات مقدسة املاً بان تصير العسكرية مباركةً ومقدَّسةً واوصل بعده تركوين القديم عدد الاعيان في مجلس الندوة الى ثلثماية . وما ذاك الاَّ ليكون له بهِ خصيصة وبقوا على هذا العدد اجيالاً عديدة ثم باشر الاشغال الشاقة التي كانت آيلةً الى الراحة العامة

ونوى سرفيوس توليوس على تاسيس جمهورية يترأسها حاكمان يخيرها الشعب جازمًا ان رياستها لاتتجاوز اكثر من عام. ونُسخت الملوكية بغتةً بتاركيوس الجبار وقومهِ اللذين حاولوا ان يقيموها مرةً اخرى مقذوفين باللعنات الوخيمة وآلى الشعب على نفسه انه لابدَّ من ان يستمر على حريتهِ واشار الى ذكرهِ بروتوس المورخ وتبع بهذا التغيير كتابات سرفيوس توليوس . فكان القنصلان اللذان تخيرها الشعب ان يكونا من زمرة الشرفاء يساويان الملوك بالسلطة الاَّ انهما كانا يتداولانها مليًا ويغيَّران كل عام.

فاصطفي لهذا المنصب السنيع كلوتينوس وبروتوس لانهما كانا مشتركين في الحرية وان يكن الاول منهما قريبًا للكراس التي سبب موتها هذا التغيير وانه كان يتصدَّى اكثر من غيره للانتقام من الاهانة التي تأتَّت بها فلدن ذلك وقعت عليه الشبهة انه كان من العائلة الملوكية فطرد واقيم بمثابتهِ فاليريوس بعد اياءِ من غزوة انفذ بها وطنهُ من الثيانتين والاتروسيين الاانه اتهم بانه يرغب في الحكم الجوري لانهُ بدأ ان يشيد صرحًا شامخًا على قبة آكمة باذخة واذ ذاك لم يكتف بالعدل عن تتميم البناء بل انه بعد ان عاد والشعب ينظرهُ بعين الرضي والمودة سنَّ شريعةً ان الدعاوي لابد من رفعها لدن الانقضاء الى الشعب الذي يناط بهِ آونةَ الجزم بالحكم فضعفت هذه السنة بدأةً بدءِ سلطة القناصل واتسعت حقوق الشعب. وبسبب الاقتسارات التي كان الاغنياء يعتنون بها الفقراء لتحصيل الديون ثار الشعب على القناصل والمجلس ولاذ بجبل افنتين. وكان مدار هذه المجاهرات نوال الحرية الاَّ ان الشعب الروماني لم يعتبرانه حرٌّ طالما لم يكن لهُ وسائل شرعية يقاوم بها المجلس فالجأهم الامر ان يقيموا وكلاء مدعين يذودون عن حقوقهم فيساجلون القناصل بالمناواة او الاستئناف فاما هولاء القضاة فرغبةً في ان تكون لهم السلطة كانوا دائمًا يضرمون نيران الشقاق بين القناصل والشعب الذي

كانوا يصانعون القوم بقولهم لهم ان اراضي البلدان المقهوعة والثمن الذي أُذي عنها لابدَّ من تجزئتهِ بين السكان ولم يفتأ المجلس يقاوم هذه الآراء الايلة الى دثار المملكة لانه كان مزمعًا ان يضع ثمن الارض في الخزينة الوطنية . وكثيرًا ما كان الشعب ينقاد بمشورة وكلائهِ البائين روح الشقاق الاَّ انه كان ذا انصاف متعجبًا من فضل الرجال الذين كانوا يناقضونه. والعلة التي كانت تقوم بتخميد هذه الثورات حروب متواصلة خارج بلادهم فهذه الحروب كانت تمنع سير الشقاق الى حدٍّ يسيءِ العاقبة وفي اثناء ما كان الرومانيون فائزين بحروبهم وموسعين خطوات فتوحاتهم دب الحسد والضغينة فيهم وبعد ان سئم الحزبان من هذا الشقاق الذي كان يوعد المملكة بالخراب اتفقا على ان يسنا شرائع ايلة الى راحتها والى تابيد المساواة اللازمة في كل مدينة حرة وكان كل منهما يدَّعي ان هذه الشرائع منوطة بهِ فزاد اذ ذاك الحسد بهذا الادعاء وصمموا براي عام النية على ان يبعثوا سفراء الى اليونان للاطلاع على شرائعهم ولا سيما شرائع سولون المتعارفة لدى الشعب كثيرًا ووضعوا اذ ذاك شرائع الاثني عشر لوحًا الاان الدسمفيراي القضاة العشرة الذي نصوا هذه الشرائع نزعوا من وظائفهم لانهم تجاوزوا الحد باستعمالهم السلطة. وبينما كانت الراحة مستتبة وكانت القرائن تدل على ان تلك السنة العادلة توطد الى الابد الراحة العامة احتدمت نار الشقاق بسبب ادعاء الشعب بمنصب القنصلية المنوطة الى ذاك الحين بالعزوة الاولى فاباحت الشريعة للسوقة ان يتقلدوا مناصب كهذه الاان اعضاء مجلس الندوة اثروا على ان يقيموا ثلاثة حكام حديثين يعطون سلطة القناصل ويدعون تريبان على ان يقلدوهم شرف القنصلية . فقبل الشعب بهذه الرتبة الجديدة واذ اكتفي بنوال حقوقه استعمل فوزة بقناعة واستمر على ان يسلم الامرية الى الشرفاء وبعد منازعات طويلة ابولوا الى القنصلية واشترك الحزبان مع تواتر الايام بهذه المناصب وان يكن الشرفاء لم الامتيازات الكبرى بالانتخابات واستمرت الحروب متواصلة اياما مديدة. واما الرومانيون الظافرون القاطنون في سفح جبال الب ففازوا بعد تاجيج الحرب مدة خمسماية سنة باعدائهم الالداء وكل ايطاليا

ولدن ذلك ابتدأت الحروب القرطجنية وتعاظمت الاحوال حتى ان كلاً من الشعبين ظن ان لاوجود له الاَّ بهلاك خصمه واوشكت رومية ان تنقهر الا انها لم تجزع بل لبثت في ساحة العزم وحكمة مجلسها فتكلل اخيرًا صبر الرومانيين باكليل الفوز وتنكل

انيبال وقهر قرطجنة سيبيون الافريقي وانبسطت احكام رومية الظافرة مدة مايتي سنة برًّا وبحرًا ورضخ العالم كله لسطوتها . وفي تلك الايام اي منذ خراب قرطجنة اخذ المطامع من الناس يطلبون الوظائف التي زادت عددًا وقيمةً غير فاكرين الا بامالة الشعب مصانعيهم وبذلك تعكس الاتفاق الذي قد ابرم بين الفريقين مدة خراب قرطجنة فان الكراكيين كانوا علة ذلك الاضطراب ومطاليبهم باكورة كل الحروب الداخلية . ومنذ ذاك الوقت اخذ الناس يحملون سلاحًا ويستخدمون القوة الجبرية وكان كلٌّ يجهد في ان ينال فوزًا بخصمه بطريقة شرعية وحرية الاراء الان حكمة مجلس الندوة والحروب العظيمة التي طرأت اخمدت نيران الخصومة . فماريوس الباسل الذي كان من السوقة اثار الشعب بفصاحة جندية وهجيم بمخطبه التي كان يقاوي بها الشرفاء وبذلك ارتقى الى اسمى المراتب واماسولا الذي كان من الشرفاء فقد تراس على الحزب المنافض واصبح ماريوس برنو اليه بعين القلى والحسد . واخذت حينئذٍ المكايد والرشوة تستولي على رومية . وان حب الوطن واحترام الشرائع لم يعاد لهما امرٌ . وفضلاً على ذلك فان حروب اسيا علمت الرومانيين التبرج والطمع في الحصول على المال . ولدن ذلك اخذ قادة الجيوش يستميلون اليهم مودة الجنود الذين لم يكونوا من قبل ذلك يودون لهم تكرمة الا لكونهم مقلدين السلطة العامة

واما سيلا فقد غادر عساكرهُ يتجولون في الحرب التي شبت بينهُ وبين متريدات ملك البونت وما ذلك الا ليسترضيهم . واما ماريوس فقد كان يعد معاضديهِ انهُ يقسم بينهم الدراهم والارض فبذلك اصبحا كلاهما مالكين زمام جنودهما . فادعى الاول انهُ يريد ان ياخذ بيد مجلس الندوة والاخر ان يقوم بناصر الشعب فاضطرمت بينهما حرب هائلة داخل المدينة فحل في اعوان ماريوس واعوانه الويل والشنار واكتسب سيلا السلطة المطلقة ملقبًا باسم ديكتاتور . فقتل من الشعب عددًا عظيمًا وعاملهم قولاً وفعلاً معاملةً شديدة حتى في الاجتماعات الرسمية . ولما نال معظم السلطة وثبت اعظم ثباتًا استعزل وآب بارادتهِ الى درجة السوقة بعد ان ابان ان الشعب الروماني يمكن له ان يحتمل سيدًا

اما بومبيوس الذي كان سيلا قد اسمى مقامهُ فقد استخدم قسمًا عظيمًا من سلطته لكنه كان يداهن تارة الشعب وطورًا مجلس الندوة آمل ان يبقى ثابتًا في منصبهِ . انما

ميله وغرضه الذاتي ربطاهُ بالحزب الاخير . واذ ظهر على القرصان والاسبانيولين والمشرق باسره اصبح عظيم السلطة في الجمهورية ولاسيما في مجلس الندوة لكنها قيصر الذي اراد ان يكون له مساويًا انحاز الى الشعب . واذ كان يقتدي بتقليده الوظيفة القنصلية بمحامي الشعب العاصي عرض لدى المجلس شريعة تقسيم الاراضي وشرائع اخرى نفرَّ بها عيون السوقة . وافتتاح غاليا اسماه الى درجات شاهقة من السودد والسلطة فاجتمع هو وبومبيوس لمقاصد ذاتية ثم افترقا بحسدٍ دب بينهما

ولدن ذلك تأججت نيران الحروب الداخلية فظنَّ بومبيوس ان اسمه يمكن له وحده ان يذبَّ عن حزبه فتهوَّر الى وهدات الخمول . واما قيصر البصير بعسه التدبير فقد نال لواء النصر واستولى على الدولة الرومانية . ثم اخذ يختبر الامور ليرى هل يستطيع الرومانيون ان يعاودوا الحكم الملوكي فحداهُ هذا الاختبار الى ان يكون ممقوتًا لدى الامة . واخذ المجلس يمنحهُ انعامًا لم ينلها احدٌ من قبله . وما ذلك الا ليزيد بغضة الشعب له ولم يلبث ان اماتوه داخل المجلس متخذينهُ ملكًا جائرًا وقد كان لقيصر اذ ذاك من الاجل تسعة عشر عامًا فتحيَّن الوقت ليثأر اباه ويجلس على عرشه خليفةً له وما برح يكدُّ حتى اتخذ آل بيته اعداءَهُ ومنازعيه حبًّا بتتميم مقاصده الخاصة . فاصطفت جنود ابيه تحت لوائهِ رغبةً في الانعام والهبات التي منَّ بها عليهم . ولدن ذلك قصت السلطة عن مجلس الندوة فاخذ كلٌّ يستحصل حقهُ بالقوة وبالعسكر والجنود الذين كانوا يخدمون من يزيد في انعامهم فبهذه الحال السيئة بادت سلطة هولاء الرجال الثلاثة طالما كان في رومية اقوياء يقاومون العتوَّ والجور . ثم ظهر قيصر وانطونيوس على برتيوس وكاسيوس فبادت معهما الحرية فهذان الظافران اهلكا بيدبوس الواهن وابرما بينهما اتحادًا واجتزءا المملكة بينهما مرارًا . وبما ان قيصر كان متناهيًا في المهارة عثر على وسيلة تمكنه من الحصول على القسم الاوفر واحاز اليه رومية ففاق بذلك خصمهُ . اما انطونيوس فقد جهد في ان يعزز سلطانه لكنما ذلك كان عبثًا لان فوز قيصر باكسياك حرَّك كل المملكة لتكون تحت سلطانه . ولما اخذ العباء من رومية كل ماخذ بسبب كثرة الحروب المدنية التزمت ان تنبذ الحرية جانبًا املاً بالراحة

ولما نالت سراة القياصرة مامورية الجنود تحت اسم امبراطور قبضت على زمام

السلطة المطلقة . واما رومية فكانت في عهد القياصرة مجتهدة بان تحرس ذاتها غير مبالية بتوسيع تخومها . ولم تتم بغزوة الاّ لتدرأ عنها البرابرة الذين ارادوا الدخول الى المملكة

ولدن موت غاليلاّ اوشك مجلس الندوة ان يرجع الحرية والسلطة القنصلية لولم يصد رجال الحرب الذين ارادوا ان يكون عليهم رئيسًا مستمرًا يقلدونه عليهم السيادة . واذ عنابرون وعثا في الارض جائرًا ثار المرئوسون وتخير كلٌّ من المتحاربين وازعًا وعلمت رجال الحرب ان تقليد الولاة منوطًا بهم فباعوا السلطة جهارًا من يودي لهم عنها ثمنًا باهظًا وتعودوا ان يخلعوا عنهم رداء الطاعة فباد بذلك النظام معها واصبح جهد الملوك الفاضلون في رعايته عبثًا فان رغبتهم في ابقاء نظام الجندي الروماني القديم حملتهم على ان يحدق بهم الجنود بعيون الشحناء والقلى . ولدن تغيير الملوك كان كل جيش يجهد في ان يصطفي له ملكًا فيخيم حينئذٍ حروب مدنية ومذابح هائلة ولهذا ارتخت اعصاب المملكة ونظام الجنود . فبهذه الانقلابات قلت هيبة الجيش الروماني وعظمته فنهض البرت من ناحية المشرق باسم الفرس الذين تنكلوا في ما سلف مرارًا جمة ومن ناحية الشمال امم كثيرة كانت قاطنة اراضي باردة جدباء حملتها عظمة اراضي الدولة الرومانية على ان تكر عليها وعزم الجميع على الدخول اليها مرارًا . وعلى هذا لم يكن رجلٌ واحدٌ كافيًا لان يحمل على عاتقه مملكة كهذه شاسعة مهجومًا عليها من الجهات كلها . فالحروب المتواصلة ورغبة العساكر في ان يترأس عليهم قياصرة وملوك كانت بواعث تنكيلهم . وبما ان المملكة كانت احكامها ارثية تكاثرت الملوك طبعًا بتكاثر اولادهم . فماركوس اوريليوس شارك اخاه بالولاء ونصّب سفاريوس ابنه ملوكًا والجأت الضرورة ديوقليسيانوس ان يقسم الغرب والشرق بينه وبين مكسيميانوس . ولما راى كلٌّ منهما ان الاشغال اضنكته تخير له قيصرًا . وبسبب تكاثر عدد الملوك والقياصرة اصبحت الدولة مضنوكة بنفقات باهظة فاجتزأت اذ ذاك المملكة وكثرت الحروب المدنية ثم قسم قسطنطين بن كلوروس المملكة ميراثًا بين اولاده واقتفت ذريته آثاره من بعده ولم يبقَ بعد ذلك ملك ستاثر وحده بالولاء

ان رخاوة اونوريوس وفالانتينيانوس الثالث كانت باعثًا كبيرًا على ابادة مملكة الغرب فنهب البرابرة مرارًا جمة ايطاليا ورومية واصبحت المدائن فيها فريسة لهم . فوقع

الغرب حينئذٍ في وهدة الاهمال فاستولى الفندال على افريقية والوزيقوط على اسبانيا والفرنسيس على غاليا والساكسون على بريطانيا الكبرى والهارول على رومية برمتها ثم فتحها الوسترغوط فتوارى الملوك الرومانيون في الشرق وغادروا ايطاليا ورومية فريسة البرابرة . بيد ان المملكة الرومانية آبت الى ما كانت عليه من الباس والشدة في ايام يوستنيانوس بسبب شجاعة بالبزا ورنارسيس . فرومية بعد ما اخذت مراتٍ عديدة مكثت منوطة بالمملكة الرومانية . الاّ ان الشراقصة لما رأوا ما فيها من الشقاق وما في ملوكها من التواني ظفروا بها وسلبوها اعظم جزءٍ في الشرق واذاقوها في هذه الناحية عذابًا مبرّحًا حتى انهم لم يعودوا يفتكرون بايطاليا ولهذا استولى اللومبارديون على اهالها الاكثر بهاء ونضارةً في ايطاليا . فلما اصبحت رومية في ضيقة عظيمة لكثرة تعدياتهم المتواصلة ولم يدافع عنها ملوكها التجأت الى الافرنسيس طالبة الاستغاثة منهم فاجتاز بابان ملك فرنسا جبال الالب وقهر اللومبارديين وبعد ما درس كارلوس الكبير رسوم سلطتهم تبوأ عرش ايطاليا اذ قناعته ابقت بقايا يسيرة لخلفاء القياصرة . وفي السنة الثاني والمئة بعد المسيح انتخبه الرومانيون ملكًا واسس ثانية المملكة الرومانية . فاصبحت بعد هذا معرفة علل سمو رومية وسقوطها امرًا سهل الادراك فنرى هذه المملكة الناشئة لاحتدام الحروب والموهبة للاعتداء على جيرانها دوخت جميع اقطار العالم لانها اتصلت بالسياسة وفن الحرب الى اسمى درجة ثم انك ترى علل انشقاق الجمهورية ثم علل هبوطها التي جلها حسد اهالي الوطن ومحبة الحرية التي اخترقت الحدود . فلم يعد يشق عليك ان تميز جميع ازمنة رومية ان كنت تشاء ان تلاحظها بذاتها او بالنظر الى سائر الشعوب فترى حينئذٍ التقلبات التي هي مزمعة ان تصدر عن ادارة الاشغال في كل زمان . فاذا لاحظتها بالنظر الى ذاتها تراها اولاً في حالة ملوكية مرتبة حسب الشرائع الاولى خاضعة للحكم الجمهوري عنوةً فيسهل عليك معرفة نظام الحالة الجمهورية ثم معرفة البداءة التي كانت لها في زمان سلطة الملوك ولا ترى باقل وضوح كيف كان ركن السلطة الملوكية الجديدة يثبت في زمان الحرية لانه كما انك فهمت ان ابتداء المشيخة ومقاصدها نشأا في ملك سرفيوس توليوس الذي هو اول من اذاق الرومانيين طعم الحرية كذلك شعرت ان حكم سيلا الجوري وان يكن موقوتًا وقصيرًا يوضح ان رومية وان كانت شديدة الغنزوانة قادرة ان ترضخ تحت نير العبودية كالشعوب الذين استولت

عليهم

ورجاء ان تنهم الباعث على هذا الحد الفظيع عليك ان تنظر في الزمنين اللذين عينتها لك بنوع خاص. وذلك ان احدهما وقت ان كان الشعب مقيدًا في حدود بسبب المخاطر التي كانت تكتنفهُ من كل الانحاء والاخر اذ لم يكن يخشى من امر خارجي فارخى العنان لشهواته. فالميز الجوهري بين هذين الزمنين هو ان في الاول محبة الوطن والشرائع كانت تقيد الافكار وفي الثاني كل شيء كان يتم بالغرض النفسي والقوة الجبرية. فمن ذلك ينجم ان في الزمان الاول منهما رجال الامر الذين يتسلقون اعالي المناصب بوسائل شرعية كانوا يقيدون الجنود في رعاية النظام ويبقونهم متعلقين بالجمهورية واما في الزمان الاخير يوم كان الاغتصاب يسود على كل شيء فما كانوا يتنكرون الآ بمداراة الجنود لكي يشركوهم في مقاصدهم رغمًا عن سلطة مجلس الندوة . فبسبب هذه الحالة الاخيرة اتخذت نيران الحرب ضرورةً في رومية وبواسطة المهارة بشان ذلك اصبحت السلطة بيد رئيس واحد. انما متى تم الاشياء بالقوة تصبح الشرائع خاليةً من القوة. والجور وحده يتكفل بصنع كل امرٍ واصبح اشد الناس سائدًا عليهم وقصارى الامر ان السلطة اصبحت في يد رجلٍ واحد

وهكذا كانت الاشياء في رومية تترتب بذاتها حتى ان بوليب المورخ الذي عمر في زمان الجمهورية المتناهية في الزهو علم من مجرد نظره في الامور ان الدولة الرومانية لاتلبث برهة الآ تعود الى الحالة الملوكية وبسبب هذا الانقلاب لاتخمد جذوة الشقاق بين مناصب الجمهورية الآ بسلطة مطلقة ومن جهة اخرى ان الحرية كانت موموقة جدًّا في رومية حتى لم يستخدموا الاغتصاب والاكراه حبًّا بها فاقتضى الامر ان يوهنوها رويدًا رويدًا بحيلٍ متنوعة الى ان باتي زمن يبيدونها فيه بالقوة جهارًا فالخداع يبدأ حسب قول ارسطو بمداهنة الشعب ثم بالظلم والجور لكنما هبطوا في ورطة اخرى لابد منها بسبب رجال الحرب ولا محيص من هذا الشر الناجم من هذه الحالة

فلا ريب ان هذه المملكة التي شادها القياصرة كثر فيها السلاح ولهذا اقتضى ان تكون كلها حربية لتنظمت ولقبت بالامبراطورية وهي من الالقاب التي يتقلدها قادة الجيوش وامراء العساكر. وبهذا يتبين لديك انه كما كان الحسد يدب في الجمهورية بين الشعب والشرفاء كذلك كان في مملكة القياصرة داء يسري في اعضائها وهو قباحة

جنودها الذين كانوا بواعث على اجلاس كل قيصر على السدة الملوكية اذ كان من المستحيل ان رجال الحرب الذين غيروا الملك واقاموا بدلاً منه ملوكًا يستمرون زمنًا مديدًا غير فاكرين انهم هم القابضون على زمام الولاة ولذلك يتصرفون بهم كيف يرومون. ويمكن لك ان تلحق بالازمنة التي شعرت بها ما تدل على حالة الجندية وانقلابها وتبصر في الزمان الذي كانت فيه راضخةً لمجلس الندوة والشعب الروماني والى الزمان الذي تعلقت بقادتها والابن الذي فيه استدرجتهم الى مدارج السلطة المطلقة تحت القاب امبراطورين ثم الى الحين الذي فيه كان الملوك بايديها ترفع مكاناتهم وتحطها كما تشاء. فينجم من ذلك لديك الارتخاء والتمرد والحروب التي أنشئت عنها وابادة الجنود والدولة الرومانية باسرها . فهذه هي الازمنة الاخيرة الشهيرة التي تدلنا على تغير الدولة الرومانية بذاتها واما الازمنة التي تنبهنا عن حالتها بالنظر الى سائر الشعوب فلا يصعب علينا امتيازها انما يقضى علينا ان ننظر في الزمان الذي كانت فيه تجاهد نظيراتها وهي معرضة للاخطار. وقد استمر ذلك اكثر من خمسماية سنة وانتهى بدثار الغوليين في ايطاليا ودمار دولة قرطجنة . وفي الزمان الذي اضرمت فيه حروبًا هائلة فانها كانت وقتئذٍ اشد وغير معرضة للاخطار واستمر ذلك مايني سنة الى ان تشيدت دولة القياصرة . وفي الزمان الذي فيه كانت حريصةً على شوكتها وعظمتها. واستمر اربعماية سنة وانتهى في عهد ثيودوسيوس الكبير. ثم في الزمان الذي فيه دثرت من كل ناحية وهبطت رويدًا وهذه الحالة استمرت اربعماية سنة فكان ابتداؤها في عهد اولاد ثيودوسيوس الكبير وانتهاؤها في حكم كارلوس العظيم

ولست بجاهلٍ ياسيدي ان قد يمكن اضافة حوادث خاصة الى علل دثار رومية كجور الدائن على المدين فان بذلك ثوراتٍ عظيمة . وان كثرة السائقين والعبيد الذين افعموا رومية وايطاليا سبب هيجانًا عظيمًا وحروبًا دموية . فاذا اوهنت هذه الحروب الداخلية والخارجية قوى رومية شرعت تدخل الغرباء بين اهليها سواء كان بالاكراه او بطيبة الخاطر ومن كثرتهم تعسر عليها ان تعرف نفسها . وغص مجلس الندوة بالبرابرة ولهذا اختلط دم الرومانيين بمزيج بغيره . وان حب الوطن الذي بواسطته ارتفعت رومية فوق كل الشعوب لم يكن طبيعيًا باولئك الذين توافدوا اليها من الخارج ودب الفساد في اولادها بسبب هذا الاختلاط وكثرة المحبة بتكاثر الوطنيين الحديثين وعكف ذوي

الفتنة على وسائل ليباشروا اعمالاً تبلبل الافكار

وفي الوقت نفسه تعاظم عدد ذوي المسكنة والحاجة لكثرة البذخ والرذائل والكسل الذي نظموه في سلك العادات . واما الذين كانوا في اسواء حال لم يكونوا يجدون وسائل تمكنهم من امر معاشهم الا القيام بالثورات غير عابئين بخراب يأتي على الكون بعدهم وذلك ماحمل كتيسلينا على الاثارة قصد دثار رومية . فمن داب المطامع الصعاليك الذين لايخشون من فقدان شيء اثناء الرزايا ان يودوا الانقلاب واستظهر هذان النوعان من السكان في رومية واصبح اصحاب الحالة الوسطى الذين كانوا يعدلون الامور اضعف قسم فيها ولهذا اقتضى ان يسقط الحكم الجمهوري

ويمكن لنا ان نضيف على ذلك مهارةً خاصة في الاشخاص فانهم سببوا حوادث عظيمة وهم الكراك وماريوس وسيلا وبمبيوس وجوليوس قيصر وانطونيوس واغسطوس ولقد نوهت ببعضها انما كان جل اعتنائي ان ابين لك علل الشرور العامة اي الحسد بين المرتبتين وهو وحده كانت معرفته تهمك ونتائجه خطيرة لديك

الفصل الثامن

خلاصة الخطاب الآنف وبها يتضح ان كل شيء معاده الى فعل العناية الالهية

تذكر ياسيدي ان وثاق العلل الخاصة التي تقيم الممالك وتبيدها مناط بامر العناية الالهية السرية فان الله قابض من اسمى السماء على ازمّة الممالك وبيده قلوب البشر قاطبةً فاونةً يكبح الشهوات وطورًا يطلق لها الاعنة وبهذا يحرك كل الجنس البشري . ايود ان يقيم فاتحين . فانه يبعث بالخوف امامهم ويلقي في قلوبهم وقلوب جنودهم جراءة تنوّلهم ذلك . ايودُّ ان يقيم قضاةً . فانه يبعث اليهم بحكمة خارقة وبصيرة وقّادة ويجعلهم يستدركون الشرور التي تتوعد المملكة ويوطدون اركان الراحة العامة فانه يعلم ان الحكمة البشرية قاصرةٌ من وجهٍ فينيرها ويمد بافكارها ثم يغادرها وجهلها فيعميها ويطرحها ويرذلها بذاتها فتتلبك بتصوراتها الخاصة ويصح احترانها احبولةً لها ويتقدم بهيك الوسيلة احكامه الهائلة حسب قواعد عدله الصائبة وهو نفسهُ يعدُّ المعلولات

بالعلل البعيدة وهو سبب هذه الضربات العظيمة التي عن بعدٍ تبدو مفاعيلها ومتى شاء ان يضرب الضربة الاخيرة ويبيد الممالك تنهوش الآراء وتهن القوة . فان مصر التي كانت في آنف الزمان حكيمةً كانت تسير متشامخة خيلاء ومتجبرة بكل امورها فان الله اذاع روح الدُوار في ارائها فلم تدرك ما تصنع فهلكت . فلا تدخلنَّ الخديعة قلب بشريٍّ . فان الله يهدي من ضلَّ ومن يسخر بضلال غيره يهوي الى وهدة مدلهمة . وليس يلزم لخداع عقلهِ الا سعادته الفسيحة وبذلك يحكم الله على كل الشعوب فلا نفوهنَّ عن البخت والنصيب . بل اذا تكلمنا عنهما فليكن ذلك ذريعةً الى ستر جهلنا . وان ما نعدّه فعل الصدفة بالنظر الى آرائنا غير الوثيقة تعدهُ حكمة سامية وهي العناية الازلية التي تتضمن كل العلل والمعلولات بنظام واحد ورتبة واحدة . وعلى هذا فكل شيء آيلٌ الى غاية واحدة واننا لعدم فهمنا كل شيء نجد الصدفة او عدم الترتيب في الحوادث الخاصة

وبهذا يتحقق ما قاله الرسول وهو ان الله سعيد وهو وحده مستطيع كل شيء وهو ملك الملوك وربُّ الارباب . فطوبى له فان راحته غير قلقة ولن تقلق يرى كل شيء متغيرًا وهو ثابت يغير الاشياء بعناية لا تتغير وهو وحده يهب السلطة وينزعها وينقلها من رجلٍ الى آخر ومن بيتٍ الى بيت ومن شعبٍ الى شعبٍ وما ذلك الا ليبين انها لم تكن لمن تسلط الا على سبيل العارية وبه وحده تقوم الطبائع وبذلك يشعر الملوك انهم راضخون لسلطة اسمى من سلطتهم فانهم يصنفون الاشياء بزيادة تروٍ اوباقل فتتمكن ارلوهم من مفاعيل لم يستدركوها من قبل ولا يمكن لهم ان يتمكنوا من النظام الذي قامت به الاجيال الفارطة في الاعمال ولا يمكنهم ان يستدركوا مجرى الاحوال مستقبلاً ولا من قسر الامور لتتم حسب معرفتهم فهو وحده قابضٌ على كل شيء بيده و يعرف اسماء ما وجد وما لم يوجد وهو الحاكم وحده في كل الازمنة و يسبق فيعرف كل المآرب والآراء

فان اسكندر لم يخالج فكره ان كل اعماله ستاول الى جداء قادته وان افتتاحاته تسبب دثار بيته ولم يكن بروتوس يعلم ان كان يلقي في قلوب الشعب الروماني محبة الحرية الفائقة بانه يلقي في الافكار مبدا هذه الجراءة العظيمة الذي به يضحي الظلم الراغب الله في ان يبيده اشد مما كان في عهد التاركينيين. ولم يكن من داب القياصرة بمداهنة

جنودهم ان يصيروا مستولين على المملكة وخلفائهم وقصارى الامر ان ليست سلطة بشرية الا تخدم كرهًا لمقاصد غير مقاصدها والله وحده يصنع مايشاء ولهذا اذا تعهدنا الاشياء الخاصة يتبين لنا ان كل شيء عجيب. ومع ذلك فان الامور تتواتر بتسلسل ويبين لك ذلك خطابنا هذا. ويكفيك غير مكررين ما فهنا به عن غير مالك ان تنظر في تسلسل الحوادث التي طرأت في الدولة الرومانية وحدها من عهد روميلوس الى عهد كارلوس الكبير. ولربما تخال اني اودّ اطالة الكلام عن شعب فرنسا وكارلوس الكبير الذي شاد المملكة الرومانية الجديدة. فنفضلاً على ان تاريخ كارلوس الكبير قسمٌ من تاريخ فرنسا الذي باشرت تاليفه انت نفسك وقد تقدمت فيه كثيرًا فاني ابقي ذلك الى تاريخ آخر اقوم بتاليفه اذ به اكون مقسورًا على ان اتكلم عن فرنسا وعن هذا المظفر الذي ضارع بيسالتو كل الذين اشتهروا في الاجيال الدابره بل قد فاقهم بتقاه وحكمته وعدلهِ ويظهر لك ذلك علل فاتعين آخرين وان هذه المملكة التي نشات قبل كارلوس بمايتي سنة ترى لها في خطابي محلاً ابسط فيه كلامًا عنها وقد ظننت ان من الخليق ان ابدي لك بتسلسل واحد ابتداءهُ وانحطاطه. وعليه فلم يبقَ شيءٌ اتكلم عنه في القسم الاول من التاريخ العام فوقفت الان على اسراره واصبحت ملاحظات تسلسل الديانه والممالك العظيم حتى كارلوس العظيم منوطة بعهدتك فانك تراها منحطةً بذاتها والديانة قائمة بقوتها الخاصة وتعلم حينئذٍ ما هي العظمة الثابتة وعلى ايّ اسٍ بنى الرجل الحكيم آماله

تمّ



اصلاح غلط

ان تغيب مترجم هذا الكتاب ومعربه وسائر اعضاء الدائرة العلمية عن بيروت وقت طباعته لعطلة مدرسة الحكمة اوقع اغلاطًا كثيرة فيه اوجبت عمل فهرستها هذا والحاقه بهذه الترجمة

وجه	سطر	خطا	صواب
٠١١	١٩	تسالية	ترحالة
...	٢٣	كادموس	قدموس
٠١٤	١٣	انشاه	النشاة
٠١٨	٠١	ايام	ايا
...	٠٧	احاب	اخاب
٠١٩	١٩	لسيديون	لسيديون اي سبرتا
٠٢٠	٢٣	هرقل	هرقولوس وهو ابن المشترى
٠٢١	٠٥	لانهم كانوا يزدادون بها قوة وتهذيبًا	وكانت بلاد اليونان تزداد قوة وتهذيبًا
...	١١	يوناس	يونان
٠٢٣	١٦	سيراكيز في جزيرة سيسيليا	سيراكوزا في جزيرة صقلية
...	١٨	يونان	اليونان
٠٢٧	٠٦	فاقام قورش ابن اخنه مندان قائدًا على جيشه ابن كمبيس ملك الفرس	فاقام قائدًا على جيشه قورش ابن اخته مندان امراة كمبيس ملك الفرس
٠٢٩	٠٢	اعقلها	اعقلهم
٠٣٠	٢١	بل	بابل
٠٣٤	١٦	يهرذا	يهوذا
...	٣٦	حافظها	حافظوا

وجه	سطر	خطا	صواب
٠٤٥	١٣	امانوها	امانوها
٠٤٧	١٧	سليكوس . . . السلوسيد يين	سلوقوس . . . السلوقيين
٠٦٢	٠٩	فرصت	فرصة
٠٦٣	١٣	خوض ٨٦ المعامع	خوض المعامع سنة ٨٦
٠٦٣	٠٣	العدد	العدو
٠٠٠	١٣	كاتيلا	كاتلينا
٠٦٩	٣٠	لولا ان اغتباق الخمرة	لان اغتباق الخمرة وصبابته لم
		وصبابتة جملاه	يجملاه
٠٧٣	١٨	فكاشحه لداسيوس الذي	فكاشحه داشيوس واهرق دمه
		اهرق دمه	
٠٠٠	٣٠	يدراعنها الملك داس	اما الملك داشيوس الذي كان يقيم
		الذوائب الدامسة	بناصر المملكة
٠٠٠	٢٢	فلم يلهها عن الايقاع بالبيعة	فكانت مدة ملكها يسيرة
		سوى موالاتهم للملك	
٠٧٤	٠٤	سبالبوس	سابليوس
٠٠٠	٣٣	زنوبا	زينب
٠٧٥	٠٣	السموذاتي	السميساطي
٠٠٠	٣٣	القديم	القديمة
٠٨٣	٣٣	ارغم ان يكون حاجدًا	ارغم ان يلاين الاراطنة
٠٨٥	٠٦	٣٨٠٦	٣٨٦
٠٠٠	٠٧	لاتينانوس	والتتنيانوس
٠٠٠	١١	لنسها	لنفسها
٠٨٦	٠٧	العيب	الغضب والحدة
٠٠٠	١٤	الفولفات	الفولفات اي السائرة او العامة
٠٩١	٠٩	البوان توكسان	البون اوكسين اي البحر الاسود

وجه	سطر	خطا	صواب
٠٠٠	١٣	الانيوخيين	الاوطاخيين
٠٩٢	٠٧	القدس	القديس
٠٠٠	١٥	يقال حوستينوس	يقال له يوستينوس
٠٩٨	١٣	الى مصب الفولغا	حيث مصب نهر الفولغا
١٠١	١٠	النايباب	النايبات
١٠٢	٠٧	مارلوس	مرتال
٠٠٠	١٣	كبروتيم	كبروتيم اي الزبلى
١٠٣	٠٨	مارتاس	مرتال
١١١	١٤	وانه المحرك الاول الذي	والمحرك الاول اللذين كان يعرفها
		كان يعرفه	
٠٠٠	٢٢	الاننا	الان
١١٧	٢٣	الثعباب	الثعبان
١٣١	٠٣	لغنهم السجاف الاولى	لغنهم الاولى السجاف
١٤١	١٢	موسى (الثانية)	سليمن
٠٠٠	٢٥	الصندل	الارز
١٤٥	٠٢	الشعبوب	الشعوب
١٤٩	٠٢	سلنه	وسلنه
٠٠٠	١٣	اليهم	اليه
١٥٠	٠٩	لضغب	لغضب
١٥١	٠٥	اسكلون	عسقلون
١٥٩	٠٢	ومغرغًا	ومفرغًا
١٦٣	١٨	اللاغيد يون...والسلاسيد يون	اللاغيون...والسلوقيين
١٦٦	٢٦	يونا	يكونا
١٦٧	٣٠	واليونانية	اليونانية
١٦٩	٢٥	يعني وجودها	يعسر وجودها

وجه	سطر	خطا	صواب
١٧١	٣٦	لدن تناصل على الكهنوت التي . . . وتراذو بل	اذ تناصل على الكهنوت الذي . . . هيركان وار يستو بل
١٧٤	٠٣	غريض	ابرآه
. . .	٣٦	لا وزن لماله وينطق به بوزن	لا مقياس لما هو حاصل عليه ويبثه بمقياس
١٧٦	١٠	والى	الوالي
١٧٩	١٧	غير متناو	غير متساو
١٨١	١٠	بعضه	بغضه
١٨٤	١٥	لا	الا
١٨٩	٣٠	الدين	للدين
١٩٣	١٤	بطرس	بولس
. . .	١٧	الشعياء	اشعياء
١٩٥	٣٠	الرسل خلفائهم	الرسل وخلفائهم
١٩٩	١٧	تزوجوا (الثانية)	تزوجن
٢٠١	١٣	تيخوس	طيطوس وكذا بعد
٢٠٥	١٣	التي ترضع	التي لا ترضع
٢٠٨	٠٨	الماجيسياني	الساحر
٢٢٥	٠٧	كلمة المالكين	كلمة الصليب عند الهالكين
. . .	٠٩	العلاء	العقلاء
٢٢٧	١٥	لباخوس	لتيخوس وكذا بعد
٢٣٣	٣٦	ان	انه
٢٣٦	٠٨	سالس	شلسوس
. . .	١٨	اته الانبياء	اتاه الانباء
. . .	٢١	وان رغبت	ومن يرغب
٢٣٧	٠٨	مولا	من

وجه	سطر	خطا	صواب
. . .	٢٥	موضوع	موضع
٢٣٨	٢١	فقط من	فقط بل من
٢٤٠	٠٣	بها	به
٢٤١	٠٧	المارسيونيت	تباع مرشيون او مرقيون وكذا في محل اخر
. . .	٠٩	السموذاتي	السميساطي
. . .	١٤	السباليون والبوليانيست	السابيليون والبولسيون
٢٤٣	٠٣	الاوقاف	الاوقات
٢٤٤	٠٩	السبيل يهمل	كتب السبيلات تباد
. . .	٣٣	لان	وعن
٢٤٥	١٥	الانبياء	الاباء
٢٤٥	٣٣	السحرة	السمرة
٢٤٦	٣٤	مارسيوس ومانس	ماركيون وماني
٢٤٩	١١	صورة المفيد	صورة المذبح المشيد
. .	١٣	في الشريعة حبا رب اسرائيل به	في الشريعة التي حبا الرب اسرائيل بها
٢٥٠	٣٠	انها داخلة ضمن الاسفار هكذا امعتبرين ان يقتضي ان لا يكونوا قد تصفحوها اذ لا يسهل عليهم ان يأتوا بما يضاهيها بان يضمنوها امورا لا يود الملحدون ان يروها فيها ولو محوا كل ما يطلبونه	انها تتمم جرم الاسفار ولا يلزم الا تصفح هذه الاسفار حتى يسهل لا التكذيب بها بل ايجاد كل ما يكره الملحدون وجوده فيها واذا سلمنا بكل ما يقولون فيستمر بلا مناص اصل هذه الاسفار الميا
٢٥٥	٠١	وهل . . . كتاب كان	فهل . . . كتاب أيًا كان

وجه	سطر	خطا	صواب
٢٥٦	٠٣	يعبرها	يعبره
٢٥٨	٠٦	قبل	بعد
٢٦٠	١٥	الكامل	الكاهن
...	١٧	مينا	ميخا
٢٦١	٠١	بوشيا الا	بوشيا ان هو الاَّ
٢٦١	٠٣	الحرب	الرب
٢٦٣	١٢	الا بان يعرضه على شهادة الحواس	من ان يجعله عرضة لشهادة الحواس
٢٦٤	٠٣	انذر بالسماء... الاجتهاد	وعد بالسماء... الاضطهاد
٢٦٥	٠٨	فكيف يخدمه ويكرمه ـ	فكيف يانف ان يعلمه طريقة خدمته وعبادته
٢٦٦	٤	عليه	عليها
...	١٣	لها	له
...	٢٤	يانيه	بنيه
٢٦٩	٠٦	لانجدى	يجدى
٢٧٠	٠٧	روبام	روباو
٢٧٣	١٥	اهالبهم	اهوائهم
٢٧٣	١٧	اهملت	واهملت
...	٢٤	ان ذاك هو الذي استدرك	ان الغالب هو من استدرك
٢٧٤	٠١	هي مربحة في النهاية	هي ما جعله رابحًا في النهاية
...	٠٨	باخوس وهرقل	بكخوس وهرقلس ابن المشترى
٢٧٥	٠٣	زمان	زمام
...	١٦	الرعبة	الرغبة
٢٨٤	٠٨	ان يتروّى	ان موسى يتروى
٢٨٥	٠٦	رهم	لهم

وجه	سطر	خطا	صواب
٢٨٦	٢٦	لانه البلاد قمع	لانه قمع البلاد
٢٨٧	١٣	واعلنت بكتبات	واعلن بكتابات
...	١٧	اعدت لالاعمال	اعدت لاعمال
٢٩٠	٠٦	احرزت في المطامع المنوطه بها غالبًا بجنسها ما لا يوجد	احرزت المطامع المنوطه غالبًا بجنسها مع الشجاعة التي لاتوجد
٢٩٣	١٧	اللذين	اللذين
٢٩٣	٠١	التعالي	التعامي
...	٠٣	المحذرات	المخدرات
٢٩٥	٢٤	ترتيبهم	تربيتهم
٢٩٦	٢٠	يرتكبون	يرتبكون
٢٩٧	٢٥	الجسدبد	الجسدية
٣٠٠	٠٧	الحرية	الخربية
...	٢٣	شعرت... خسرانها	شعروا... خسرانهم
٣٠١	٠٣	اسرار الساسية	اسرار سياستهم
٣٠٣	٠٦	اللاسير يونيون	اللاسيد يونيون اي السبرتيون
...	١٣	تستمر متمتعت	يستمروا متمتعين
٣٠٧	١١	تبتليف	تيطوس ليفيوس
٣٠٨	٠٤	بمجد	بمجد
٣١٠	٠٣	الحركال	الحركات
٣١١	٠٩	بنيا	بينا
...	١٨	في الخبر العام	في الخبر العام اكثر منه
٣١٣	٠٣	معلومًا	محفوظًا
...	٣٠	الذين فازوا بالنصر فان رومية لم تيأس ولم تكن مجزاعًا من ان تاخذ بثارها	الذين انتصر الرومانيون عليهم لكنهم كانوا يأملون الاخذ بثارهم اذ كان

وجه	سطر	خطا	صواب
٣١٤	٠٤	مدينة	مدينة اربسي
٣١٥	٢١	عواصف	عواطف
٣١٨	٠٥	منهمكون	منهمكين
...	٢١	مجوع	مجموع
٣٣٠	٠٩	تيفيف	تيطوس ليفيوس
٣٣٤	٠٩	انه غير منفصل	انها غير منفصلة
٣٣٥	٠٦	بعض التي	بعض الحوادث التي
٣٣٦	١٩	ينظرة	ينظره
٣٣٧	٠١	اذى	ادّى
٣٣٩	١٢	وقد كان لقيصر اذ	وقد كان لقيصر ابنة اذ ذاك
...	١٤	ذاك حتى اتخذ آل بيتهٔ اعداه ومنازعيه حبا بتنهيم	حتى اتخذ اعدآء بيته ومنازعيه مساعدين على تنهيم
٣٤١	٠١	الفندال... والوازيقوط	البندالة والوازيقوط اي الغطط الغربيين وبعدها الاسطرغوث اي الغطط الشرقيون
...	١٣	الثاني والماية	الثمانماية
٣٤٣	٠٣	البااعث	الباعث
٣٤٣	٠٧	تحظها	تحطها
٣٤٤	٠٥	كتسلينا	كاتالينا



